قصّة التقريب

أُمة واحدة، ثقافة واحدة

محطّات من أفكار وآراء

المصلح الكبير الشيخ محمّد تقى القمى

إعداد وتقديم وملاحق

سيد هادى الخسروشاهى

هوية الكتاب

- اسم الكتاب: **قصّة التقريب: أُمة واحدة، ثقافة واحدة**
- **إعداد وتقديم وملاحق:** سيد هادى الخسروشاهى
- **تقويم النص:** شوقى شالباف
- **تنضيد الحروف:** عصام البدرى
- **الإخراج الفنى:** رمضان على القربانى
- **تصميم الغلاف:**
- **الناشر:** المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية ـ المعاونية الثقافية، مركز التحقيقات والدراسات العلمية
- **الطبعة:** الأولى ـ ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧م
- **الكمية:** ٢٠٠٠ نسخة
- **السعر:**
- **المطبعة:** نگار
- **العنوان:** الجمهورية الإسلامية فى ايران ـ طهران ـ ص ب: ٦٩٩٥ – ١٥٨٧٥
  تلفكس: ١٤ ـ ٨٨٣٢١٤١١ ـ ٢١ ـ ٠٠٩٨

جميع الحقوق محفوظة للناشر

عكس

العلاّمة الشيخ محمد تقى القمى

مقدّمة المركز

من الممكن أن تشهد رجالاً برعوا فى مجال الفكر والكتابة فصاروا مفكّرين وكتّاباً لامعين فى بلدانهم ، وآخرين مهروا فى حقول العلم فأضحوا علماء بارزين تتلقّف أخبارهم صحف ومجلاّت دولهم ، كما أنّ من الممكن أيضاً أن تجد فحولاً لمعوا فى ميدان الفقه والشريعة فأصبحوا فقهاء ومتشرّعة ، فحظوا بتقدير واحترام أبناء طائفتهم ... وهكذا على صعيد السياسة والفلسفة والاجتماع والاقتصاد وغيرها من العلوم والمعارف الإنسانية والتطبيقية .

لكن أن تجد من يشدّ رحاله إلى بلاد بعيدة ، فيبرع فى مضمار الفكر والثقافة والكتابة حتّى صار نجماً متلألئاً فى تلك البلاد ، وكتب بلسان غير لسانه ، وخاض فى ميدان التعامل مع علماء وفحول فى الفقه وأصول الشريعة من غير مذهبه وطائفته ، فنال حظوةً من احترامهم وتقديرهم ، فهذا ممّا لاينبغى صرف النظر عنه ، بل حرىّ بنا الوقوف عليه والتأمّل فيه!

فقد يظنّ البعض أنّ من المبالغة القول بأنّ هذا لايحمل من الواقع شيئاً ، أو أنّه يعدّ ضرباً من الخيال!

كلاّ ، ليس من المبالغة فى شىء إذا قلنا : إنّ ثمة رجالاً قد اجتازوا نظرية «التقوقع» القومى أو الطائفى ، وبلغوا الحدود أقصاها ، فانطلقوا ببراعة فى عالم الإسلام ، حيث الفكر السامى والثقافة الهادفة فكانوا من المبرّزين فيهما ، فارتقوا محلاًّ رفيعاً فى ميدان العلوم المقارنة ، فكان أن جسّدوا الخلق المحمدى الرفيع ، والثقافة التقريبية الراشدة .

ولم يكتفوا بذلك ، بل حملوا بضاعتهم معهم ، وصاروا يجولون الأرض

الوسيعة ، وينادون المسلمين على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم ومذاهبهم الفقهية والعقائدية ، بحماسة بالغة ، من أجل المساهمة فى كلّ مامن شأنه أن يلمّ شمل الأُمّة ، ويصون وحدتها ، ويحمى كرامتها وشرفها العظيمين . فقطعوا بذلك أشواطاً طويلة فى مضمار «التقريب» وحقّقوا انجازات كبيرة على هذا الصعيد ، أثاروا الإعجاب والدهشة المفرطة معاً !

أمّا الإعجاب فلكونهم قاموا مالم يستطع غيرهم القيام به ، وتمكّنوا ما عجز سواهم عن تحقيقه ، فأضحوا قدوةً يحتذى بها العاملون . وأمّا الدهشة فلأنّهم حقّقوا ذلک بزمن قياسى ، وفى ظلّ ظروف سيّئة، وإمكانيات رديئة، ودعم أقلّ ما يوصف بالسلبى!!

فالمصلح إذا ما أراد أن يقوم بمثل هذا المشاريع «الوطنية» فى نطاق بلده الصغير ، فإنّه بلا شک يتطلّب منه جهداً مضاعفاً ، ودعماً مالياً هائلاً ، ويصحبه وفد عريض من الخبراء فى مجالات مختلفة ... كلّ ذلک من أجل تحقيق صيغة «مصالحة» مشترکة ، تشتمل على عدّة نقاط تؤخذ كأساس لمراحل أخرى يأتى دورها فيما بعد .

هذا فى مشروع «مصالحة» وطنية فى نطاق ضيّق إن صحّ التعبير ، فما بالک لو كان مشروع المصالحة طائفى ، وبين طرفين : الشيعة والسنّة اللذين يشكّلان معاً الأغلبية الساحقة من مجموع المسلمين فى العالم الذى يناهز المليار نسمة ؟

فلا مناص من الإعجاب بانجازات هؤلاء الثلّة المصلحة التى لم تكن تدعمهم جهة حاكمة ، ولايقف وراءهم طرف قوى يمكن أن يشكّل سنداً وملجأً لهم ، بل ولّوا وجوهم فرادى شطر أطراف الأرض ، إلى حيث جموع المسلمين على اختلاف ألوانهم وأطيافهم ، لا لشىء إلاّ لنشر المحبّة والوداد بينهم ، وإحكام وشائج الأُلفة الممدودة خلالهم ، وتكريس عوامل الاحترام المتبادل بين أبنائهم ونُخبهم المثقّفة .

ومن هؤلاء الثلّة ، بل ومن أبرزها : الإمام الشيخ محمد تقى القمى الذى

جازف بحياته ، وقدّم كلّ ما يملكه فى سبيل تحقيق هذا الهدف المتمثّل بإيصال الدعوة المحمدية المباركة إلى جميع أقطار المسلمين ، وتبليغ الخُلق العلوى الراشد فيهم ، بأن يسلكوا سلوک نبيّهم المصطفى الأمين (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الهادين المهديّين ، وأصحابه الأبرار المنتجبين ، الذين جسّدوا الخُلق القرآنى ، والمُثُل الرسالية ، فلم يفرّقوا جماعة المسلمين ووحدتهم وتكاتفهم لمصلحة شخصية طارئة! ولم يميلوا عن كفّة «الإخاء» و«الأخوة» التى وضعها النبى الأكرم (صلى الله عليه وآله) وثبّت أساسها فيهم ، فلم ينحازوا إلى عشائرهم إذا ما رأوهم قد جاروا ، ولم ينصروهم إذا ما وجدوهم قد مالوا .

لقد آمن هذا الرجل إيماناً راسخاً بضرورة التمسّک بالوحدة الإسلاميّة ونبذ العصبية الطائفية من أجل تحقيق أهداف الإسلام العليا ، والانتصار على أعدائه الذين تكالبوا عليه من جميع الجهات ، وتكاتفوا فى سبيل تضعيفه وانتزاع شوكته وإلى الأبد !

وأثبت ببليغ العبارة والعمل أنّ تحقيق الوحدة بين المذاهب الإسلاميّة ، وتهيئة «المناخ» التقريبى المناسب لها لا يعدّ ضرباً من الخيال أو التوهّم ، لأنّ الاختلاف بينها ليس فى مجال الأصول شيئاً ، فربّهم واحد ، ونبيّهم واحد ، وكتابهم واحد ; وقبلتهم واحدة ، وحجّهم واحد ... وهكذا صلاتهم وصيامهم وزكاتهم واحدة أيضاً ، وليس الاختلاف إلاّ فى بعض الفروع الثانوية ، وهو ما لا يمكن أن يشكّل عاملاً «مريعاً» للتفرقة والعداوة ، ولا مبرّراً شرعياً لتفعيل العصبية والشحناء التى نهى عنها جميعاً القرآن الكريم ، وسنّة النبى الأكرم (صلى الله عليه وآله) وتعاليم أهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) ، ووصايا علماء المسلمين الأبرار .

وكان (رحمه الله) على قناعة تامّة بأنّ اختلاف الإخوة لا يمكن أن يطّرد إذا كان هنالک نخبة مخلصة يُلمس فيها إدراک العالم الحصيف ، ونبوغ المجتهد الواعى الذى لايخشى فى الله لومة لائم ، ولا يبتغى إلاّ الكلمة الحرّة والحقيقة

الكاملة .

وهذا إذا ماتمّ بصورة صحيحة فإنّه يمكن أن يؤثّر بشكل فعّال فى الجماهير الإسلاميّة العريضة ; نظراً لمكانة العلماء والنُخبة المؤمنة عند عوام المسلمين ، وطاعتهم لهم ، ممّا يزيد من تفعيل حركة الشارع الإسلامى فى الساحة الدولية باتجاه تصعيد الوجود الإسلامى وحمايته من كلّ تعرّض يقوم به أعداؤه الحاقدون .

إنّ الإخلاص والأصالة والخُلق الكريم الذى تحلّى بها جميعاً شيخ المصلحين الإمام القمى (رحمه الله) هى التى دعت علماء المذاهب الفقهية ، وأساتذة الجامعات ، والوجوه الاجتماعية والسياسية المصرية ـ إبّان توافده على مصر ـ إلى احترامه ، وإبداء الإعجاب به ، والإطراء عليه فى صورة أقرب ما تكون إلى المبالغة .

وحسبک الألقاب التى كانت تطلقه عليه الصحف والمجلاّت المصرية ، والعناوين التى كانت تحملها المنشورات التى صدرت ضمن لقاءاته الصحفية ، وكيل المدح والثناء الذى كان يكيله له أصحاب القلم والمثقفون من العرب المسلمين وغيرهم ، فى خطبهم وكلماتهم من على المنابر .

إنّ من يقرأ مقالات هذا المصلح الكبير ، وكلماته التى ألقاها ونشرتها الصحف آنذاک ، يقف على سلامة ذهنه ، ومتانة أُسلوبه ، وقوة طرحه الذى لا يزيد المخاطب إلاّ اقتناعاً .

ولعلّ أروع ما يستوقف النظر فى شخصية هذا الرجل ـ بالإضافة إلى شجاعته وحماسه البالغين ـ شيئان :

الأوّل : أدب الاعتراض الذى تحلّى به ، والذى كان يقوم على الحوار والنقاش العلميَّين ، بعيداً كلّ البُعد عن الحساسيات المفرطة ، والعواطف الشخصية أو الطائفية الجيّاشة . فلم يتوسّل إلى الوسائل الأخرى التى تحمل طابع الردّ بالمثل ، أو الخشونة ، أو اعتماد القوة كأسلوب للتعامل مع معارضيه

ومخالفيه ، رغم تمتّعه بعلاقات وثيقة مع جهات حكومية أو أطراف دبلوماسية غربية .

والثانى : التزامه بالمصلحة الإسلاميّة العُليا . ففرض على نفسه سلوكاً من شأنها تعزيز مكانة الدين الإسلامى فى نفوس الناس ولو كانت على حساب مصلحته الشخصية .

لقد جسّد هذا الرجل بسلوكه وسيرته الأبعاد الحقيقية للتعاليم الإسلاميّة ، والمُثل القرآنية ، والأخلاق المحمدية الكريمة . وهو بذلک سعى إلى تثبيت الخُطوات الأُولى للحركة التقريبية ، وتأسيس الوحدة بين أطياف المسلمين التى كان (رحمه الله) من أبرز وأشدّ دعاتها. وبذلک فإنّ الحشد الهائل من المواقف التى سجّلها فى التاريخ ، ومجموع السيرة التى حفظها عنه الناس ، يعدّان امتداداً لأخلاق وسلوک أهل بيت النبوة عليهم السلام والصحابة الأبرار منهم والمنتجبين .

ومن هنا فقد اكتسبت مواقفه بُعداً ربّانياً سامياً فى هذه الأُمّة ، الأمر الذى جعل الأنظار تتوجّه إليه ، والاهتمامات ترتكز نحوه .

فلا عجب إذاً أن نرى هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، وهو يتعرّض إلى جانب من الجوانب المشرقة التى تشتمل عليها هذه الشخصية الفذّة ، وهو الجانب التقريبى : فكراً وثقافةً ودعوة . وهو من إعداد وتأليف حجّة الإسلام والمسلمين سيد هادى الخسروشاهى[١] الذى أراد من عمله هذا شيئين فيما يبدو :

الأوّل : نشر الثقافة التاريخية من خلال التعريف بأبرز علمائنا ودعاتنا

---

١ . وقد قام السيد الأستاذ بإعداد هذا الكتاب فى القاهرة، فى سنة ١٤٢٤هـ ، حين كان يقيم فى مصر كرئيس للبعثة الدبلوماسية للجمهورية الإسلامية الإيرانية فى القاهرة. كما قام بإعداد ونشر كتب أخرى، منها: الآثار الكاملة للسيد جمال الدين الحسينى الأفغانى، وتقع فى ٩ أجزاء، طُبعت فى ستة مجلّدات، فى ٣٥٠٠ صفحة، وقد قامت بنشرها فى القاهرة مكتبة الشروق الدولية. ومنها: كتاب «أهل البيت فى مصر» والذى نُشر مرّتين فى القاهرة، ونُشر للمرّة الثالثة عن المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية، عبر مركز العلمى بقم، وهى طبعة محقّقة ومزيدة ومنقّحة. وهذا إن دلّ على شىء فإنّما يدلّ على أنّ الاشتغال بالأمور السياسية لايمنع الناشطين والعاملين فى سبيل الإسلام، عن قيامهم بالعمل الثقافى الجادّ والهادف...

ومصلحينا المعاصرين لغرض الاقتداء بهم ، واعتبارهم أُسوة حسنة للأمة ، خاصةً وهى تمّر فى ظروف أقرب ما تكون متردّية .

الثانى : تجذير الوعى التقريبى بين أبنائنا وشبابنا الذين تغمرهم الحماسة وهو يتوقون انتصار الإسلام على جحافل المعتدين ، من الاستعمار والصهيونية العالمية .

وهذا ما دعا مركز التحقيقات والدراسات العلمية التابع للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة إلى تقديم ما يلزم من المساعدة من أجل طبع ونشر هذا الطرح الشيّق والهادف بأجمل حلّة ، وإخراجه بهذه الصورة القشيبة ، ليصطفّ كغيره ضمن المشاريع والنشاطات العلمية والثقافية التى يقوم بها هذا المركز من أجل تعزيز الوحدة بين المذاهب الإسلاميّة ، وتكريس المودّة والمحبّة والاحترام بين نُخب المسلمين ، ونشر ثقافة التقريب بين الأوساط الثقافية ، والمحافل الفكرية ، لتوحيد صفوفها ورصّها أمام الهجمات الثقافية والحضارية التى تتعرّض لها أمتنا الكبيرة .

وفى الوقت الذى نثمّن مساعى السيد المؤلّف ونقدّر جهوده الحثيثة التى بذلها من أجل إخراج هذا الطرح الجامع، نشكر الإخوة الذين لم يبخلوا بما عندهم من تقديم المساعدة والتعاون مع المؤلّف وقسم التاريخ وتراجم الرجال التابع للمركز ، وخاصة الأستاذ على الخزعلى حيث بذل جهداً مشكوراً فى صياغة المقدمة. فجزاهم الله خير الجزاء ، ووفّقهم لأعمال وأُطروحات أخرى إن شاء الله تعالى .

أحمد المبلّغى

مسؤول مركز التحقيقات والدراسات العلمية

التابع للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة

المقدّمهٔ

حول التقريب و : المؤسّس

سيد هادى الخسروشاهى

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبى القاسم محمد وعلى آله الطيّبين الطاهرين وصحبه المنتجبين .

وبعد ، لا شكّ أنّ الاختلاف من الأُمور التى تقتضيها طبائع الناس ; لاختلاف أفهامهم ومصالحهم الشخصية ، وقد قرّر القرآن الكريم هذه الحقيقة فى عدّة آيات :

منها : قوله تعالى : (كانَ النّاسُ أُمَّةً واحدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبيِّينَ مُبَشِّرينَ وَ مُنْذرينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكتابَ بالْحَقِّ ليَحْكُمَ بَيْنَ النّاس فيمَا اخْتَلَفُوا فيه وَ مَا اخْتَلَفَ فيه إلاَّ الَّذينَ أُوتُوهُ منْ بَعْد ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)[1] .

ومنها : قوله تعالى : (وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمَّةً واحدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلفينَ إلاّ مَنْ رَحمَ رَبُّكَ وَ لذلكَ خَلَقَهُمْ)[2] .

وغيرها من الآيات الشريفة الواردة فى هذا المضمون ، وقد خضع المسلمون لهذه السنّة ، فاختلفوا فيما بينهم اختلافاً بيّناً ، فتولّدت فرقاً ومذاهب شتّى .

وربّما أدّى ذلک الاختلاف فى كثير من الأحايين وعلى مرّ التاريخ إلى النزاع والشقاق ، بل وسفک الدماء أيضاً على الرغم من أنّ الإسلام يدعو إلى التوحّد والتآخى ، ورصّ الصفوف وذمّ التفرّق والتشرذم .

قال تعالى : (إنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون)[3] .

وقال : (وَاعْتَصمُوا بحَبْل اللّه جَميعاً وَلا تَفَرَّقُوا)[1] .

---

١ . البقرة : ٢١٣ .
٢ . هود : ١١٨ ، ١١٩ .
٣ . الأنبياء : ٩٢ .

وقال : (وَأَطِيعُوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ)[٢] .

وقال الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) : «مَثَل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمّى»[٣] .

وورد عنه (صلى الله عليه وآله) : «يا أيها الناس ، عليكم بالجماعة ، وإيّاكم والتفرقة»[٤] .

ولا شكّ أنّ الاختلافات المذهبية والعقائدية بين المسلمين هى من أهمّ الأسباب التى أدّت إلى تفرّقهم .

والسؤال المهمّ الذى يطرح هو : كيف يمكن علاج هذه المشكلة ؟

فهل نسعى فى حلّها إلى إزالة الاختلافات المذهبية عن طريق إيجاد مذهب واحد ؟

والجواب : أنّ محاولة كهذه هى أقرب إلى المستحيل منها إلى الإمكان ، ولا نظنّ أنّ أحداً سيحاول مثل هذه المحاولة غير المعقولة ، وهنا يقتضى البحث عن طريق آخر يمكن أن يساهم فى إيجاد حلٍّ عادل ترتضيه جميع الأطراف ، ولانجد طريقاً أفضل من سلك سبيل «التقريب» الذى نراه الحلّ الأمثل لهذه المشكلة التى أرقت الجميع .

ولابدّ لنا أن نشير إلى معنى «التقريب» فى البداية ، والمقصود من هذا المصطلح ، لنكون على بيّنة منه ، فإنّ كثيراً من المشاريع المهمّة التى تأسّست فى هذا السياق لم يحالفها النجاح ، ولم تحقّق أهدافها المرجوّة ،لسبب بسيط وهو عدم استيعابها للمعنى ولا فهمها لمقاصده .

معنى التقريب

---

١ . آل عمران : ١٠٣ .

٢ . الأنفال : ۴۶ .

٣ . بحار الأنوار ۶۱ : ١۵٠ ; صحيح مسلم ۴ : ١٩٩٩ ب ١٧ ; تراحم المؤمنين وتعاطفهم ، من كتاب البرّ والصلة ح ٢۵٨۶ .

۴ . كنز العمّال ١ : ٢٠۶ ح ١٠٢٨ وعزاه إلى أحمد عن رجل .

جاء في كتب اللغة : قَرُب الشيء يَقرُبُ قُرْباً وقرباناً ، أى دنا ، فهو قريب ، وتقرّب إليه تقرُّباً وتقرّاباً ، واقترب وقاربه إذا لم يبتعد عنه ، فالقُرْب نقيض البُعد ، والتقاربّ ضدّ التباعد .

والتقارب لا يختصّ بالمكان، ففى حديث المهدى (عليه السلام) : «يتقارب الزمان حتّى تكون السنة كالشهر» أراد : يطيب الزمان حتّى كأنّه لا يُستطال ، لأنّ أيام السرور والعافية قصيرة . وفى الحديث القدسى : «من تقرّب إليَّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً» المراد بقرب العبد من الله سبحانه القُرب بالذكر والعمل الصالح ، لا قرب الذات ولا المكان ، لأنّ ذلك من صفات الأجسام الفانية ، والله يتعالى عن ذلك ويتقدّس كما هو ثابت فى محلّه .

وقال الأصمعى : إذا رفع الفرس يديه معاً حال الجرى ، ووضعهما معاً ، فذلك التقريب . وقال ابن زيد : إذا رجم الأرض بيديه معاً رجماً فهو التقريب .

وهو ـ كما ترى ـ كلٌّ حسن ، يشير إلى البركة والنضارة والوحدة والاجتماع ، والدنوّ وعدم النأى والابتعاد .

وأمّا معناه اصطلاحاً ، فإنّ التقريب بين المذاهب الإسلاميّة هو محاولة جادّة لتعزيز الروابط بين أتباع هذه المذاهب ، من خلال تفهّم الاختلافات الواردة بينها ، ونزع آثارها السلبية ، وليس إزالة أصل الاختلاف من البين .

فالذى يدعو إلى التقريب لايريد أن يزيل المذاهب ويصيّرها مذهباً واحداً ، فلا يريد أن يجعل السنّى شيعياً ، ولا الشيعى سنّياً ، بل يريد أن يحوّل ذلك الشىء الذى صار داءً للأمة ـ وهو الاختلاف ـ إلى صيغة علاج باهرة ، ويقلبه إلى صورة دواء ناجع للحالات المستعصية .

فبدلاً من أن تكون هذه الاختلافات بين المسلمين سبباً لضعفهم وتمزّقهم ، يمكن أن تكون سبباً لوحدتهم وتطوّرهم ، وإثراء معارفهم وعلومهم وأفكارهم دوماً بقيم وأُطروحات مواكبة ووقتنا الحاضر .

ففكرة «التقريب» يمكن أن تعدّ ثورةً ونهضةً للمسلمين ضد الواقع السيّء

الذى يحيط بهم، فيحوّل الاختلافات المعقّدة ـ فضلاً عن البسيطة ـ إلى حالة ايجابية تنعش فكر المسلمين ، وتبعث على ازدهار ثقافتهم ، وتوسّع من أُفقهم ، وتعمل على تجسيد حقيقة كون الشريعة الإسلامية هى الشريعة السمحاء كما عبّر عنها الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) .

فإذن نستطيع من خلال التقريب أن نستوعب خلافاتنا ، ونجعل منها رصيداً هامّاً يموّل حركة النمو والتطوّر والنهوض ، بدلاً من أن تكون عاملاً من عوامل إضعاف الأمة ، وقيداً يحبس طاقاتها وخيراتها .

آلية التقريب

ولايمكن للتقريب أن يحقّق هدفه بمجرّد دعوة المسلمين لرفع الخلاف بينهم ، بل يحتاج إلى آلية عمل خاصة ، من خلالها يستقيم العمل ، وتستمرّ الانطلاقة .

ويمكن أن تكون تلك الآلية متمثّلة بعدّة خطوات :

(ألف) إحياء التعاليم الإسلاميّة المشتركة بين المذاهب ، وذلك لأنّ المسلمين مهما اختلفوا فيما بينهم فإنّه تبقى هناك قواسم مشتركة كثيرة على مستوى أُصول الدين ، وعلى مستوى المسائل الفقهية والأخلاقية ، بل يمكن أن ندّعى أنّ ممّا يتّفق عليه المسلمون أكثر ممّا يختلفون فيه .

(ب) نشر فكرة التقريب وإشاعتها بين طبقات الأُمة بكلّ وسيلة ممكنة ، خصوصاً ونحن نعيش عصراً أصبح العالم فيه كالقرية الواحدة .

(ج) السعى إلى إزالة التهم والظنون بين أتباع المذاهب ، وذلك عند طريق تهيئة الأرضية لأن يفهم كلّ مذهب ما عند المذاهب الأُخرى من عقائد ومعارف بلا تحريف ولا تشويه ، ويمكن أن يحصل ذلك بتيسير إيصال المصادر الأساسية لكلّ مذهب إلى أتباع المذهب الآخر ، فإنّ من أسباب الضغائن التى تحصل بين أتباع المذاهب تنشأ من عدم معرفة أحدهم للآخر إلاّ بصورة محرّفة

ومشوّهة ، لاتمثّل حقيقة المذهب ، لا من قريب ولا من بعيد .

(د) محاولة منع غير المختصّين بالعلوم الإسلاميّة من الدخول فى المناظرات المذهبية ، وخاصةً تلك التى تُعرض فى وسائل الإعلام المصوَّرة والمكتوبة ، لأجل أن لاتتسبّب فى زيادة شدّة الاختلاف ، لأنّ الاختلاف وإن كان متحقّقاً بين المذاهب ــ وهو أمر لا مفرّ منه ــ ولكن قد يحدث أن يصوّره غير المختصّين بغير حجمه الواقعى ، فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى تقليص الاختلافات إلى أقلّ ما يمكن .

(هـ) التكثيف من عقد المؤتمرات والندوات بين العلماء والمختصّين من كلّ المذاهب الإسلاميّة ، ففيها الفرص مؤاتية للجلوس مع بعضهم البعض ، والحوار وجهاً لوجه ، فيمكنهم أن يضعوا مقرّرات وثوابت من شأنها التأليف بين المسلمين ، وتقوية أواصر الأخوّة الإسلاميّة .

(و) التسليم بحقوق المسلم بغضّ النظر عن مذهبه ، والتى من أهمّها عصمة دمه وماله وعرضه .

(ز) الانشغال بالهموم الكبرى للأُمة ، لأنّها تواجه أخطاراً سياسية وثقافية وعسكرية كبيرة ، توجب على المسلم أن يهتمّ بها ، وأن يتركوا النزاعات فيما بينهم جانباً ، وفقاً لمنطق الأُخوّة التى دعا إليها الإسلام الحنيف .

ويتّضح ممّا سبق أنّ معنى التقريب بين المذاهب الإسلاميّة هو السعى بطرق وآليات مختلفة لإزالة الآثار السلبية المترتّبة على الاختلافات بين المذاهب وعلى مستويات مختلفة ، وتهيئة الأرضية المناسبة للتعايش السلمى والأخوى بين أفراد المذاهب المختلفة تحت ظلّ الإسلام الذى يتحقّق بالإقرار بالتوحيد والعدل الإلهى ، وبنبوّة محمد (صلى الله عليه وآله) وتصديق رسالته .

أهمّيهٔ التقريب

لا شكّ أنّ أهمية أىّ عمل تتجلّى فى الغاية المترتّبة على ذلك العمل ، فاذا

اتّضح لنا ممّا سبق فى بيان معنى التقريب : أنّ الغاية المترتّبة عليه هى تحقيق الوحدة بين المسلمين ، والتى تعدُّ أمراً أساسياً فى الإسلام ـ وقد ذكرنا بعض النصوص الشريفة التى تدلّ على ضرورة التوحّد وذمّ التفرّق والتنازع ـ يضاف إلى ذلک : أنّ المسلمين لو أرادوا أن ينهضوا ويتخلّصوا من حالة الضعف والتردّى فلا سبيل لهم إلاّ التوحّد ونبذ الفرقة والتناحر ، فلا مناص من القول : إن الغاية المترتّبة على التقريب بين مذاهب المسلمين هى غاية شريفة بلا ريب ، بل هى مفروضة بحكم العقل والشرع، وعليه تتّضح أهمية التقريب وضرورته ، وأنّه ينبغى على المسلمين أن يتعاملوا معه بجدّية وبمسؤولية كبيرة تتناسب مع عظم الغاية المترتّبة عليه وشرفها .

وتبرز اليوم الحاجة إلى التقريب أكثر من أىّ وقت آخر ، وذلک لأنّ الإسلام اليوم يعيش معركةً حضاريةً ومصيريةً خطرة ، تستدعى تهيئة كلّ أسباب القوة والانتصار .

قال تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ)[1] .

ومن هنا ، فعلى الأُمة الإسلاميّة أن تعى أهمية التقريب ودوافعه ; لتنعم بمعطياته ، وتجنى ثماره ، كما وينبغى أن لا يعتبروا التقريب محاولات عقيمة وغير مجدية ، بل هو أمر فى غاية الأهمية ، وسيعطى ثماره إن شاء الله تعالى عندما تلتفت الأُمة إلى أهمّيته ودوره ، وتزول عنه الضبابية الذى قد تعتريه من هذا الجانب أو ذاک ، فيوجب عدم التفاعل معه أو تفعيله .

تاريخ التقريب

عندما التحق الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) إلى الرفيق الأعلى والدولة الإسلاميّة فى طور نشوئها ، برزت طائفة من المشكلات التى واجهت

---

١ . الأنفال : ٦٠ .

المسلمين ، استدعت المتصدّين إلى اتّخاذ المواقف تجاهها ، فكان أن ظهرت الخلافات بين المسلمين فى ظلّ غياب النبى القائد (صلى الله عليه وآله) ، ممّا أوجب على المصلحين من الصحابة التصدّى لإزالتها بكلّ سبيل ممكن .

ولقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام الله عليه هو السبّاق إلى هذا العمل ، فبذل جهداً حثيثاً لا يُنكر فى هذا الاتّجاه ، فأصلح ماكاد يفسد بفطنته وذكائه ، وبذلک فهو يعدّ المؤسّس الحقيقى لفكرة التقريب ، والغارس الأوّل لبذرته .

فلقد رسم للمسلمين صورةً رائعةً ، وممارسةً حيّةً لحقيقة التقريب عندما رأى الاصلاح ضرورة لديمومة هذه الدولة الفتية ، وعلى هذه الوتيرة سار أبناؤه أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، فقدّموا نماذج رائعة فى هذا المضمار ، وأبدوا مواقف مدهشة أثارت إعجاب المسلمين ، من المتقدّمين والمتأخّرين .

صحيح أنّه لم يكن مفهوم التقريب مطروحاً بهذا العنوان ، ولا بهذه الصيغة التى عليها اليوم ، لكن كلّ ممارسات ومواقف أئمة وعلماء أهل البيت سلام الله عليهم هى تجسيد واقعى لهذا المفهوم .

ومن هنا نجد علماء الإماميّة قد سلكوا ـ ومازالوا ـ هذا الطريق الذى سلكه أئمتهم (عليهم السلام) ، فعملوا مابوسعهم لأجل إزالة كلّ ما من شأنه أن يعكّر وحدة المسلمين ويثير فرقتهم . بل كان منهم من يحضر مجالس دروس أهل السنّة ، ويداوم على حضورها ، ويتوسّلون بكلّ طريق من أجل إيصال وجهة نظرهم للآخرين بنفس الهدوء والموضوعية التى يتلقون بها أخبارهم فى مجالس دروسهم .

فلم تخلُ مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى إلاّ وتجد علماء الإماميّة قد مارسوا دوراً هامّاً فى ميدان التقريب بين المسلمين ، ولم ينقل عنهم ضلوعهم فى أىّ دور يفضى إلى إيقاع الفتنة بين أبناء هذه الأُمة ، أو تضعيف وحدتهم ، و هو ما يشهد لهم التاريخ على امتداده .

لعلّ قائلاً يقول : إنّ علماء الشيعة عندما مارسوا هذا الدور إنّما ينطلقون من مبدأ التقية الذى أكّد عليه أئمتهم ، فهم ليسوا جادّين فى مسألة التقريب !

وهذا الكلام عار عن الصحّة ، ولا يمت إلى الواقع بصلة ، لأنّ مبدأ التقية ليس الغرض منه تفتيت شمل الأُمة ، أو تمزيق وحدتها ، بل هو مفهوم وحدوى تقريبى بجوهره وحقيقته ، فهو ـ فى الواقع ـ إظهار التودّد للمخالفين ; حفاظاً على وحدة المسلمين وتماسكهم .

فالأئمة (عليهم السلام) يطلبون من شيعتهم وأتباعهم أن ينخرطوا ما أمكنهم فى المجتمع الإسلامى ، ويساهموا فى بنائه وتطوّره ، بل وأنّهم يأمرونهم بالصلاة خلف من يخالفهم فى الرأى وفى الصفوف الأُولى أيضاً ، حتّى ورد عنهم (عليهم السلام) بأنّ الذى يصلّى خلفهم فى الصفّ الأوّل كالشاهر سيفه مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) [1] .

وهذا إن دلّ على شىء فهو يدلّ على رغبة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فى توطيد أواصر الترابط بين المسلمين ، وعدم السماح لأىّ نوع من الاختلافات العقائدية أو الفقهية بأن تكون مانعة من تحقيق ذلک ، لأنّ الشىء الأهمّ بنظرهم عليهم السلام هو وحدة المسلمين وتماسكهم .

وعلى هذا المبدأ سار علماء وأتباع أهل البيت (عليهم السلام) رغم الدعاية التى تريد شرّاً بالمسلمين ، والظلم والتعسّف لهذه الطائفة وعلمائها الأبرار .

ولعلّ من الشواهد التاريخيّة فى مجال التقريب فى عصرنا الراهن المحاولة التى قام بها **السيد جمال الدين الحسينى الأسدآبادى** المعروف بالأفغانى من أجل توحيد المسلمين ورصّ صفوفهم لمواجهة أعدائهم ، وذلک إبّان الغزو الأوروبى للعالم الإسلامى .

---

١ . رواه الشيخ الطوسى فى تهذيب الاحكام (إحدى الكتب الفقهية الأربعة عند الإماميّة) ٣ : ٢٧٧ حديث ٨٠٩ بسنده إلى إسحاق بن عمّار عن الإمام الصادق (عليه السلام) ، وفى رواية الحلبى عنه (عليه السلام) أنّه قال : «من صلّى معهم فى الصفّ الأوّل كان كمن صلّى خلف رسول(صلى الله عليه وآله)» رواه الكافى ٣ : ٣٨٠ حديث ۶ .

فلقد قام بنشاطات حثيثة فى هذا المجال أدهشت الجميع ، وكان مشروع الوحدة هو الشغل الشاغل له فى تفكيره وسلوكه (رحمه الله) ، وكان ينتقل من بلد إلى آخر يدعو إلى توحيد صفوف المسلمين ، وتوجيه انتباههم نحو العدوّ المشترک الذى يريد شرّاً بالإسلام والمسلمين .

ومن الرجال الذين عاشوا هموم العالم الإسلامى ، وساروا على خطى أهل البيت (عليهم السلام) ، ونهج **السيد جمال الدين الحسينى** ، هو **الشيخ محمد تقى القمى** (رحمه الله) ، حيث عدّ من أبرز رجال التقريب فى صيغته المعاصرة ، والأوّل فى تأسيس دار التقريب الغرّاء التى تعتبر محاولة فريدة من نوعها فى هذا النطاق ، والخطوة الأُولى باتجاه الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلاميّة .

حياة الشيخ القمى وسيرته الذاتية

ولادته ونشأته

ولد الشيخ عام ١٩١٠ / م ١٢٨٩ هـ ش فى مدينة قم المقدسة ، من عائلة دينية ، حيث كان والده الشيخ أحمد القمى كبير القضاة الشرعيين فى طهران ، وكان أجداده أيضاً من رجال الدين ، فهو حفيد لسبعة أجداد كلٌّ منهم كان يعدّ عالماً من علماء الدين ، وكانت بيوتهم ملاذاً آمناً يلجئ إليه الناس لأجل حلّ مشاكلهم والنزاعات التى تحدث بينهم .

فنشأ الشيخ القمى فى ظلّ هذا الجوّ الروحى والدينى نشأةً مهّدت له فى أن يكون من الأعلام البارزين على مستوى العالم الإسلامى . فكان فى صغره يرى ويراقب والده وهو يجلس فى مكان الصدارة ، يدلى بأجوبته للسائلين ، ويتصدّى لحلّ مشاكل الناس الدينية والدنيوية ، ويرى أيضاً كيف أنّ الناس ينصتون إلى والده إجلال واحترام مفرطين ، فمن الطبيعى جدّاً أن يترک ذلک الجوّ العائلى أثره فى شخصية الشيخ ومواقفة .

بالإضافة إلى ذلک أنّه كان يتمتّع بمواهب خاصّة منَّ الله بها عليه ، جعلت منه شخصيةً بارزةً جدّاً ، بحيث نالت شهرةً ومكانةً اجتماعية طار اسمها فى الآفاق .

تتلمذه وتحصيله العلمى

درس الشيخ محمد تقى القمى الابتدائية فى العاصمة طهران ، وحفظ القرآن الكريم وتعلّم اللغة العربية وآدابها ، وكانت آثار النبوغ بادية عليه فى كلّ مراحل طفولته .

وعندما أنهى المرحلة الثانوية التحق بالمدرسة العليا للآداب ، وتعلّم خلالها اللغة الفرنسية . وفى نفس الوقت واصل دراسته الدينية على يد أساتذة متخصّصين ، فدرس الفقه وأصوله ، وعلم الكلام ، وسائر العلوم الدينية الأُخرى .

نشاطه التقريبى

من أبرز نشاطات الشيخ القمى (رحمه الله) انشغاله بمسألة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة ، فقد كان (رحمه الله) يتألّم كغيره من المصلحين والمخلصين من هذه الأُمة لما يرى من سوء الحال الذى وصل إليه المسلمون ، وخصوصاً ما يجرى بين السنّة والشيعة من نزاع لا طائل منه .

ولقد حدثت فى زمانه (رحمه الله) حادثة أليمة أسرعت من خطاه باتجاه الانخراط فى التيار التقريبى ، وملخّص الحادثة هى مقتل حاج إيرانى من ذرّية الرسول (صلى الله عليه وآله)بحجّة إهانته الكعبة المشرفة !

والحقيقة أنّ هذا الرجل قد أصيب بحالة غثيان طارئة أثناء طوافه حول الكعبة ، فأراد الخروج من بين الطائفين ، لكنّه لم يتمالک نفسه ، فجمع ثيابه وألقى قيئه فيها حرصاً منه على عدم تلويث أرض المسجد ، ثم أسرع بالخروج فاستوقفه شرطى وسأله عمّا يحمله ، فحاول أن يوضّح له ذلک بالفارسية لعدم معرفته باللغة العربية ، فلم يفهم منه شيئاً فأخذه وسلّمه إلى القضاء ، وهناک أيضاً لم يفهموا منه شيئاً وعزّ الترجمان آنذاک . ولأنّ أذهان القضاة وعقولهم تحمل أفكاراً وتصوّرات سيّئة وغير واقعية عن الشيعة ، بحيث أنّهم يتصوّرون أنّ الايرانيين جميعهم لا يحجّون بيت الله الحرام ، وإنّما حجّهم هو إلى كربلاء والنجف! وأنّهم إنّما يأتون إلى بيت الله الحرام بقصد إهانته فحسب !! فاستنتج هؤلاء القضاة بأنّ هذا الشخص إنّما كان يستهدف تنجيس الكعبة وإهانتها ، فحكموا عليه بالإعدام ... وضربوا عنقه!

هذا الحادث المؤلم قد هزّ كيان الشيخ ، فكان ذلک دافعاً قوياً لكى ينتفض

ويتحرّك للانخراط فى تيار المصلحين الذى يحاول أن يكسر حواجز اللاثقة وسوء الظنّ الحاصل بين الفريقين : السنّة والشيعة ، فعزم على أن يقوم بطرح مشروع تاريخى ، يهدف إلى التقريب بين المذاهب المختلفة ، وإزالة كلّ ما من شأنه أن يثير التفرقة والبغضاء بين المسلمين .

وقد اختار مصر لتكون مركزاً لنشاطاته ومشروعه التقريبى ، وذلك لعدّة اعتبارات ، أهمها : كونها تضمّ أكبر مركز إسلامى فى العالم ، وهو الجامع الأزهر ، وبما أنّ الشيخ لم يكن يجيد التحدّث باللغة العربية ، لذا فقد جمع حقائبه وذهب إلى لبنان بهدف إتقانها ، فأقام فى إحدى القرى يعاشر أبناءها وشيوخها ، ويعكف ليل نهار على ممارسة التحدّث مع الآخرين لأشهر عديدة .

وقد سجّل الشيخ ذكرياته فى تلك القرية ، أشار إليها فى بعض مقالاته وأهمّها حكاية ذلك الرجل النصرانى الذى كان يسعى إلى كسب ودّ أبناء تلك القرية ، وكانوا بالمقابل ، يحبوّنه ويحترمونه ، لدرجة أنّه كان إذا خرج إلى الشارع اجتمع حوله الناس يحادثونه ويقبّلون يده ، وقد أثار ذلك الشيخ ، فلقيه يوماً وسأله شخصياً عن سرّ هذا الترحيب ، فأجابه وهو يشير إلى كنيسة القرية حيث توجد بجوارها مدرسة ، بأنّ السبب هو هذا! وقال : نحن نسعى إلى أن ننشئ إلى جانب كلّ كنيسة مدرسةً فنودع فيها أبناء القرية ، ونحاول أن نرتبط بهم من خلالها فكرياً وروحياً وعاطفياً ، وما تراه إنّما هو من ثمار ذلك !

وقد نبّهت هذه القضية الشيخ (رحمه الله) إلى سرّ تطوّر الحضارة الإسلاميّة فى عصورها الذهبية ، وتتابع انتصاراتها فى الميادين ، حيث كان التعليم لا ينفصل عن المسجد فى كلّ الأحوال .

ثم إنّه (رحمه الله) ترک لبنان متوجّهاً إلى مصر عام ١٩٣٨ م ، بعد أن أتقن العربية كتابةً ومحادثة ، وكان أولى الشخصيات التى اتّصل بها هناک هو شيخ الأزهر آنذاک : **الشيخ محمد مصطفى المراغى الكبير** ، وقد شرح له الحال الذى وصل إليه المسلمون من التشتّت والفرقة والتباغظ ، فطرح عليه فكرة التقريب

بين المذاهب الإسلاميّة ، فرحّب بها بحذر ، حيث كان بحكم مركزه لم يكن ليستطيع أن يظهر بمظهر المؤيّد لفكرة كهذه علناً فى ظلّ الجوّ الذى كان يسود الأزهر آنذاک ، لكنّه عرف كيف يخدم الفكرة ، ويقدّم المساعدة اللازمة فى ذلک ، فاقترح عليه أن يبدأ عمله أولاً بإلقاء المحاضرات فى الأزهر وخارجه ، وأعانه فى تسهيل الاتّصال برجال الأزهر وعلمائه ، فكان يجمعه بمن يعرف فيهم الميل إلى التقريب والتقارب .

فى غضون ذلک كان الشيخ (رحمه الله) استأجر بيتاً متواضعاً لسكنه ، ثم صار مركزاً لنشاطه العلمى ، ومن بعد أصبح هذا البيت مقرّاً فعّالاً لدار التقريب فى القاهرة ، وكان يعتمد فى نفقاته على ما جاء به من مال ، وعلى ما يُرسل إليه من ذويه فى إيران ، وأمّا ما يحصل عليه من مال مقابل تدريسه وعمله المكتبى فيوزّعه على مستخدمى الجامعة .

ومن خلال تواجده فى الأزهر تمكّن الشيخ من الاتّصال بطائفة كبيرة من العلماء والأدباء والمثقّفين المصريّين الذين أُعجبوا بشخصيته العلمية ، وباتّزانه وخلقه ، ورجاحة عقله ، وإخلاصه ومودّته .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية اضطرّ الشيخ إلى العودة إلى ايران ليبشّر بدعوته إلى التقريب بين المذاهب الإسلاميّة فى الوسط الشيعى ، وكان **آية الله العظمى السيد حسين البروجردى** قد استقرّ آنذاک فى قم عام ١٩٤٥ م فالتقى به الشيخ وشرح تفصيل رحلته ومجمل نشاطاته ، فأظهر السيد سروره تجاهه ، وتأييد ما أبلاه على هذا الصعيد ، وقرّر دعمه وإسناده .

وبذلک اكتسب هذا المشروع التقريبى تأييد أكبر أقطاب ومراجع السنّة والشيعة ، وهو أمر يعدّ من أهمّ عناصر نجاحه وديمومته .

الشيخ القمى وتأسيس دار التقريب

وبعد انخماد لهيب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦ م عاد إلى مصر ثانيةً ليبدأ مرحلةً جديدةً أطلق عليها مرحلة التكوين ، بعد أن كانت المرحلة الأولى

مرحلة التمهيد ، وفى هذه المرحلة تمّ تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة فى القاهرة فى فبراير / شباط عام ١٩٤٧ م وقد كان **للشيخ مصطفى عبد الرزاق** ـ الذى عُيِّن شيخاً للأزهر بعد رحيل **الشيخ المراغى** ـ **والشيخ عبد المجيد سليم** دوراً كبيراً فى ذلك وإن كان الاول لم ينضمّ رسمياً إلى جماعة التقريب ، لكنّه كان بجانبها ، ومسانداً لها .

وكان من أعضائها المؤسّسين بالإضافة إلى **الشيخ القمى والشيخ عبد المجيد سليم** : **فضيلة الشيخ محمود شلتوت** ، **وفضيلة الشيخ عبدالعزيز عيسى** ، **وفضيلة الشيخ حسن البنّا** ، وسماحة **آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء** ، **وآية الله السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوى** ، **ومحمد على علبوه باشا** .

وكان قد اختير الشيخ القمى ليكون هو السكرتير العام لدار التقريب باعتباره **المؤسّس الأوّل** لهذه الدار ، وقد انعقدت أول جلسة لها وسط آمال كبيرة ، وحضور ممثّلى المذاهب الإسلاميّة المختلفة .

وكان ممّن التحق بها وانضمّ إلى هذا الركب لاحقاً **فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى وفضيلة الشيخ محمد الغزالى** .

وبعد سنتين من نشوئها أصدرت الجماعة مجلةً باسم **رسالة الإسلام** أىّ فى يناير / كانون الثانى من عام ١٩٤٩ م وكانت بإدارة **فضيلة الشيخ عبدالعزيز عيسى** ، واستمّرت فى الصدور قرابة (٢٤) عاماً ، وقد تركّزت أكثر بحوثهم حول مسألة التقريب وتفعيلها ، وتضمّنت أيضاً تفسيراً للقرآن الكريم بقلم الشيخ محمود شلتوت والذى كان على فصول متتابعة حتّى اكتمل كتاباً .

حركة التقريب والفتوى التاريخية

ومن أبرز ثمار حركة التقريب التى قادها الشيخ القمى هى الفتوى التاريخية لفضيلة الشيخ محمود شلتوت فى جواز التعبّد على المذاهب الإسلاميّة ، ومنها مذهب الشيعة الإماميّة الاثنى عشرية .

وقد صدرت هذه الفتوى في أبريل / نيسان من عام ١٩٦٠ م فمن جواب لسؤال نصّه:

إنّ بعض الناس يرى أنّه يجب على المسلم لكي تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلّد أحد المذاهب الأربعة المعروفة ، وليس من بينها مذهب الشيعة الإماميّة ولا الشيعة الزيدية ، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه ، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإماميّة الاثنى عشرية مثلاً ؟

فأجاب فضيلته : «إنّ الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه أتّباع مذهب معيّن ، بل نقول : إنّ لكلّ مسلم الحقّ في أن يقلّد بادئ ذى بدء أيّ مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً ، المدوّنة أحكامها في كتبها الخاصّة ، ولمن قلّد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره ـ أيّ مذهب كان ـ ولا حرج عليه في شيء من ذلك . فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحقّ لمذاهب معيّنة ، فما كان دين الله ، وما كانت شريعته بتابعة لمذهب ، أو مقصورة على مذهب ، فالكلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد تقليدهم، والعمل بما يقرّونه في فقههم ، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات ...»[1] .

وقد عزّزت هذه الفتوى مشروع التقريب أيّما تعزيز ، وكانت ـ بحقّ ـ خطوة عظيمة في هذا الاتجاه .

وممّا يذكر في هذا السياق أنّه كان من المقرّر أن تصدر هذه الفتوى قبل هذا الوقت بعشر سنوات تقريباً ، أيّ في زمان تولّي الشيخ عبدالمجيد سليم لمشيخة الأزهر ، والذى كان يعتبر من الشخصيات التي برزت بين جماعة التقريب ، فهو رجل كبير في علمه وإدارته وإخلاصه ، ولذا فقد انتخب لمشيخة الأزهر دورتين متتاليتين ، كما ويظهر من أحاديثه وكتاباته ما يدلّ على عمق عواطفه

---

١ . دعوة التقريب ، تاريخ ووثائق : ٢٢٥ منشور عن وزارة الأوقاف المصرية / القاهرة لسنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .

ومحبّته لآل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وكان يستشعر معاناتهم وآلامهم على مرّ التاريخ ، ولذا سعى من موقعه إلى رفع هذا الظلم التاريخى عنهم ، فارتبط بجماعة التقريب ارتباطاً وثيقاً حتّى بعد اعتلائه لمشيخة الأزهر الشريف ، بل كان توقيعه يحمل لقب شيخ الأزهر ووكيل جماعة التقريب .

وقد سنحت له الفرصة للاطّلاع على فقه الشيعة ، إذ أنّ آية الله السيد البروجردى (قدس سره) فى ضمن مراسلاته له قد أرسل له دورةً كاملةً من كتاب المبسوط فى فقه الإماميّة للشيخ الطوسى ، وقد أعجب بها إعجاباً كبيراً ، حتّى كان يقول : «متى ما أردت أن أُشارک فى جلسة استفتاء أُراجع كتاب المبسوط» . وبالفعل فقد انعكس ذلک على فتاواه الفقهية .

ولمّا استعدّ لإصدار **فتوى بجواز التعبّد بفقه الشيعة** حاول تهيئة أذهان جماعة التقريب لهذا الأمر ، وتقرّر فى غضون ذلک دراسة صيغة الفتوى فى جلسة تعيّن وقتها ، لكن قبل أسبوع من موعد انعقاد تلک الجلسة المقرّرة حدث مالم يكن بالحسبان ، حيث وصلت إلى جميع أعضاء جماعة التقريب طرود بريدية تحمل ما ينسف فكرة إصدار الفتوى .

فعندما حضر الأعضاء فى تلک الجلسة المقرّرة ، تحدّث الجميع بلهجة غاضبة ، قائلين : أتريدون أن تصدروا فتوى بجواز العمل بفقه الشيعة وهم يعادون الصحابة؟!

ثم فتح كلٌّ منهم طرده وأخرج منه كتاباً منسوباً إلى الشيعة يتحامل فيه كاتبه على الخليفتين : أبى بكر وعمر ، فاستولى الوجوم على الشيخ القمى عند ذاک ، وكان **الشيخ عبدالمجيد سليم** فى ظلّ هذا الجوّ المتشنّج ينظر إلى الموجودين بكلّ هدوء وطمأنينة ، ثم ساد بعد ذلک هدوء نسيبى وقال فى ضمن ما قال :

«لو أنّ الشيعة والسنّة لم يكن بينهم اختلاف لما احتجنا إلى التقريب ، ودار التقريب ، ومجلّة رسالة الإسلام ، ولكن علمنا بوجود الاختلاف ، فنهضنا بهذا المشروع كى نركّز على المشتركات ، ونقلّل الاختلافات ، ونزيل الشبهات ...».

فاستطاع أن يلطّف الجوّ بلغته المتّزنة ، لكن المتضرّر الحقيقى من تلك الواقعة هى عملية إصدار الفتوى ، حيث تأخّرت لعشر سنوات إلى الوراء حتّى أقدم الشيخ شلتوت بعد ذلک على إصدارها .

شاه ايران والفتوى التاريخية

وعندما عاد الشيخ القمى (رحمه الله) إلى ايران علم أنّ الإذاعة والتلفزيون ينويان قطع البثّ المعتاد ويذيعان نبأ الفتوى محاطة بالتجليل والتبجيل موحين بكونها إحدى انجازات أحد رعايا؟! إيران محمد رضا شاه !

فاتّصل الشيخ بالمسؤولين الإعلاميّين وطلب منهم أن لا يفعلوا ذلک ، فأجابوه أنّها أوامر الشاه نفسه ، وليس لنا من الأمر شىء ، فسارع إلى لقائه ، و أصرّ عليه أن لا يسمح بحدوث ذلک ، فقال له الشاه مظهراً اندهاشه : أنا فعلت ذلک لصالح الفتوى ولصالح التقريب! ولكن الشيخ القمى أصرّ على عدم السماح بحدوث ذلک الأمر وهو يعلم نواياه ، فاضطرّ الشاه أن يلغى أوامره وهو فى غاية الاستياء .

وقد اختار الشيخ مدينة مشهد المقدسة ـ لما لها من مكانة دينية وعلمية ـ ليعلن فيها الفتوى ضمن محفل علمى ضمّ كبار العلماء ، وكان على رأسهم المرجع الدينى الكبير آية الله **السيد محمد هادى الميلانى** (قدس سره) .

مشايخ الأزهر والنهضة التقريبية

لقد كان موقف مشايخ الأزهر ثابتاً تجاه التقريب وحركته التى دبّت فى وصال المجتمع المصرى رغم معارضة بعض الأطراف ومحاولاتها اليائسة من فلّ عزائم أقطاب الأزهر الشريف ، إذ أنّ **الشيخ محمود شلتوت** نفسه قد لاقى من جراء فتواه الكثير من المواقف التى سبّبت له الأذى ، فقد قيل له يوماً : إنّ الشيخ القمى قد خدعک واستحصل منک الفتوى !! فأجابهم وكلّه ثبات وطمأنينة : «لو كان الشيخ القمى قد خدعنى فنِعْم ما فعل ، فأنا مؤمن بإخلاصه ، وأسأل الله

سبحانه أن أُحشر معه فى يوم القيامة» .

وقد حصلت بعد وفاة الشيخ شلتوت محاولات من بعض تلك الأطراف لإصدار فتوى تنقض فتواه ، حيث قامت بالاتّصال بالدكتور الشيخ الفحّام بعد تشرّفه بمقام شيخ الأزهر ، لاستحصال فتوى تنقض فتوى أُستاذه المرحوم شلتوت ، لكنّه رفض هذا الطلب بشدّة ، وأعلن لهذه الأطراف الشرذمة تمسّكه بها ، قائلاً لهم : «إنّ فتوى الشيخ محمود هى فتواى ، وهو أُستاذى» .

وينبغى الإشارة هنا إلى نقطة مهمّة ومثيرة ، وهى أنّ العلاقات التى ترتبط وشائجها فيما بين المصلحين ودعاة التقريب كانت عظيمة واستثنائية ، أثارت دهشة وإعجاب كلّ من كتب له التوفيق على الاطّلاع عليها ، وما من سبب إلاّ لكونها مبنية على الصدق والإخلاص والاحترام المتبادل ، وكلّ ذلك خزين معنوى كبير يساعد على تخطّى المصاعب ، وتقوية الإخاء والتكاتف معاً لتجاوزها ، من دون فرق بين كون هذا المصلح شيعياً أو سنّياً ، مصرياً أو إيرانياً ...

وعلى هذه الوتيرة كانت توصف العلاقات التى تربط الشيخ القمى بدعاة التقريب فى مصر ، وكان لهذا الأمر أهمية كبرى فى إنجاح مشروعه الإصلاحى .

وممّا يذكر فى هذا الباب : العلاقة المتينة التى ربطته **بالشيخ محمد محمد المدنى** الذى رأس تحرير مجلّة **رسالة الإسلام** مضافاً إلى عمله الجامعى كعميد لكلّية الشريعة بالأزهر ، حيث تعرّض إلى حادث اصطدام فى **الكويت** نُقل على أثرها إلى المستشفى ، فلمّا وصل نبأ الحادث إلى الشيخ القمى تأثّر بذلك أشدّ التأثير ، وراح يتضرّع إلى الله سبحانه بأن يشفيه ، ويدعوه ويلحّ فى دعائه بأن يقبل منه حياته فداءً لحياة الشيخ المدنى لاعتقاده بأنّه أنفع منه للإسلام فى مرحلته الخطيرة ، ولحركة التقريب فى أشواطها الأُولى . وممّا يجدر ذكر أنّ زوجته كانت تسمع تضرّعه ودعائه ، فلم تتمالك أن جاءت إليه بانكسار وقالت له : بالله عليك كفّ عن هذا الدعاء ، فأنت لك أبناء صغار ، وأبناء الشيخ

المدنى كلّهم كبار! ولكنّ الله تعالى شاء أن يتوفّى الشيخ المدنى وينتقل إلى جوار ربّه .

ولا شكّ أنّ هذه صورة صادقة تعبّر عن عمق العلاقة وطهارة العاطفة التى كانت تربط الشيخ القمى بزملائه فى دار التقريب بمصر .

من سجايا الشيخ القمى وأخلاقه

كان الشيخ يتمتّع بسجايا وخصال عديدة كان لها الدور فى نجاح مشروعه التقريبى ، فمن خصائصه الفريدة التى كان يتّسم بها :

١ ـ الانفتاح وسعة الأفق

وقد تجلّت هذه الصفة فى أكثر مواقفه مع الآخرين ، سيّما الذين يعدّون من مخالفى مشروعه الإصلاحى . ومن أبرز الأمثلة على ذلك أنّه يذكر : أنّه عندما اختار أعضاء جماعة التقريب ، ليمثّلوا أول تشكيلة رسمية تتصدّى أمور الحركة ، وقع اختياره على اسم فرد معروف بتعصّبه لمذهبه ، ومعارضته لفكرة التقريب مع الشيعة!

وحينما علم الشيخ المراغى ـ شيخ الأزهر آنذاک ـ بذلک أرسل إليه يسأله عن سرّ اختيار هذا الرجل ، فأجابه الشيخ قائلاً : أنا اخترته وإنّى على علم بتعصّبه ; لأنّنا بحاجة ماسة فى الجماعة إلى شخص مثله ، يطرح الاعتراضات دوماً ، فإن كان حقّاً أخذنا بها ومحّصنا مسيرنا ، وإن كانت مجرّد شبهات فإنّنا نتصدّى للإجابة عليها بشكل غير مباشر قبل أن تنتشر بين الناس . فانشرحت أسارير الشيخ المراغى لمّا سمع الجواب ، فقال والفرح يغمره : «أُبارک لک هذا التفكير ، وهذا الانفتاح وأنت بهذه الخصائص سوف تنجح بدعوتک حتماً» .

٢ ـ الصلابة والحزم فى المواقف

وهذه الصفة تعبّر عن قوة شخصية الشيخ القمى وتمسّكه بمبادئه الشريفة . فهو مرن فى المواقف التى تتطلّب المرونة ، لكنّه صلب فى المواقف التى تتطلّب الحزم

والصلابة .

ومن أبرز الشواهد على ذلك : أنّه عندما صدرت من **الشيخ محمد متولّى الشعراوى** فى إحدى خطب الجمعة كلمات كان يراها الشيخ القمى مضرّة بوحدة المسلمين ، فوجّه رسالة جوابية شديدة اللهجة إليه ، وكان الشيخ الشعراوى فى ذلك الوقت يتولّى وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر ، فجاء فى هذه الرسالة :

«فوجئت مع الأسف بخطبة الجمعة التى ألقيتموها فى التاسع من صفر ١٣٩٧ من فوق منبر الأزهر الشريف ، الأزهر الذى يجب أن يكون للمسلمين جميعاً ، والذى يجب أن يحترمه المسلمون جميعاً ، وبحضور السيد رئيس الجمهورية وعلية القوم وعامة الناس . ففى هذه الخطبة (بعد ذكر مقدّمة بأنّ كلّ ما يقال على هذا المنبر يكون كلاماً مدروساً فى أروقة الأزهر) استهللتم بالهجوم على الشيعة الفاطميّين ، وأنّ الله بحكمته وقدرته أنقذ الأزهر من أيدى مؤسّسيه ; لأنّهم شيعيّون !! والذى حزّ فى نفسى قولكم : ولكن شاء الله أن يخلّصه ـ أىّ الأزهر ـ ويقصره على المذهب النقى الصافى ، مذهب أهل السنّة والجماعة ... ! ومعناه الصريح : نفى النقاء والصفاء عن أىّ مذهب آخر!

وأرجو يا فضيلة الوزير أن تقدّر موقفى كرجل رسالته التقريب بين المذاهب الإسلاميّة ، وإنّى لست فى موقف دفاع عند المذهب الشيعى الفاطمى ، وفى أخذى مذهب الشيعة الإماميّة والزيدية فقط إلى جانب مذاهب أهل السنّة فى جماعة التقريب أمر له معناه ، وإنّما أُريد أن أُدافع عن مبدأ جاءت به دعوة التقريب ، وهو العيش فى سلام وأُخوّة للمسلمين ، وعدم توسيع الشقّة بينهم ، وعدم الهجوم عليهم ، والعمل على جمع كلمتهم ...» .

والشيخ القمى نفسه يذكر قصةً تدلّل على مواقفه الصلبة ضدّ كلّ من يحاول أن يعكّر صفو العلاقة بين المسلمين ليستفيد من خلافاتهم ، ولا تؤثّر عليه المجاملات التى من شأنها أن تتناقض مع الهدف الذى نذر عليه حياته وفكره .

فهو يقول فى مقابلة له فى إحدى الصحف المصرية : «لويس ماسينيون ،

المستشرق الذائع الصيت ، عرفته فی القاهرة عندما قام بزيارة مفاجئة لدار التقريب فی أول تأسيسها ; للاستفسار عن رسالتها ، ثم التقيت به فی حفل كان يضمّ الدكتور حسنين هيكل ، وراح الرجل يحدّثنا ـ وهو يظنّ أنّ حديثه يرضينی ـ عن أبحاث له جديدة عن فاطمة الزهراء عليها السلام ، بحث يقارن بينها وبين العذراء مريم ، وبحث عن حقّها فی وراثة النبی ... ، ولقد فوجئ الحاضرون حين رحت أسأل ماسينيون منكراً صدق حماسته لفاطمة وحقّها فی الإرث : ما حماسک الشديد لفاطمة يا سيدی؟ اتركوا لنا الأمر كلّه ، ولا تزرعوا الشوک فی أرض المسلمين الطيّبة ، وأولی بک وأنت فرنسی ، لک مكانتک فی بلادک ، أن تطالب حكومتک بالكفّ عن ضرب المسلمين الجزائريّين ، وكانت فرنسا فی ذلک الوقت فی حرب ضروس مع الجزائر»[١] .

ونجده أيضاً فی إحدی مقالاته التی نشرتها مجلّة رسالة الإسلام ينتقد فيها كتاباً تحت عنوان المهدی والمهدوية لأحد الكتّاب الذين يكتبون فی نفس هذه المجلّة ، إذ لم ترق الشيخ طريقة بحثه واستدلالاته ، ورأی أنّها لا تراعی المصلحة العليا للمسلمين فكتب يقول : «المسألة ليست مسألة كتاب بقدر ما هی مسألة مبادئ . إنّ هناک مصالح إسلامية عليا يجب علی الكاتب الإسلامی أن يراعيها فی كلّ ما يؤلّفه ، بل فی كلّ كلمة يخطّها قلمه ، مع فرض استيفاء الموضوع لكلّ الشرائط اللازمة للبحث الدقيق ، هذا وأنّ من مصلحة المؤلّفين أنفسهم أن لايسقطوا من حسابهم الوعی الشامل بين المسلمين ، ونزوعهم القوی إلی اجتماع كلمتهم وثورتهم وسخطهم علی كلّ قلم يحاول أن يفرّق بينهم من جديد»[٢].

وهكذا نجد هذه السمة ، وهی الصلابة فی الموقف تتجسّد بشكل واضح فی شخصية الشيخ القمی ، فهو يعمل بمسؤولية تجاه واقع تستدعی منه فی بعض

---

١ . عن مجلة روز اليوسف ، العدد الصادر فی ١٢ يناير ١٩٧٦ م .

٢ . من مقال للشيخ نُشر فی مجلّة رسالة الإسلام، العدد ١٤ السنة الرابعة ابريل/نيسان ١٩٥٢ ـ رجب ١٣٧١هـ .

الأحيان الوقوف بوجه كلّ ما من شأنه أن يعكّر وحدة المسلمين ، أو يكرّس النفور والوحشة بين أرباب المذاهب الإسلاميّة المختلفة .

وهذه مزيّة مهمّة فى شخصيته ، جعلت منه الرجل المناسب فى الموقع المناسب وفى ظلّ تلك الظروف الصعبة والدقيقة التى أحاطت بالمسلمين آنذاک .

٣ ـ بساطة العيش

ومن السمات التى كان الشيخ يتّصف بها هو زهده والبساطة الكبيرة فى معيشته ومتطلّبات حياته ، ممّا دفعته لأنّ يكون فى المقدّمة ، ويكسب قلوب الناس وتعاطفهم تجاهه .

ففى ذات مرّة مرض مرضةً أقعدته بيته ، فجاءه الشيخ محمود شلتوت مع جماعة من علماء الأزهر ووجوهها لعيادته فى مسكنه ، ودخلوا عليه فجأة ودون أن يعلم الشيخ بقرار مجيئهم ، ولمّا دخل الضيوف إلى غرفة سكنه فى دار التقريب أصابتهم الدهشة لما رأوه ، فقد وجدوا الشيخ مضطجعاً على سرير خشبى صغير متوسّداً عمامته وملتحفاً بعباءته ، فخجل الشيخ من الحالة واعتذر اليهم ، ولكن الشيخ شلتوت راح يغدق عليه عبارات الثناء والإعجاب الشديد ، ثم قال : أشهد أنّ هذه حياة سيدنا عمر[١] .

وهذه البساطة رسّخت فى ذهن الشيخ شلتوت بأنّ الشيخ القمى ما جاء إلى القاهرة فى طلب مال أو متاع ، وما جاء ليروّج فكرة مذهبية معيّنة ، بل جاء من أجل التقريب بين المسلمين ، والدعوة إلى وحدتهم .

ولعلّ هذا هو سرّ إعجاب الشيخ شلتوت بشخصية الشيخ القمى ، الذى تحوّل إلى صداقة حميمة وصميمية حتّى أنّه كان يشترک فى مجلس تلاوة دعاء كميل الذى كان يعقده الشيخ مع جمع من الشيعة والموالين من أبناء القاهرة فى داره

١ . انظر ملف التقريب : ١٣٢ ـ ١٣٣ .

ليالى الجمعة.

٤ ـ التعفّف

فإنّ الشيخ القمى (رحمه الله) ـ بالرغم ممّا كان يعانيه من شظف العيش ، وقلّة المال فى مصر ، حيث إنّ الظروف لم تكن مهيَّأة لوصول المال إليه بشكل منظّم من أُسرته فى إيران ـ كان يتعفّف من قبول المال من أحد .

ففى فترة عصيبة من تلك الفترات التى كان يعانى فيها من قلّة ذات اليد ، اتّصلت به سفارة عربية فى القاهرة ، ووجّهت له دعوة لزيارتها ، فاستجاب لذلک ، وشرح هناک أهدافه ومقاصده ، وفى غضون ذلک قدّم له السفير مبلغاً مغرياً من المال دعماً لمشروعه ، ففوجئ الشيخ بهذا العرض السخىّ غير أنّه بادر إلى مخاطبة السفير قائلاً : «إنّنى احتاج فعلاً إلى المال أشدّ الاحتياج ، لكنّى أرفض أن آخذ أىّ شىء من هذا كى لا تدور حول الدعوة أىّ شبهة» .

والغريب أنّ الشيخ رفض أن يقبض ذلک المال فى وقت كان جيبه يخلو حتّى من الريال الواحد ، حيث رجع من السفارة إلى البيت راجلاً ; لعدم امتلاكه حتّى مبلغ أجرة العربة!

ولا شکّ أنّ هذا الموقف يعكس وبشكل واضح سموّ روح هذا الرجل ، وعدم خضوعه لإغراءات المال ، ممّا يكشف عن سرٍّ آخر من أسرار نجاحه فى مجال الدعوة إلى التقريب .

٥ ـ الاتّزان الفكرى

فقد امتاز الشيخ (رحمه الله) بفكر متّزن ، فليس هو بالفكر الذى يرفض كلّ شىء لا يتناغم مع الجديد ، وليس هو بالفكر الذى يقبل كلّ قديم بلا تمحيص .

ففى إحدى مقالاته يروى لنا عن أحدهم كان يتحدّث معه فى جلسة خاصّة وبحماس شديد فى مسألة وجوب التخلّص من الاسرائيليات ، وضرب لذلک مثلاً موضوع خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ! وبعد أن فرغ من حديثه الطويل ، وظنّ أنّه قد أقنع الشيخ بكلامه ، بادره الشيخ (رحمه الله) قائلاً : ولكن

هذا موجود فى القرآن يا أخى ، وليس من الاسرائيليات فى الحديث كما تعتقد ، فبهت المتحدّث واستولى عليه الوجوم ، وأطبق صامتاً .

ويسترسل الشيخ فى مقالته مضيفاً : «لست أنكر أنّ هناک دسّاً وخلقاً ، ولكنّى مع ذلک أعارض أشدّ المعارضة فى أن تمسّ كتب الحديث ، ونستبيح لأنفسنا حقّ التصرّف فيما نراه نحن من دسّ الدسّاسين ... ، كان لدى القدماء مقاييس وموازين للحكم على الحديث استعملوها فيما سجّلوه لنا ، وربّما كانوا على شىء من حسن الظنّ لمكانتهم وحسن القبول عنهم لما خفى من أحوالهم» [1] .

إذن كون الشيخ القمى من دعاة التقريب لا يعنى ألبتة أنّه يعمل على إلغاء التراث الروائى ، أو النظر إليه باستخفاف ، بل أنّه يقف منه موقفاً علمياً ، يحكّم فيه الموازين والأسس العلمية ، وليس الأهواء والرغبات ، لأنّ هذا ليس بإصلاح ، بل هو ابتذال وإفساد للعقل ، وجناية على الدين والتراث ، وتضييع للجهود العظيمة التى بُذلت من أجل حفظ التراث وإيصاله إلينا عبر هذه القرون الطويلة .

والمتتبّع لما يكتبه الشيخ يرى بشكل واضح الأصالة والعمق الفكرى الذى يتمتّع به . فلم يكن من أولئک الذين تنطلى عليهم حيل المستغربين ، ولا الشعارات البرّاقة التى يتشدّق بها دعاة التجديد والحداثة ، فهو ابن الحوزة العلمية الشيعية المباركة الذى كان فى طيلة الفترة التى قضاها فى مشروعه الوحدوى التقريبى يتحرّک على ضوء توجيهات المرجعية العليا المتمثّلة آنذاک بالمرجع الكبير آية الله السيد حسين البروجردى (قدس الله سرّه الشريف) .

وعلى كلّ حال نريد أن نؤكّد أنّ الشيخ كان يمتلک توازناً فكرياً واضحاً ، إضافةً إلى الميزات الأُخرى التى كان يتمتّع بها ، كلّ ذلک جعله أهلاً لهذه

---

١ . من مقالة بعنوان : «محنة التراث الخالد على أيدى أهل الجديد» ، نشرته مجلّة رسالة الإسلام ، العدد الرابع ، اكتوبر ١٩٥٢ محرم ١٣٧٢ .

المهمّة التى تحمّل أعباءها سنوات طويلة بلا كلل ولا ملل .

ولا بأس أن نورد هنا الكلمة المعبّرة والصادقة التى أفادها أحد زملائه وشركائه فى تأسيس مشروع التقريب ، الذى اطّلع عن كثب على خصوصياته وشمائله ، وهو الشيخ محمود شلتوت ، حيث كتب فى مقدّمته لقصة التقريب واصفاً الشيخ : «كنت أودّ لو كتب قصة التقريب أحد غير أخى **الإمام المصلح محمد تقى القمى** ، ليستطيع أن يتحدّث عن ذلک العالم المجاهد الذى لا يتحدّث عن نفسه ، ولا عمّا لاقاه فى سبيل دعوته ، وهو أول من دعا إلى هذه الدعوة ، وهاجر من أجلها إلى هذا البلد ـ بلد الأزهر الشريف ـ فعاش معها وإلى جوارها منذ غرسها بذرة مرجوة على بركة الله ، وظلّ يتعهّدها بالسقى والرعاية بما آتاه الله من عبقرية وإخلاص ، وعلم غزير ، وشخصية قوية ، وصبر على الغير ، وثبات على صروف الدهر حتّى رآها شجرةً سامقة الأصول ، باسقة الفروع ، تؤتى أُكلها كلّ حين بإذن ربّها ، ويستظلّ بظلّها ائمة وعلماء ومفكّرون ، فى هذا البلد وفى غيره»[١] .

٦ ـ الاستقلالية فى العمل

ربّما تُثار بعض الشكوک فيما يتعلّق بعلاقة الشيخ القمى بشاه ايران المخلوع وببعض الحكّام والزعماء السياسيين ، ولكنّ الحقيقة التى ينبغى أن تقال : أنّ هذا الرجل الذى قضى عمره فى خدمة المسلمين ، والعمل على وحدتهم ، لم تكن علاقاته بالزعماء السياسيين وغيرهم إلاّ فى أطارها الصحيح ، ولم تتجاوز الحدّ الذى يمكن أن يشكّل إساءةً إلى شخصية رجل الدين ، ولا سيّما مثل شخصية هذا الشيخ الذى قد أشرنا إلى بعض مواقفه التى تعكس مستواه فى العفاف والتقوى والتواضع والإخلاص .

ففى هذا الإطار يقول الشيخ نفسه ضمن مقابلة صحفية أجرتها معه إحدى

١ . مقدمة الشيخ محمود شلتوت لرسالة: قصة التقريب، طبع القاهرة.

الصحف المصرية : «أُحبّ أن تعلم بأنّنى لست موظّفاً لدى أيّة جهة من الجهات ، أو حكومة من الحكومات ، وأنّنى لا أتكسّب عن طريق هذه الدعوة ، أنا رجل فلاّح ، أعيش من عمل يدى ، وكدح ذهنى ، وعرق جبينى ، لايد لأحد علىَّ ولله الحمد والمنّة ، ومازلت أذكر اللحظة التى وصلتُ فيها إلى القاهرة لأول مرّة منذ حوالى أربعين عاماً ، ليلتها كنتُ وحيداً ، لقد اتّجهت إلى السماء وقلت : يا إلهى ، لقد جئت إلى بلد لا أعرف فيه أحداً ، ولا يعرفنى فيه أحد . يا إلهى ، أنت تعلم فيما كانت رحلتى ، ولم كانت غربتى ، ولماذا أُؤمن بفكرتى ، فانصرنى ... وأستطيع أن أقول الآن : إنّ الله قد نصرنى .

اليوم حدث تحوّل عظيم ، مذاهب الشيعة تدرّس الآن ضمن مناهج الفقه فى الأزهر ، آراء فقهاء الشيعة يؤخذ بها فى قوانين الأحوال الشخصية فى مصر ، كتب الفقه والتفسير التى وضعها علماء الشيعة تُطبع الآن ويتمّ تداولها فى مصر ... كلّ هذا حدث نتيجة الجهود الضخمة والشريفة التى بذلها كثيرون من العلماء الذين فتحوا قلوبهم وعقولهم لما نقول»[1] .

وهكذا يتّضح من هذا الكلام الذى تدعمه الوقائع أنّ هذا الرجل لم يكن فى علاقاته خاضعاً لإرادة أحد أو جهة ، بل كان يتحرّك وفق ما يمليه عليه واجبه الدينى ، ورغبته العارمة فى التعريف بمذهب أهل البيت (عليهم السلام) ونشره فى جميع الأوساط والمستويات .

وقد وقف موقفاً مؤيّداً للثورة الإسلاميّة فى إيران بعدما لمس فيها الأصالة والواقعية ، فكتب إلى زعيمها آية الله الإمام الخمينى (رضوان الله عليه) رسالةً تعبّر عن موقفه تجاه هذه الثورة ، هذا نصّ ترجمتها :

حضرة آية الله العظمى الخمينى دامت بركاته

بعد التحيّات القلبية

تصريحاتكم أيها الزعيم الكبير بشأن الأُخوّة بين المسلمين : الشيعة والسنّة ،

---

١ . صحيفة الأخبار الصادرة فى ١٩ أبريل / نيسان عام ١٩٧٦ م .

واهتمامكم بمكافحة الاختلاف ، والنهى عند التفرقة بين الفرق الإسلاميّة ، وتأكيدكم على عدم وجود فواصل بين الشيعة وإخوتهم السنّة ، تتناسب حقّاً مع مسؤولية مرجع إسلامى كبير على صعيد العالم الإسلامى . وتأييد التلاحم الوثيق يعيد إلى الأذهان الدعوة الإصلاحية إلى التقريب بين المذاهب الإسلاميّة .

من هنا فإنّنى باعتبارى شخصاً قضى عمره على طريق هذه الدعوة ، وتحمّل أعباءها على الصعيد العالمى ، باسمى وباسم كبار العلماء من الفريقين الذين تعاونوا معى من كلّ أرجاء العالم الإسلامى ، نثمّن غاية التثمين كلماتكم الغالية ، ونشيد بآثارها الإيجابية فى استعادة عظمة المسلمين ، وندعو لكم بمزيد التوفيق فى هذا المسير لتحقيق أهداف الإسلام السامية[١] .

محمد تقى القمى

٢٨ بهمن ١٣٥٧ هـ ش

* * *

... وأذكر أنّ السيد القائد آية الله الخامنئى لمّا عزم على تأسيس المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة ، رأى أنّ رعاية خدمة السابقين تقتضى استشارة الشيخ القمى ، فنقل رغبة السيد القائد إليه ، فسرّ كثيراً ، وبعث بجواب جميل يتناسب وحجم الثقة التى أولاها إيّاه (رحمه الله) .

وهذا التكريم قد بعث فيه مزيداً من الحيوية والنشاط ، فدفعه إلى التحرّك من جديد على طريق التقريب ، بل وفكّر فى العودة إلى القاهرة لاستئناف نشاطات الدار ، لكنّ حادث الاصطدام أنهى حياة هذا الرجل الذى أصبح فى عصرنا الحديث أحد رموز التقريب البارزين .

١ . عن صحيفة «اطلاعات» الايرانية العدد (١٥٧٨٩) الصادرة فى اول اسفند ١٣٥٧ هـ ش المصادف ٢٠ فبراير/ شباط ١٩٧٨ م .

علاقتى بالعلامة القمى

...وقد كانت علاقتى مع الشيخ القمى وحركة التقريب وطيدة للغاية، وتعود إلى قبل نصف قرن من الزمان، حيث كنت طالباً يافعاً من طلبة الحوزة العلمية بقم، وآنذاک كان اهتمامى منصبّاً فى متابعة مجلة رسالة الاسلام الصادرة عن دار التقريب بالقاهرة، فأقوم بترجمتها ونشرها فى مجلة مكتب اسلام وهى المجلّة الرسمية الوحيدة الناطقة باسم الحوزة العلمية بقم، ومن بعد فى مجلّة نور دانش، والنشرة الاسبوعية وظيفه التى كانت تصدر بطهران العاصمة... فى ظلّ ظروف محيطة سيّئة، مفعمة بالتعصّب، شبيه بما كانت عليه القرون الوسطى!

وفى المقابل كنت أبعث بأغلب المقالات التى تُنشر بايران والمتعلّقة فى هذا الموضوع، بعد أن أقوم بترجمتها، إلى العلاّمة الشيخ القمى فى القاهرة، مع كلّ ما ترافقها من ردود وتداعيات وأعداد من المجلاّت التى كانت تصدر بطهران وقم، والذى كثيراً ما كان يحظى بتقديره لى، واستحسانه لما أقوم به، بل ويستزيدنى أكثر فى هذا الإطار.

* * *

... وما زالت ذاكرتى عالقة بأول رسالة وصلتنى من سماحته، وكانت مؤرّخة بتاريخ ٣٠ ذى الحجة عام ١٣٨١ هـ من القاهرة. ثم تتابعت الرسائل فيما بيننا بعد ذلک، وكانت باللغة الفارسية، وما زلت محتفظاً بها، وقد آثرت أن أنشر بعضها هنا، بعد تعريبها؛ إمعاناً أكثر فى الفائدة، سأوردها كاملةً بعد كلمتى هذه.

كما وأنّ ذاكرتى تحفظ بآخر رسالة وصلتنى منه، وكانت من باريس، جواباً لسؤالى منه عبر الهاتف ـ وكنت آنذاک سفيراً للجمهورية الاسلامية الايرانية فى الفاتيكان ـ مستوضحاً منه عن حقيقة الكلمة التى نسبتها إليه مجلّة المجلة السعودية! ـ اللندنية، ضمن حوار أجراه معه مراسلها، وقد نقلت عن لسانه قلقه اتجاه الوضع العام فى إيران آنذاک، وإبرازه عدم الرضا؟ ممّا تجرى فيها من أحداث إبّان أول الثورة، وتعريفه بكونه القائد الأوحد المرشح لقيادة المعارضة

خارج إيران!!

ولا شک إنّ هذا اللحن والتعبير التی نقلت عنه هذه المجلّة لاتمت بذوق ولا بطبيعة الشيخ القمی أبداً، وليست هی لغته کما عرفتها عن قرب منه.

ولمّا اتّصلت به هاتفياً من «روما» حيث مقرّ عملی، إلی «باريس» حيث مقرّ إقامته، أکّد لی فی حديثه معی عبر الهاتف، ولمدة عشرين دقيقة تقريباً، أنّ الخبر کذب محض، ولايمت إلی الواقع بشیء، وشارحاً لی أنّ هذه الحرکة التی قامت بها المجلّة المذکورة، ما هی إلاّ لعبة سياسية قامت بها جهات مغرضة ترمی إلی زيادة الضغظ علی إيران فی هذه المرحلة الحسّاسة من أوائل الثورة الاسلامية.

وقد طلبت منه حينذاک أن يکتب خلاصة ما حدّثنی به من توضيح حول هذه المسألة، ثم يرفقها بذکر حقيقة الحوار الذی جری مع مراسل المجلّة بالضبط، وأنّ ما نُسب إليه کذب محض يُراد منه تضعيف إيران من جهة، وإيقاع الوهن بشخصية التقريب التی کان يمثّلها (رحمه الله) علی مستویً عالمی من جهة أخری. (سنأتی علی متن الرسالة فی هذه المقدمة).

وبعد أن وصلت الرسالة الجوابية هذه، أدرجتها ضمن متعلّقات وتقارير وزارة الخارجية للجمهورية الإسلامية الإيرانية. ثم قمت فکتبت رسالةً بهذا الصدد وبعثتها إلی سماحة **الإمام الخمينی** (قدس سره) بطهران، مشيراً إلی موضوع الحوار الهاتفی الذی جری بينی وبين الشيخ القمی، وحقيقة المقابلة التی نسبها إليه مراسل المجلّة اللندنية ـ السعودية! والرسالة الجوابية التی حرّرها لی الشيخ العلاّمة من مقرّ إقامته فی باريس، ثم ذيّلتها بطلب من سماحته (قدس سره) أن يبيّن تکليفه الشرعی الحالی: هل يستمرّ فی نشاطه فی مجال حرکة التقريب، ويستأنف فعالياته الی هذا المستوی، أم يلتزم الصمت فی مقرّه بباريس حتّی يأتيه الإذن منکم؟

وممّا يجدر ذکره أنّ الشيخ القمی (رحمه الله) کان ينزل فندقاً بباريس يضاهی فنادق «شمس العمارة» المعروفة! فی طهران، وأحياناً کان ينزل شقّة ابنه الصغيرة، وقد

سنحت لى الفرصة لزيارته مرّة، والتحدّث معه بحضور ابنه **عبدالله القمى** فى شقّته الصغيرة!

ولم تمض مدّة حتّى تلقيت جواب الإمام الخمينى (قدس سره) فى هذا الخصوص عن طريق ابنه السيد أحمد (رحمه الله) عبر الهاتف، ليعلن لى بالحرف الواحد: أنّ الإمام لايرى مانعاً من أن يستمرّ الشيخ القمى فى عمله، وأن يستأنف نشاطه كما كان سابقاً، مستقلاً ومثابراً قدر إمكانه...

❊ ❊ ❊

... وعقب انتخاب آية الله الخامنئى مرشداً للثورة الإسلامية بعد رحيل الإمام الخمينى، وبعد استشارة أخى العزيز العلاّمة الشيخ محمد على التسخيرى، المستشار الثقافى للسيد القائد آنذاک، قرّرت السفر إلى باريس، واللقاء بالشيخ العلاّمة القمى وجهاً لوجه.

وبالفعل حزمت حقائبى وطرت إلى باريس، وذهبت إلى الشيخ القمى، وبعد حديث قصير معه دعوته لزيارة إيران، وبيّنت له ضرورة لقائه بالعلماء والمراجع الدينية فى الحوزات العلمية لرفع الابهامات الواردة، وتوضيح وجهة نظره بصورة مباشرة إليهم، ومن ثم يمكنه بعد ذلک السفر إلى **القاهرة** ليعود إلى سابق عمله، ويستأنف نشاطه على هذا الصعيد.

ولايخفى ما كان سروره كبيراً، فقد رحّب باقتراحى ترحيباً عظيماً، ووعدنى أن يأخذ الأمر على محمل الجدّ، وأنّه إن شاء الله سيبلغنى حينما يتمّ استعداده فى ذلک... ومن **ايطاليا** اتّصلت به عدّة مرات للبحث فى صدد هذا الموضوع، حتّى أبلغنى أنّه قد عزم على شدّ رحاله باتجاه إيران، وأنّه سيحزم حقائبه فى الاسبوع القادم...

ولم يمض يومان من جوابه الأخير ذلک حتّى هزّنا خبر نقله التلفزيون المحلّى ضمن تقرير خبرى مفاده أنّ العالم الإيرانى المعروف الشيخ محمد تقى القمى، وفى طريق عودته إلى محلّ سكناه كعادته مترجّلاً، وعند عبوره لأحد

شوارع باريس، قد صدمته سيارة حمل كبيرة ودهسته.. فقضى نحبه!!

لقد كان الخبر قصيراً للغاية، لكنّه حزين جداً فى قلوب كلّ أصدقائه ومحبّيه فى الداخل والخارج. ولم تكن الحادثة مصادفة هكذا، بل هو أمر مدبّر فى تلک الأيام التى كانت حبلى بالحوادث والوقائع، أراد الأعداء منها منعه من السفر إلى إيران، والحيلولة دون الاستمرار فى نشاطاته على صعيد التقريب، وكفاحه المجيد فى درب الوحدة الإسلامية.

لقد أدرک الأعداء موقع الشيخ (رحمه الله) ومكانته فى محافل **الأزهر الشريف**، ومنزلته بين رجال مصر، من السياسيين والمثقّفين والأدباء والوطنيّين، ثم توجهه الايجابى نحو إيران والثورة الإسلامية بزعامة الإمام الخمينى (قدس سره) وخلفه آية الله الخامنئيحفظه الله، كلّ ذلک يدعو إلى الحذر ممّا قد يقوم به من دور فعّال سيؤثّر إيجابياً بلاشک على العلاقات بين البلدين الكبيرين: **إيران ومصر**، فى الشرق الأوسط، وقد يستقطب الاهتمامات نحوه، ويحوّلها إلى إيران... وهو أمر غير مرغوب فيه عند الدوائر الاستعمارية، والامبريالية الاميركية، فعملت تلک الايادى المقيتة، وبالتعاون مع العملاء الايرانيين الفارّين بعد الثورة باتجاه أحضان الغرب، على تدبير حادثة القتل المروّعة، من أجل عدم تحقيق ما كان قد نواه (رحمه الله).

فبعد عمر طويل قضاه الشيخ فى العمل من أجل وحدة الصف بين المسلمين وجمع كلمتهم، لبّى ربّه فى أغسطس/آب عام ١٩٩٠م فى باريس وعن عمر يناهز الثمانين عاماً.

وقد نقل جثمانه الطاهر الى طهران وشيّع هناک ودفن بجوار والده، بمقابر العائلة فى طهران.

* * *

وهنا أجد لزاماً علىَّ أن أتقدّم بالشكر والتقدير للأخ **عبدالله محمد تقى القمى** ــ المقيم حالياً فى القاهرة ــ لمساعدته ــ فى القاهرة ــ التى أبداها من أجل تكميل هذا الكتاب، واهدائه بعض الصور والأوراق حول «السيرة الذاتية»

لمؤسس دار التقريب المرحوم العلامة الشيخ محمد تقى القمى.

أمّا نصوص بعض الرسائل التى وصلتنى من الشيخ العلامة القمى وقبل نصف قرن:

ترجمة نصّ أول رسالة بعثها لى العلاّمة من القاهرة

القاهرة ٣٠ ذى الحجة ١٣٨١هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

أخى فى الله العزيز

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

أسأل الله تعالى أن يغمركم بألطافه الجليلة، ويحيطكم بعنايته الشديدة، ويبارک لكم فيما تبلوه أنتم من وقت وجهد وقلم، وجميع الأخوة المفكّرين من نظرائكم، ويوفّقكم إن شاء الله أن تكونوا محطّ خير وفائدة، ومنبع آثار اسلامية دائماً.

أمامى الآن عدد من مجلّة مكتب اسلام الغرّاء، وبعد مطالعتى لها رأيتها تتّسم بالكلام المتين، والعبارات المرصوصة رصّاً محكماً، كما وجدتها ذات طابع منهجى جدير بالتقدير، حيث تشتمل على مقالات من الوزن الثقيل، والعناوين الجذّابة.

إضافة إلى أنّها تراعى كلمة الصدق، وتجتنب المظاهر الفارغة، والعناوين الطنّانة غير ذات فحوى. لقد شدّتنى بحقّ ما فيها، واستمتعت كثيراً بمطالعتها،

وأمّا مقالتكم فقد قرأتها بإمعان، ولايسعنى سوى التقدير لها، وأن ادعو لكم بالموفقية والنجاح، وراجياً قبول هديتى بهذا الدعاء: أعزّک الله وبارک لنا فيكم.

ومع تقديرى الكبير لجهود السادة الفضلاء العظام أعضاء هيئة تحرير المجلّة؛ لما يقدّمونه من خدمة كبيرة للإسلام، بحيث إنّهم ـ وبحمد الله ـ قد ساهموا فى فتح الطريق إلى معرفته، وأنّه إذا ما استمرّوا بهذه الصورة من النشاط والفعالية

الباهرة فإنّه ستزداد هذه الطرق وتتوسّع الآفاق أكثر وأكثر.

ولا أكتمک أنّ هذا الأمر ـ الطريق ـ الذی تسيرون عليه فهو مطابق لتطلّعاتی، وما ينشده قلبی.

ويسرّنی أن أنبئک بأنّ العدد الثانی من مجلّة رسالة الاسلام ضمن المجموعة الثانية، وطبعاً لم تصلكم بعد، يشتمل على قسم «الأخبار والآراء» التی تصلنا من هنا وهناک، ستجدونه عند مطالعتكم إيّاه قسماً مهمّاً جدّاً وأساساً، يتحدّث عن «مشروع علمی كبير» جدير بالإمعان فيه، لما يشتمل على الموضوعية فی مجال الأحاديث التی تمّ الاتّفاق عليها عند الفريقين، ولاشکّ أنّ آثاراً طيّبة ستترتّب عليه إن شاء الله.

قد عقدت العزم على المجیء إلى إيران فی أواسط محرّم الحرام إن شاء الله، وآمل فی سفری هذا أن تتاح الفرصة لی لزيارتكم ولقاء الفضلاء والأصدقاء، والتعرّف عليكم أكثر فأكثر، وبالله التوفيق.

والسلام عليكم ودمتم مع الدعاء

محمد تقی القمی

يذكر.. أنّ موضوع المشروع العلمی الذی أشرت إليه فی الرسالة، لو نشر بالتفصيل مع مقدّمة تناسبه فی المجلة سيكون له اثراً جيّداً، ويسعدنی كثيراً أن تلتقی آراء ونظرات الفضلاء حوله، وآمل أن يجد موقعه فی اهتماماتكم، ليعيننا على تكميل نواقصه، وتقديمه بالصورة الفضلی.

اصل سند نامه بزبان فارسی

هو

...تمنياتنا بالصحة ودوام السلامة، وأن يديم عليكم ألطافه السنّية، وأن يجعلكم فى حفظه المصون دائماً.

من الطبيعى جداً وعقيدتى التى يعرفها الجميع هو التقريب، وأراكم أحد أنصارها ومفكّريها، أن أميل فى المواقف الحسّاسة والحوادث التى تقع إلى هذا الاتجاه، وعلى ضوئها أحاول أن أسجّلها وأفسّرها وأضعها أمام الآخرين.

وبهذه الذهنية أبعث اليكم برسالتى، وكلّى أمل بمطالعتها، وقد أرفقتها بنصّ الكلمة التى أُلقيت فى احتفال العيد الألفى للأزهر[1]. وما ذكرته فى تلك الكلمة، وما قلته باسم التقريب، هو تماماً ما اعتقد به، ويمثّل مقتضى يقينى فى هذه المسألة، من أجل أن يسجّله التاريخ على صفحاته، وتشهد عليه الأجيال المتلاحقة.

وتأكّد أنّنا حين قلنا ذلك ليس لأجل إبراز البطولة، ولا لجذب الأبطال أو بقولكم: الحكومات، ولم يبلغنا أن اتّصل أحد منهم بنا، ولم نفكّر حتّى لأجل هذا الشىء، وإنّما هو للإعلان عن قيمنا ومبادئنا، ويمكن أن ترسل إلى بعض الكتّاب تلبيةً لطلباتهم التى كانوا قد أرسلوها من قبل، حتّى نرى حكم الله سبحانه فينا.

ومن جانبكم، لو أردتم أو رأيتم أنّه من المفيد أن يطّلع عليه من تجدونه جديراً على هذا الصعيد، فلابأس منه. وطبعاً أنا على يقين من أنّكم على مستوىً عال من تشخيص المصلحة، وتحديد الظروف المحيطة بها.

ولا أكتمكم قلقى الشديد تجاه ما يحدث فى الباكستان. لقد أنفقنا عمراً طويلاً، وكذلك الرجال المصلحون أنفقوا كما أنفقنا من أجل أن لاتحدث مثل هذه الفواجع من النعرات الطائفية، وسعينا كثيراً أن نجهض العوامل المساعدة على إثارتها فى مهدها.

---

(١) نصّ الكلمة قد درج فى طىّ صفحات هذا الكتاب، فراجع.

يلعن الله الذى سبّب ذلک، وقطع كل الأيادى الخفيّة التى تحرّک الفتن وتلهب نارها، وتحاول التصيّد فى الماء العكر.

على كلّ حال ما علينا فعلناه، ولكن ما نتخوّفه حقّاً هو من وجود «الاستعداد» فى المسلمين هناک من أن يعيدوا الكرّة ثانيةً، ووجود العوامل المساعدة على تعديل دورهم ليلعبوا دور الآلة فى العملية كلّها. هذا إلى جانب وجود عوامل أخرى تدفع بالعملية إلى الحافّة، كوجود الإحساس بالانتقام من كون بيوتهم قد تهدّمت، ومواردهم أرزاقهم قد تعطّلت، ممّا تعيّن بقوة على إعادة الأحداث مرة أخرى.

تُرى ما العمل؟

فالطفل مريض ويرفض أن يتعاطى الدواء، كما أنّه يحطّم كل الملاعق والأقداح فما العمل إذن؟

وأخيراً: لو طلبتم توضيحاً أو تعليقاً على مطلب، فإنّ رقم هاتفى وعنوانى عندكم وفى خدمتكم، فيمكنكم الاتّصال، أيها العزيز، نسأل الله لكم الخير.

وعذراً للمزاحمة..

العبد القمى

اصل سند نامه بزبان فارسى

ترجمة إحدى الرسائل التى بعثها إلىَّ العلاّمة القمى من طهران

طهران ٢١ اردیبهشت ١٣٤٠هـ ش[١]

هو

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ندعو الله أن يمنّ عليكم المزيد من التوفيق فى حياتكم وأعمالكم، ونتمنّى دائماً النجاح والموفقية فى بلوغ جميع أمنياتكم بفضله ولطف منه إن شاء الله.

لقد وصلنى الطرد الذى بعثتموه إلىَّ، ويحتوى على عدّة من النشريات الشريفة، وقد تشرّفت بمطالعتها، ولايسعنى إلاّ أن أقدم جزيل شكرى العميق لكرمكم ومحبّتكم لنا، وأُعلمكم بشغفى الكبير لمطالعتها، وخصوصاً ما يتعلّق بالمواضيع التى أشرتم إليها من قبل، وكذلك التى تتعرّض لفكر التقريب، ودار التقريب أيضاً.

وممّا زاد سرورى فى هذا الطرد، ما رأيته فى النشريات من نظم فكرى وعلمى وافر على صعيد التحرير، وروعة ظاهرة فى تنظيم الموضوعات الذى عكس صورته على هذا العمل بأجمعه، فأثمر شيئاً مرتّباً جذّاباً للقلوب، لما يضمّ أطرافاً من الموضوعات جمعت فى بوتقة واحدة، وردود سريعة على مواضيع طُرحت وكُتبت مؤخّراً ... فهى مفخرة ولاشكّ للجميع.

وأعلمكم أنّه قد وصلتنى نسخة من كتاب حول حياة آية الله السيد الفقيد[٢]رضوان الله عليه الذى أرسله لنا الفاضل المحترم المحقّق السيد الدوانى عن طريق البريد، فشكراً جزيلاً.

فإذا جئتم إلى طهران هذه الأيام القلائل نأمل أن نلتقى بكم، فإنّنا فى شوق للقائكم. وطبعاً حاولوا أن تتّصلوا بنا أولاً تلفونياً، لأجل اطّلاعنا وتخصيص الوقت المناسب للقيام بضيافتكم.

مع دعائنا القلبى: محمد تقى القمى

---

١ . أى قبل ٤٥ سنة.

٢. يريد المرحوم آية الله السيد البروجردى (قدس سره).

اصل سند نامه بزبان فارسی

ترجمة رسالة أخرى والتى بعثها إلىّ العلاّمة من طهران أيضاً

طهران ١٢ اسفند ١٣٤٠هـ ش

أخى فى الله.. أيّدک الله

كلّى أمل فى أن تكونوا فى طريق الحقّ، والجهاد من أجل الحقيقة وحدها، أنتم وأقلامكم معاً فى هذا الدرب الطويل، سائلين المولى عزّ وجلّ التوفيق لكم والمزيد من التأييد.

إنّ مسوّدة الرسالة[1] التى بعثتموها إلىَّ، وما حصل أن لم يتوفّق السادة الأعزاء بملاقاتى ومن ثم القيام بخدمتهم، كان مصادفةً محضة، ومنه اعتذر كثيراً.

الصفحات وصلتنى، وكانت مفعمة بالاشارات الرائعة والمعانى السامية التى يمكن أن ترتقى بالمستوى المطلوب إذا ما تُرجمت، وأُظهرت محاسنها للقرّاء الأعزاء.

والسلام عليكم

المخلص

الميرزا محمد تقى القمى/طهران

١٣٦١/١٢/٣/١٠٠ ـ ١/٢٥٢٠

١. رسالة آية الله السيد البروجردى إلى شيخ الأزهر، وجواب الشيخ شلتوت لآية الله البروجردى.

ترجمة الرسالة التى بعثتها إلى سماحة الإمام الخمينى (قدس سره)

حضرة إمام الأمة الخمينى العزيز مدّ ظلّه الوارف

الموضوع: الشيخ محمد تقى القميالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

منذ فترة قصيرة مضت اتّصل الشيخ القمى من باريس هاتفياً، وأوضح أنّه بسبب طبع مقالة كُتبت عنه، ونشرتها مجلّة «جهاد سازندگى» (الجهاد والبناء) بمناسبة أسبوع الوحدة، فهو يحتمل من خلال هذه المقالة أنّه دعوة إلى مواصلة فعالياته على هذا الصعيد، وأنّه يمكنه استئناف عمله فى هذا النطاق. (عدد من مجلّة الجهاد مرفقة مع هذه الرسالة نقدّمها إليكم).

ومن خلال حديثى معه حول حواره وتصريحاته التى أدلى بها فى مجلّة «المجلّة» اللندنية، يحضرنى الآن أن أنقل لكم قوله: إنّ الحوار المنسوب إليه من ألفه إلى يائه ما هو إلاّ محض كذب وافتراء، إضافة إلى أنّه يعتبره إهانةً له شخصاً، أراد واضعوه تحريف الأذهان عنه وعن دعوته ونشاطاته.

وبملاحظة المناخ العام الملتهب ضد الشيعة والتشيّع اليوم، وعلى الخصوص فى البلدان العربية، وبالالتفات إلى ما يمكن لهذا الرجل من أن يلعب دوراً مهمّاً ومؤثّراً فى هذا السياق، وما يمكنه أن يصير مركزاً فعّالاً من خلال الاستفادة من علاقاته الوطيدة التى تربطه بالأزهر، وما بإمكانه أن يقدّمه فى هذا الإطار، يجد الشيخ القمى نفسه منتظراً لما تبدون له من توجيهات فى هذا المسار.

وطبعاً لاتخفى حاجته الماسّة إلى مساعدة الدولة الإسلامية من جميع النواحى.

وأُحيطكم علماً بأنّنى قد أبلغت فى الوقت نفسه الأخ الدكتور ولايتى بموضوع تلفون الشيخ القمى من باريس عن طريق التلكس، وهو الآن على اطّلاع كامل بالقضية، وإنّنى الآن أعرضه عليكم، وعلى انتظار أن تبلغونى جوابكم القاطع فى هذا الموضوع تلفونياً عن طريق السيد سيد أحمد.

واتيكان — ايتاليا

اصل سند نامه بزبان فارسی

هو

وبعد: تحياتی القلبية الخالصة، وتمنياتی لكم بالتوفيق.

تعقيباً على ما جرى من الحديث عبر الهاتف، أودّ أن أطلعكم على أمور أجدها من الضروری أن تطّلعون عليها، وهی أنّنی ومنذ ۴۵ عاماً من العمل الدؤوب فی هذا الميدان، ورغم لقاءاتی العديدة مع بعض كبار الساسة العرب والأجانب خلال هذه الفترة الطويلة، وعلاقاتی التی اكتسبتها مع بعض الأغنياء والأثرياء وحفنة من النبلاء فی المجتمعات المختلفة، لكنّنی مع كلّ ذلک لم أركن إليهم، ولم يطب لی لحظة أن أفعل ذلک. وليس هذا بشیء عجيب!

كما وقد مرّت علينا فترات من الزمان، تحمل كلّ فترة شكلاً خاصّاً، وتضمّ ألواناً من الألاعيب المختلفة، وقد واجهناها بحزم وثبات، ولم نهتزّ قيد أنملة.

وهكذا فيما نحن بصدده، فإنّما نعدّه كسابقه من حيث الشدّة والنوع.

بل إنّه قد مرّت علينا حوادث مشابهة تماماً فی السابق. ولعلّ أهمّها فی زمان الرئيس الأسبق الراحل[1] للدولة العربية الكبيرة (مصر). حيث كنّا فی سفر خارج تلک الدولة، ولمّا عدنا إلى البلد لم نلبث أن طلعت علينا إحدى المجلاّت المرتزقة وهی تنقل قولاً عنّی كان من تداعياته أن هزّت العلاقة بينی وبين الرئيس، وكان الغرض الإيقاع بی عنده. ولمّا انطلقت إليه لأوضّح ما يدور فی عقول أولئک المرتزقة القائمين على تلک المجلّة، وأبيّن الأمر على واقعيته، فوجئت أن لمست العطف منه نحوی، والقبول والرضا من جانبه تجاهی، بل لم أجد فرقاً واضحاً فی معاملته لی ... وحينما عزمت أن أوضّح الأمر له بكامله بادرنی قائلاً: إنّنی على اطّلاع تام بعملک وطريقتک فی سلک السبل، وأعلم أنّ ثمة من

---

١. يريد: جمال عبدالناصر رئيس جمهورية مصر آنذاک.

لايحبّک، ولايرغب فی دعوتک، ويسعی إلی الإيقاع بک عندی، لقد أراد أن أغضب عليک ويقتطف هو ثمرة ذلک!!

وفی هذه المرة اعتقد أنّ الأمر کسابقه، ولکنّه يختلف هذه المرة بأنّهم لايريدون الإيقاع بيننا فحسب، بأن يثيرون الطرف المقابل، ومن ثم يدفعوننی إلی دخول المعرکة من حيث شئت أم لم أشأ، ثم يقفوا لينظروا أيّنا يسقط قتيلاً أولاً! بل إنّهم بنفس الوقت أرادوا ـ فی الواقع ـ تهميشی، واللعب بحيثية دعوتی!

إنّ کلّ من يطالع عن کثب هذه القضية يجدها مجموعة من التلفيقات والأکاذيب المزروقة فی إطار غوغائی يراد منه إفراغ محتوی دعوتی التی ناديت بها، وتضعيف شخصی من خلال تشويه سمعتی بين المراجع، والذی ليس من شکّ لم يجد أحد منهم ذلک فیَّ. وبصرف النظر عن الجهة المسؤولة عن إثارة هذه القضية، فإنّنا نجد من الضروری جداً التمسّک بهذه الحيثية التی عليها نحن! والالتزام بالمسيرة التی اتّخذناها منذ اللحظة الأولی من دعوتنا، واعتقد أنّ ذلک کافياً لأن نواجه الظرف الحالی، وبنفس الوقت نوجّه لطمةً قاسيةً إلی جميع أولئک الذين يرغبون فی إيجاد الصدع بينی وبين الأطراف الأخری، وتحطيم صفّ التقريب بعنف وقوة.

ولاشکّ أنّ من المسائل المعروفة لدينا اللعبة الدولية التی طالما تمارسها بعض الجهات، وهی أنّه حينما يحدث حدثاً فی الشرق أو الغرب ينسبونه إلی فلان بسرعة أو ينفونه عنه بنفس السرعة التی نسبوها بها، من غير تفحّص ولاتنقيب، وهی لعبة قديمة جديدة، ونحن ومن خلال هذه المدّة الطويلة التی عشناها فی هذا المجال، قد تعرّفنا علی جملة من التقاليد والأعراف الجارية علی هذا الصعيد، والتی يمکن أن تواجه التيارات التی يثيرها الأعداء، ولعلّ من أهمّها التزام طريق الهدوء، بعيداً عن الضجّة والغوغاء، لکی لانزيد فی الطين بلّة، ومحاولة إيجاد طريق نثبت به واقعيتنا، ونصل من خلاله القلوب والعقول، حتّی

إنّه اشتهر عنّا ذلک، إذ لم نرد طريقاً مخالفاً لأصولنا ومنهجنا ألبتة.

فهل سمعتم يوماً، وعلى طول المدّة التى قضيناها فى هذا المجال، وعلى اختلاف أنشطتنا الثقافية وفعالياتنا التقريبية، حواراً أجريناه مع أىٍّ من الصحف العربية مثل: الأهرام والأخبار و ... ، أو الأجنبية الناطقة بلغات أخرى، سواء كان الحوار بصورة مباشرة أم غير مباشرة، وتحدّثنا بشىء سوى بالمعنىّ بقضايا التقريب ووحدة المسلمين؟ وهل تجدون مورداً واحداً ــ ولو واحداً ــ تمّ فيه توجيه كلام منّى ضد سياسة بلد أو ضد أحد رموزها السياسيّين رغم وجود الكثير من المخالفين لدعوتى لدرجة أن مارسوا الضغط علىَّ من أجل التخلّى عنها، ورغم أعداد المطبوعات ووسائل الإعلام المعروفة وغير المعروفة؟

ولاشکّ أنّ المجلّة المذكورة قد طالعتموها، وآمل أن يطالعها الفضلاء أيضاً، وينظروا هل أشرت ــ ولو إشارة ــ إلى أشخاص أو أوردت أسماء فى إطار خاصّ، أو أنّنى سعيت إلى أن ألوّث سمعتى بطعون وكلام فارغ؟!

وهل تجدون مجلّةً أو صحيفةً معروفة بعلاقتها الوطيدة والقديمة بها، والمشهورة بالتزامها الأخلاقى، ولاسيّما صحف ومجلاّت ذلک البلد العربى الكبير (مصر) والتى تعرّفنى بالأب الروحى، وتحترم أفكارى، وتجلّ مبادئى التى أعلنتها من قبل، إلاّ وتكنّ لى الاحترام والتقدير؟ إلاّ هذه المجلة الأجنبية التى تُطبع وتُصدر فى اوربا، والمعروفة بارتباطاتها المشبوهة، وسمعتها الملطّخة بالوحل، وهو شىء معروف عند الجميع!

وهل يبدو منّى أنّنى لم أجد ما أفرغ فيه آرائى وآلامى، والأشياء التى تجيش بخاطرى إلاّ لهذه المجلّة المرتزقة؟!

إنّ ثقتى بكم عالية، واعتقد اعتقاداً جازماً بفضيلتكم وذكائكم اللذين يشجّعانى على أن استرسل فى توضيح هذه المسألة المحصورة بشخصى، وبيان الأمور الأساسية المتعلّقة بالأشياء التى واجهتها، وما زلت أواجهها على هذا الصعيد.

وعليه أشكر لكم حسن توجّهكم وإصغائكم، وأمدّ يدى لكم، سائلاً المولى القدير أن يفيض عليكم من ألطافه وتوفيقاته الجليلة.

القمى

٨٣/٣/٢٢ م باريس

اصل سند نامه بزبان فارسى

هذا الكتاب

... أما هذا الكتاب الذى بين يديک، كما أشرنا عن قبل هو مجموعة من المقالات والرسائل التى خطّتها يراعة **الشيخ محمد تقى القمى** ، ونشرتها مجلّة **رسالة الإسلام** فى أعدادها المتلاحقة ، وطائفة من اللقاءات الصحفية مع بعض الصحف المصرية ، تناول فيها الشيخ بعض المواضيع المتعلّقة بالتقريب ، طرح من خلالها آرائه على هذا الصعيد ، وأشار إلى بعض الهموم والمشاكل التى صادفته ، وتمكّن بمعونة الله وإخوانه من جماعة التقريب من تجاوزها بنجاح كبير بحيث نال إعجاب جميع المراقبين وكسب ودّهم واحترامهم .

كما واشتمل على مقدّمات ثلاث كان قد كتبها الشيخ (رحمه الله) لثلاث كتب شيعية ـ فى التفسير والفقه ـ حرصت دار التقريب فى **القاهرة** على طباعتها ونشرها ، كانت قد طلبت منه كتابة المقدّمة والتى عادةً تقوم بإنجازها دور النشر كما هو معروف .

والمحور الأساس الذى تدور حوله أبحاث هذا الكتاب هو **التقريب والوحدة بين المذاهب الإسلاميّة** ، وهى أبحاث مهمّة فى هذا المجال ، لكونها تمثّل أفكار رائد من روّاد الحركة التقريبية فى القرن الرابع عشر الهجرى ، وهو الشيخ القمى الذى نذر كلّ حياته لأجل هذا المشروع الحيوى والمهم فكان كلّ كلمة سطّرها هذا الرجل فى هذه المقالات الرائعة ، وعبّر عنها فى لقاءاته مع الصحف تمثّل تعبيراً حيّاً وواقعياً لهذه الفكرة التى طالما شغلت بال المصلحين .

ولا شكّ أنّ تفعيل مسألة التقريب أمر فى غاية الأهمية ، خصوصاً وأنّ الأُمة تمرّ فى مرحلة صعبة ، يتطلّب منها القوة والصلابة وهى تواجه تكالب الأُمم الغازية والهجينة عليها ، لذا ينبغى تكثيف الجهود من أجل إحياء وتطوير هذا المشروع ، ودفقه بالحيوية والنشاط والدوام بصورة مستمرة ، وإهماله تحت أىّ

عذر ستكون له عواقب ليست فی صالح المسلمين ولا الأُمّة بلا ريب .

وهذا الكتاب ـ رغم الأيجاز ـ يشكّل خطوةً إلى الأمام باتجاه إحياء هذا المشروع الاستراتيجی حقّاً ، حيث تمثّل كلّ مقالة أو كلمة فيه مبدأً أساسياً فی مجال تكريس التقريب ، وتصعيد الوحدة بين أطياف المسلمين .

ولأجل أن نسهّل على القارئ الكريم مطالعة هذا الكتاب والاستفادة من موضوعاته الحيوية ، وأبحاثه الشيّقة ، فقد قمنا بتقسيم المقالات على حدة وفق موضوعاتها ، ووضعنا لها عناوين مميّزة يدلّ عليها ، والرسائل كذلک ، وبنفس الطريقة جرى ترتيب لقاءاته الصحفية دون أن ننظر إلى زمان انعقادها وتاريخه ، وبذلک سيشتمل الكتاب على ثلاثة أقسام رئيسية ، بالإضافة إلى هذه المقدّمة الوثائقية الهادفة[١] .

نسأل الله تعالى التوفيق والإثابة فيما قمنا به ، إذ لم يكن إلاّ خالصاً لوجهه ، إنّه نعم المولى ونعم الوكيل .

ايران ـ قم: الحوزة العلمية
رمضان المبارک ١٤٢٧هـ

١ . ولأجل توثيق مطالب الكتاب بما يناسب حجمه ومكانته، قمنا بتزيين الكتاب بمجموعة من الملاحق التاريخية المهمّة ـ فی آخر الكتاب ـ وهی تشمل : وثائق تاريخية ، ورسائل موثّقة ، ولقاءات وزيارات مصوّرة ، وصور مستندة.

صور تاريخية ناطقة

عكس

العلاّمة القمى فى زيارة لـ «قم» ايران

عكس

العلاّمة القمى مع الإمام الأكبر الشيخ عبدالحليم شيخ الأزهر وعلماء من الأزهر الشريف

عكس

العلاّمة القمى مع الرئيس محمد نجيب فى أوائل: «حركة الضباط الأحرار»

عكس

العلاّمة القمى مع الشيخ عبدالعزيز عيسى فى القاهرة

مكتب شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

نصّ الفتوى

التى أصدرها السيد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر

فى شأن جواز التعبّد بمذهب الشيعة الإمامية

قيل لفضيلته:

إنّ بعض الناس يرى أنّه يجب على المسلم لكى تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلّد أحد المذاهب الأربعة المعروفة وليس من بينها مذهب الشيعة الإمامية ولا الشيعة الزيدية، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية مثلا.

فأجاب فضيلته:

١ ـ إنّ الاسلام لايوجب على أحد من أتباعه اتّباع مذهب معيّن، بل نقول: إنّ لكلّ مسلم الحقّ فى أن يقلّد بادئ ذى بدء أىّ مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحاً، والمدوّنة أحكامها فى كتبها الخاصة، ولمن قلّد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل الى غيره ـ أىّ مذهب كان ـ ولا حرج عليه فى شىء من ذلک.

٢ ـ إنّ مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية

مذهب بجواز التعبّد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنّة.

فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلک، وأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحقّ لمذاهب معيّنة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقرّونه فى فقههم، ولا فرق فى ذلک بين العبادات والمعاملات.

محمود شلتوت

السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية

سلام الله عليكم ورحمته

أمّا بعد فيسرّنى أن أبعث إلى سماحتكم بصورة موقّع عليها بإمضائى من الفتوى التى أصدرتها فى شأن جواز التعبّد بمذهب الشيعة الإمامية، راجياً أن تحفظوها فى سجلاّت دار التقريب بين المذاهب الاسلامية التى أسهمنا معكم فى تأسيسها، ووفّقنا الله لتحقيق رسالتها

والسلام عليكم ورحمة الله

محمود شلتوت

اصل سند بزبان

عربى

تاييديه فتوى (بزبان عربى)

تأيید فتوى الشيخ محمود شلتوت من قبل شيخ الأزهر
الشيخ الدكتور محمد الفحام

عكس

العلاّمة القمى مع الدكتور الشيخ محمد محمد الفحّام شيخ الأزهر

عكس

الشيخ محمود شلتوت وعدّة مشايخ من الأزهر الشريف فى لقاء تقريبى فى القاهرة

بعونه وتوفيقه:

ضمن تشرّفى لزيارة المشهد المبارك، مشهد الإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام)، أجد لنفسى نصيباً من الفخر والشرف فوق هذا التشرّف الذى حظيت به، ويتمثّل بثمرة مجهود عمرى فى تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة، ودفقه بالحركة والنشاط والحيوية حتّى أتى أكله فأثمر بإصدار الفتوى التاريخية من قبل الشخصية السنّية الأُولى، ومن أعظم مركز دينى فى عالم التسنّن، فى جواز التعبّد وتقليد **مذهب الشيعة الإمامية**، ممّا كان لهذه الفتوى الأثر الكبير ـ وبمعونة الإرادة الإلهية ونشاط المخلصين ـ فى جذب الاهتمام بمذهب الاثنى عشرية الإمامية، والاعتراف به بعد ١٤ قرن من الخصام.

لقد كانت هذه الفتوى بمثابة **وثيقة تاريخية نفيسة**، جديرة بالرعاية والحفظ والصون. ولذا أتقدّم بخضوع وجلالة إلى صاحب **المشهد الطاهر الإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام)**، الذى هو إمام الفريقين، فأودعها بين يديه، فى الخزانة التابعة لمشهده المقدّس، لعلّه يتقبّل خدمتى هذه، ويحفظها لى ذخراً فى الدارين إن شاء الله.

والسلام الدائم على الإمام
الرؤوف
من القمى
محمد تقى بن أحمد
٢٧ محرّم الحرام ١٣٨٠ هـ

مشهد ـ ايران

عكس

الشيخ القمى أثناء إلقاء كلمة فى جمع من العلماء فى المشهد الرضوى وإهدائه نصّ فتوى شيخ الأزهر حول الشيعة الإمامية

عكس

العلاّمة القمى فى ضيافة مشايخ الأزهر الشريف: مع الشيخ متولّى الشعراوى والشيخ عبدالعزيز عيسى

عكس

الشيخ القمى مع عدد من علماء الأزهر الشريف من مشيخة الأزهر

عكس

ندوة خاصة فى مقرّ دار التقريب بين المذاهب الاسلامية سنة ١٣٤٥ هـ ـ ق فى القاهرة.
الإمام الأكبر) الشيخ أمجد الزهاوى (كبير علماء السنّة فى العراق) الشيخ الحاج أمين الحسينى (مفتى فلسطين) الشيخ الآلوسى (من العراق) الشيخ محمد تقى القمى (مؤسّس دار التقريب ـ فى ايران)

عكس

أعضاء الهيئة العليا لدار التقريب بين المذاهب الاسلامية فى القاهرة.
من اليمين: الشيخ العنانى، الشيخ على الخيف أُستاذ الفقه والأصول فى الأزهر، أحمد على علوية، الشيخ السكى، محمد على علوية باشا،
الشيخ عبدالمجيد سليم رئيس الأزهر، الشيخ محمود شلتوت رئيس الأزهر، الشيخ حسن البنا مرشد الاخوان المسلمين، الشيخ محمد مدنى
رئيس كلّية الحقوق ومدير مجلّة رسالة الإسلام، الشيخ محمد تقى القمى.

عكس

الشيخ القمى فى لقاء مع الدكتور عبدالعزيز كامل والشيخ عبدالعزيز عيسى

عكس

العلاّمة القمى فى أواخر عمره فى المهجر، حين التقيت به فى شقّته المتواضعة فى باريس، فرنسا

قصّة التقريب

أمة واحدة، ثقافة واحدة

للعلاّمة الشيخ محمد تقى القمى

القسم الأوّل

مقالاته الهادفة

ويشتمل على ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: الدين والدنيا
الباب الثانى: قصة التقريب
الباب الثالث: ثقافة التقريب

الباب الأوّل

الدين والدنيا

علاقة العلم بالإيمان

ويشتمل على أربعة فصول :

* الأوّل: الدين فى معترک الحياة
* الثانى: الدين فى معترک الفضاء
* الثالث: ليکن شعارنا المدرسة بجانب المسجد
* الرابع: حياة کلّها هجرة

الفصل الأوّل

الدين فى معترک الحياة

الدين قوة منذ وجد ، ومَثَل تلک القوة کمثل أيّة قوة تظهر فى الأرض فينبرى لها المعارضون والخصوم بغية القضاء عليها ، ويتّجه إليها الطامعون والمستغلّون رغبةً فى استغلالها لمصالحهم ، وفى هذا قضاء على مثله العليا وجوهر رسالته السامية .

والمتتبّع لتاريخ الأديان يلاحظ أنّ أخطر خصوم الدين فى کلّ عصر : جاحدٌ ينکره ، أو مستغلٌّ يريد أن يسخّره . وأمامنا على ذلک أمثلة من التاريخ .

فقد طالما رأينا الدين فى حرب مع منکريه ، ورأيناه فى خصام مع مستغلّيه ، ورأينا الحکّام والسياسات تلتمس فيه سنداً وعوناً ، ورأيناه فى خدمة حاکم أو سياسة ، والويل للدين إن استغلّ فى خدمة أشخاص أو سياسات .

والتاريخ يحدّثنا عن الحروب الدامية بين الدين ومنکريه ، وعن ملوک حکموا باسمه ، لا اعتناقاً لمبادئه ، بل استغلالاً لقوته الهائلة کى يظفروا على عدوّهم ، أو يطمئنّوا على مجدهم ونفوذهم ، ويعيشوا بعونه فى راحة وهناءة .

وکان الحکّام يخالطون الکهنة أو يندمجون فيهم لا لشىء إلاّ رغبة فى السيطرة على النفوس باسم الدين ، کى يجذبوهم إلى خدمتهم فى شتّى الميادين .

وکان الملوک يهدفون إلى تسخير الدين حين کانوا يتّشحون بأثواب القداسة ويرأسون الديانات . وقد أسرف بعضهم فى ذلک وحاول أن يفيد من ديانتين متباينتين فى وقت واحد ، کما فعل قسطنطين ، الذى لم يکتف بأن يکون الکاهن

الأعظم فى الديانة الوثنية السائدة ، بل كان فى نفس الوقت حامى المسيحية وناشر فكرتها ، ومؤسّس القسطنطينية مركز الكنيسة الرومانية الشرقية .

على أنّ الدين رغم ما واجه من عنت خصومه ومستغلّيه فى كلّ عصر ، ظلّ قوى النفوذ ، واسع السلطان ، مسيطراً على القلوب ، وذلک لأسباب ، أهمها : أنّ العلم كان بيده ، بل كاد يكون احتكاراً لرجاله على مدى العصور .

ولا نريد أن نوغل فى القديم أكثر من هذا ، لنذكّر القارئ بآثار كهنة سومر ـ أقدم الديانات ـ أو كهنة بابل ، أو غرائب علوم كهنة مصر ، أو أسرار مؤبذان فارس ، أو ما إلى ذلک ، بل حسبنا أن نذكّره بأنّ العلم كان بيد الكنيسة المسيحية ، وأنّ الإسلام جعل للعلم قداسة كالدين ، فكان كلّ درس يبدأ باسم الله والتعوّذ من الشيطان الرجيم ، وكان طلاّب التفقّه فى الدين يدرسون الفلسفة والرياضة والفلک والطب والكيمياء ، كما كانت المعاهد الدينية هى نفسها مدارس علوم الحياة ، وعلماء الدين هم أساتذة تلک العلوم .

لكن معاهدنا الدينية الإسلامية هجرت كلياً علوم الحياة ، كما أنّ الغرب المسيحى انحرف عنها إلى حدٍّ كبير وإن ظلّت المدارس الدينية فى بعض بلادهم تساهم مساهمةً كبيرةً فى تثقيف الشباب مع صبغهم بروح الدين ، والدليل على ذلک ما قرأناه فى الصحف بالأمس القريب عمّا وقع فى بلجيكا البلد الأوربى المتحضّر ، تحت عناوين بارزة مثيرة مثل : «بلجيكا على أبواب حرب أهلية» ومجمل الخبر أنّ الحكومة البلجيكية خفّضت المعونة التى تقدّمها إلى المدارس الكاثوليكية ، وأنّ هذا أثار أغلبية الشعب ـ وهم تلاميذ تلک المدارس طبعاً ـ فاحتشدت مظاهرة فى الشوارع من مائة ألف كاثوليكى ، فيهم رئيس وزارة سابق ، احتجاجاً على هذا التصرّف .

ولقد وقفت أمام هذه الأنباء إلى شغلت الرأى العالمى أياماً وقفةً طويلةً ، وقرأت فيما بين السطور قوة الدين ومركز رجال الدين كأساتذة الجيل ، وقارنت بين ربطهم الدينى بالحياة ، وبين ما نحن عليه الآن .

ومنذ زهد رجال الدين فى علوم الحياة ، بدأ العلم يشقّ طريقه غير آبه بالدين ولا حافل به ، وبدأ الشبّان يفهمون أنّ العلم شىء والدين شىء ، وانصرفوا بكل عقولهم إلى العلم ، وانصرفوا بكل قلوبهم عن الدين ، حتّى أصبحنا الآن أمام علماء يسخّرون كلّ ما فى الطبيعة لإثارة الشهوات ، وإشاعة جوٍّ من الرذيلة ، وهاهم يشتغلون ليلاً ونهاراً خفيةً وجهراً ، ليطلقوا الذرّة ، وليس يهمهم أن يدمّر ذلک قارةً بأكملها ، ثم هم يتسابقون فى صنع صواريخ تطلق فى الجو فتهلک الملايين بأشعّتها دون أن تهوى إلى الأرض ، ولا يأبهون أن ينزل العذاب والشقاء بالبشر أجمعين .

والعلم سلاح قوى خطر ، إن وقع فى يد الفضلاء نفعوا به الناس ، والتمسوا به الخير ، وأناروا به البصائر ، وهدوا به إلى عظمة الخالق ، وإن وقع فى يد السفهاء آذوا به كثيراً ، وأضرّوا به كثيراً ، وجرّوا به على البشرية أفظع الشرور .

وقديماً فطن العلماء إلى هذه الحقيقة ، فالتزموا قواعد لم يحيدوا عنها طوال العصر ، ضمنوا بها بقاء العلوم فى يد الأخيار من أهل الفضيلة ، فحفظوا البشرية من الشرور ، فكهنة بابل ومؤبذو فارس كانوا لايبوحون بأسرار علومهم لمن ليس أهلاً لها ، ومن لا يُطمأنّ إليه ; خيفة أن يؤذى به أحداً من الناس ، وكهنة مصر كانوا يقولون : إنّ سرّ الموت والحياة هو سرّ الأسرار ، ولابد أن يبقى سرّاً وإلاّ خربت الأرض ومن عليها .

وهكذا فقد العلم فى عصرنا صمام الأمان وهو الدين ، وانتقل سلاح العلم من أيدينا إلى أيدى غيرنا ، وتحوّل هذا السلاح النورانى من خدمة الخير المطلق ، وسخِّر فى خدمة الشرّ المدمّر .

فماذا فعلنا نحن رجال الدين؟ إنّ الشقّة بيننا وبين علوم الحياة ظلّت تتّسع حتّى وصل الأمر إلى أنّه لو عرض على طالب جامعى أن يدرس فى معاهد الدين لبهت وأخذ كأنّما أُنذر بالموت ، هذا بعد أن كانت المعاهد إلى زمن غير بعيد تلحق بالمساجد .

إنّ الدين كقوة فقد كثيراً من جنوده بتسريح الشباب من ميدانه ، وباعتزال رجاله معترك الحياة بعد أن كانوا يعيشون فى صميمها ، ويأخذون بيدهم التعليم وهو ضرورة للإنسان كالماء والهواء ، بينما خصوم الدين ومستغلّوه الذين كانوا فى الماضى أفراداً أو جماعات متفرّقة أو حكومات محلّية محدودة القوى ; تحوّلوا إلى كتلتين عالميتين ، إحداهما تحاربه حرباً عنيفة قاسية ، والأخرى تحاول أن تستغلّه استغلالاً كاملاً ، وكلتاهما تؤذى الدين ، وتقوّض دعائمه ، وتعصف بكل مقوّماته عصفاً .

نعم ، لقد أصبح الذين فى العصر الحديث بعد ما ارتبطت أجزاء العالم المتباعدة يواجه كتلتين قويتين تشملان العالم تقريباً : كتلة تنكره ، وتبنى سياستها على محوه ، وتحاربه بشتى الوسائل ، وتصفه بأنّه مخدّر و«أفيون» للشعوب ، وتسفّ فى التعريض به ، وتعزو إليه كلّ جدب يصيب النفوس وكلّ نقص يصيب الزروع .

وكتلة أخرى تظهر بمظهر المؤيّد للدين ; رغبةً منها فى استغلاله ضد غريمتها ، فهى تعمّر المعابد ، وتشجّع على بناء الكنائس ، وتسرف أحياناً فى هذا إسرافاً كثيراً [1].

وهذه الكتلة التى تتظاهر بتأييد الدين ، هى نفسها تتحفنا بأفكار وتقاليد وتصرّفات أقلّ ما يقال فيها إنّها تبثّ روح الاستخفاف بالدين ، وتغرى الناس بالخروج على تقاليده وتعاليمه.

أليس فى تصرّفاتها بفلسطين الشهيدة دليل على الاستخفاف بالمسيحية والإسلام ؟

أليست هذه الكتلة تفسد الشباب وتصرف الناس عن الدين بما تنشره من

---

١ . يدلّ عليه ما نشرته أخيراً إحدى النشرات الفرنسية تحت عنوان : أكبر لوحة زجاجية فى العالم حيث تقول : أوصت إحدى الكنائس الامريكية خبيرين فرنسيين من مقاطعة «بريتانى» بصنع أكبر لوحة زجاجية ستزدان بها إحدى واجهات الكنيسة ، وسيكون طولها ٤٠ متراً وارتفاعها ١٧/٥ مترا ، وقد سبق للخبيرين المذكورين أن صنعا لوحة زجاجية أخرى بديعة لإحدى الكنائس بكندا !!

أفلام داعرة ، وأفكار انحلالية ؟

ثم إنّنا كرجال للتقريب ، نرى أيادى تلك الكتلة ـ مع الأسف ـ فى النشرات المفرّقة ، والمحاولات البارعة لإيجاد الخلاف أو توسيع شقّته بين أبناء الدين الواحد ، وفى مقاومة أيّة فكرة تهدف إلى جمع الكلمة ، وأخيراً نرى هذه الكتلة لا تروّج غير الخرافات ، وهى وحدها كفيلة بالقضاء على الدين .

هذا هو وضع الدين فى العالم ومركزه فى معترك السياسة العالمية ، ونصيبه من بطش الكتلتين العالميتين اللتين تهدّد كلٌّ منهما الأخرى وتبغى إفناءها ، واللتين تجرّان على العالم كله القلق الشامل ، والاضطراب الزائد ، والخوف وعدم الثقة .

والدين وحده يستطيع أن يتحكّم فى هذا الموقف ، ويتغلّب على الأهواء البشرية وهستريا الحرب ، ويردّ الطمأنينة إلى النفوس . ولكن كيف يمكن من أداء رسالته كقوة معنوية يحسب حسابها ، وترجع بالبشرية إلى صوابها؟

سؤال ليس من السهل الإجابة عنه فى بقية مقال ، إلاّ أنّ ذلك لا يمنعنا من أن نشير إليه فى عرض سريع ، وسوف نعود إلى تفصيله فيما بعد إن شاء الله .

التعليم كان سلاحاً بيد رجال الدين ، والعلم والدين لم يفترقا إلاّ فى أوقات لا تكاد تُذكر ، والتُثقّف والتديّن كانا دائماً متلازمين ، ولم يكن الدين يعرف بدعة القديم والحديث ، ولا كان العلم ينتزع الشباب من أحضان الدين .

اعتزلنا وأوجدنا قديماً وجديداً . قدّمنا سلاح التعليم لأنصار الجديد واكتفينا بأن نحافظ على القديم ، وبذلك سرّحنا جنودنا من الشباب ، وتركناهم مطيّة لغيرنا ، وعرضةً ليكونوا يوماً حرباً علينا.

نحن أمام جيل جديد ، فماذا أعددنا لهم اليوم لنضمن صلتهم بالدين غداً ؟

إنّ المعاهد انفصلت عن المعابد ، والمساجد ابتعدت عن المعاهد ، وبذلك انحرف العلم عن قدسيّته ، والدين عن رسالته ، ولا خلاص إلاّ أن نهتم بالمعاهد اهتمامنا بالمساجد ، بل لا نبنى مسجداً إلاّبنينا بجانبه معهداً ، ولا معهداً إلاّ بنينا

معه معبداً ، فليعدّ طلبة الدين أنفسهم ليكونوا رجال التعليم ، وبذلک يفتحون آفاقاً جديدة ، ويخدمون العلم كما يخدمون الفضيلة ، ويكتسحون المكاتب والمدارس والجامعات ، وينشئ منهم من يستطيع مدرسةً أو مكتباً ، وممّا لاشکّ فيه أنّهم بعملهم هذا يضمنون للدين قوةً وبقاءً ، وللبشرية سلامةً وأماناً ، ولأنفسهم مكانةً تليق بهم فى حاضرهم ومستقبلهم ، والله يوفّق العاملين .

الفصل الثانى
الدين فى معترک الفضاء

الحقيقة الثابتة

ليس فى عالمنا حقيقة واقعة ثابتة كحقيقة الدين ، قاوم كلّ حرب ، وصدّ كلّ هجوم ، وانتصر على كلّ عدو ، وبقى حيّاً مزدهراً على مدى القرون .

حاربه الملاحدة ، لأنّه لا يعجبهم ، وذهب الملاحدة وبقى الدين. وحاربه الجبابرة ، لأنّ فى بقائه كسراً لشوكتهم ، وذهب الجبابرة وبقى الدين. وحاربه الذين استغلّوه ليصلوا بواسطته إلى الحكم ، فلمّا استقرّ لهم الأمر بطشوا به وطاردوه ، وكانوا أشدّ عليه وطأةً من كلّ عدوّ ، وذهب المستغلّون وبقى الدين .

حاربه كلّ هؤلاء ، وكانوا يعنفون فى حربه ، لأنّ نصوع حقيقته ، وشدّة حيويته ، وقوة تأثيره فى الناس ، كانت تشكّل أكبر خطر عليهم ، وتهدّد نفوذهم وسلطانهم بالزوال.

بل أنّ حربهم إيّاه بلغت فى فترات من التاريخ غاية الشدّة ، حتّى لقد خشى المؤمنون ألاّ يبقى على الأرض من يعبد الله ويوحّده .

ثم ذهبوا جميعاً ، بجيوشهم وبربريتهم ، وخلت الأرض منهم ليصبح ترابها معابد ومساجد للعابدين والساجدين .

ثم جاء القرن الأخير ، وظهرت فيه المذاهب والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية المستحدثة ، التى تقوم على المادّية الخالصة ، أو على الإلحاد السافر وإنكار الله .

وزعم أصحاب هذه المذاهب أنّ مبادئهم تحقّق السعادة للبشر ، ولكنّها عند

التطبيق ظهر عجزها وقصورها ، وعدم جدارتها لإدارة شؤون العباد ، بحيث اعترى الكثير من مبادئها التغيير والتبديل ، وربّما الالتحام مع مبادئ من يعارضونها .

وقد تعرّض الدين لهجمات هذه الكتل الكبيرة المارقة ، فتعطّلت الكنائس فى بلاد ، وتعطّلت المساجد فى بلاد أخرى .

فماذا كانت النتيجة؟

إذا كان لكل مائة أو مئات كنيسة أو مسجد يجتمعون فيه ، فقد صار لكل واحد مسجد أو كنيسة بناها فى قلبه .

وإذا كانت الشعائر قد تعطّلت أو أهملت بفعل البيئة ، فإنّ جوهر الدين ـ وهو الإيمان بوجود قوة فوق القوى ـ قد بقى فى القلوب سليماً ، أدرک الإنسان ذلک وأحسّ به أو فاته إدراكه بتأثير الدعايات .

أى أنّ النتيجة كانت على عكس ما ذهبت إليه الظنون ، ومن الأحداث ما يكون له أثر كبير فى تقوية الدين ، بل فى إحيائه وإن لم يكن ميتاً فى وقت من الأوقات .

وستذهب هذه النظم المستحدثة ، لعجزها عن إسعاد البشر . وستختفى من الوجود هذه المذاهب التى قامت على المادية أو الإلحاد .

ولن يبقى على تلک المذاهب والنظم تقدّم العلوم فى تلک البلاد ـ كما يظنّ كثير من الناس ـ لأنّ العلم لا يعارض الدين ، فضلاً عن أنّ كثيراً من العلوم من شأنها أن تدفع أهلها إلى الإيمان بالله .

الذرّة والكون

ومن عجيب الصدف اشتغال العالم فى نصف القرن الأخير بالذرّة وبالكون ، أىّ بأصغر شىء وبأكبر شىء فى الوجود .

أمّا الذرة ، فهى أصغر لبنة يمكن أن تنقسم إليها العناصر مع احتفاظها بخصائصها المختلفة، وقد تمكّن الإنسان من تحطيمها ، وكانت النتيجة الملموسة

فضيحة «هيروشيما».

ولعلّ الإنسان لم يكن يدرك الدمار الذى يحدثه التفجير النووى ، فلمّا رآه رأى العين بدأ يخافه ويرهبه ، ويدعو إلى التعايش السلمى ليدفع عن نفسه خطر هذا المارد الجبّار .

وأمّا الكون ، فإنّه أوسع ممّا يتصوره أىّ عقل ، أو يحدّه أىّ حدّ . والإنسان حين أراد أن يشرف هذا الكون غير المتناهى بقدومه ، أنفق فى سبيل ذلک مبالغ طائلة كانت تكفى لإسعاد كثير من البشر ، وسخّر فى العمل لهذه الغاية أكثر من اثنى عشر ألف عالم ، وأجرى التجارب الباهظة التكاليف سنين عديدة ، وأرسل الأقمار الصناعية بعضها فى إثر بعض ، فعل ذلک كله لكى يطأ برجله القمر .

ويتساءل الكثيرون : ماذا يكون مستقبل الدين بعد أن وجد الإنسان فى نفسه الجرأة على تحدّى الكون؟ .

والجواب : أنّ كثيراً من العلوم من شأنها إن تقدّم فيها الإنسان : أن يحسّ بعجزه وضعفه ، وأن يتوجّه بصورة إرادية أو لا إرادية إلى الله .

كثير من الأطباء دخلوا قاعات الطب غير مؤمنين ، وخرجوا منها وهم أشدّ ما يكون إيماناً بقدرة الله . كثير من الفلكيين دخلوا المراصد غير مؤمنين ، وخرجوا منها وهم أشدّ ما يكون إيماناً بعظمة لله . كثير من علماء الفيزياء دخلوا المعامل غير مؤمنين ، وخرجوا منها وهم أشدّ ما يكون إيماناً بسلطان الله .

وعلوم الفضاء لها الصدارة على كلّ العلوم ، ولابدّ أن تنتهى بأصحابها إلى الإيمان واليقين ، والاعتراف بعظمة الخلاق وربوبيته .

ومع ذلک ، لننظركم تقدّم الإنسان بسفره إلى القمر ، وهل هو حقيقة تحدّى الكون أو سخّر الفضاء؟

كلنا نعرف أنّنا نعيش فى الكرة الأرضية ، وهى سيارة من السيارات التسع التى تدور حول الشمس ، والقمر سيارة أخرى أصغر من الأرض ، والشمس بدورها تجرى فى مدار خاصّ بها ، تدور فيه حول مركز مجرّتنا الطريق اللبنى

ـ أو التبنى ـ وتكمل دورتها حول المجرّة فى ٢٥٠ مليون سنة ، ومعروف أنّ مجرّتنا هذه ليست من كبريات المجرّات ، بل هى واحدة من مجرّات تعدّ بالبلايين ، وكلّ مجرّة منها قوامها مئات آلاف الملايين من النجوم والشموس والكواكب .

هذه كله بالنسبة لعالمنا المرئى ، ومن الممكن وجود كثير من المجرّات خارج النطاق الذى عرفناه ، فقد يتعدّد وجود الأكوان بحيث يفوق الوصف والخيال .

فالكون وسيع إلى درجة أنّ العلماء جعلوا مقياس المسافة فيه السنة الضوئية ، والضوء كما نعلم يقطع فى كلّ ثانية ٣٠٠ ألف كيلو متر !

النظام الأتمّ

وهذا الكون الوسيع يحكمه نظام دقيق ، يعجز البشر عن التفكير فيه لدقّته .

فكل شمس ، وكلّ نجم ، وكلّ كوكب ، وكلّ مجرّة تدور فى دائرة محدّدة ، لاينحرف واحد منها عن دائرته ، ولايبطئ فى سيره ، ولايسرع عن مألوفه ، ولايتخلّف عن حركته واحد من المليون من الثانية .

والنظام الذى يتحكّم فى هذا الكون الوسيع ، من أرضنا التى هى تحت أقدامنا إلى كواكب فى مجرّة تبعد عنّا بمليونى سنة ضوئية ، هو النظام الأتمّ الذى عجز الإنسان بالأمس عن التفكير فيه لدقّته ، ولمس اليوم كماله وروعته بخروجه إلى الفضاء ، على ضآلة المسافة التى قطعها فيه .

ويكفى دليلاً على تفاهة ما وصل إليه الإنسان أن نذكر أنّ المسافة بيننا وبين القمر تقرب من ٢٤٠ ألف ميل ، لو حسبناها بحساب السنة الضوئية ، وهى المقياس المألوف لقياس الفضاء ، لوجدنا أنّها تقطع فى ثانية وربع الثانية ، فإذا وضعنا إلى جانب ذلك أنّ بيننا وبين المجرّة المتسلسلة مليونى سنة ضوئية ، أدركنا تفاهة ما وصلنا إليه بالنسبة إلى سعة الكون العظيم .

فهل يحقّ لنا أن نزعم أنّنا غزونا الفضاء ، أو ندّعى أنّنا سيطرنا عليه؟

إنّ مثل الإنسان فى صعوده إلى القمر كمثل طفل صغير يحبو ، تمكّن بعد

جهد شديد من صعود درجة واحدة فى سلّم عمارة شاهقة ، فلمّا استقرّ على هذه الدرجة ، جعل ينظر إلى نفسه بإعجاب ، وينظر إلى ما حوله بغرور ، وهو يحسب أنّه سيطر على العمارة الشاهقة ، مع أنّه لم يعرف شيئاً عن ارتفاعها ، ولا عن هندستها ، ولا يعرف لماذا بنيت ، وكم عدد الأدوار فيها .

يقول بليفون العالم الشهير : «إنّ الكون كله بنجومه المختلفة الأحجام التى لاحصر لها ، والتى تندفع فى جميع الاتّجاهات كأنّها شظايا قنبلة متفجّرة ، صورة لا يكاد المرء يتخيّلها حتّى يدركه البهر وتنقطع أنفاسه ، ولكن يبدو أنّ الأجدر أن يبهر ويقطع الأنفاس هو رؤية هذا الكائن البشرى الضئيل الذى يعيش على شظيّة من شظايا نجم صغير فى زاوية حقيرة من زوايا مجرّة لا تختلف شيئاً عن الملايين من أمثالها ، هذا الكائن يجرؤ على أن يسمو ببصره إلى أطراف الفضاء ، ويجرؤ فيتحدّى ، ثم يجرؤ فيحاول أن يعرف الكونّ» .

رسالة السماء

إنّ الإنسان لتعتريه الحيرة كلّما تعمّق فى هذا الكون ، وإنّ حيرته لتبلغ منتهاها حين يرى أنّه حتّى بالنسبة لما وفّق فيه ، كنزوله على القمر ، أو إرساله الصواريخ إلى الزهرة أو المريخ ، يجد أنّ هذا التوفيق مرهون بالنظام الدقيق فى حساب الكون ، فلو كان هناك تخلّف بمقدار ثانية فى دوران القمر ، أو تغيّر طفيف فى اتّجاهه ، هل كان الإنسان يمكنه أن يدرك القمر وأن ينزل عليه؟ لو أنّ لحظة من التأخير أو السرعة طرأت على حركة القمر ، لبقى الإنسان يتيه بسفينته فى الفضاء دون أن يبلغ مايريد .

فتوفيق الإنسان فى وصوله إلى القمر ، أو فى وصول صواريخه إلى المريخ والزهرة ، هذا التوفيق نفسه يعتمد كلّ الاعتماد على النظام المحكم الدقيق الذى يسيطر على كلّ الأجرام السماوية ، صغيرها وكبيرها ، ويجعلها تسير فى مداراتها دون أن يطرأ على حركتها أدنى اختلال ، كأنّما هى عقارب ساعة تتحرّك على مينائها بغاية الدقّة وبغاية الانتظام .

واعتماداً على هذا النظام المحكم الدقيق ، لم يكن على الإنسان إلاّ أن يحسب المدّة والطاقة ، ويضع لسفينته الأوصاف التى تضمن لها قوة المقاومة للجاذبية والضغط ، لتصل إلى النقطة التى يريد ، وهذه النقطة تبدو لشدّة الضبط وكأنّها نقطة ثابتة تنتظر وصول سفينة الفضاء .

بغير هذا ، هل كان يمكن للإنسان أن يحسب ويقرّر أنّه فى يوم كذا ، وفى الساعة والدقيقة والثانية كذا ، يمكنه أن يدرک القمر فى جانبه المنير أو جانبه المظلم ، يطابق حسابه الواقع؟

واعتماد الإنسان على دقّة النظام الكونى والانتفاع به ، لا يعنى أنّ الجهود التى بذلت فى رحلات الفضاء كانت هيّنة أو ضئيلة . كلاّ ، بل أنّ علماء الفضاء قد بذلوا جهوداً جبّارة مضنية ، وقد حقّقوا انتصارات علمية كبيرة .

فالتغلّب على الجاذبية ، والانفلات من سلطانها هو انتصار علمى كبير ، وخروج الإنسان إلى مجال انعدام الوزن والسبح فيه هو انتصار علمى كبير ، ومعرفة الضغوط المتباينة فى مختلف الأجواء هو انتصار علمى كبير ، وإرسال سفينة تخترق الأجواء ، وتحتمل الضغوط ، وترسو على القمر ، هو انتصار علمى كبير ، والتحكّم فى مسيرة سفن الفضاء ذاهبة وآيبة هو انتصار علمى كبير .

وهذه الانتصارات العلمية لا تدلّ فقط على الجهود الضخمة التى بذلها علماء الفضاء ، بل تدلّ كذلک على النبوغ والعبقرية والعلم الغزير .

وليس من شکّ فى أنّ هذه الانتصارات العلمية قد نقلتنا فى مجال المعرفة من نطاق الفروض والظنون إلى الحقائق المسلّمة والواقع الملموس ، ومثل هذه النقلة العلمية الكبيرة قد تورث النفس البشرية الحيرة ، وحين تبدأ الحيرة تبدأ رسالة الدين ; وواجب العلماء أن يهتبلوا فرصة حيرة البشر ليضعوا أمام الحائرين قدرة خالق الكون الكون العظيم . ولن يستطيعوا أداء هذا الواجب إلاّ إذا تتبّعوا الحركة العلمية ، وعنوا بدراسة علم الكون أو علم الفضاء عنايتهم بدراسة علم التوحيد ليستعينوا بذلک على تثبيت معالم الإيمان .

أمّا إذا تقوقعوا على أنفسهم ، وظلّوا سادرين عن كلّ ما يجرى حولهم ، وعاشوا على معارف قديمة تناسب قروناً مضت ، فويل لهم من هذا التقصير ، وويل للبشرية من علم متمرّد طليق .

إنّ عصرنا هذا سمِّى بعصر العلوم ، ثم سمِّى بعصر الذرة ، وسمِّى أخيراً بعصر الفضاء ، وأرى من الإنصاف أن نسمِّيه عصر التبحّر فى عظمة الله ، وبالتالى عصر التمهيد لمعرفة الله والإيمان بقدرته التى لا تقف عند حدود (سَنُرِيهِمْ آياتنا فِى الآفاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)[1] .

---

١ . فصّلت : ٥٣ .

الفصل الثالث

ليكن شعارنا المدرسة بجانب المسجد

إنّ علاقة الدين بالمجتمع كثيراً ما تتعرّض لأزمات ، وتطرأ عليها تطوّرات . فالمجتمع تارةً يكون متمسّكاً بدينه متحمّساً له ، وكان الدين عنده كلّ شيء ، وتارة أخرى يقع ـ نفس المجتمع ـ فى فوضى خلقية، وكأن لم يكن بينه وبين الدين صلة، حتّى أنّه ليسخر من معتقداته السابقة ، ويعتبر المادة كلّ شيء ولا شيء سواها .

إنّ الدين فى الغالب يظهر فى أحلك الأوقات وأشدّها حيرة ، فعندما تتحكّم الفوضى ، وتسود المادية ، وتنبذ الفضائل ويتنكّر للمثل ، يظهر الدين فيجمع نفراً على عقيدة ، ويوحّد كلمتهم ، ويوجّههم إلى الفضيلة وإلى الخلق وإلى المثل ، ويتّخذ من مساوئ المجتمع أدلّة على الحاجة إلى الأخذ بتعاليمه ، ويحرص فى كلّ ما يأتى به على توجيه معتنقيه إلى قوة فوق البشر ، تجزى الخير بالخير والشرّ بالشرّ .

فإذا خرج بأتباعه من الحيرة والفوضى ، ونظّم الصلات بينهم على أُسس من الفضيلة ، كان من الطبيعى أن يتكوّن منهم مجتمع سليم يتمتّع بقوة روحية وأدبية ، وفى مثل هذا المجتمع تهدأ النفوس وتنصقل العقول ، وهدوء النفس وانصقال العقل يمهّدان السبيل للمعرفة ، بل أنّ الدين نفسه يوحى بالمعرفة ويغرى بها . والدليل على ذلك أنّ روّاد العلوم كانوا غالباً من رجال الدين .

والدين أول ظهوره فكرة تقدّمية ، تلاقى ـ لمدة من الزمن ـ معارضة عنيفة من أنصار التقاليد البالية الذين يستمسكون بالقديم لأنّه مألوف ، وفى المعارضة

قوة ، وكم من أفكار إصلاحية تدين فى بقائها ونجاحها للمعارضة له ، وعندئذ يطمئن رجاله ، فيبطئون فى السير اعتماداً على سابق الفوز ، أو يقعدون عن العمل اغتراراً بما بلغوا من مكانة ، ويكتفون بالدفاع عن ماض مشرق بدل أن يهتموا بما يدور حولهم فى حاضر له ما بعده ، فإنّ الدنيا بطبيعتها متطوّرة ، وكلّ لحظة منها يمكن أن تكون مولد فكرة جديدة ، ولكل فكرة ــ مهما كانت ــ نهجها وأنصارها ، كما أنّ للغرائز آثارها ، وللفوضوية عشّاقها ومؤيّديها ، فالظروف تتبدّل ، والأفكار تتغيّر ، والمعارف قد تنطلق من مدارها الخلقى وتصطدم بالدين إن غفل رجاله عن سنّة التطوّر أو تخلّفوا عن ركب الحياة ، وبمقدار ما تتقدّم المعارف تتضاءل رقابة رجال الدين وتضعف آثار معارضتهم ، حتّى ينتهى الأمر بتقسيم المعارف إلى مدنية ودينية ، ثم تطغى المدنية فتفرض أنظمتها على أخصّ شؤون رجال الدين ، مثل الطلاق والنكاح وإجراء العقود ، وتجعلها دنيوية بحتة .

بهذا الأسلوب يأخذ العلم طريقه إلى رجال غير دينيين ، وتلامذة اليوم هم رجال الغد ، وعلى هذا الأساس يقوم الفصل بين العلم والدين ، وبين الجديد والقديم ، ولايقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل أنّه يتطوّر إلى اعتبار الدين سدّاً فى وجه التقدّم العلمى ، ثم ينتهى بتحويل الفلسفة والأدب من خدمة الدين والعواصف الدينية إلى معاكسة الدين والنيل من رجاله ، وهنا يظهر التدهور الخلقى ، والاستهانة بالقيم ، وإنكار المثل ، وجحد العقائد ، وبذلك يتم الفصل بين القديم والجديد ، وينشأ التعصّب القديم ، والافتتان بكل ما هو جديد ، وتسود الفوضى الأبيقورية .

إنّ الدين من غير علم ــ إنّ صحّ هذا التعبير ــ لا ينمو فى ظلّه إلاّ الخرافات ، والعلم من غير دين لا يجرّ سوى النكبات والاضطراب والفوضى ، والمجتمع اللادينى ينتهى دائماً بالسقوط فى هاوية المادية ، ولكنّه بكل أسف يجرّ معه الدين أيضاً .

هذه هى السيرة الطبيعية لازدهار الأديان وذبولها ، ما لم تجد عوامل لها تأثيرها تساعد الدين على النمو أو تسرع به إلى الاندثار ; كالحروب والسياسات . ومن هذا يبدو جلياً أنّ نقطة التحوّل الحقيقية تبدأ عند فصل التعليم عن الدين ، وكم كان رجالنا الأقدمون حكماء حين بنوا المدارس بجانب المساجد ، فإنّه مهما تطوّرت تلك المدارس بتطوّر العلوم ، بقى الدين فى مركز الموجّه ، وبقى السلطان فيها للفضيلة، وللفضيلة وحدها ، والدين صمّام الأمان للعلوم ، به لا تنحرف عن كونها نوراً يضىء للبشرية ، ولا تنجرف إلى خدمة الشرور والآثام .

إنّ التجاوب بين الدين والمجتمع لابد أن يأتى من دور التعليم ، وهناك حقيقة تؤيّد ذلك لمستها بنفسى ورأيتها بعينى فى آخر أسفارى إلى الخارج ، ففى قرية كبيرة أو بلدة صغيرة هى إحدى المراكز الجبلية التى يؤمّها المصطافون ، رأيت قسّ القرية هو صاحب الكلمة فى مواطنيه وموضع التكريم والاحترام ، وكان كثير التودّد إلى القادمين والمصطافين ، يزور كثيرين منهم ، ويعرض خدماته على الجميع ، سألته ـ ونحن فى أحد شوارع البلدة بعد أن لمست ترحيب الشيوخ والشبّان به ـ عن سرّ هذا الترحيب ، فما كان منه إلاّ أن أشار بيده إلى بناية قريبة وقال بالفرنسية مامعناه : هذه البناية كنيسة ، وبجانبها مدرسة كما ترى ، فنحن نربّى هؤلاء صغارا ونربطهم بالكنيسة ، فينشؤون متديّنين ، فهم تلامذتنا ومريدونا .

هذا مارأيته فى بلد لا دينى ، يكثر فيه السيّاح ـ وللسيّاح تأثيرهم ـ ورغم هذا فقد نجح الرجل أيّما نجاح فى ربط قلوب التلاميذ بالدين . وهو فيما عمل لم يجاوز ما كان يعمله المسلمون قديماً من جعل المدرسة بجانب المسجد .

إنّ العالم الذى نعيش فيه ملىء بالأفكار الهدّامة ، مشحون بالسياسات المختلفة ، منها ما هى إلحادية صريحة ، ومنها ما تؤيّد الدين فى الظاهر وتهدمه فى الحقيقة ، وقد يلبس الإلحاد مظهر الدين، وتبرز الأخرى عداءها له حسب

المصالح والأهواء .

وهذه السياسات هى التى ضخّمت الخلافات بين المسلمين ، ولا تزال تغذّى إلى الآن هذه الناحية ، تارةً بنشر البحوث باسم الاستشراق ، وتارةً بتشجيع النشرات المفرّقة ، كما تُظهر الأمة الإسلامية بمظهر الأمم المختلفة ، والحال أنّها أمة واحدة .

فلماذا لا نتسلّح نحن بهذا السلاح ، فنتناول بالبحث ما يتناولونه لكى يقف المسلمون على الحقائق ، فلا يتأثّرون بما يقرؤونه للمغرضين من عملاء السياسات المفرّقة ، وبذلك ندفع عن ديننا ما يشوّه سمعته ، وندرأ عن أمتنا ما يمزّق شملها .

لماذا لا ندرس أحوالنا ، ونتعرّف شؤوننا ، ونحدّد موقفنا من العالم؟

لماذا يقف الكثير منّا فى بحوثهم عن الطوائف الإسلامية عندما كتب قبل قرون عن الملل والنحل بما فيه من خبط وتشويه ، بدل أن ننظر حولنا ، ونتعرّف ما فى مجتمعنا ، ونأخذ عن الواقع الراهن ؟

إنّ خطر هذه السياسات على مجتمعنا الإسلامى ظاهر واضح ، والحرب الأخيرة لاتزال آثارها ـ من انحلال خلقى وتحلّل ـ تعمل عملها ، والدين هو القوة الفعّالة التى يمكن أن تنقذ البشرية ممّا تردّت فيه ، ولكن المثل وحدها لا تسود إلاّ إذا حملها دعاة مخلصون يجلونها للناس ، ويبرزونها للأعين ، ورجال الدين هم أهل هذه الرسالة ، والمسؤولون عن هذه الأمانة ، فإن توانوا أو قصّروا فستظلّ السياسات تعبث بنا ، وتعمل عملها فينا ، وتفرّق كلمتنا ، وتحطّم كياننا ، وإذا كانت فى الماضى القريب قد أوجدت فرقاً وألصقتها بالاسلام زوراً ، فإنّها فى المستقبل سترمينا بما هو أدهى وأمرّ ، ولن ينجينا من المصير المحتوم إلاّ أن نهبّ ونعمل لنصل ما انقطع بين العلم والدين ، وليكن شعارنا : المدرسة بجانب المسجد .

الفصل الرابع
حياة كلّها هجرة

يذكّرنى شهر الحج بالهجرة ، لأنّ المسلمين يهاجرون فيه إلى مكة ، ولأنّ مكة ـ فى نظرى ـ هى رمز الهجرة ، فأول من نزل بقعتها مهاجر ، وأول من تفجّر له الماء فى أرضها مهاجر ، وأول من رفع قواعد البيت فيها مهاجر ، (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ)[1] » .

والرابطة قوية بين هجرة المسلمين إلى مكة ، وهجرة الرسول منها ، فمكة التى تتّسع اليوم لمئات الآلاف من الحجيج ، لم تتّسع بالأمس لرسول الله وصحبه ـ على قلّة عددهم ـ وضاقت بهم ذرعاً .

والنفس تألف الحديث عن الهجرة لما فيه من لذّة وسمو ، ولأنّ الإنسان يألف الهجرة من طول ما تلازمه ، فحياته سلسلة من الهجرات الطبيعية ، ففى بطن أمه يهاجر من النطفة إلى العلقة إلى المضغة ، إلى نهاية أطوار تكوينه السبعة المعروفة . ثم يخرج إلى الدنيا ، فيتنقّل من منزل إلى منزل ، ويهاجر من طور إلى طور .

ويتّفق الفلاسفة والعرفاء والطبيعيون على حدوث هذه الهجرة وإن اختلفت نظرتهم إليها ، وتسميتهم إياها .

فالحكماء يعبّرون عنها بالعقل الهيولانى ، والعقل بالفعل ، والعقل بالملكة ، والعقل المستفاد ، ومقام القلب ، ومقام الروح ، ومقام النفس .

والعرفاء يسمّونها بالمقامات ، وهى : الطبع والصدر والقلب والروح والسرّ

---

١ . البقرة : ١٢٧ .

والخفىّ والأخفى .

والطبيعيون يعرّفونها بالأطوار ، وهى تبدأ بالطفولة العاجزة، وتمرّ بالنضوج، والرقّية، والحرية ، واستكمال العقل (الاستكمال الروحانى والجسمانى)، ثمّ تنتهى بالكمال .

وهؤلاء وأولئک يتّفقون فى تقسيمها كذلک إلى سبعة منازل ، وهو أشبه ما يكون بتقسيمنا اليوم إلى ليل ونهار ، لأنّ الظلمة تفرّقهما ، والحال أنّ كلّ دقيقة وثانية وثالثة ، فيها تغيّر وتبدّل .

وهكذا الإنسان يتنقّل من طفولة عاجزة ، إلى صبا وثّاب ، إلى كهولة وشيخوخة ، وكلّها هجرة إجبارية ، لا تحكّم له فيها ولا خيرة ، بل هى سنّة من سنن الله فى عباده (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً)[١] .

أمّا الهجرة المعنوية ، فهى هجرة النفس من صفة إلى صفة ، ومن خصلة إلى خصلة ، ومن خلق إلى خلق ، ومن درجة أدنى إلى درجات أعلى ، ومن عادات ضارّة إلى أخرى مفيدة ، ومن تقاليد فاسدة إلى غيرها صالحة ، ومن تعصّب للسخافات إلى تعشّق للتسامح ، وتطلّع للكمال .

وهذه الهجرة المعنوية طبيعية بالنسبة لمن جعل الدين مرشده ، واتّخذ من تعاليمه دليله ، وضرورية بالنسبة لأصحاب الدعوات والمجاهدين فى سبيل الفكرة ، الذين لا يهاجرون بأنفسهم فحسب ، بل يهاجرون بالناس من السيء إلى الحسن ، ومن الحسن إلى الأحسن، ومن الأخلاق الذميمة إلى الكريمة ، ومن مواطن السوء والرذيلة إلى مواطن الخير والفضيلة ، ويدفعون الناس إلى الكمال ، وإلى ما فيه صلاح دنياهم وأُخراهم.

وحياة الرسول الكريم ، تجمع الهجرات كلّها : طبيعية ومعنوية ، وتزيد عليها تلک الهجرة المعروفة التى لولاها لقُضى ـ بغير شکّ ـ على الإسلام ورسوله والمسلمين ، تلک الهجرة التى هى درس عملى فى التضحية والجهاد ، والتى

---

١ . الأحزاب : ٦٢ .

اتّخذها المسلمون مبدأً لتاريخهم ، والتى جمعت كلّ المعانى والمحسوسات التى تفهم من هذه اللفظة .

كان (صلى الله عليه وآله) نموذجاً فريداً فى هجرته الطبيعية ، فلم تشعر أمه إبّان حمله بما تشعر به الحوامل من تعب وألم ، ولم تجد فى وضعه ما يجده النسوة عادةً من الإجهاد . وكذلك كانت هجرته من الطفولة إلى الصبا والشباب ، ثم إلى نهاية الأجل ، فذّة فى كلّ أطوارها .

أمّا الهجرة المعنوية ، فقد اكتمل له أمرها فى مستهلّ حياته ، ففى صباه لم يله كما يلهو الصبية ، ولم يعبث كما يعبثون ، بل كان يجلس مع جدّه فى مجالس الحكم ، ومواطن الحكمة ، وفى شبابه كان ينتزع نفسه من مجالس اللهو ، ويؤثر الخلوة ، ويجنح إلى السكون ليجتلى معانى العظمة فى الكون ، حتّى بلغ به الأمر أن يتحنّث فى غار حراء ، كذلك هجر عادات قومه وتقاليدهم ، وتميّز عليهم بسمو خلقه وسمو طبعه ، وسُمِّى عندهم بالصادق الأمين .

وأمّا هجرته المشهورة ، التى جمعت كلّ أسباب الخير ، وحوت كلّ معانى العظمة ، وغمرت الدنيا بأسمى التعاليم ; فقد كانت بدعاً لا مثيل لها فى تاريخ قومه الذين عرفوا الهجرة الجماعية ، أى هجرة القبيلة كلها فى سبيل العيش ، أمّا الهجرة الفردية ، الهجرة من أجل العقيدة والمبدأ ; فشىء جديد لا سابقة له ، اضطرّ إليه الرسول بعد إيذاء قومه إياه ، ومحاولتهم القضاء على دعوته .

استخلف عنه فى مكة من استخلف ، وأخذ معه من أخذ ، وهاجر إلى المدينة ، وفيها وضع أساس الأُخوّة الإسلامية ، ومبدأ وطن العقيدة ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج ، وقضى على العصبية الجنسية ، والنعرة القبلية ، وأعلن أنّ وطن المسلم هو كلّ موطن فيه للإسلام صحبة ، وأنّ وطن صاحب الدعوة كلّ رقعة فيها للدعوة مصلحة ; وبعد أن انتزع من النفوس كلّ معانى التعصّب والخلاف ، غرس فيها مبدأ العمل للإسلام فى كلّ مكان ، وعلى نهجه سار المخلصون من المسلمين .

كان يستطيع أن يبقى بمكة عزيزاً موفور الثراء ، ألم يعرضوا عليه المال فأبى؟ ألم يعرضوا عليه الجاه فرفض؟ إنّه رجل الدعوة ، إنّه رسول الله ، إنّه لن يترك دعوته أو يقصّر فى أداء رسالته ، ولو وضعوا الشمس فى يمينه والقمر فى يساره ، ذلك فناء الذات فى الفكرة ، وذلك أسمى مراتب الكمال .

لقد رأى أنّ البقاء بمكة لا قيمة له ولا وزن ما دامت كلمة التوحيد ليست هى العليا ، فهاجر ، وبهجرته امتدّت الدعوة الإسلامية ، واتّسع نطاقها ، وتخلّص وطن المسلم من النطاق الضيق المحدود .

ومن المؤسف أنّنا إليوم فى نظرتنا الوطنية ، نقف عند الحدود الضيّقة التى فرضتها علينا الحروب الداخلية أو الخارجية ، أو الثورات أو الاستعمار الأجنبى ، فحين ننادى بالوطنية ، إنّما نعنى البقعة التى نعيش فيها أو ننتسب إليها ، ونسينا أنّ صاحب الهجرة حدّد وطن المسلم يوم هجرته بأنّه كلّ بلد تسمع فيه كلمة التوحيد ، ويوجد فيه من يتّخذ الإسلام دينا .

كذلك نحن نهاجر اليوم ، ولكن لا من الكمال إلى الأكمل كما كانت هجرة الرسول ، وكما ينبغى أن تكون هجرة المسلم العارف لدينه ، وإنّما نهاجر من الحسن إلى السيّء ، ومن السيّء إلى الأسوأ ، نهاجر عن عاداتنا وتقاليد ديننا ، إلى عادات وتقاليد منافية ، بل جاهلية وبربرية بأصحّ تعبير ، ونحسب أنّنا نسير إلى تقدّم ومدنية ، مع أنّنا نتدهور ، ونهوى إلى الحضيض .

ليست هجرة الرسول قصة تُقرأ ، ويُردّد أمرها ، ويرجع حديثها فحسب ، وإنّما هى نموذج عملى خالد للهجرة إلى المبادئ السامية والمثل العليا التى تضمن للفرد العزّة والرقى ، وتضمن للدولة النهوض والسؤدد .

وما أشدّ حاجتنا إلى التحصّن بتلك المبادئ ، ليمكن أن نعيش فى هذا العالم المضطرب الذى يريد كلّ ظالم فيه أن يحملنا على مبادئه زاعماً أنّها مثالية ، تضمن السعادة والهناء للبشرية .

نحن نكتب هذا ومئات الآلاف من المسلمين يطوفون حول البيت العتيق ،

يهلّلون ويكبّرون ، ويسبّحون الله الواحد الأحد ، فهل يذكرون أنّ مكة التى تفتح صدرها لهم ، ويتردّد فى أرجائها تكبيرهم وتسبيحهم ، قد ضاقت بالرسول وصحابته ، وحالت بينه وبين عرض عقيدة التوحيد على الناس فيها ، فهاجر تلك الهجرة المباركة ، التى أوجدت الملّة الإسلامية ، ومهّدت للمسلمين سبيل الحجّ ، وطهّرت كعبتهم من الأوثان والرجس؟

* * *

وبعد . فلماذا لا نتّخذ من حياة الرسول المليئة بالهجرة الصالحة مثالاً نحتذيه ، وطريقاً نسلكه لنتخلّص ممّا نحن فيه ، فقد لزمنا الذلّ ، وركبنا العار ، وهان أمرنا على الناس حتّى أنّ شذاذ إليهود أقاموا لهم دولة فى قلب أرضنا الإسلامية ، تهدّد وجودنا بأشدّ من تهديد يهود يثرب لمسلمى صدر الإسلام .

ولئن كان الأولون تخلّصوا من كلّ خطر حاق بهم ، بفضل تحصّنهم بمبادئ الدين ، والتزامهم بحجّة الرسول ونهجه ، فإنّ على القادة فى أيامنا هذه ـ إن أرادوا النجاة والخلاص من كلّ خطر داهم ، وذلّ جاثم ، وعبودية مهينة ـ أن يبدأوا من أول الطريق ، فينظروا بعين الاعتبار إلى الهجرة ، ويتفهّموا حقيقة معناها ، وماهى إلاّ التضحية، ونسيان الذات، وعدم الخضوع لمؤثّرات البيئة والمجتمع ، واتّخاذ خطوات إيجابية حاسمة، تساعدهم على الهجرة بأنفسهم وبالناس معم ... فإلى الهجرة .

الباب الثانى

قصة التقريب

الولادة والنشأة

ويشتمل على سبعة فصول:

❋ الأوّل: قصّة التقريب
❋ الثانى: نقط على الحروف أو مزيد من الإيضاح (القسم الأول)
❋ الفصل الثالث: نقط على الحروف أو مزيد من الإيضاح (القسم الثانى)
❋ الرابع: صوت التقريب
❋ الخامس: الزمن فى جانبنا
❋ السادس: دور الأزهر الشريف فى التقريب
❋ السابع: رجال صدقوا

الفصل الأوّل
قصّة التقريب

الآن وبعد أن نجحت فكرة التقريب ، بفضل الله وتوفيقه ، وتحدّثت عنها الإذاعات ، ونقلت أخبارها وكالات الأنباء ، وكتبت عنها الصحف والمجلاّت الآن ، وبعد أن خرجت الفكرة من محيطها المحصور بين العلماء إلى محيط أوسع وأشمل هو المجتمع العام .

الآن، وبعد أن سجّل التاريخ تلك الخطوة الكبرى التى تمّت ، والتى تعتبر نقطة تحوّل فى التاريخ الإسلامى . الآن ، وبعد أن تمّ هذا كله لا نرى بأساً من التحدّث عن نشأة الفكرة ، وعن بدء ظهورها ، وعن مراحل سيرها ، وعن الظروف التى أحاطت بها .

ولاشكّ أنّ فكرة تاريخية كهذه باعتبار ما مرّت به من الأطوار كانت تحتاج فى بيان قصتها إلى مجلّد فى كلّ عام ، ولكن لأنّنا نكتب مقالاً فحسب ، ولأنّنا لانحبّ أن نطيل فى الحديث عن الفكرة ، وإنّما نحبّ أن ندعها تتحدّث عن نفسها ، فإنّنا نوجز فى العرض ما وسعنا .

* * *

لقد كان الإقدام على العمل للتقريب مجازفةً خطيرةً ، تدفع الذهن إلى التفكير العميق فى أسئلة كثيرة :

هل فى طاقة المسلمين أن يعالجوا مشاكلهم بأنفسهم؟

هل هناك مبادئ من صميم الإسلام تضمن للأمة الإسلامية وحدتها ، وبالتالى تضمن لها عزّها ومجدها؟

هل يفهم المسلمون أنّ التقريب معناه نبذ كلّ خلاف؟ أو أنّهم لايرون بأساً بأىّ خلاف يتبع الدليل ، ويراعى الأصول التى لا يحقّ لمسلم أن يخرج عليها؟

هل تتحكّم المصلحة فى النهاية أو يسيطر التعصّب؟

وأخيراً هل المسلمون يريدون حقّاً أن يعيشوا أو أنّهم سيظلّون يتهاونون حتّى فى وجودهم ، ويتركون الأمر لأعدائهم الذين يعرفون كيف ينتهزون الفرصة ، ويحسنون الانتفاع بموقف كلٍّ من المتزمّتين الذين يسيطر عليهم الجمود ، وأصحاب الهوى الذين يخدمون السياسات الأجنبية . وبذلک يزداد ضعفهم ، ويعجزهم صدّ أىّ تيّار خارج على مبادئهم ، فيسهل تحطيمهم والقضاء عليهم؟

كانت هذه الأسئلة تدور بخلد كلّ من يفكّر فى الإصلاح ، وتراود عقل كلّ من يرغب فى العمل لخدمة الدين والأمة .

وكان لابد للردّ عليها من تجربة تنير الطريق ، وتكشف عن حقيقة حال المسلمين .

وكانت فكرة التقريب هى التجربة الأولى من نوعها فى هذا المجال . ولو أنّ هذه التجربة فشلت ـ والعياذ بالله ـ لكان الجواب على تلک الأسئلة صريحاً واضحاً ، فإنّ فشلها وإن كان فى ظاهره مجرّد ضياع فكرة ، إلاّ أنّه فى حقيقته يكون حكماً بعدم صلاحيتنا لعلاج أمورنا ، وعدم بلوغنا مرتبة الوعى والرشد ، بل يكون دليلاً حتّى عند أكثر الناس إنصافاً لنا على أنّنا لسنا أهلاً لحمل رسالة الإسلام الذى جاء ليحقّق السلام ، ويضمن الخير للبشر أجمعين .

ولو أنّها فشلت لما اقتصر أثرها على ضياع هذه الفكرة ، بل كان يمتدّ على الزمن فيثبّط ـ فى المستقبل ـ عزيمة كلّ من يحاول إنجاز عمل إسلامى أو تحقيق غاية إسلامية ، بل ربّما ألقى هذا الفشل ظلاًّ من التشكّک فى مبادئنا الإسلامية نفسها ، فنظلم الإسلام ، ونتيح للبسطاء أو المغرضين أن يحكموا عليه بتصرّفاتنا نحن ، وشتّان بين حقيقة الإسلام وواقع المسلمين .

كان الوضع قبل تكوين جماعة التقريب يثير الشجن ، فالشيعى والسنّى كلٌّ

كان يعتزل الآخر ، وكلٌّ كان يعيش على أوهام ولّدتها فى نفسه الظنون ، أو أدخلتها عليه سياسة الحكم والحكّام ، أو زيّنتها له الدعاية المغرضة ، وساعد على بقائها قلّة الرغبة فى الاطّلاع .

كانت الكتب المشحونة بالطعن والتجريح تتداول بين أبناء كلّ فريق ، وتلقى عند كلٍّ أحسن القبول حتّى ولو تكلّمت عن طوائف وعقائد لا وجود لها على سطح البسيطة ، كما فى كتاب الملل والنحل الذى يبدو لقارئه فى بعض الأحيان كأنّه يتكلّم عن خلق آخرين فى الكواكب الأخرى .

وفى الجملة ، كان يسود الفريقين جوّ من الظلام ، فلايرى أحدهما من صورة الآخر إلاّ شبحاً تحوطه الظلمة ، ولايتكلّم عنه إلاّ بما توحى به الظلمة ، ولا يقرأ عنه إلاّ ماتسمح به حلكة الظلام .

فإذا ألّف أحد من أبناء الفريقين كتاباً ، فهو لايعرض إلاّ آراء مذهبه ، ولا يدافع إلاّ عنها ، ولا يسير إلاّ إليها ، وإذا طلب الأمر إشارةً إلى ما فى غير مذهبه ، فلا تكون أشارته إلاّ طعناً واتّهاماً ، وإلاّ ترديداً لما سمعه أو قرأه أو ورثه عن آبائه .

وبذلك كبّروا الخلافات وضخّموها ، وردّدوا الشكوك وأسفوا فيها ، حتّى أصبح كلّ معنىً يؤيّد الوحدة يُفسّر فى ظلّ الشكوك بما يوجب الفرقة ، بل وصل الأمر إلى التشكيك فى وحدة المصحف ! وشكّ كثير من أهل السنّة فى أن يكون مصحف الشيعة هو المصحف الذى فى أيدى سائر المسلمين ! ومع ذلك لم يكلّف أحدهم نفسه مؤونة التقليب فى نسخة من ملايين النسخ التى فى متناول يده ، ولو أنّهم فعلوا لذهب الشكّ ، ولحلّت المشكلة ، ولكنّهم حكموا على الموجود المحسوس بما ليس فيه ; اعتماداً على قول مؤلّف مغرض مات قبل قرون .

أجل ، ولقد ظلّت الفرقة بين المسلمين غذاءً مناسباً للحكم والحكّام قروناً عدة ، دأب فيها كلّ حاكم على استغلالها لتثبيت سلطانه ، ولتحطيم عدوّه ،ثم

جاءت السياسات الاجنبية فوجدت فى هذه الفرقة خير وسيلة ، لتدخلها ، وبثّ نفوذها ، ودعم سلطانها ، وفرض سيادتها .

والسياسات الاجنبية هى التى أوحت إلى كثير من أعدائنا الذين يتستّر بعضهم وراء اسم المستشرقين ، بالعمل ليكملوا إحكام الحلقة حولنا ببحوثهم التى تقوم على دسّ السموم ، وانخدع بهم بسطاؤنا ، فكان بعضهم يحكم على بعض بما كتبه هذا المستشرق أو ذاك .

وهكذا صدّقنا هؤلاء المستشرقين ، كما كنّا نصدّق المؤرّخين الدسّاسين وكتبة الأوهام وواضعى الأحاديث ، وسيطرت علينا جاذبية الجديد البرّاق ، كما سيطرت علينا هيبة القديم المألوف ، فحرمنا أنفسنا حقّ التفكير فيما ذكره هؤلاء وهؤلاء ، وأنكرنا على أنفسنا أن يكون لنا تفكير مستقلّ ندرس به أنفسنا من واقعنا .

وبجانب هذا وقفت السياسات الاجنبية المسيطرة علينا ، وقفت بالمرصاد فى وجه كلّ فكرة إصلاحية ترمى إلى توحيد كلمة المسلمين .

لقد تقرّر «توقيفية» اسماء الله تعالى ، فليس لأحد أن يبتكر من عند نفسه أسماً لله لم يرد عن الله، وتقرّر «توقيفية» العبادات، فليس لأحد أن يبتدع عبادةً لم تشرَّع .

أمّا أن يقول المسلم ـ وهو الذى فتح الله أمامه أبواب التفكير فى السماوات والأرض ـ بتوقيفية البحث والتفكير ، فهذا مالم نكن نتصوّره . ولكنّه مع الأسف الشديد كان سيرتنا فى التعصّبات الطائفية .

إنّ الأُسر التى حكمت باسم الخلافة الإسلامية قروناً طويلةً ، كانت ترى فى آل على (عليهم السلام) المعارض الوحيد الخطير عليها ، فكانت تسىء إلى شيعة آل على ، وتستخدم الاقلام والألسنة ضدّهم ، حتّى أوجدوا حول الشيعة كثيراً من الخلط ، وكثيراً من التشويش . وكان يمكن لأىّ مصلح يتصدّى للدفاع عنهم أن يدرأ عن المسلمين شرّ التفرّق ، ولكنّ القوة التى بيد الخلفاء ، ومقاومة

بعض الحكّام من الجانب الآخر ، كلاهما سخّر الاقلام والضمائر ضدّ كلّ محاولة من هذا القبيل ، وقضى عليها .

نعم ، هناک محاولات وقعت فيما مضى ، إلاّ أنّها كانت فردية من جهة ، ولم تكن على أساس علمى مدروس من جهة أخرى ، وكانت تارةً سياسية ترمى إلى وحدة الحكم ، وتارةً غير عملية كمحاولة توحيد المذاهب سنّيها وشيعيّها ... وبجانب هذا لم يكن الرأى العام يدرک حينئذ ما فى التفرّق من أضرار .

من أجل ذلک كله ، لم تنجح واحدة من تلک المحاولات المشكورة وإن تركت أثاراً فى نفوس قلّة من المفكّرين .

وبعد هذا ساق الله الظروف المؤاتية لايقاظ المسلمين ، وهيّأ الأسباب التى تعين على ذلک فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . فإنّ الدول القوية التى كانت تهيمن على قدراتنا ، وترسم لنا سياستنا منذ أمد طويل، هذه الدول خرجت من الحرب محطّمة القوى ، مخضودة الشوكة ، سواء فى ذلک الدول الغالبة والمغلوبة .

وقبل أن تستردّ الدول الغالبة أنفاسها بدأت بينها حرب ثالثة ، غير أنّها كانت حرباً باردة . فجعل بعضهم يضرب بعضاً ، وجعل كلٌّ منهم يخلق المشكلات للآخرين حتّى سقطت هيبتهم جميعاً ، وبذلک سقطت هيبة الدول التى كنّا نؤخذ بها ونسحر بقوتها ، وانهار كبرياؤها ، وشغلت عن تجديد مساعيها للتفرقة بيننا بمشاكلها التى أصبحت تهدّد كيانها ، وبذلک ضعفت قبضتها علينا .

وهناک جانب آخر من الواقع فى هذه الحرب وما ترتّب عليها من آثار : ذلک أنّها أوجدت فى الشعوب الإسلامية لوناً من الاعتزاز بالنفس ، والاعتزاز بالمبادئ الإسلامية ، فقد رأوا بأعينهم ما جرّته المدنية الحديثة على صناعتها من ويلات وبلايا ، ومن فتک ذريع ، ومن جرائم وحشية اقترفها أساتذة المدنية الحديثة ضدّ الإنسانية ، حبّاً فى السيطرة !

وأدركوا بيقين أنّ المدنية والمذاهب الاجتماعية التى كان يتيه بها أصحابها فى الشرق أو الغرب ، والمثل التى يتشدّق بها هؤلاء وهؤلاء لم تستطع أن تكبح من ضراوتهم ، أو تحدّ من وحشيتهم ، وأنّ الاسلحة الفتّاكة التى طالما هدّدونا بها استخدمت فى القضاء عليهم .

لقد كان هذا كله بمثابة ضجّة أيقظت المسلمين من سباتهم ، ودفعتهم إلى الاهتمام بما عندهم من مبادئ إنسانية ، ومن مثل عليا خدعهم عنها العدوّ الطامع فيهم بأباطيله حيناً من الدهر . وهكذا كان التنافس بين الدول الغالبة ، وشعور الاعتزاز عند المسلمين ، كلاهما من الأسباب المهيِّئة لظهور فكرة إصلاحية جديدة .

وفى هذا الوقت الذى أرهفت فيه مشاعر المسلمين ، وقعت حادثة هزّت عواطفهم هزّةً عنيفةً ، مع أنّها لو وقعت فى غير وقت الحساسية لمرّت عادية ولم تترك أثراً ، والحوادث العادية إن وقعت فى زمن الحساسية فغالباً ما تصنع المعجزات .

وقعت الحادثة فى الحرم الآمن ، وفى الشهر الحرام ، وفى أيام الحج بالذات ، وراح ضحيّتها شاب مسلم قصد إلى الحج ، وقطع أكثر مراحل سفره سائراً على قدميه حتّى وصل البيت الحرام ، وهناك أصابه مرض ، فغلبه القيء فلتقّاه فى حجره حرصاً على طهارة البيت ، ولكن حظّه السيء خيّل لبعض الطائفين أنّه يحمل ما يريد به تلويث البيت ، فصاح بذلك فى الناس . وليس من عادة الجماهير أن تتثبّت إذا هيّجها مهيّج ، فشهدوا عليه بما كان منه بريئاً ، وقتلوه مظلوماً ، وهو فى رحاب الحرم الشريف الآمن !

وإنّما كان مبعث ذلك سوء ظنّ طائفة بطائفة ، وكان يمكن أن تؤدّى هذه الحادثة إلى أسوأ النتائج وأن تثير الأحقاد ، وأن تهيّج العصبيات القديمة ، وأن تقطع الصلات بين فريقى المسلمين ، ولكن هذه الحادثة أثّرت فى كثير من المفكّرين تأثيراً كان له عاقبة محمودة ، ووضعت الأصبع على موضع الداء ،

فكأنّما أراد الله أن تكون موجَّهة للمصلحين إلى الاهتمام بهذا الداء الوبيل ، داء التفرّق الطائفى بالذات .

ولا عجب أن تكون هذه الواقعة مع ما اكتنفها من خطورة مفزعة حافزاً على التفكير ، وعلى العمل ، فكثيراً ما يأتى الشرّ بالخير . لقد بدأوا بسؤال أنفسهم :

كيف تعيش أمة موزعة على نفسها فى دنيا الاقوياء؟

كيف يمكن أن تقدّم المبادئ الإسلامية إلى العالم ، والإسلام فى حرب بين أبنائه داخل بلادهم؟

وكيف يتمكّن الذى تسوء حالته الداخلية من إصلاح مركزه الخارجى؟

هكذا بدأنا التفكير فى التقريب ، ثم سلخنا بعد ذلك شهوراً نبحث فى سبل العلاج ، فدرسنا الدعوات التى سبقتنا وأفدنا منها كثيراً ، ودرسنا المشاكل الطائفية برمّتها ، والكتب المعتمدة عند كلّ فريق ، لنحدّد الطوائف التى تتّفق فى الأصول الإسلامية ، ودرسنا الخلافات الفرعية الفقهية ومبلغ ماوصلنا إليه ، ثم حدّدنا أنجح طريقة للوصول بفكرتنا إلى الأعماق .

وقد أدّى بنا التفكير إلى أنّ هذه الدعوة يجب أن تقوم بها جماعة بدل أن يقوم بها فرد يتعرّض لكثير من الأخطار ، وأن تكون الدعوة إلى التقريب بين أرباب المذاهب لا إلى جمع المسلمين على مذهب واحد ، فيبقى الشيعى شيعياً والسنّى سنّياً ، وأن يسود بين الجميع مبدأ احترام الرأى الذى يؤيّده الدليل ، وأن تكون الجماعة ممثّلة للمذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السنّة ومذهبى الشيعة الإمامية والزيدية ، وأن يمثّل كلّ مذهب علماء من ذوى الرأى والمكانة فيه ، وأن تكون الجماعة بمعزل عن السياسة ، وأن تكون محدّدة الأهداف ، وأن يكون سعيها على أساس البحث والعلم كى تثبت أمام المعارضة ، وتكسب الأنصار عن سبيل الإقناع والاقتناع ، ولكى تستطيع بسلاح العلم محاربة الأفكار الخرافية الطفيلية التى لا تعيش إلاّ فى ظلّ الأسرار والأجواء المظلمة . ولكى تتمكّن فى الوقت نفسه من مقاومة الطوائف والنحل التى ليست من الإسلام فى

شيء ، والتى يحسبها الشيعى سنّية ، والسنّى شيعية ، بينما هى فى حقيقتها حرب على الإسلام .

وهكذا تكوّنت جماعة التقريب ، معتمدة على الله ، وعكفت على البحث الدائب والعمل المستمر ، والاتّصال بالمراكز الدينية فى كلّ بلد إسلامى اتّصالاً هادئاً مثمراً ، وابتعدت بنفسها عن الدعاية ، ولكن الدعاية جاءتها من قبل المعارضين ، فإنّ المتعصّبين والمتزمّتين وذوى النزعات والأغراض رأوا فى نشاط الجماعة بدعةً لا يصحّ السكوت عليها ، فبدأوا هجومهم على الفكرة وعلى الجماعة ، واشتدّ هجومهم على الأيام ، وليس بيننا من لم يأخذ نصيبه من هجومهم كاملاً غير منقوص .

لكنّ الجماعة هيّأت نفسها لهذا من أول الأمر، لأنّها تعلم أنّها تواجه رواسب قرون ، وكانت تتوقّع حملات فيها الطعن والتجريح ، وبدل أن تُضعف الهجمات العزائم ، شحذت الهمم ، وقوّت الجماعة على السير بالفكرة إلى النهاية .

وكانت هذه الهجمات نفسها دليلاً على ضرورة فكرة التقريب للمجتمع الإسلامى ، كى يتخلّص من العناصر البغيضة ذات التفكير السقيم الذى يبلبل الخواطر ، ويصرف الأذهان عمّا ينفع الناس ويمكث فى الأرض .

أذكر أنّ أحد هؤلاء المتعصّبين ملأ كتاباً بالطعن على الشيعة، والهجوم على جماعة التقريب ، لقيامهم بهذه الفعلة النكراء ، فعلة التقريب بين السنّة والشيعة !

وفى الوقت نفسه وصلنا كتاب عن الطرف الآخر من تلك الكتب المؤلّفة فى عهد الصفوية ، ملىء بالهجوم على أهل السنّة ، وكلا الكتابين التقى مع الآخر فى الهجوم على فكرة التقريب . فماذا تظنّ كان موقف الجماعة؟

أنّهم قرأوا بهدوء تلك المهاجمات العنيفة ، ولكنّهم لم يتأثّروا ، ولم يكفّوا عن الجهاد كما كان المؤلّفان المتجنّيان المتعصّبان ـ سامحهما الله ـ يأملان ، بل أنّهم أجمعوا على أنّ الحاجة ملحّة إلى بذل نشاط أكبر ما دام فى العالم الإسلامى هذا النوع من الأشخاص ، وهذا اللون من التفكير ، وهذا الإصرار على محاولة

التفرقة .

ولم يقف الأمر عند هذين الكتابين، بل جاء من مثلهما الكثير ، وكثر كذلك الكلام هنا وهناك ، وكلّ هذا فى جملته كان يحفّز الجماعة إلى أن تسعى لتحقيق ما حسبه البعض مستحيلاً .

لقد كان أكثر الناس يسمِّى هذا النشاط «محاولة» هيهات أن تؤدّى إلى نتيجة ، وكان منهم من يرى هذه «المحاولة» مستحيلة . وكان فريق آخر يظنّها «سياسة» على المألوف من الذين تعوّدوا ألاّ تنبع أفكارهم من ذوات نفوسهم ، مع وضوح أنّه لا يمكن أن يكون لسياسة أجنبية ما رغبة فى تجمّع على أساس وحدة المبادئ الدينية ; لثقتها بأنّ ذلك هو عين القضاء عليها .

كلّ هذا كان دعاية نافعة لجماعة التقريب ، لفتت إليها الأنظار ، وجعلت كثيراً من الناس يدرسون فيعرفون فيصبحون جنوداً ، فكثر بذلك أنصارها ، وضمّ كثير من المفكّرين وعلماء الدين فى مختلف البلاد جهودهم إلى جهودها ، وأصبحت هذه الجماعة التى تكوّنت فى القاهرة مركزاً فكرياً علمياً أعضاؤه من أولى العلم وأصحاب التوجيه والرأى فى العالم الإسلامى كله ، وضاقت الأرض على الأقلام المفرِّقة ونبّاشى القبور الذين لا همّ لهم إلاّ تحريك الماضى المتعفّن ، وإثارة العواطف البغيضة .

إنّ تكوين الجماعة نفسه كان توفيقاً ، لأنّهم هيّأوا للمسلمين مركزاً ايصلح للنظر فى مشكلاتهم ، ويلتقى فيه رجال الإسلام من كلتا الطائفتين ، ويظلّه الهدوء وتقدير المصلحة ، ويسوده الوفاق لا الخصام .

وكأنّ المسلمين بمشاكلهم الطائفية كانوا فى ظلام لايرى بعضهم من بعض إلاّ أشباحاً مخيفة ، وكأنّ الجماعة أضاءت لهم ، لترى كلّ طائفة أختها على حقيقتها لا على وحى الظلام .

ولقد كان للسان الجماعة : مجلّة رسالة الإسلام دور عظيم ، إذ جعلت توصل الفكرة إلى مكتبات العلماء ورجال الفكر ، وكان كلّ عدد منها يزيل الستار عن

جزء من المحجوب ، ويكسب عدداً أكبر لجانب التقريب ، وتبيّن بوضوح أنّ المسلمين لايختلفون فى كتابهم ولا فى صلواتهم ولا فى صومهم ولا فى حجّهم، بالإضافة إلى اتّفاقهم المطلق فى أصول العقائد وأصول الدين والتوحيد والنبوة، وليس يضيرهم أن يكون لبعضهم أصول مذهبية خاصة; كالولاية عند الشيعة الذين يرون أنّ علياً (عليه السلام) وأولاده أحقّ بها من غيرهم .

لقد قرأ السنّى عن الشيعة أبحاثهم واستنباطهم ، وأعجب بالكثير منها . وقرأ الشيعى عن السنّة أنّ أهل البيت مجمع بينهم على حبّهم وإكرامهم ، وأنّ ما صدر عن بعض الظالمين لايمثّل رأى السنّة فى أهل البيت .

وعرف أهل السنّة أنّ الشيعة يعتبرون الغلاة نجساً ، ويحكمون بكفرهم ، ويحكمون بخروج أصحاب الحلول كذلک .

واذن فشتّان بين الشيعة على حقيقتها ، والشيعة التى تصوّرها المتصوّرون ، وشتّان بين الناصبى الذى كان يناصب أهل البيت العداء ، وأهل السنّة الذين يرون فى حبّ أهل البيت عبادةً ويصلّون عليهم فى تشهّدهم «اللّهم صلّ على محمّد وآل محمد ، وبارک على محمد وآل محمد» .

❊ ❊ ❊

ولم تكن سنّة التدرّج تفارق الفكرة إلى أن جاء دور جعل الجامعات الدينية إسلامية عامة ، وهو نصّ فى القانون الأساسى للجماعة منذ نشأتها ، فالمادة الثالثة (هـ) تذكر من بين أغراضها : «العمل على أن تقوم الجامعات الإسلامية فى جميع الأقطار بتدريس فقه المذاهب الإسلامية حتّى تصبح جامعات إسلامية عامة» .

فلمّا تهيّأت الأفكار بعد أن قامت الدار بطبع بعض الكتب الفقهية على نفقة وزارة الأوقاف المصرية وتوزيعها ، جاءت الخطوة الحاسمة بعد ذلک ، خطوة تقرير دراسة فقه المذاهب الإسلامية الشيعية مع السنّية فى أقدم جامعة إسلامية، وهى الأزهر الشريف .

ولم تكن الفكرة ارتجالية ، بل كانت مبدأ نادت به الجماعة منذ نشأتها ، فلمّا قدِّر لرجل صالح مصلح من رجالها المجاهدين ـ له مركزه الدينى الكبير ـ ان يجلس على كرسى مشيخة الأزهر ، كان من الطبيعى أن ينفّذ ما عاهد الله عليه لخير الإسلام وصالح المسلمين .

ولقد زلزل هذا القرار كثيراً من الانتهازيين ، وقضى على آمال كثير من المتربّصين ، ولكن التاريخ لا يخدع . وقد سجّل هذه الخطوة كحدث هام فى تاريخ الإسلام والمسلمين لم يكن سجّل مثله منذ بدأ الخلاف بين الطائفتين إلى اليوم .

ومن فضل الله العلى الكبير أن اقترنت هذه الخطوة بخطوة أخرى جليلة الشأن ، هى تلك الفتوى التى أصدرها صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بجواز التعبّد على أىّ مذهب من المذاهب الإسلامية التى عرفت أُصولها ونقلت نقلاً صحيحاً ، فلقد كانت هذه الفتوى ثمرة يانعة من ثمار التقريب ، صدرت من رجل عظيم ذى مركز خطير فى الإسلام ، اعتنق الفكرة من أول يوم ، وأيّدها بقلمه وعلمه ، ومشكور سعيه فى كلّ مناسبة .

❊ ❊ ❊

فنحمد الله على أنّ المسلمين أثبتوا أنّهم جديرون بإصلاح شؤونهم ، قادرون على علاج مشاكلهم ، فإنّ نجاح فكرة كفكرة التقريب ـ رغم المعارضة التى قامت فى وجهها ، والعراقيل التى وضعت فى طريقها ، فى زمن لم يتجاوز ثلاثة عشر عاماً ـ تجعلنا نأمل خيراً كثيراً فى مستقبل الزمن .

ولانحبّ أن ننسى أنّ أمامنا فريقين من المعارضين ، فريقاً له إيمانه بفكرته ، وله عذره من بيئته أو ثقافته أو غيرته ، وهؤلاء لنا فيهم أمل ورجاء ، لأنّ المخلص لابد أن ينتهى به إخلاصه إلى معرفة الحقّ والرجوع إليه يوماً ما ، أمّا الفريق الآخر ففريق كان أمثالهم يقولون فى عهد نزول القرآن لرسول الله (صلى

الله عليه وآله وسلم) : (قُلُوبُنا فِى أَكِنَّة مِمّا تَدْعُونا إِلَيْه وَفِى آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ) ، وهؤلاء لاشأن لنا بهم ، ولعلّهم لايعيشون إلاّ بالفرقة ، أو يحسّون لها لذّة لا يحبّون أن يفقدوها .

وإنّى لعلى يقين من أنّ الفكرة ستكون نقطة الانطلاق لكثير من الأفكار الإصلاحية . ولايزال أمامنا خطوات جديدة تحتاج إلى تعضيد فكرى كبير لنقدّم للإسلام كلّ ما أخذناه على عاتقنا فى القانون الاساسى .

أكتب هذا ولاتزال فى خاطرى صورة أول اجتماع بدار التقريب ـ ولعلّه أيضاً أول اجتماع من نوعه فى الإسلام ـ جلس فيه علماء من السنّة والشيعة حول مائدة واحدة ، فى هدوء العلماء المتضلّعين ، وفى وجوههم تصميم المجاهدين ، وقلّبوا وجوه الرأى لعلاج داء التفرّق ، على هدى رسالة الإسلام والمبادئ الإسلامية ، فكتبوا بعملهم هذا فصلاً من فصول التاريخ الإسلامى المجيد .

وهكذا قدّر الله لهم أن يكونوا من صانعى التاريخ ، وقدّر للمسلمين مرةً أخرى أن يعيشوا فى نشوة النداء الإلهى الكريم : (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّه عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِه إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَة مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آياتِه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[١] .

١ . آل عمران : ١٠٣ .

الفصل الثانى

نقط على الحروف أو مزيد من الإيضاح (١)

القسم الأوّل

طبيعى جداً أن يهتم المسلمون بفكرة التقريب هذا الاهتمام ، ويؤيّدوها هذا التأييد ، أليسو هم أول من جرّبوا أنّ الفرقة ضعف ، كما أنّ التكتل قوة؟

وطبيعى أيضاً لفكرة اتّسعت دائرتها ، وامتدّت آثارها ، وذاع صيتها فى كلّ البلاد الإسلامية ، وبين الطوائف المختلفة ، أن تتساءل بعض الأقلام عنها ، وتستوضح نقطاً منها ، كما أنّه من الطبيعى أن تجد أيّة فكرة فى أولى خطواتها شيئاً من التحامل ، من قلّة اعتادوا التسرّع فى الحكم ، وفى فكرتنا بالذات ، لعلّ الداعى مع التسرّع هو التعصّب الموروث ضدّ طائفة من الطوائف .

وطبيعى كذلك أن نسرّ بكلٍّ من هذا وذاك ، لأنّنا لسنا عن سنّة الدعوات بغافلين ، ونرى أنّ فى كلّ هذا لفتاً للإنظار إلى دعوة هى فى الواقع دعوة الفطرة، وإلى فكرة هى فكرة الإسلام السليمة ، وأنّ شأن دعوة كهذه أن تتقبّل ما قلّ تنبيهه .

فكيفما كان فنحن نرحّب بكل ما يكتب حول الفكرة ، ونفيد منه ، فإن كان سؤالاً سقنا جوابه ، وإن كان استيضاحاً أتينا ببيانه ، وإن كان تحاملاً على طائفة إسلامية من الطوائف الذين شملتهم جماعتنا ، أحسّ المسلمون شدة الحاجة إلى فكرة التقريب ، وأحسسنا نحن ضرورة مضاعفة الجهد لنبيّن للناس ما غمض ، ونوضّح من الأمور ما استبهم .

ولئن تبارى أصحاب الأقلام المخلصة فى تأييد فكرة التقريب ـ وما أكثرهم

ـ ينصرونها ويشرحون أهدافها ، فإنّها لا تزال بحاجة إلى مزيد من الإيضاح ، أو وضع النقط على الحروف كما يقولون .

وهذا ما قصدنا إليه فى هذا البحث .

قال قائل منهم: ما دعوة التقريب هذه؟ وكيف يمكن التقريب بين المذاهب؟ أيريدون من كلّ طائفة أن تنزل عن بعض ما تراه لتقرب من الأخرى ، وهل ترضى الشيعة بأن تنزل للسنّة عن كذا وكذا ، أو ترضى السنّة بأن ترى رأى الشيعة فى كيت وكيت؟

وإنّى أقول لهذا القائل وأضرابه ما قلناه من قبل مراراً : لا يا أخى ، فما هذه دعوتنا ، ولا إلى هذا قصدنا . إنّما دعوتنا أن يتّحد أهل الإسلام على أصول الإسلام التى لا يكون المسلم مسلماً إلاّ بها ، وأن ينظروا فيما وراء ذلك نظرة من لا يبتغى الفلج والغلب ، ولكن يبتغى الحقّ والمعرفة الصحيحة ، فإذا استطاعوا أن يصلوا بالإنصاف والحجّة البيّنة إلى الاتّفاق فى شىء ممّا اختلفوا فيه ، فذاك ، وإلاّ فليحتفظ كلٌّ منهم بما يراه ، وليعذر الآخرين ويحسن الظنّ بهم ، فإنّ الخلاف على غير أصول الدين لايضرّ بالإيمان ، ولايخرج المختلفين عن دائرة الإسلام .

* * *

وقال قائل منهم : إنّ الطوائف الإسلامية مختلفة فى بعض المسائل الجوهرية التى تجعل البعد بينهم شاسعاً ، والتقارب بينهم يكاد يكون مستحيلاً .

وإنّى أقول له : على رسلك ، إنّ الطوائف التى نعمل على التقريب بينها هى السنّة بمذاهبها ، والشيعة الإمامية والشيعة الزيدية ، فهل المسائل التى اختلف فيها هؤلاء ممّا كفرت به طائفة صاحبتها؟ ولابد من «لا» فإنّ أحداً من علماء هذه الطوائف لم يرم طائفة منها بالكفر ، ولم يقذفها بالمروق عن الإسلام ، وما ذلك إلاّ لأنّ الخلاف إنّما وقع فى غير الأصول ، فليس صحيحاً أنّه خلاف فى مسائل جوهرية .

ولعلّ قائلاً يقول : ما هذه الأصول التى تجعلونها الحدّ الفاصل بين المسلمين وغيرهم؟ فاذكر له بعضها على سبيل التمثيل ، لا على سبيل الحصر : فنحن جميعاً نؤمن بالله ربّاً ، وبمحمّد (صلى الله عليه وآله) نبياً ورسولاً ، وبالقرآن كتاباً ، وبالكعبة قبلةً وبيتاً محجوجاً ، وبأنّ الإسلام مبنى على الخمس المعروفة ، وبأنّه ليس بعده دين ، ولا بعد رسوله نبى ولا رسول ، وبأنّ كلّ ما جاء به محمّد (صلى الله عليه وآله) حقّ ، فالساعة حقّ ، والبعث حقّ ، والجزاء فى الدار الآخرة حقّ ، والجنة حقّ ، والنار حقّ ... . الخ .

وما اختلفنا فيه من شىء فحكمه إلى الله ورسوله ، أىّ أنّنا متّفقون على أسلوب الخلاف ، فليس منّا من يقول : هذا أمر أمر به الله أو رسوله ومع ذلک لا نلتزمه ولا نقول به ، وليس منّا من يقول : كلّفنا الله أو رسوله أن نؤمن بكذا ومع هذا لا نؤمن به ، وليس منّا من ينكر معلوماً من الدين بالضرورة ، وإنّما يقول المختلفون : هذا أمر به الله أو أمر به رسوله ، أو هذا لم يأمر به الله ولا رسوله ، أو هذا من المواضع التى يسوغ فيها الاجتهاد ، فالخلاف إنّما هو فى إثبات أنّ الله ورسوله أمر بهذا الشىء أو لم يأمرا به ، مع الاتّفاق على أنّ امرهما واجب الطاعة على المسلم ، وأنّ شريعة الله إنّما ترجع إلى كتاب الله وسنّة رسول الله .

وقد قلت : إنّنى لست الآن بصدد استقصاء أصول الإسلام ، فإن كان أحد يعرف شيئاً من أصول الإسلام أنكرته إحدى هذه الطوائف فليدلّنا عليه ، وإن كان أحد يعرف أنّ إحدى هذه الطوائف زادت فى أصول الإسلام ما ليس منها على سبيل اليقين ، ممّا تعدّ زيادته كفراً وخروجاً على الملّة ، فليأت ببرهانه على ذلک إن كان من الصادقين.

بهذا يتبيّن أنّه ليس من أغراضنا أن يتشيّع سنّى ، أو يتسنّن شيعى ، بل لونظرنا إلى أصل التسمية فى هذين الاسمين لوجدنا المسلمين كلّهم شيعة لأنّهم جميعاً يحبّون أهل بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، ثم لوجدناهم

كلّهم أهل سنّة لأنّهم جميعاً يوجبون الأخذ بسنّة الرسول متى وردت من طريق معتمد عليه ، فنحن جميعاً سنّيون ، شيعيون ، قرآنيون ، محمديون .

* * *

وقال قائل منهم : إنّ جماعة التقريب تريد أن تقرّب بين المذاهب الفقهية ، وذلک غير ممكن فإنّ الشافعية إذا اختلفوا مع الحنفية مثلاً فی أنّ كذا من نواقض الوضوء أو ليس منها ، لم يمكن حمل أحد المذهبين على الرجوع إلى الآخر ، وإذا حكمنا بينهما فرجّحنا رأی هؤلاء فی مسألة ، ورأی أولئک فی أخرى ... وهكذا ، لم نفعل أكثر من أنّنا زدنا مذهباً على المذاهب الموجودة ، فهو تشعيب لا تقريب !

وإنّی أقول لهذا القائل : إنّنا لم نجعل من أهدافنا إدماج المذاهب الفقهية بعضها فی بعض ، فإنّ الخلاف أمر طبيعی ، وهو فی الفقه مبنی على أصول ومدارک كلّها فی الدائرة التی أباح الله الاجتهاد فيها ، فلا ضرر منه ، بل فيه خير وسعة ، وتيسير ورحمة .

وهبنا قصدنا إلى التوفيق فما ضرره؟ ألم يقل الشافعی مثلاً : هذا قولی وما رأيته ، وإذا صحّ الحديث فهو مذهبی ، واضربوا بقولی عرض الحائط . أو لم يرد مثل ذلک عن كلّ مجتهد؟ بل أليست هذه هی القاعدة التی أوجبها الله علينا فی كتابه إذ يقول : (فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِی شَیْء فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ ذلکَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[١] .

فطلب إلينا عند الاختلاف أن نردّ الأمر إلى الله ورسوله ، والردّ إلى الله هو العمل بكتابه ، والردّ إلى رسوله هو العمل بسنّته .

وهل لذلک من معنى إلاّ أن يعدل أحد المختلفين عن قوله المخالف لما تبيّن أنّه قول الله أو رسوله إلى قول صاحبه الموافق لهما ؟ وهل هذا إلاّ سبيل المؤمنين (وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ

---

١ . النساء : ٤٩ .

نُوَلِّه ما تَوَلّى ونُصْله جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصيراً)[١] .

إنّ كلّ مجتهد يرى أنّ مذهبه الفقهي صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب ، وهذا أعظم ما يتصوّر من الإنصاف : إنصاف المرء لنفسه وإنصافه لغيره .

بيان ذلک : أنّ المجتهد إذا غلب على ظنّه بعد البحث في الأدلّة أنّ حكم الله هو كذا وجب عليه الفتوى والعمل به ، لأنّه هو الراجح في نظره ، وغيره هو المرجوح ، وصريح العقل أن يتمسّک بالراجح على المرجوح ، ولكنّه مع هذا الإنصاف لعقله ونظره ، لايفوته إصناف غيره ، فيقول: إنّ ما رأيته وقلت به ليس هو اليقين الذي لا محيص عنه حتماً ، وإنّما هو ظنّي وما رجح لديّ ، وهو محتمل للخطأ احتمالاً ضعيفاً ، ويجوز أن يكون غيري قد تبيّن أنّه الراجح القوي فيجب عليه الأخذ به . فهذه هي خطّة الإنصاف والسماحة ، وعليها كلّ المجتهدين في الشريعة الإسلامية .

ومعنى هذا أنّ هناک أملاً كبيراً في أن يتّفق فقيهان في بعض ما اختلفا فيه حين يدلي كلٌّ منهما بما عنده لصاحبه ، فيتكاشفان ويتراجعان .

وهل هذا إلاّ التقريب!

* * *

وقال قائل منهم : لقد سمعنا أنّ من غايات التقريب أن يدرَّس مذهب الشيعة في الأزهر؟

وإنّي أقول له : إنّ من غايات التقريب أن يعرف المسلمون بعضهم بعضاً ، وأنّ أول من يجب عليهم التعارف هم العلماء وأهل الفكر في كلّ طائفة ، والعلم لا يصادر ولا يكتم ، فلا بأس على الشيعة أن يعلموا علم السنّة ، وهم يدرسونه فعلاً ، وكثير من مجتهديهم يتوسّع في درسه ، ويتعمّق في بحثه ، ولا بأس على أهل الأزهر أن يعلموا علم الشيعة ، بل ذلک واجبهم الذي يدعو إليه الإخلاص

---

١ . النساء : ١١٥ .

العلمى ، ولا يكون النظر تاماً إلاّ به .

أليس الأزهر جامعة علمية أعدّت للدرس والبحث ، وشعارها الدليل وما يثبته النظر السليم ؟ أو ليست مقارنة المذاهب تدرّس بالأزهر منذ عهد المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، وهى لا تتقيّد بالمذاهب الأربعة ولا بمذاهب أهل السنّة ، ولو تقيّدت بذلك لما كانت مقارنة تامة ؟ بل أليس الأزهر يدرّس فى إحدى كلياته أقوال الفلاسفة والمعتزلة والجبرية وغيرهم فيحكم فى آرائهم الحجّة والبرهان ، ويأخذ بما يراه حقّاً ، ويبطل ما يراه باطلاً ، فهل يكون الفقه الشيعى الإمامى أو الزيدى أخطر من هذه المذاهب حتّى يتحفّظ فى شأنه هذا التحفّظ؟

ثم ألم تأخذ لجنة الأحوال الشخصية فى مصر بأحكام من هذا الفقه ، وفيها صفوة من رجال الأزهر ، وكبار علمائه؟

* * *

وفى الوقت الذى يقف فيه هؤلاء من التقريب هذا الموقف ، فيرونه أملاً بعيداً ، ويتخيّلون فى طريقه ماشاء لهم الخيال من عقبات وأهوال ، لا يخلو التقريب من أفراد آخرين يقفون على طرف النقيض من هؤلاء ، فيقولون : لماذا تكتفون بالتقريب؟ وكيف تبذلون فى سبيله ما تبذلون من جهود؟ هلاّ كانت دعوتكم إلى الاندماج والتوحيد؟ أليست الأصول واحدة ، وقواعد البحث والنظر واحدة؟

ولسنا الآن بصدد الردّ على هذه الفكرة ، وبيان ما فيها من خطأ ، وما يدعونا إلى رفضها وأبعادها ـ فقد نفرد لذلك فيما بعد مقالاً ـ وإنّما نذكرها لنسجّل هذا الاختلاف الواضح بين طرفى النقيض من الفريقين : هل التقريب جرأة واقتحام ، أو تقصير وإحجام؟

* * *

الحقّ كلّ الحقّ أنّه لا ضرر على المسلمين فى أن يختلفوا ، فإنّ الاختلاف

سنّة من سنن الاجتماع ، ولكن الضرر كلّ الضرر فى أن يفضى بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج على مقتضى الأخوّة التى أثبتها الله فى كتابه العزيز، لا على أنّها شىء يؤمر به المؤمنون ، ولكن على أنّها حقيقة واقعة ، رضى الناس أم أبوا (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[1] .

---

١ . الحجرات : ١٠ .

الفصل الثالث
نقط على الحروف أو مزيد من الإيضاح (٢)
القسم الثانى

«لمّا حجّ المنصور قال لمالک : قد عزمت أن آمر بكتبک هذه التى صنّفتها فتنسخ ، ثم أبعث فى كلّ مصر من أمصار المسلمين منها نسخةً ، وآمرهم بأن يعملوا بما فيها ولا يتعدّوه إلى غيره ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإنّ الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كلّ قوم بما سبق إليهم ، وأتوا به من اختلاف الناس ، فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم» .

هذا ما رواه التاريخ فى ذلک الشأن الإسلامى الخطير ، وليست العبارة لى ، وإنّما هى فى كثير من الكتب المطبوعة المتداولة ، وقد نقلتها بنصّها عن أحد هذه الكتب[١] .

ترى هل كانت فكرة التقريب تشغل الأولين من العلماء المسلمين كما تشغلنا الآن؟ وماذا كان موقف المنصور منها؟ أكان لها أم عليها؟ وماذا كان رأى مالک ، هذا الإمام العظيم الذى يتّبع مذهبه ملايين المسلمين فى كثير من شعوب العالم الإسلامى؟ وما رأينا نحن فى هذا؟ أسئلة لا صعوبة فى الجواب عنها .

فالمنصور شهد اختلاف العلماء فى عصره ، وهو حاكم نظامى يهمّه كما يهمّ سائر الحكّام النظاميين أن يتوحّد الناس فى مملكته تحت قانون واحد ، يأخذ به قاصيّهم ودانيّهم ، ويعمل به فى كلّ ناحية من نواحى هذه المملكة المترامية

---

١ . عن كتاب حجّة الله البالغة للدهلوى ١ : ١٤٥ ط ـ مصر ، سنة ١٣٥٢ هـ .

الأطراف .

وهو من جهة أخرى لم يكن يحبّ هذا الضجيج الذى أثاره العلماء بجدالهم ونقاشهم ، وذهاب كلّ فريق منهم مذهباً يخالف صاحبه ، وتمسّكه بهذا المذهب حتّى يراه وحده هو الجدير بأن يتّبع ، ويرى غيره فاسداً أو باطلاً .

وهو من جهة ثالثة ، يريد أن يرضى أهل الحجاز ويصطنعهم ، ويتقرّب إلى هذا الإمام العظيم إمام دار الهجرة ، وقد بهره ما فى كتابه من العلم المستمدّ من الرواية عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وعن ثقات أصحابه ، ليخالف بذلک عن سنّة الأمويين الذين كانوا لا ينظرون إلى أهل الحجاز نظرة المطمئنّ إلى ولائهم لسلطانهم ودولتهم .

هذه فيما أرجّح وجهة المنصور فيما عرض على مالک ، ولعلّها تتّفق فى بعض نواحيها مع وجهة القائلين بإدماج المذاهب الفقهية فى مذهب واحد ـ وليست جماعة التقريب منهم ـ وإن فهم بعض الناس خطأً عكس ذلک .

وإنّى أكرّر فى هذا المقام ما قلته من قبل ، وما قاله غيرى من أعضاء جماعة التقريب فى مناسبات مختلفة من أنّه ليس من أهدافنا أن ندمج المذاهب الفقهية بعضها فى بعض ، ومن أنّنا ـ على العكس من ذلک ـ نرى فى هذه الفكرة خطأً يدعونا إلى رفضها وأبعادها ، بل نراها فى حكم المستحيل مادمنا نلتزم كتاب ربّنا ، وسنّة رسولنا ، وأصول شريعتنا .

وهذا هو الإمام مالک ينهى المنصور عن تنفيذ فكرته ، فيعدل عنها عدول من تبيّن له وجه الخطأ فيها، فقد جاء فى بعض ما روى من هذا الشأن : أنّ المنصور حين سمع مقالة مالک أكبره وشكره ، ودعا له بالتوفيق .

إنّ مالكاً لم تستهوه هذه الفكرة وإن كان فيها كلّ التأييد لمذهبه ، ولم ينتهز الفرصة لقبول هذا الاقتراح ممّن يملک تنفيذه وحمل الناس عليه بما له من قوة السلطان والحكم ، فلقد كان أجلّ من أن يخدعه هذا الإغراء عن الحقّ ، وأجلّ من أن يتعصّب لنفسه أو لمذهبه فى هذه القضية الأساسية ، وأجلّ من أن يكتم

السلطان ما يجب عليه من النصح له وللمسلمين وإن فوّت عليه هذا النصح ما قد يحرص عليه كثير من الناس .

إنّ مالكاً قد أرجع المسألة إلى أصلها ، ولم ينظر إلى أواخر الأمر فى هذا الخلاف بين علماء الشريعة ، وإنّما نظر إلى أوائله ، فهذا الخلاف فى أصله ليس صادراً عن الهوى والتعصّب ، ولكنّه صادر عن أصول الشريعة وأدلّتها التى يجب على المسلمين أن يعوّلوا عليها فى معرفة دينهم ، والتعبّد بما شرّعه الله لهم .

فالقرآن الكريم الذى هو المصدر الأوّل والأعظم للمسلمين ، قد نزل بأسلوب كان من رحمة الله وفضله على خلقه أنّه جاء قاطعاً فى أصول العقائد ، ومالا يتغيّر بتغيّر الأزمان والأحوال ، محتملاً فى كثير ممّا وراء ذلک من الأمور والأحكام ، فكان ذلک من أول أسباب الخلاف تبعاً لاختلاف الأفهام ، وقواعد النظر ، وتقدير العلل والمصالح .

والسنّة المطهّرة لم تكن قد دوّنت ، وإنّما اعتمد الناس على روايات تلقّوها عمّن حفظها ووعاها ، وكثير من هذه الروايات عن فعل فعله الرسول ، أو قول قاله ، وربّما حفّ بهذا الفعل أو بهذا القول قرائن وظروف تساعد على فهمه ، وربّما خلا من ذلک ، وقد تأتى الرواية من طريق بلفظ غير ما جاءت به من طريق آخر ، وقد تبلغ الرواية هذا العالم أو هذا البلد ، ولا تبلغ غيرهما ، إلى غير ذلک ممّا كان ذا أثر ظاهر فى الخلاف .

وقد اختلفت كذلک القواعد التى استنبطها العلماء لفهم الكتاب والسنّة ، والأدلّة التى رأى بعضهم أنّها تقيّد حكم الله ، ورأى غيره أنّ كتاب الله وسنّة رسوله مغنيان عنها .

هذا على وجه الإجمال ، هو مادعا إلى اختلاف العلماء ، وهذا هو ما قضت به الحكمة الإلهية ، ولو شاء الله لجاءت أحكام الشريعة ومسائلها جميعاً على نمط واحد ، ولكن الله جلّ جلاله علم أنّ أمر الناس لايصلح على ذلک ، فلا يصلح فى أمور العقائد وأصول الدين التى يدخل بها المرء فى ربقة الإيمان ،

ويخرج من هذه الربقة حين يخرج عنها ، لا يصلح فى هذه أن يترك الناس لعقولهم وأفهامهم وظنونهم ، فلذلک بيّنها بياناً واضحاً ، وجعلها من بين أمور الدين وأحكامه ، حرماً مقدّساً ، لا يجوز أن تختلف فيها الأنظار ، ولا أن تكون مجالاً لتعدّد الآراء ، وهدفاً لجدال المتجادلين ، ذلک بأنّها حقائق أخبرنا الله تعالى بها ، وأوجب علينا أن نعتقدها ، ليس من شأنها أن تتغيّر بتغيّر الزمان ، أو تختلف باختلاف المصالح ، أو تتأثّر باجتهاد المجتهدين ، وقد ألحق بهذه الأصول ما شابهها فى عدم التأثّر بالأزمان أو الأفهام من حقائق العبادات وصورها ـ فى الجملة ـ وأصول المعاملات وأنصبة الوارثين ، ونحو ذلک .

فكان هذا كلّه رحمة من الله وحكمة ، لأنّه وقى الناس شرّ التفرّق فى الأسس والأصول ، ورسم لهم دائرة محدودة واضحة المعالم ، يعرف من دخلها ومن خرج عنها ، وسما بالحقائق الواقعة عن أن تكون محلّ خلاف أو تنازع ، وألحق بها ما هو فى حكمها من رسوم العبادة التى لايرجع فيها إلاّ إلى ما يريده المعبود ، ومن دعائم المعاملة التى يجب فى كلّ زمان ومكان أن تكون مرتكزة على أساس سليم من العدل والخلق الكريم .

أمّا الفروع التى لايضرّ الاختلاف فيها ، سواء أكانت فى الشؤون العملية أم فى المسائل النظرية ، فلم يكن يصلح أمر الناس على توحيدها ، والإلزام بصورة معيّنة منها ، ذلک بأنّ الله خلق العقول ، وجعل لها مجالاً فى النظر والتفكير ، والموازنة والترجيح ، والاستقراء والتتبّع ، فإذا كانت الفروع كالأصول يقينية لم يبق للعقول مجال ، ولذلک جاءت أكثر أحكام الفقه ظنّية ، وكثر فيها الاختلاف والترجيح ، وأصبحنا نرى فى كثير من المسائل الخلافية آراء الفقهاء التى تمثّل جميع الصور المحتملة عقلاً .

وأمر آخر هو أنّ صور التصرّفات التى تقع بين الناس ، والقضايا التى تحدث فيهم ، لا تنتهى ولا تقف عند حدّ ، فكلّما جاء جيل من الناس جاءت معه أحداثه وتصرّفاته وألوان نشاطه ، فإذا كان من قصد الشريعة أن تنصّ على كلّ

حكم من لدن جاء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أن تقوم الساعة ، لما وسع الناس أن يحفظوها ، ولا سيما وقد أُنزلت على قوم أُميّين فى جزيرة صغيرة محدودة القدرة ، وفى زمان أقرب إلى البدائية الأولى ، لم يكن العلم فيه قد تقدّم كعهدنا به اليوم ، فلم يبق إلاّ أن تضمن الأدلّة والمصادر المحدودة للشريعة ما يمكّن العقول من الاستنباط منها كلّما دعا إلى ذلك داع ، ولذلك وجدت المبادئ العامة والأصول التى يرجع إليها ، وكان منها ما هو قطعى دائم ، ككون الشريعة يسراً لا عسراً، وكون المعاملات مبنية على المصالح ، وكون العرف محكّماً فيما لا نصّ فيه ، ووجوب حفظ المال والنفس والعرض والعقل والدين ... وغير ذلك من الكلّيات التى ترجع إليها الفروع والأحكام .

هذا هو الوضع الحكيم الرحيم الذى جاءت عليه الشريعة الإسلامية ، ولم يكن من الحكمة ولا من الرحمة أن تجىء على وضع سواه ، بل أنّ ذلك غير ممكن فى نفسه ، فلا نتصوّر أن يكون ، ولذلك أبى مالك أن يقبل ما عرضه عليه صاحب السلطان ، لأنّه يعلم أنّ كتابه الذى ألّفه وجمعه ليس هو كلّ شىء فى هذه الشريعة ، وليس هو الكلمة الفاصلة فى كلّ أمر من أمورها ، أو مسألة من مسائلها ، فلغيره نظر كنظره ، وبحث كبحثه ، وجمع كجمعه ، وقد يكون عند غيره من العلم ما ليس عنده ، ولعلّه لو اطّلع عليه لأخذ به ، ورجع عمّا كان قد اختاره ، وقد يحمل علمه إلى قوم فى بلد من بلاد المسلمين سبق إليهم من قبله علم من غيره أخذوا به . وعرفوا أنّه الحقّ ، فكيف يحملون على غير ما يعلمون ، كلّ هذا دعا مالكاً (رضى الله عنه) إلى أن يقول للمنصور ، وهو يعلّل إباءه قبول ما عرضه عليه : «إنّ الناس قد سبقت لهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كلّ قوم بما سبق إليهم ، وأتوا به من اختلاف الناس ، فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم» .

فى هذا التعليل الواضح تكمن نظرية التقريب القائمة على عدم الدعوة إلى الاندماج المذهبى ، وفى الفقرة الأخيرة من عبارة هذا الإمام الجليل ، وهى

قوله : «فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم» ، فى هذه الفقرة تعبير عن الأسلوب الصحيح الذى يجب أن نسلكه للتقريب بين المسلمين ، فللناس أن يحتفظوا بما عندهم من العلم ، ولهم أن يرجّحوا ما شرح الله له صدورهم من الأفهام والروايات ماداموا مؤمنين بأصول دينهم ومصادر تشريعهم ، غير خارجين على كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم ، ولا مشاقّين للهدى من بعد ما تبيّن لهم ، ولا متّبعين غير سبيل المؤمنين .

وبعد هذا يجب أن يعذر كلّ فريق أصحابه، كما كان سلفنا الصالح يفعلون، يجب أنّ يذكروا أنّ الخلاف الحرّ الشريف لايفسد قضية الودّ والتعاون بين الأخ وإخوانه .

إنّ مالكاً حين أشار على صاحبه أن يدع الناس وما اختاروا لأنفسهم ، لم يشر عليه بذلک لأنّه لا يعتّد بأمر المسلمين ، ولا يعبأ بهم ، ولم يشر عليه بذلک لأنّه ضنّ عليهم بأمر يعلم فيه صالحهم ، ولكنّه أشار عليه بذلک لأنّه هو الخير كلّ الخير ، وهو الموافق لما أراده الله عزّ شأنه حين وضع شريعته هذا الوضع الحكيم الرحيم ، ولايعقل أن يكون مالک قد أراد من ترک الناس وما اختاروا أن يتعصّبوا لما عندهم ، وأن يحتربوا عليه فيما بينهم ، وأن يقطعوا فى سبيل التعصّب له ما أمر الله به أن يوصل من إخوة الإيمان ، وتعاون الإسلام .

❊ ❊ ❊

ولم ينفرد مالک (رضى الله عنه) بالنهى عن أتباعه فى كلّ ما قال به ، وإلغاء ما سواه ، فقد حدّثنا التاريخ عن سائر الأئمة بمثل ما حدّثنا به عن مالک .

فأبو حنيفة (رضى الله عنه) ، كان يقول : «لا ينبغى لمن لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى» وكان (رضى الله عنه) إذا أفتى يقول : «هذا رأى النعمان بن ثابت ـ يعنى نفسه ـ وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب» .

والشافعى (رضى الله عنه) كان يقول : «إذا صحّ الحديث فهو مذهبى» ، وقال

يوماً للمزنى : «يا ابراهيم ، لا تقلّدنى فى كلّ ما أقول ، وانظر فى ذلک لنفسک ، فإنّه دين» .

وكان الإمام أحمد (رضى الله عنه) يقول : «ليس لأحد مع الله ورسوله كلام» ، وقال يوماً لرجل : «لا تقلّدنى ولا تقلّد مالكاً ، ولا الأوزاعى ولا النخعى ولا غيرهم ، وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنّة»[١] .

ولقد كانت سيرة سلفنا هؤلاء فى ثقة بعضهم ببعض ، وعذر بعضهم لبعض ، آية من آيات الله فى الإخلاص وحسن النيّة ، والاحتفاظ بما ينبغى أن يكون بين أهل العلم والدين من أخوّة ، فكان بعضهم يصلّى خلف بعض ، مثلما كان أبو حنيفة وأصحابه ، والشافعى وغيرهم رضى الله عنهم يصلّون خلف أئمة المدينة ، وإن كانوا لا يقرؤون البسملة لا سرّاً ولا جهراً ، وصلّى الرشيد إماماً وقد احتجم، فصلّى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يعد . وكان افتاء الإمام مالک بأنّه لا وضوء عليه . وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة ، فقيل له : فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضّأ ، هل تصلّى خلفه؟ فقال : كيف لا أصلّى خلف الإمام مالک وسعيد بن المسيب؟ وصلّى الشافعى (رحمه الله) الصبح قريباً من مقبرة أبى حنيفة (رحمه الله) ، فلم يقنت تأدّباً معه[٢] .

❊ ❊ ❊

أمّا الشيعة ـ إمامية وزيدية ـ فيرون بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً إلى يوم الدين ، ولايتّبعون فى عباداتهم ومعاملاتهم وسائر أحكام دينهم إلاّ ما فهموه من الكتاب والسنّة ، وما يأخذونه من ائمتهم (عليهم السلام) لا يأخذونه بحكم الاتّباع والتقليد ، ولكن على أنّه رواية صحيحة صادقة لا شكّ فيها عن النبى ، وإذا كان ذلک هو مذهبهم ، الذى عليه سلفهم وخلفهم ، فإنّه ممّا لا يتّفق

---

١ . حجّة الله البالغة للدهلوى ١ : ١٥٨ ـ ١٥٩ .

٢ . المصدر السابق : ١٥٩ .

ومنطقه أن يعملوا على إدماج المذاهب بعضها فى بعض ، أو على نصر مذهب منها على مذهب وتعطيل ما سواه ، فالمذاهب كلّها لديهم سواء ، وكلّ ما جاء فيها فهو فى نظرهم أقوال لقائليها ، وصلوا إليها باجتهادهم ، فما وجدوه صحيحاً قبلوه ، وما لم يكن كذلک فى نظرهم عذروا قائليه ، واتّبعوا ما أدّاهم إليه اجتهادهم .

* * *

من هذا يتبيّن أنّ دعوة التقريب ليست بدعاً فى الدين ، ولا حدثاً فى العلم ، وإنّما هى تجديد وتنظيم لأمر وفاق مع شريعة الحكمة والرحمة : أن نأتلف حول أصول ديننا ، ولانتفرّق كما تفرّق الذين من قبلنا ، وأن يكون خلافنا فيما وراء ذلک خلاف المنصفين المهذّبين (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِکَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللّهُ وَأُولئِکَ هُمْ أُولُوا الأَلْبابِ)[1] .

---

١ . الزمر : ١٨ .

الفصل الرابع
صوت التقريب

«دار التقريب» بمثابة جهاز إرسال واستقبال بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، عنها يصدر «صوت التقريب» وإليها يرجع ، وعلى هذه الصفحات من رسالة الإسلام فى كل عدد تسجيل الصدى[١] .

نبدأ هنا بتسجيل أول صوت انبعث من «دار التقريب» ، وهو بيان الجماعة إلى العالم الإسلامى ، الذى أقرّته فى أول جلسة عقدتها ، نسجّله عهداً وتاريخاً وذكرىً ، وهذا نصّه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه .

أمّا بعد ، فإنّ الدين الإسلامى دين واضح الأصول ، بيّن المعالم ، لا تعقيد فيه ولا غموض ، ولا حرج ولا إعنات ، أنزله الله على رسوله وخاتم أنبيائه محمد (صلى الله عليه وآله)على حين فترة من الرسل ، وضلالة من الناس ، واختلاف بالهوى ، وتنازع وتطاحن بالقوى ، فهدى الناس فى العقيدة إلى كلمة سواء ، هى كلمة الله التى بعث بها كلّ رسول ، وأنزل بها كلّ كتاب ، وبيّن لهم شريعة الحكمة والرحمة والصلاح .

وأساس هذا الدين هو القرآن الكريم والسنّة المطهّرة ، بهما تقرّرت عقائده وأصوله ، ومنهما استنبطت قواعده وأحكامه ، وإليهما يرجع المسلمون فى كلّ

---

١ . صدر بتاريخ ٣٠ ربيع الثانى سنة ١٣٦٦ هـ

شأن من شؤون دينهم ودنياهم .

تلقّى المسلمون الأولون هذا الدين كما أنزله الله ، والتفّوا حوله يعتقدون عقيدته ، ويدرسون شريعته ، ويمضون على سنّته وطريقته ، فما كان من نصّ ظاهر واضح فى دلالته ، قاطع فى معناه ، اجتمعوا عليه ، ونزلوا على حكمه متوافقين ، وما كان محلّ نظر وتأمّل اعملوا فيه عقولهم واجتهدوا فيه بقدر وسعهم فى دائرة الأصول التشريعية ، والمقاصد التى أرشد إليها كتاب الله وسنّة رسوله ، فإذا شجر بينهم خلاف عالجوه بالحجّة والاقناع ولم يتجاوزوا به دائرة العلم والبحث ، ولم يسمحوا له ـ مهما تباعدت وجهات النظر فيه ـ أن يقطع ما بينهم من الأواصر ، أو يفسد ما أصلحه الله من القلوب ، بل كانوا يتبادلون الثقة والمحبّة والاحترام ، وربّما سأل بعضهم بعضاً عن دليله أو مدركه على ما يقول ، فإذا لقّنه واستراح إليه سارع إلى إعلان قبوله والرضى عنه غير مستكبر على الحقّ ، ولا متعنّت فى الخطاب .

هكذا كان شأن الأمة الإسلامية فى أولها ، ثم عدت عليها بعد ذلک عواد جعلتها تتفرّق فرقاً وتقسّم طوائف وشيعاً ، وابتدأت هذه الانقسامات بأواخر عهد الراشدين ، ثم مازالت السياسة والحرب الأهلية تغذيها وتنفخ فى نارها حتّى تمخّضت البلاد الإسلامية عن فرق شتّى ، وتشعّبت كلّ فرقة إلى شعب ، وكان هذا هو الأساس الأوّل لما عاناه ومايزال يعانيه المسلمون إلى الآن ، من تفرّق وتنازع ، وتقاطع وتدابر .

وقد كانت المساجد والمجامع والمجالس أندية رأى ونقاش وجدل ، ذهبوا فيها مع الحرية الفكرية والنشاط العقلى إلى مدى بعيد جعلهم يخوضون حتّى فيما نهوا عن الخوض فيه من البحوث العقيمة ، والمسائل التى لا تتّصل بها فوائد علمية ، وساعد على اتّساع دائرة هذا الجدل امتزاج الثقافات المختلفة والعلوم الجديدة التى جاءتهم من الأمم الأخرى حين دخل الناس فى دين الله أفواجاً من كلّ جنس ولون ، حاملين معهم قضايا تفكيرهم وأساليب منطقهم وجدالهم .

ولم تقف الخلافات والآراء عند دائرة المعارف الفكرية الكلامية ، بل شملت الفقه والأحكام التشريعية المستنبطة ، غير أنّها لم تكن فى هذه الناحية الأخيرة عنيفة ولا مشتطّة ، وإنّما كانت تجرى فى هدوء وسكينة ووقار ، لا يسيطر عليها إلاّ العلم والحجّة والبرهان ، وذلک فى عهد الائمة المجتهدين ، ومن بعدهم من تلاميذهم الذين أشربوا مبادئهم ، وساروا على سنّتهم ، فلم نعرف أنّ أحداً منهم رمى غيره بالخروج على الشريعة ، أو المروق من الدين لخلاف بينه وبينه ، ولم نعرف أحداً زعم لنفسه أنّه هو وحده صاحب الرأى المقدس فى الشريعة ، أو فكّر فى حمل الناس على ما يراه ، بل كلّهم ورد عنه ما يدلّ على أنّه مجتهد قد أتى بما وسعه أن يأتى به ، ويحتمل أن يكون مصيباً وأن يكون مخطئاً ، وأنّ العمدة فى ذلک كتاب الله وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وما ارتضاه المسلمون من قواعد الشريعة وأصولها العامة ، وها هو ذا مالک (رضى الله عنه) يصرف أبا جعفر المنصور عمّا همّ به من حمل الناس على «الموطّأ» ذاكراً له أن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد تفرّقوا فى الأمصار ، وعند كلٍّ منهم علم ، وليس من الرأى أن يحمل الناس على كتاب ما إلاّ كتاب الله .

هكذا كانت ريح الفقه تجرى رخاء ، ولذلک نما وزكا ، وأينعت ثمراته ودنت قطوفه ، ووفى أعظم التوفية بحاجات المسلمين ، أمةً ودولةً وأفراداً ، وحفظ به التاريخ أعظم تراث فكرى فى الأحكام التشريعية والمبادئ الإصلاحية التى تقوم عليها الأمم .

ولذلک أيضاً استطاع الفقه الإسلامى أن يقف عالى الرأس عزيزاً كريماً ، فلم يعزّه يومئذ فقه فارسى ولا فقه رومانى ولا فقه يونانى ، على كثرة مادخل بلاد المسلمين من علوم هذه الأمم وثقافاتهم ، وعلى ما عهد فى المسلمين من ترحيب بالنافع من هذه العلوم والثقافات ، وتلقّيه بسماحة وحسن قبول .

ثم جاءت بعد ذلک طبقات من المقلّدين والمتعصّبين للمذاهب ، كلّت هممهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم من العلم والنظر ، وصادف ذلک عهود الضعف

السياسى وانقسام الأمة الإسلامية إلى دويلات صغيرة لا تربطها رابطة، ولاتجمعها جامعة، ومن شأن الضعف السياسى ـ إذا أصيبت به أمة ـ أن يخيّل إلى أبنائها أنّهم أقلّ من سواهم قوةً، وعلماً، وتفكيراً، وأن تركد معه ريح العلم، ويفتر نشاط العلماء.

بهذا وبغيره تأثّر أكثر المشتغلين بالفقه، فحكموا على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم فى زمانهم بأنّهم ليسوا أهلاً للنظر والاستنباط، ولا لفهم كتاب الله وسنّة رسوله، ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد، وترتّب على ذلك أن وقف الفقه وجمد، وأن تعصّب كلٌّ منهم لرأى أمام، وزعم أنّه الحقّ وأنّ ما سواه باطل، وأسرفوا فى ذلك إسرافاً بعيداً حتى كان منهم من لا يصلّى وراء إمام يخالفه فى مذهبه ومن لا يزوّج ابنته لفلان، أو يتردّد فى أكل ذبيحة فلان، أو فى قبول قضاء فلان، لمجرد أنّه يخالفه فى المذهب! ثم حصروا الأئمة الذين أوجبوا اتّباعهم فى عدد معيّن، وهكذا ضاق أُفق الأتباع والأشياع عمّا اتّسع له أُفق المتبوعين، وضاقت بهم دائرة الفقه الإسلامى، وركدت ريحه، وصوح نباته، وقلّت ثمراته، وكان من آثار ذلك أن خرج كثير من البلاد الإسلامية عن هذا الفقه عامة، والتمسوا فقهاً آخر فى هذه القوانين الوضعية يحكمون به، ويجعلونه نظامهم فى القضاء والتشريع والمعاملات، التمسوا فقهاً لم يتقيّد بهذه القيود الطارئة، ولم يحدّ بهذه الحدود المصنوعة، ومن ثم رأينا القذى فى العيون، والشجى فى الحلوق حين رأينا أُمم الإسلام تحكم فى بلادها بغير فقه الإسلام ومنهاج الإسلام.

ولكنّا قد استطعنا فى عهدنا الحاضر ـ ونرجو أن يكون ذلك أُولى الخُطى فى سبيل العودة إلى مجدنا الفقهى التشريعى ـ استطعنا أن نتخلّص إلى حدّ بعيد من آثار هذه العصبيات التى تنكرها الشريعة، ولا يعرفها الأئمة المجتهدون أنفسهم، وأن يسير بعضنا مع بعض على وفاق، فلم نعد نسمع خلافاً يؤدى إلى تضارب أو تقاذف أو تراشق بالتهم بين حنفى وشافعى مثلاً، وهاهو ذا الأزهر الشريف

أكبر جامعة إسلامية يدرّس فيه المذاهب الإسلامية الأربعة ، ونرجو إلاّ يكون هناک من يمنع أو ما يمنع من دراسة غيرها من مذاهب المسلمين إذا تهيّأت له أسباب هذه الدراسة ، وأنّ كلية الشريعة لتدرّس فی العهد الحاضر إلی جانب الدراسات المذهبية دراسات فقهية مقارنة لا تتقيّد فيها بالمذاهب الأربعة ، وممّا يبشّر بالخير أنّ الأساتذة والطلاّب يتلقّون هذه الدراسات المقارنة بإقبال وشغف ، وبروح من السماحة ، ورفض العصبية المذهبية ، غير ناظرين إلاّ إلی الدليل ، ولا باحثين إلاّ عن الحقّ .

إذن قد انتهت هذه المشكلة أو كادت ، ولم يعد لها خطرها ولا ضررها ، ولعلّنا نشهد فی القريب العاجل إن شاء الله مذاهب إسلامية أخری يدرَّس فقهها فی الأزهر كما يدرَّس فقه المذاهب الأربعة ، ويومئذ يحقّ لنا أن نستوفی جهات الفخر برجوع الفقه الإسلامی إلی مجده الأوّل، يوم كانت الآراء المحكمة، والحجج المتقابلة ، والأدلّة ، ووجهات النظر هی مادته وغذاءه ، وعمدته فی التنوير الفكری والوصول إلی الحقّ ، لا قول فلان ولا رأی فلان .

إنّنا لنستبشر خيراً بهذا ، وقد قارنه فی نفس العهد إحساس المسلمين بأنّه لا ينبغی أن يحكموا بغير شريعتهم ، وتلک هی الصيحات ترتفع عالية من كلّ جانب، ينادی بها المشتغلون بالفقه الإسلامی والمشتغلون بغيره من رجال القانون والقضاء والتشريع أن عودوا إلی فقهكم ، فإنّه عنوان مجدكم وعزّكم ، وقد اعترف بقيمة هذا الفقه وعظيم صلاحيته مؤتمر دولی عقد فی مدينة لاهای سنة ١٩٣٧ م ، حضره ممثّلون للأزهر الشريف والحكومة المصرية ، وماكان هذا كلّه ـ علم الله ـ إلاّ لأنّنا نبذنا التعصّب ، فتجلّی لنا ما فی شريعتنا وفقهنا من روعة وجلال ، ومن قدرة علی مسايرة أرقی أنواع الحضارات والمدنيات .

هذا هو تاريخ الخلاف فی الفقه والتشريع ، بدأ خلافاً علمياً مهذّباً ، فكان بركةً وفتحاً مبيناً ، ثم تطوّر إلی عصبية مذهبية عمياء ، فكان جموداً وركوداً ، وكان سبباً فی انسلاخ كثير من الشعوب الإسلامية من تشريعها ، ثم أخذ يعود

إلى هدوئه وسنّته الأولى ، فاستروحنا منه روح النهضة والتجدّد ، وابتدأنا نلتفت إليه ، ونعتزّ به ، وننادى بأنّه فكرتنا ومنهاجنا فى الحياة .

هكذا كان شأن الفقه ، فماذا كان شأننا فى غير هذه الدائرة؟ ماذا كان شأننا فى المعارف الفكرية والقضايا التى أثارها الخلاف الطائفى والكلامى؟

لقد بكرت هذه الخلافات على المسلمين منذ أول الأمر كما قلنا ، وكانت عنيفة حادّة ، وكانت فى نفس الوقت متلوّنة بألوان مختلفة ; تبعاً لما كان يمدّها من السياسة والأهواء ، ولما كان يغذّيها من الثقافات المختلفة ، وظلّت هكذا تتزايد وتقوى وتتّسع آفاقها ، ويتفاقم شرّها ، حتّى أصبح المسلمون فرقاً شتّى وطوائف مبعثرة ، بل أصبحت الأمة الواحدة متشعّبة إلى فرق ، والفرقة الواحدة متشعّبة إلى شعب ، وكلّهم متقاطعون متدابرون ، ينظر بعضهم إلى بعضهم كأنّهم أرباب أديان مختلفة ، فلا تعاون ولا تزاوج ولا تبادل للأفكار ، كلّ طائفة عاكفة على ما عندها ، متعصّبة له ، نافرة عمّا سواه تعتقد أنّها على الحقّ ، وأنّ سواها على الباطل ، وإذا تقاربت منها طائفتان أو أكثر فى بلاد واحدة احتكّ بعضها ببعض وهاج بعضها على بعض ، وكثيراً ما أفضى ذلك إلى سفك الدماء ، وتخريب البيوت ، وعداوات الأسر والطوائف ممّا نشهده بأعيننا ونسمعه بآذاننا فى الحين بعد الحين .

وساعد على ذلك المستعمرون الذين يهمّهم أن تتقطّع أسباب المودّة ، وعوامل الائتلاف بين المسلمين ليسودوا عليهم فى بلادهم ، وليكونوا هم قبلة المختلفين ، والحكم الأعلى بين المتنازعين ، وهكذا طاوع المسلمون هذه الأساليب الاستعمارية الماكرة ، فزادوا من حدّة الخلاف بينهم ، وتراموا بالكفر والفسوق والزندقة والخروج على الدين ، وأمثال تلك الاتّهامات الطائشة التى أرست بينهم العداوة والبغضاء، وزرعت فى قلوبهم الحقد والضغينة وسوء الظنّ ، وبذلك ساعدوا على أنفسهم ، ومكّنوا لأعدائهم من رقابهم وأوصالهم .

حدث هذا كلّه ، ومازال يحدث ، مع أنّ هذه الخلافات عند كثير من طوائف

المسلمين وفرقهم لا ترجع إلى أصول الدين ، ولا تمسّ العقائد التى أوجب الله الإيمان بها ، والتى يعدّ الخروج عنها خروجاً عن الدين ، ومن الممكن ـ إذا وجدت هذه الفرق من يقرّب بينها ، ويدرس أسباب خلافاتها ـ أن تعرض هذه الخلافات عرضاً هادئاً ، دون تأثيرات خارجية ولا تعصّبية ، فيتبيّن الحقّ فيها ، ويزول كثير من أسباب الجفوة والقطيعة بين أرباب الدين الواحد ، والنبى الواحد ، والكتاب الواحد.

من الممكن أن يتقارب المسلمون فيعلموا أنّ هناك فرقاً بين العقيدة التى يجب الإيمان بها ، وبين المعارف الفكرية التى تختلف فيها الآراء دون أن تمسّ العقيدة ، ويؤمئذ يهون الأمر ، فنجمع على ما نجمع عليه ، وإذا اختلفنا لم يكن خلافنا إلاّ كما يختلف أهل المذاهب الفقهية دون خصام ولا اتّهام ، ودون توجّس واسترابة وسوء ظنّ بما يجعلنا متقاطعين فى معاملاتنا ، ومصاهراتنا وثقافاتنا .

يومئذ يعود المسلمون كما كانوا أمةً واحدةً ، دينها الإسلام ، وكتابها القرآن، ورسولها محمد عليه الصلاة والسلام ، تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتتقبّل الكلام فيما وراء ذلک على أنّه آراء يدلى كلّ بما يراه منها ، دون أن تسىء إلى وحدة المسلمين ، أو تكون عاملاً من عوامل فرقتهم وضعفهم .

كان هذا ممكناً ، ومازال ممكناً ، ولا سيما بعد أن اتّسع نطاق العقول ، وانتشر لواء العلم خفّاقاً ، وأحسّ المسلمون بضرر ماهم عليه من التفرّق والتطاحن ، وبأنّ هذه الخلافات قد احتسبت خلافات متّصلة بأصل الدين وأساس العقيدة، واتّخذت لذلک علامة عند أعداء الإسلام على أنّ هذا الدين لا يستطيع النهوض بأمة تريد أن تنهض ، وأن تّتخذ لها مكانةً بين الأمم .

لقد كان من نتائج هذا الاضطراب فى الأفكار والمعارف الدينية ، وتكفير كلّ طائفة للأخرى ، أو اعتدادها بآرائها على أنّها هى الحقّ وما سواها هو الباطل ، وأنّ من خرج على هذه الآراء فقد خرج على شىء مقدَّس ومرق أو تزندق أو

تطرّف . كان من آثار ذلك مثل ما كان من آثار الركود الفقهى حين خرجت الأمة الإسلامية عن فقهها إلى ماسواه ، ذلك أنّ كثيراً من الشباب يخرجون على هذا التراث الفكرى عامة ، ويجنّبون أنفسهم مشقّاته وأهواله ، ويبتعدون عن أخطاره ومزالقه ، ومغبّة البحث فيه ; حذراً من أن يضلّوا فى مجاهله ، أو يصيبهم رشاش من التكفير أو التفسيق ، فنراهم يتجاوزون هذه الثقافات الفكرية الإسلامية ، غير مميّزين بين غثّها وسمينها إلى غذاء علمى آخر لأرواحهم وعقولهم فى المعارف الفكرية الأجنبية ، يتلقّفونها من علماء الغرب ومفكّريه ومستشرقيه والمأخوذين به ، ويعتقدونها هى العلم الصحيح ، والغذاء المفيد ، والآراء الصالحة للحياة .

ولقد رأينا هذه النزعة الخطيرة تستولى على شبابنا وكثير من مفكّرينا، وتتغلغل فى أعماق نفوسهم ، وتسيطر على أفكارهم وعقولهم ، وتعمل عملها دون أن يشعروا أو تشعر الأمة بما لها من إيحاءات خفيّة ، وضرر يسرى كالسمّ الزعاف فى أناة ومثابرة حتّى يهلک أو يقارب ، ومن شأن هؤلاء أن يهون عليهم تاريخهم ، وتصغر فى أعينهم ثقافتهم ، بل أن يصبح دينهم غير عزيز عليهم ، ولا أثير لديهم ، وربّما مقتوه وفرّوا منه ، وتباهوا بأنّهم علوا عنه ، وارتفعوا بأنفسهم عن مستواه .

هذه بعض أخطار التفرّق الذى منى به المسلمون ، أضعفتهم وأطمعت فيهم أعداءهم ، بل سلّطت عليهم هؤلاء الأعداء يسومونهم الخسف والذلّ وسوء العذاب ، وهوّنت من شأن ثقافاتهم ودينهم ، وجعلت العزّة والسلطان لغيرهم ، وإنّما العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين .

من الممكن أن تتلافى هذه الأخطار ، وأن يجنّب المسلمون شرّها وضررها إذا تعاونت القلوب ، وتأزّرت الجهود ، ونسيت العصبيات ، ورجعنا إلى الحقّ ننشده مخلصين .

أنّ حوالى أربعمائة مليون من المسلمين منبثّين فى بلاد الله[١] شرقاً وغرباً ، لم يؤتوا من قلّة ، ولم يؤتوا من فقر فى عقولهم ، أو فى بلادهم ، أو فى استعدادهم ، أو فى ثرواتهم الطبيعية ، ولقد شهد التاريخ كيف كانوا أقلّ من ذلک عدداً ، وأقلّ من ذلک مالاً وثروةً وخصباً ، ومع ذلک سادوا وشادوا ، ولفتوا إلى علومهم وأفكارهم ومدنيّتهم أهل الزمان .

فالمسألة إذاً إنّما ترجع إلى هذا التفرّق والتقاطع، إلى هذا الفقر الطارئ على النفوس والهمم والعزائم ، وقد تنبّه إلى ذلک كثير من أهل العلم والفكر من المسلمين فى عهود مختلفة ، وكانت صيحاتهم تنبعث فى الحين بعد الحين ، عالية طوراً ، وطوراً خافتة ، ينادون أمتهم أن تنبّهى إلى هذا المرض الخطير ، وإلاّ قضى عليک القضاء الأخير .

ولكن هذا كلّه ـ مع شديد الأسف ـ لم يتجاوز حدود الأمل الذى يساور النفوس ، أو القول الذى تجرى به الألسنة والشفاه ، ولم تتّخذ خطوات عملية مثمرة لتنفيذه حتّى كاد الناس ييأسون من شفاء هذه الأمة ، ويتوجّسون أن يدركها بسبب هذا الداء الوبيل موت نهائى بعد أن ألحّت عليها العلّة حتّى أضعفتها وبرتها .

ولكنّ الله ـ جلّت حكمته ـ أرحم من أن يترک الأمة المحمدية لهذا المصير الفاجع ، وهى خير أمة أُخرجت للناس ، نعم إنّها أساءت إلى نفسها وخرجت عن دائرة دينها ، وغيّرت وبدّلت وأعرضت ، إلاّ أنّها لاتزال أمة القرآن، وأمة خير الأنبياء (عليهم السلام) ، وأنّ القرآن الذى أنقذ المسلمين وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم ، وجمع بينهم ، وألّف بين قلوبهم وقد كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها ، وجعلهم سادة العالم وقادته ، لهو جدير بأن ينقذهم مرةً أخرى، وبأن يرفعهم من وهدة خلافهم وتطاحنهم ، وقد أنبأنا الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام بأنّه ما تزال طائفة أو طوائف من أمته على

---

١ . كان ذلک وقت صدور البيان .

الحقّ ، لا يضرّهم من خرج عنه إلى يوم القيامة ، وأنّ الله يبعث فى الحين بعد الحين إلى هذه الأمة من يجدّدها ويسدّدها ويهديها بفضله إلى سواء السبيل .

لعلّنا نلمح نور هذا الفجر المنتظر يشعّ على العالم الإسلامى ، لعلّنا ننتظر هذا التجديد الموعد به فى هذا العصر الذى تنبّه فيه الغافلون ، واستيقظ النائمون ، لعلّنا نلتمس أن تبزغ هذه الشمس فى مصر والعالم الإسلامى بعد أن طال احتجابها عن المسلمين .

نقول ذلک ونحن نقدّم جماعتنا هذه (جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية) إلى العالم الإسلامى الذى رزح تحت أثقال التفرّق أجيالاً بعد أجيال ، وقروناً تطاول عليها الأمد ، فنبشّر المسلمين بعهد جديد نرجو أن يكون بدءأ لانقشاع سحب الخلاف من جوّهم ، ونرجو أن تكون الخطوات فيه إلى هذا الغرض الشريف سريعة موفّقة إن شاء الله .

وقد أُلّفت هذه الجماعة فى مصر حاضرة الإسلام ، وملتقى أفكار المسلمين ونهضاتهم ، ومشرق شمس الأزهر الشريف ، تلک الجامعة العلمية الإسلامية التى تهوى إليها أفئدة من الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، على أن تكون لها فيما بعد فروع فى شتّى البلاد ، ومختلف البقاع ، تسير على نهجها ، وتخدم فكرتها ، وتعاون على جمع كلمة المسلمين بكل ما تستطيع من أنواع المعاونة .

وإنّنا ـ حين نعلن فى العالم الإسلامى نبأ تأليف هذه الجماعة ذات الغرض الأسمى ـ لنرجو من كلّ مسلم أن يتقبّلها بقبول حسن ، وأن يضمّ جهده إلى جهود أعضائها ، وأن يبثّ فكرتها ويعمل على تحقيق غايتها ، نرجو ذلک من كلّ أمة وطائفة وجماعة وفرد ، ونرجوه من كلّ من يؤمن بالقرآن ، ويعتقد برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه .

على بركة الله إذاً تتقدّم هذه الجماعة إلى العالم الإسلامى ، وتعلن بادئ الأمر أنّها ذات أغراض دينية اجتماعية فقط ، كما جاء فى قانونها الأساسى ، ذلک

القانون الذى اتّفق عليه أعضاؤها المؤسّسون ، وهو العهد بيننا وبين المسلمين ، فى ظلّ الإسلام ، وتحت راية القرآن ، نستعين الله على الوفاء به والنهوض بتبعاته (رَبَّنا عَلَيْکَ تَوَکَّلْنا وَإِلَيْکَ أَنَبْنا وَإِلَيْکَ الْمَصِيرُ)[1] (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ)[2] .

❊ ❊ ❊

١ . الممتحنة : ۴ .
٢ . الأعراف : ٨٩ .

الفصل الخامس
الزمن فى جانبنا

كلّ فكرة إصلاحية يتوقّف نجاحها على عوامل كثيرة ، فى مقدّمتها : سلامة الفكرة ، وحاجة المجتمع إليها ، وإخلاص دعاتها ، وصبرهم ، كفاحهم .

وهناک عامل آخر من عوامل النجاح له أهميته وله وزنه ، تقرّه سنّة الدعوات ، وتفرضه الأناة التى يجب أن تصاحب كلّ جديد ، ذلكم عامل الزمن .

صحيح أنّ كلّ فكرة سليمة يمكن أن تجمع حولها فريقاً من ذوى النظر الثاقب ، والبصيرة النافذة ، وأن تجد دعاةً يدافعون عنها فى دائرة ضيقة ، لكنّ الشبه والظنون التى تخالج الأذهان حيال كلّ طريف يحتاج استلالها إلى زمن ، كذلک تثبيت أىّ فكرة فى النفوس ، وترسيخها فى العقول يحتاج إلى زمن . فالدعوات لابدّ لها من أن تتسلّح بسلاح الزمن ، وخاصةً تلک التى ترتبط بالعواطف وتتّصل بالإحساس ، وكم من مشاكل معقّدة حلّها الزمن ، وأفكار مستغربة ألفها الناس بعد أن ذهب بغرابتها الزمن.

وكما أنّ الزمن يساعد كلّ دعوة سليمة على النمو الازدهار ، فإنّه كذلک يكشف كلّ زائف بما يُظهر من الخبايا ، ويبرز من الانحرافات بل أنّ ما يقذف به من العراقيل ومن المغريات يكون خير محكٍّ للدعاة ، وأصدق امتحان لنفوسهم ، فمن استطاع أن يحتفظ باعتداله ويلتزم مبادئه فهو الصالح المستحقّ للبقاء ، وهو القادر على شقّ طريقه وبلوغ غايته رغم ما يعترضه من صعاب .

أقول هذا بمناسبة مرور عشر سنوات كامة على فكرة التقريب ، أقوله وأنا أذكر كيف ولدت الفكرة ، وكيف احتضنها رجال مخلصون من العلماء والمفكّرين،

لأنّها جاءت على أساس تقريب الذين باعدت بينهم آراء لا تمسّ العقائد التى يجب الإيمان بها ، وتعريف كلّ طائفة بالأخرى ، والاتّفاق على النقط الوفاقية ، وأن يعذر المسلمون بعضهم بعضاً فى كلّ ما له دليل من مسائل فيها مجال للنظر والبحث ، وازالة الافتراءات التى أدخلت على كلّ طائفة ، ودعوة كلّ طائفة إلى النظر فى كتب غيرها والأخذ بما فيها لا بما يقوله عنها المخالفون ، جاءت لترفع العداوة والبغضاء من بين إخوة كتابهم واحد ، ونبيّهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، يحجّون إلى بيت الله الحرام . ولا يختلفون فى صلواتهم ، لا فى عددها ولا فى ركعاتها وسجداتها ، ويصومون رمضان ، ويؤدّون الزكاة ، ويؤمنون بكل ما يؤمن به المسلم من عقائد ، جاءت تدعو إلى ذلك كلّه بعد أن مزّقت الخلافات الأخوّة الإسلامية ، وجرحت الأقلام المفرِّقة عواطف المسلمين وقلوبهم .

ولم يكن بمستغرب أن تجد هذه الدعوة رجالاً من ذوى الفكر ، يمثّلون المذاهب الأربعة المعروفة والإمامية والزيدية ، يلتفّون حولها ويعتنقونها ، ويعلنون على العالم الإسلامى نبأ تكوين جماعة التقريب . ولم يكن بمستغرب كذلك أن يجدوا فى كلّ بلد إسلامى من يمدّ يده إليهم ويبايعهم ، وأن يجدوا أقلاماً تخدم فكرتهم ، ومؤتمرات تتبنّاها ، ومعاهد وجامعات تأخذ فى دراستها .

لكن هذا كلّه لم يكن يكفى ، ورجال التقريب أنفسهم لم يتوقّعوا أنّ مثل هذه الدعوة الخطيرة يتقبّلها الجميع بيسر ، فهم أول من أدرك أنّ سوء التفاهم ليس وليد أعوام عشرة أو عشرين ، بل وليد قرون وقرون ، وقد غذّته السياسة المختلفة ، وشجّعه أولو الأغراض من الحكّام الذين حكموا باسم الطائفية ، فوق أنّ دعايات السوء مسخت كثيراً من الحقائق، وأنّ سياسة «فرّق تسد» لا تزال تسيطر وتعمل عملها ، وأنّ الإنسان عبد لما يألف ، وليس من الهيّن أن يتقبّل ما يخالف مألوفه ، وأنّ الشكّ فى كلّ شىء أصبح أمراً متوقّعاً بسبب ما رآه المسلمون ، وما نزل بساحتهم من نكبات .

من أجل ذلک كلّه كثر التساؤل عن الفكرة ، وانحصر نشاطنا أول الأمر فى توضيحها .

قالوا : ما دعوة التقريب هذه؟ وكيف يمكن التقريب بين المذاهب؟ أتريدون من كلّ طائفة أن تنزل عن بعض ما تراه لتقرب من الأخرى؟

فقلنا : ما إلى هذا قصدنا ، وإنّما دعوتنا أن يتّحد أهل الإسلام على أصول الإسلام التى لا يكون المسلم مسلماً إلاّ بها ، وأن ينظروا فيما وراء ذلک نظرة من لا يبتغى الفلج والغلب ، ولكن من يبتغى الحقّ والمعرفة الصحيحة ، فإذا استطاعوا أن يصلوا بالإنصاف والحجّة البيّنة إلى الاتّفاق فى شىء ممّا اختلفوا فيه فذاک ، وإلاّ فليحتفظ كلٌّ بما يراه ، وليعذر الآخرين ويحسن الظنّ بهم ، فإنّ الخلاف على غير أصول الدين لا يضرّ بالإيمان ، ولا يخرج المخلصين عن دائرة الإسلام .

قالوا : كيف السبيل إلى التقريب وهناک الإمامة والخلافة؟

قلنا : لكلّ وجهة هو مولّيها ، ومادام ذلک لم يفض بأحد الفريقين إلى أن ينكر إسلام صاحبه فلن يضير المسلمين أن يحتفظ كلٌّ برأيه ، وإذا كان هناک ما نقوله فهو حول كيفية عرض وجهات النظر ، بأن يكون فى صورة غير مثيرة ، وذلک لصالح الأخوّة الإسلامية ، وبدوره يساعد على الإقناع إذا كان القصد ذلک .

قال قائل : لعلّ جماعة التقريب تريد أن تقرب بين المذاهب الفقهية؟

فقلنا : إنّنا لم نجعل من أهدافنا إدماج المذاهب الفقهية بعضها فى بعض ، فإنّ الخلاف أمر طبيعى ، وهو فى الفقه مبنى على أصول ومدارک كلّها فى الدائرة التى أباح الله الاجتهاد فيها، فلا ضرر فيه ، بل فيه خير وسعة وتيسير ورحمة .

قال قائل : لقد سمعنا أنّ من غايات التقريب أن يُدرَّس مذهب الشيعة فى الأزهر .

قلنا : إنّ من غايات التقريب أن يعرف المسلمون بعضهم بعضاً ، وإنّ أول من

يجب عليهم التعارف هم العلماء وأهل الفكر من كلّ طائفة ، والعلم لا يُصادر ولا يُكتم ، ولا بأس على الشيعة أن يعلموا علم السنّة وهم يدرسونه فعلاً ، ولا بأس على الأزهريّين أن يعلموا علم الشيعة ، بل ذلک واجبهم الذى يدعو إليه الاخلاص العلمى .

وأمثال هذه الأسئلة كثير ، تولّت الإجابة عليها مجلّة رسالة الإسلام التى تدخل اليوم عامها التاسع ، والتى اضطلعت بتوضيح الفكرة لا لكلّ سائل وحده، بل للمسلمين جميعاً ، وعلى صفحات هذه المجلّة نقول اليوم ما قلناه منذ عشر سنين عن فكرة التقريب رغم أنّ الفكرة ذاع صيتها ، وكثر أنصارها ، وأصبح كلّ مصلح وكلّ مفكّر يقف بجانبها . نعم نقول اليوم عن هذه الفكرة ما قلناه عنها منذ عشر سنين ، نقول نفس المبادئ ، ونفس الأسس ، ونفس الطرق للعلاج ، لأنّ الدعوات السليمة لا تنحرف ولا تميل ولا تخفى وراءها شيئاً .

قلنا فى أولى خطواتنا : لسنا نبغى من التقريب سوى جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم آراء لا تمسّ العقائد التى يجب الإيمان بها ، ولمّا لمسنا أنّ الطائفتين الكبيرتين فى الإسلام هما : السنّة بمذاهبها الأربعة المعروفة ، والشيعة الإمامية والزيدية ، تكوّنت جماعة التقريب من هؤلاء وأولئک .

قلنا : إنّ المسلمين بحاجة إلى أن يعرف بعضهم بعضاً ، وإنّ الأغراض قد أدخلت على كلّ فريق بالنسبة للآخر تُهماً ومطاعن ، وليس من المعقول أن تتعرّف على طائفة بما كتبه عنها أولو الغرض ، أو أشاعه عنها ذوو الحقد ، قلنا هذا ولا نزال نقوله كأصل من أصول التقريب .

قلنا ولا نزال نقول : إنّنا لا نريد أن ندمج المذاهب الفقهية ، لأنّ المذاهب ثقافة إسلامية يجب أن نحافظ عليها ، وإنّما نريد أن يقول أرباب كلّ مذهب ماكان يقوله أئمتهم : «هذا ما رأيته ، فمن جاء بخير منه فالحقّ أحقّ أن يتّبع» .

قلنا وما زلنا نقول : لسنا بصدد تغليب مذهب على آخر ، وإذا كان إظهار

مذهب على حقيقته بياناً لبطلان ما قيل عنه فليس هذا دعاية لهذا المذهب بذاته، وإنّما هو إظهار لحقّ يجب أن يُعرف ويُجْلى . وإذا كان يروق لأحد أن يخلط بين عقائد الفرق البائدة; كالمخطئة والخطابية والغرابية وغيرهم من الغلاة، ومالهم من أوهام لا يقبلها أىّ عقل ، ولا وجود لها الآن إلاّ فى خيالات بعض المستشرقين ـ لأغراض لا تخفى ـ أو فى بعض كتب الملل والنحل المعروفة بالتحيّز ... إذا كان يروق لأحد هذا الخلط العلمى بين أمثال تلك الأوهام الباطلة ، وما عليه الشيعة الإمامية أو الزيدية الذين يمثّلون نسبةً كبيرةً بين المسلمين ، ولهم آراؤهم واضحة ، وكتبهم مطبوعة ومتداولة ، وعلماؤهم فى الفقه والتفسير والكلام والفلسفة كثيرون امتلأت بهم أسفار التراجم ... إذا كان يروق لأحد أن يخلط بين هؤلاء وأولئك ليجعل من الأمة الواحدة أمتين أو أمماً مختلفة ، ولا يعجبه مبدأ التعريف بالمذاهب الإسلامية ، ويرى فى هذا هدماً للمبادئ المفرِّقة ، والمعاول الهدّامة ، وإذا كان التقريب يعطى فكرةً عن هذا المذهب على حقيقه ، فليس هذا ممّا يؤخذ على التقريب .

إنّ المسلمين إذا عرف بعضهم بعضاً ، وزالت الشكوك من بينهم واطمأنّوا لأنفسهم ; أصبحوا قوةً لها قيمتها . ولا يمكن بلوغ هذه الغاية بالمجاملات ، بل لابد من عمل يقوم على أساس من الواقع والفهم الصحيح ، تزدهر به شجرة الأخوّة الإسلامية ، وتؤتى ثمرتها المرجوّة ، وهذا ما نسعى إليه جاهدين .

وإذا كان الباحثون من المستشرقين ـ الذين تحرص بلادهم على فرقتنا ـ يكبّرون الخلاف بين مذاهبنا باسم البحث تارةً وباسم الاستشراق أخرى ، فإنّ من واجبنا أن نظهر الحقائق لنفوّت عليهم أغراضهم ، فإنّ فى الفرقة ضعفاً لنا ، وتمكيناً لغيرنا من رقابنا ، وإنّ فى الوحدة قوةً لنا وسيادةً لأمتنا .

إنّ فكرة التقريب ليست فكرة جماعة بذاتها مركزها دار التقريب ، وإنّما هى فكرة كلّ مناصر لها فى أىّ بلد من البلاد ، وإنّ أيّة دار تلقى فيها محاضرة أو يجتمع فيها مؤتمر أو غير ذلك ، لتعريف المسلمين بعضهم إلى بعض، لهى دار

للتقريب .

وهاهى ذى عشر سنين قد مضت على فكرة التقريب ، وهى وإن حسبت فى أعمار الأفراد إلاّ أنّها قصيرةً جداً فى حياة الدعوات ، ولا سيّما دعوة تعالج رواسب القرون .

وإذا كانت الدعوة قد سارت فى هذه الفترة اليسيرة ونمت رغم أنّ الطريق لم تكن أمامها معبَّدة ولا مفروشة بالرياحين ، والتزمت نهجاً سويّاً بعيداً عن كلّ نزعة تعصّبية ، ولم تخرج عن خطّة الرزانة والريث ، ولم تخضع لغير الحقّ ، فإنّا لنرجو أن يتمخّض المستقبل عن نتائج أعظم وأجلّ إن شاء الله ، والحمد لله على ما هدانا وأولانا ، وهو سبحانه ربّنا ومولانا .

الفصل السادس
دور الأزهر الشريف فى التقريب
(كلمة بمناسبة العيد الألفى للأزهر الشريف)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كان بودّى أن اشترك معكم فى هذه المناسبة المباركة وأتمتّع برؤياكم، ولأُبادل رأياً برأى ، لولا أنّ العوارض الطارئة حالت دون ذلک . ولا يمنعنى هذا من أن أرى نفسى معكم وبينكم ، مقدّراً آرائكم وشخصياتكم داعياً الله تعالى أن يوفّقكم فى تقييم الوضع المؤسف الحاضر للعالم الإسلامى واتّخاذ قرارات جماعية مناسبة إن شاء الله .

أمّا بعد ، فإنّ دار التقريب بجماعتها ـ جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ هى التى تحدّثكم فى هذه المناسبة الكريمة ـ العيد الألفى للأزهر الشريف ـ من دور الأزهر برجاله المصلحين ، وعلمائه الأتقياء البارزين فى رسالة هى من أنبل الرسالات الإصلاحية الإسلامية ، لجمع كلمة المسلمين ، وإزالة القطيعة بين أبناء الدين الواحد : ربهم (الله) واحد ، نبيّهم واحد ، كتابهم واحد، لايختلفون فى أيّة منه ، قبلتهم واحدة ، صلواتهم المفروضة واحدة، لا اختلاف فى عددها ، ولا فى الركعات والسجدات ، ولا فى وجوب قراءة الحمد فيها ، وحجّهم واحد، وصومهم واحد ... إلى غير ذلک .

بعد ما يقرب من أربعة عشر قرن من الخلافات، كان لأول مرة فى التاريخ

الإسلامى اجتمع عدد من المصلحين من مختلف المذاهب الإسلامية خصّيصاً لمعالجة هذا الداء الوبيل : التفرّق الطائفى لا على أساس تغليب مذهب على مذهب، أو حذف المذهبية أو دمجها فى بعض ، بل على أساس أنّ الرأى مادام على أساس عن الفهم والمنطق لابد أن يُحترم ، ولابد للدليل أن يتّبع من أىّ أفق طلع .

نعم ، كانت هناك محاولات ودعوات لهذا الغرض طوال التاريخ ، إلاّ أنّها كانت دعوات فردية ، ولسبب ما قضى عليها أو ماتت بموت أصحابها، ولكن دعوة التقريب جاءت على أكتف جماعة وقفوا كالبنيان المرصوص صفّاً واحداً، أقوياء بإيمانهم وشخصياتهم البارزة، متضامنين، وإذا مات منهم واحد قام واحد. فُوجدت كدعوة جماعية . وإذا كان لى ما يذكر فى هذا الميدان فهو أنّنى اخترت مصر بالذات كمركز لهذه الدعوة ، لما فيها الأزهر الشريف ، ورأيت بأنّ خير من يحمل هذه الرسالة هم علماء هذا الأزهر .

واليوم أرى من الواجب علىَّ أمام الله والتاريخ أن أسجّل دور الأزهر برجاله المصلحين البارزين ، هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، كما أنّ كلاًّ من واجب الوفاء وتقدير الجهاد يحتّم علىّ أن أُبرز دورهم ، وأعطيهم حقّهم ، مع الاعتراف بأنّه لا يسعنى أن أشرح فى هذه الكلمة إلاّ قدراً يسيراً ممّا يستحقّوه ، مستبشراً بأنّ آثار أعمالهم سوف تتكلّم عنهم إلى الأبد .

وإنّنى إذ أتكلّم عنهم أتكلّم فى الحقيقة فى دور الأزهر الشريف فى مقاومته للتفرقة المذهبية التى هى دائماً كانت السلاح الفعّال بأيدى المستعمرين الذين كانوا يحسنون استعماله فى أىّ وقت يناسبهم .

وإذا كانت دار التقريب أُسّست رسمياً فى يناير ١٩٤٧ ، إلاّ أنّ الدعوة مرّت بثلاث مراحل : مرحلة التمهيد ، مرحلة التكوين ، ومرحلة التنفيذ . وكان تأسيس الدار هو مرحلة التنفيذ .

مرحلة التمهيد قادها الإمام العظيم الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ

الأزهرفى وقته ، التقيت به عام ١٩٣٨ ، وعرضت الفكرة عليه ، ووجدته متفاهماً خبيراً ذكياً ، ذكر لى المصائب التى سبّبتها هذه التفرقة بأيدى الاستعمار، وشجّعنى وجمع بينى وبين العلماء البارزين (منهم الشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ عبد المجيد سليم وكان مفتى الديار المصرية فى ذات الوقت ، وأراد الله أن يكون لهما دور كبير فعّال فى هذه الدعوة، وكلاهما صار شيخاً للأزهر فيما بعد) واتّفقنا على النقط ، وبحثنا كيفية سير الدعوة حتّى لا تثير العصبيات . وكانت بداية مشجّعة وطيّبة ، وكان عهداً بينى وبين هؤلاء العلماء الكبار ، وكانت هذه هى مرحلة التمهيد .

واتّسعت دائرة الحرب العالمية ، فسافرت إلى بلدى ، وعدت إلى مصر بعد الحرب ١٩٤٩ ، وكان الشيخ عبد الرزاق شيخاً للأزهر ، اجتمعنا به مراراً ، ووجدته على العهد ، وبدأنا معه والشيخ العظيم الشيخ عبد المجيد سليم مرحلة التكوين وشاركا عليهما رحمة الله فى تكوين الجماعة ، وتأسيس الدار ، واختيار رجال بارزين فى العلم والتقوى للاشتراك فى هذه الدعوة التى يعتبرونها جهاداً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فكوّنت جماعة للتقريب من الشيخ عبد المجيد سليم وشلتوت والعلماء سادة المذاهب الأربعة فى الأزهر ، كما اشترك فيها ممثّلون من مذهبى الشيعة الإمامية والزيدية ، ورجال من غير الأزهر كمحمد على علوية وحلمى عيسى باشا ، وهما معروفان بميولهما الإصلاحية ومراكزهم الاجتماعية الرفيعة ، والشيخ حسن البنا المرشد العام والمؤسّس الأوّل للإخوان المسلمين ، والحاج محمد ابن الحسينى ، وغيرهم من كبار الباحثين والكتّاب ، وكتبوا القانون الأساسى للجماعة .

وجاءت دار التقريب وجماعتها إلى الوجود ، واختارت (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) شعاراً لها ، وكانت هذه نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى ، وهى مرحلة التنفيذ : قامت الجماعة بجهودها ، وفى هذه المرحلة الخطيرة كانت سهام المتعصّبين من كلا الفرقتين : أهل السنّة والشيعة ، موجّهة

إليها ، والاستعمار المستفيد دائماً من التفرّق بدأ يحسّ بها ، والعراقيل من كل جانب كانت تسدّ طريقها ، والاتّهامات من كل الأشكال والألوان كانت تنهال وتصبّ عليها ، ومن شيعى يقول : إنّهم يريدون أن يجعلوننا سنّيين! ومن أهل السنّة من يقول بأننا نريد أن نجعل منهم شيعيين ! وبجانب تلك المشاكل كلّها هناک من يدخل فى روع البلاط الملكى بأنّ لى مهمة ، وهى أن أمّهد السبيل لإعادة حكومة الباطنية ممثّلة فى زعيمها إلى مصر ! وذلک بإدخال الشيعة فى مصر ، وما اجتماع هذا العدد من العلماء البارزين وعهدهم معى إلاّ لهذا الغرض الهام ... ! وكلّنا نعرف ماذا كان من الممكن أن يترتّب على هذا الاتهام الخطير فى ذاک الوقت .

وكان الإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر هو الذى أدرک الموقف ، ودافع عنى وعن الجماعة ، ووضّح لهم زيف وسخف هذا الاتّهام الذى كان أشبه بوهم الحشّاشين ، ولولاه ولولا كلامهم معه لكانت دار التقريب فى خبر كان فى أولى خطواتها ، عرفنا وعرف كل من كان معنا بأنّ الله حفظنا ، وأنّه يريد للدعوة البقاء .

رغم كل الصعوبات والافتراءات والتُهم ، هؤلاء الرجال وقفوا صامدين ، لم يخافوا فى الله لومة لائم ، دافعوا عن الدعوة بكلّ قوة ، وكان الجو مليئاً بالكره، كره كل فريق بالنسبة للفريق الآخر ، وكانت القطيعة مستحكمة ، وكان أصحاب التعصّب التقليديين لا يطيقون أن يسمعوا عن الفريق الآخر إلاّ كل سوء ، والمكامن تؤخذ كالحقيقة الواقعة ، وهناک تلک الكتب المفرِّقة ، بل الكتب التى أُلّفت للتفرقة ـ وأُعيد طبع بعضها لإثارة النعرات الطائفية ، خصيصاً لمقابلة فترة التقريب ـ كانت تلک الكتب مليئة بالشتائم وشتّى التهم ، وكانت يؤخذ بهما كأنّها حقيقة واقعة ! ولقد رفعنا أمام كل ذلک شعاراً : «أيها المسلم أعرف أخاک» كبداية للتغلّب على هذه العقبة .

ولهذا الغرض ، ولنشر الدعوة فى العالم الإسلامى ، أُسِّست مجلة رسالة

الإسلام المعروفة ، التى نالت أعجاب العلماء والباحثين ، وقدّمت للعالم الإسلامى أقلام فذّة ، وأبحاث فقهية وتاريخية واجتماعية ، وانّ اثنين من علماء الأزهر هما المشرفان على هذه المجلّة ، هما المغفور له العالم العبقرى الشيخ محمد محمد المدنى ، الأستاذ وعميد كلية الشريعة بالأزهر كرئيس للتحرير، وفضيلة العالم الجليل الشيخ عبد العزيز عيسى الأستاذ بالأزهر كمدير عام لها ، بارک الله لنا فى حياته .

واليوم وأنّ الدعوة انتشرت ، وأنّ الجو السائد الذى كان مليئاً بالطعون والكره قد ولّى ، وأنّ التفرقة التى كانت بين الفريقين قد خفّت فى بعض البلاد ـ وحتّى فى بلد شيعى يُقام فيه أسبوع الوحدة (من السنّة والشيعة) بمناسبة الاحتفال بمولد الرسول الكريم ـ وزالت بالكلّية فى كثير من الأوساط ، واليوم ينظر إلى الفقه بأنّه حصيلة رجال من الفقهاء العظام واستنباطهم من الكتاب والسنّة ، وما كان منه مع الدليل المقنع من فقيه سنّى أو فقيه شيعى لابد أن يحترم ، ولذلک ترون فقه أهل السنّة يدرَّس فى الجامعات الشيعية ، وبالعكس فقه الشيعة يدرَّس فى الجامعات عند أهل السنّة ، وأخذ من هذا الفقه فى قوانينهم فى الأحوال الشخصية.

ولست هنا بصدد ماتمّ من إنجازات تعتبر نقطة عطف فى التاريخ الإسلامى، وخير مرجع موجز لهذا الغرض ، مع الإشارة إلى الشخصيات الكبيرة ممّن التحقوا بدار التقريب فى العالم الإسلامى ، هو ما كتبه الإمام الراحل محمود شلتوت ، وهو على إيجازه تاريخ الدعوة وفتواه ، أنا أترک هذا لما كتبه عليه رحمة الله تقديراً لجهاده وتأدّباً معه .

ومادمنا بصدد الكلام عن الوحدة الإسلامية والتغلّب على التفرّق ، لابد لنا أن نشير بأنّ ذلک الاستعمار الذى خفّت قبضته أو اختفت مقدرته لبعض الوقت بمناسبة الدمار والخراب والفقر الاقتصادى ، والنكبات الأخرى التى سبّبت له الحرب العالمية الثانية ، وأُجبر على إعطاء الاستقلال لبلاد كالقارة الهندية التى

كانت تستحكم قبضته عليها بالسلاح المؤثّر : التفرّق الدينى والطائفى ، وكانت هذه هى الفرصة الذهبية التى سنحت لتأسيس دار التقريب ، ونشر فكرتها ، وإذاعة أخبارها ونشاطها ، وحتّى أخذ برأيها فى لجنة الدستور بباكستان ليكون متمشّياً مع فكرة التقريب ، ولا يكون مثيراً للتعصّبات ومجحفاً بحقّ الاقلّيات الإسلامية ، كان المستعمرون مشغولين بأنفسهم ، وتمّ ماتمّ ، وكانت فرصة ذهبية لنا .

ولكن فى الحقيقة ذلک الاستعمار لم يتب إلى الله لاغتصابه بلاد الغير ، ولم يستغفر لما اقترفه من آثام ، بل الاستعمار هو الاستعمار ، إذا إنّه فى بعض الوقت خرج من الباب إنّه يدخل علينا هذه المرة من النافذة ! وإنّه فى هذه المرة يدخل علينا مقنّعاً تحت ستار الايديولوجيات الجذّابة ، والتى لا تحمل فى طياتها إلاّ النكبات للمسلمين ، وإيجاد التفرّق والأنقسام فى البلاد ، بل بين العائلات فى بلد واحد ، وحتّى بين الوالد وولده ، ومن هو المكتسب وراء سوق الشباب إلى العنف مثلاً بدل الإقبال على الجامعات والبحث الهادئ إلاّ المستعمر .

وأنا أشرت إلى هذا الخطر الذى يهدّد المسلمين بل الإسلام فى صميمه فى التقرير الذى قدّمته فى مجمع السنوى العام لدار التقريب بمناسبة بدء السنّة الثالثة لها فى يناير ١٩٤٩ ، وقلت : إنّ الحرب انتهت ، المغلوب انتهى كلّ شيء بالنسبة له ، وأنّ الغالب خرج منهوک القوى ، ولابد له من زمان حتّى يعود إلى الوضع العادى ، ولكنّه هو المستعمر ، إلاّ أنّه هذه المرّة يتوسّل بالايديولوجيات، وتلک مدلولات السلاح المدمّر الجديد له ، ونعرف مدى خطورة هذا السلاح إذا عرفنا بأنّ هذه المرّة شباب هذه الأمة هم الذين يأخذون هذه الايديولوجيات، وأضرّ تلک الايديولوجيات ما كان منها يتقنّع بالقناع الدينى ، أو يصطبغ بالصبغة الدينية ، وربّما أضرّ الآراء وأخسّها وهى الماركسية السافرة أو اللاقيدية الإلحادية إذ المتديّن لاينخدع بهما ، ولا ينخرط فيها ، ولا يقع فى شراک

أمثالهما ... . قلت هذا فى ذاک الوقت .

ولنا أن نفكّر : لماذا شبابنا يقع فى شراک الايديولوجيات بهذه السهولة؟ السبب الأهمّ فى نظرى أنّهم كثيراً ما أخطأوا فى فهم معنى الدين وحدود رسالته، وحمّلوا الدين مالا يستحمله ، وما من جديد يعجبهم إلاّ يريدون أن يجدوه فى الدين ، أو يحوّلوا الدين أو يفسّروه على نحو يجدوا هذا الجديد فيه

وربّما خاب ظنّهم فى علماء الدين ، وحيث لا يجدوا متطلّباتهم لديهم ، أو الرحابة المتوقّعة من الدعاة عندهم ، يلتجئوا إلى غيرهم . فكيفما كان أوصيكم بالشباب ، والاهتمام بهم وبمشاكلهم ، هم ليسوا أقلّ من السيول المتدفّقة فى المقدرة ، إن أحسنت تلک المقدرة فكم من البركات يترتّب عليها ، وإن تركت فكلّنا نعرف ما يترک من الدمار والخراب .

وختاماً نعود إلى دعوة التقريب ، ونقول : إنّنى لا أدّعى بأنّ التفرّق المذهبى أو الطائفى قضى عليه تماماً ، أمامكم ما حدث فى شهر فبراير الماضى من الشيعة وأهل السنّة بباكستان المسلمة ، ومادام فى عالمنا الإسلامى المتعصّب الناشئ عن الجهل ، ومادام هناک من يستفيد وينتفع من جهل الجاهلين ، لا يستبعد عن أن يقع أمثال ماوقع بباكستان ، بل أعنف منه ، مع مانطلب من العلماء وزعماء الفريقين فى ذلک البلد أن يبتعدوا عن التعصّب الطائفى وينظروا إلى مصلحة الإسلام العليا لإرشاد أتباعهم .

ونطلب منكم ـ أيها السادة الزعماء والعلماء ـ أن تجعلوا دعوة التقريب ـ التى هى دعوة إصلاحية إسلامية ـ دعوتكم ، ومن المفهوم أنّ هذه الدعوة ليست ملكاً لأحد ، من يدعو له فهو من رجال التقريب ، وأىّ محلّ أو مسجد يدعى فيه لفكرة نبذ التعصّب هو دار التقريب .

بارک الله لنا فيكم ، ووفّقكم الله وأيّدكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

وقد جاء فى ذيل كلمته ما يلى :

ملحوظة

إذا كان هناك مناقشة أو ما يتطلّب بعض التوضيح فرجائى من الرجلين الكريمين الفاضلين فضيلة العالم الشيخ عبد العزيز عيسى من رجال التقريب البارزين ، وسيادة الأخ المربّى الجليل الدكتور ابراهيم الطحاوى المدنى ـ له دور مشكور وهام فى هذه الدعوة ـ أن يقوما بالتوضيح ، وكذلك بإمكان الصحف والمجلات إن أرادوا أن يكتبوا عن التقريب أن يرجعوا إليهم ، جزاهما الله خير الجزاء .

الفصل السابع
رجال صدقوا

تتميّز حقبة من الزمن عن سواها بما يقع فيها من أحداث ، وكلّما ازدادت أهمية تلك الأحداث ، ازداد الاهتمام بزمن وقوعها .

ويتميّز رجال عن غيرهم بما يصدر عنهم من أفكار وأعمال ، وكلما كانوا أبعد أثراً ، كانوا أبقى ذكراً ; حتّى ليسجّلهم التاريخ فى الخالدين .

وتتميّز فكرة عمّا عداها بما يترتّب عليها من آثار قد تصل بها إلى مرتبة المبادئ الضرورية التى تفرض وجودها ويكتب لها البقاء .

وقد أراد الله أن يكون ربع القرن الأخير من الزمان ظرفاً لحدث تاريخى فى الإسلام يميّزه عن غيره من الأحقاب .

كما أراد سبحانه أن يجتمع فى هذه الحقبة القصيرة نفر من المصلحين ، قلما يجتمع نصف عددهم فى قرن من الزمان ، وأن يحملوا فكرة إصلاحية كانت أمل كثير من المصلحين منذ قرون ، وأن يكونوا أقوياء لايخافون فى الله لومة لائم .

وأراد الله لفكرة أصيلة مدروسة ممحَّصة أن تطلع على العالم الإسلامى فى صورة دعوة إصلاحية دينية تعالج أعظم داء ابتلى به المسلمون ، وهو التفرّق المذهبى ، وأن تصبح هذه الدعوة نقطة انطلاق ومبدأ تحوّل فكرى لعالمنا الإسلامى ، فى وقت يحتاج فيه إلى اجتماع كلمة أبنائه كى يتمكّنوا من نشر رسالتهم على هذا العالم المضطرب .

صحيح أنّ ربع القرن الذى انقضى من عمر دعوة التقريب ـ وفيه سنوات التمهيد ـ ليس شيئاً يذكر فى عمر الدعوات ، فإنّ خمسة وعشرين عاماً فى عمر

الدعوات ليست إلاّ كساعات أو أيام فى عمر الإنسان ، إلاّ أنّ ما تمّ فيها من أعمال ، وما أنجز فيها من أمور خلّدت هذه الحقبة من الزمن .

فما السرّ فى ذلک ؟

السرّ هو إيمان القائمين على هذه الدعوة ، وملاءمتها للفطرة السليمة . والإيمان يصنع ما يشبه المعجزات ، إنّه يمنح صاحبه من القوة ما يتخطّى به كلّ عقبة ، ويتغلّب به على كلّ صعوبة .

ففى هذه الحقبة من الزمن اجتمع نفر من المصلحين من مختلف المذاهب ، ومن شتّى البلاد ، وتفاهموا رغم اختلاف مذاهبهم وديارهم ، ولم يكن للتعصّبات المذهبية عليهم تأثير ، ولا كان فى أعماق تفكيرهم رواسب ، واتّفقوا على العمل ، وأفرغوا فيه جهدهم ، فأخذت الدعوة لون المدرسة الفكرية العلمية التى تقوم بذاتها وبدراساتها ، ولا ترتبط بذوات الأشخاص أو بمراكزهم ، ولا تتأثّر ببقاء الأشخاص أو زوالهم ، وبمعرفة الناس بهم أو جهلهم إياهم ، حتّى أنّ بعض من تفانى فى خدمة هذه الفكرة ثم اختاره الله إلى جواره ، لم يعرف الناس إلى الآن عنهم شيئاً .

لم يكن الحال يوم بدأت فكرة التقريب كما نحن عليه الآن ، كان سلطان التعصّب قوياً يتحدّى أىّ إنسان يروّج لمثل هذه الفكرة ، وكان عامة الناس لا يطيقون أن يسمعوا عن التقريب بين الشيعة والسنّة ، إذ الشيعة فى زعم بعض السنّيين هم الغلاة وأصحاب مصحف خاص ، والسنّة فى زعم بعض الشيعة هم النواصب والمجسِّمة ، وإذا كان الخاصة وهم أئمة الفكر والدين قد عرفوا الحقائق ، فإنّ أحداً منهم لم يقدم على عمل إيجابى ، خوفاً من الشائعات التى كانت تُلصق بكل فريق وتصدَّق عند الفريق الآخر ، وخوفاً من أنصاف العلماء أو أشباه المثقفين الذين لا يعرفون غير كتب مذهبهم ، ولا يقرؤون سواها ، ولهم تأثيرهم المباشر فى عامة الناس .

فلم يكن بد إذاً من تهيئة الجوّ قبل الإقدام على أىّ عمل إيجابى ، والتمهيد

للفكرة قبل الخروج بها على الناس . وهكذا مرّت فكرة التقريب بمراحل ثلاث : مرحلة التمهيد ، ومرحلة التكوين ، ومرحلة التنفيذ.

وهناك رجال عاشوا فى التقريب منذ المرحلة الأولى ، وآخرون بدأوا مع المرحلة الثانية ، والأحياء من هؤلاء وأولئک لايزالون يجاهدون فى هذه الدعوة وأعمالهم تتحدّث عنهم ، أمّا الذين سبقونا إلى رحمة ربّنا فإن علينا نحوهم واجباً يقتضينا أن نشير إلى بعض ما قاموا به ونقدّمه للتاريخ .

وما دام فقيدنا الأخير ، فقيد الإسلام شلتوت ، بجانب عضويته الدائمة فى التقريب منذ سبعة عشر عاماً ، قد تولّى مشيخة الأزهر فى السنوات الخمس الأخيرة ، فإنّنا سنذكر فى هذه العجالة شيوخ الأزهر الشريف الذين خدموا فكرة التقريب ، سواء من كان فى جماعتنا وتولّى مشيخة الأزهر ، أو من لم يكن رسمياً من أعضاء الجماعة ،

إنّ الذين أسهموا من شيوخ الأزهر بطريق مباشر أو غير مباشر فى دعوة التقريب أربعة ، هم المغفور لهم : محمد مصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبدالمجيد سليم ، ومحمود شلتوت . والأولان لم يكونا رسمياً من أعضاء الجماعة ، لكنّهما كانا يؤمنان بالفكرة إيماناً عميقاً ، وقد وقف أحدهما بجانبها وهى فى مرحلة التمهيد ، ووقف الثانى بجانبها وهى فى مرحلة التكوين .

أمّا الشيخ المراغى فكان على رأس الأزهر حين جئنا إلى مصر أول مرة سنة ١٩٣٨ داعين لفكرة التقريب ، وكان (رحمه الله) شيخاً وقوراً ، قوىّ الشخصية ، متّزن الفكر ، واسع الأفق ، لمست فيه أول ما لقيته إيماناً بالفكرة ، إلاّ أنّه كان بحكم مركزه لا يستطيع أن يدعو إليها بنفسه ، بل أنّه وهو إمام أهل السنّة لم يكن يستطيع أن يظهر بمظهر المؤيّد لفكرة كهذه أمام الجو الذى كان يسود الأزهر ، وبالتالى يسود هذا البلد العزيز .

لكنّه (رحمه الله) عرف كيف يخدم الفكرة ، ففتح أمامنا المجال لإلقاء محاضرات فى الأزهر وخارجه ، وسهّل لنا الاتّصالات الشخصية برجال الأزهر

للتفاهم ، وكان يجمعنا بمن يعرف فيهم الميل إلى التقريب من العلماء الذين يعترف بعلمهم ، وحسن استعدادهم لدراسة الفكرة ، وكنّا على اتّفاق فى أنّ المسألة دقيقة ، وأنّ أيّة فكرة لايمهّد لها يقضى عليها فى مهدها ، ثم استقرّ الرأى فيما بيننا على أن يقوم الأزهر بعمل شىء فى مناسبة عيده الألفى الذى أزمع عقده بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين ، إلاّ أنّ اتّساع الحرب العالمية الثانية حال دون عمل شىء وإن لم يقض على ما وصلنا إليه من تفاهم .

وانتقل الشيخ المراغى إلى رحمة ربّه بعد أن أسهم بصورة فعّالة فى إيجاد التعارف الشخصى ، والاتّفاق على النقط الأساسية ، وتهيئة الجو عند بعض القادة من علماء الدين ، وفى مقدّمتهم الشيخان : مصطفى عبد الرازق ، وعبد المجيد سليم .

وإذا كانت الحرب قد أطاحت بكثير من المثل ، وهدّمت بيوتاً وبلاداً ونفوساً وأرواحاً ، إلاّ أنّها لم تعصف بما ثبّته الله فى قلوب علماء مؤمنين من تفاهم وتعاطف ، فظلّت عامرة بهذه المعانى إلى أن عدنا لمصر سنة ١٩٤٦ ، وقد أكسبتنا مرحلة التمهيد تجارب خرجنا منها بأنّ الاتصالات الشخصية التمهيدية لابد أن تسبق كلّ دعوة ، وأنّ أيّة فكرة يراد لها البقاء يجب أن تخرج من النطاق الشخصى ، وتوضع على أكتاف جماعة من المؤمنين العاملين بحيث إذا غاب فرد حلّ مكانه سواه .

وفى تلك الفترة بدأت مرحلة التكوين ، وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للأزهر ، واستقرّ الرأى على أن يكون هو بجانب الدعوة فى خارج الجماعة يساندها إذا توتّر الجو ، وأن يكون للشيخ عبد المجيد سليم فى الجماعة ، وكان يرى أنّ عبد المجيد سليم هو شيخ العلماء وأفقههم بلا منازع .

وقد وقع ماكان يخشاه ، فإنّ المتعصّبين ما إن سمعوا بتكوين الجماعة حتّى هاجوا وماجوا ، وشوّهوا الفكرة عند المسؤولين ، وأدخلوا فى روع السلطات كثيراً من الظنون والأوهام ، وهنا يقف مصطفى عبد الرازق حين استفحل الأمر ،

يقف أمام المسؤولين مدافعاً عن سلامة الفكرة ، وسلامة العاملين لها ، وقيمهم وشخصياتهم ، ومراكزهم فى مصر وفى البلاد الأخرى ، ولولا هذا الموقف الصريح من هذا الرجل المؤمن الصادق لقضى على الفكرة فى بدء مرحلة التكوين .

كذلك كان له (رحمه الله) فضل اختيار بعض الأعضاء من علماء الأزهر ، وذكر بعض النقط فى القانون الأساسى للجماعة . ووقف معنا يومئذ داخل الجماعة شيخنا الإمام عبد المجيد سليم بجهده وجهاده ، وعلمه وإيمانه .

وبعد مدة وجيزة ذهب الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى ربه ، وكأنّما كان عليه رسالة أدّاها ومضى .

وظنّ بعض المتعصّبين المتربّصين أنّ وفاة الشيخ مصطفى عبد الرازق فرصة للهجوم ، لكن أعضاء الجماعة ، وفى مقدّمتهم عبد المجيد سليم ، صمدوا للهجوم وصدّوه ، ومن ذلك الحين لازم عبد المجيد سليم التقريب ورسالته ، فلمّا اختير بعد سنوات شيخاً للأزهر ، احتفظ بعضويته فى الجماعة ، وكثيراً ما كان يوقّع خطاباته بصفته «شيخ الأزهر» و«وكيل جماعة التقريب» . وفى عهده فتحت صفحة جديدة فى علاقات السنّة والشيعة ، فهو الذى افتتح الكتابة إلى علماء الشيعة ، وتلقّى ردودهم ، وهو الذى بدأ تحويل الأزهر إلى جامعة إسلامية عامة بدل كونها قاصرة على المذاهب الأربعة الخاصة ، ليحقّق الوارد فى القانون الأساسى لجماعة التقريب بالنسبة للجامعات الإسلامية ، وهو الذى أدخل ـ لأول مرة ـ فى قانون الأحوال الشخصية المصرية بعض ما كان يرجّح فى نظره من فقه الإمامية ، وهو الذى اقترح على دار التقريب طبع تفسير مجمع البيان .

ثم ترك (رحمه الله) مشيخة الأزهر ولم يترك جماعة التقريب ولا دارها حتّى فارق الحياة ، فعمّ الحزن كلّ من عرف مكانة الرجل العلمية والدينية ، وبقى التقريب برجاله يشقّ طريق دعوته ، متوكّلاً على الله ، ومحتسباً عنده فقد هذا الإمام الجليل .

وكان الأستاذ الأكبر محمود شلتوت ، من أعضاء جماعة كبار العلماء . وأستاذاً بالجامعة الأزهرية يوم اشترک فی تکوين هذه الجماعة ، وظلّ مع زملائه فی الفکرة يقوم بواجبه نحو التقريب ، وهو الذی اقترح فی أحد جلساتنا أن يعتبر السنّة والشيعة المشترکون فی الجماعة مذاهب إسلامية لا طوائف أو فرقاً ، ثم أُسندت إليه وکالة الأزهر ، فلم تشغله عن الإسهام فی التقريب ، وهو الذی کتب المقدّمة العلمية المعروفة لتفسير مجمع البيان ، كما كان يكتب تباعاً تفسيره فی رسالة الإسلام ثم أُسندت إلى الفقيد مشيخة الأزهر ، وإذا کانت فتواه المشهورة بشأن المذاهب الإسلامية ، وجواز اتّباع مذهب الإمامية قد صدرت حين تولّيه مشيخة الأزهر ، فإنّ هذا کان مجرّد ميقات زمنی لصدورها ، على سنّة التدرّج فی التنفيذ ، لا فی الفکرة والمبدأ ، ذلک بأنّ هذه الفتوى کانت منبثقة عن مبدأ علمی ثابت مدروس من أول الأمر ، هو أساس من أُسس التقريب ، فهی فی المعنى ليست فتوى رجل واحد ، وإنّما هی فتوى کلّ أولئک الرجال الذين حملوا أمانة التقريب ، وفی مقدّمتهم الأستاذ الأکبر الشيخ عبد المجيد سليم .

وذهب شلتوت إلى ربه ، واهتزّ العالم الإسلامی لوفاته ، ولأول مرة فی التاريخ الإسلامی يظهر جليّاً اشتراک السنّة والشيعة فی الأسى على شيخ للأزهر ، ذلک لأنّه کان يعمل لفکرة التقريب ، وتوحيد کلمة المسلمين ، ونحن نؤمن ببقاء الله وحتمية الموت ، إلاّ أنّ هذا لا يعفينا من الحزن الشديد لفقد زميل عزيز ، وعالم جليل ، ومجاهد من الطراز الأوّل .

ولقد لفت نظرنا معنىً تردّد فی کثير من البرقيات والرسائل والمقالات التی کُتبت حول فقيدنا شلتوت ، فإنّ کثيرين ظنّوا أنّ التقريب مؤسسة أزهرية ، وأنّ من يتولّى أمر الأزهر يتصدّر التقريب ، وکثرت أسئلة المنزعجين : ماذا بعد وفاة الشيخ ؟ وماذا يکون الأمر إذا لم يکن الخلف على سيرة السلف ؟

ونحن مع شکرنا لهؤلاء المهتمّين نريد أن نقول : إنّ التقريب فکرة إصلاحية

إسلامية مستقّلة ، قائمة على البحث الصحيح والعلم ، وإنّ الأزهر جامعة إسلامية رسمية ، لها رسالتها العلمية ، ويعتبر مناراً للدين ، وهذه الجامعة العتيقة خدمت الإسلام كثيراً ، وتخرّج فيها كثير من العلماء ودعاة الإسلام ، فمن الطبيعى أن تلتقى أفكار التقريب والأزهر ، مثل ذلک كمثل الأفكار الحسابية تصل دائماً إلى نتيجة واحدة ، وكمثل الخطوط المستقيمة إذا وضعتها فوق بعض انطبقت تماماً ، وهذا هو شأن الأفكار السليمة المنبثقة من مبادئ دينية ، لاسيّما إذا كان الدين دين توحيد .

والدليل على ذلک أنّ دار التقريب أُنشئت فى القاهرة بلد الأزهر الشريف ، ومن أول من لبّى هذه الدعوة عدد من أئمة العلم والدين من علماء الأزهر ، فموقف الأزهر الرسمى لا يؤثّر فى التقريب ، بل أنّ بعض الرسميين لم يحسنوا إدراک رسالة التقريب فى كثير من الأحيان ، ولم يؤثّر هذا فى سير التقريب ، ولم يمنعنا من احترام الأزهر ورجاله . فإنّ موقف الأزهر الرسمى شىء ، وموقف علمائه شىء آخر .

إنّ التقريب يسير اليوم فى طريقه ، وبين جماعته رجال مؤمنون سيقدّمون بإذن الله لأمتهم مثل ما قدّم أسلافهم الصالحون .

وإنّ جهاد ربع قرن قد بدّل الحال غير الحال ، ولعلّ المتّصلين بالتقريب لا يحسّون بمدى التحوّل إلاّ إذا نظرنا إلى الأيام الأولى ، ونظرنا إلى ما نحن عليه الآن ، وسنجد أنّ بعض من كانوا فى مقدمة المهاجمين لفكرة التقريب يسرّهم اليوم أن يسلكوا فى أصحاب هذه الفكرة ، ونرى أنّ ما كان يعتبر من قبل وسيلة للهجوم ، يعتبر اليوم دليل تقدّمية وإصلاح .

وإذا كانت دعوة التقريب قد نجحت ، فليس معنى هذا أنّ أصحابها والمشتغلين بها قد استراحوا ، وزالت من طريقهم العصبيات، كلاّ ، فما زالت النفوس المريضة، والكتب المشحونة بالدسّ والقطيعة كثيرة قوية التأثير، وأرباب التبشير والمتأثّرون بهم لا يزالون يكتبون ، وتجّار المذهبية لا يزالون منبثّين ، والسياسات المفرّقة لنا

بالمرصاد .

هذه هى بعض مشاكلنا رغم المغالاة فى التفاؤل عند بعض المتفائلين ، ومع ذلک نحن نرحّب بالمعارضة ، فإنّ الدعوة لم نخسر منها شيئاً ، بل كسبت من ورائها الكثير ، وفى نفس الوقت نقول لمن تخالجهم بعض الشكوک : إنّ الخطوات التى تمّت لا رجوع فيها ، ونحن إلى الأمام ـ إن شاء الله ـ سائرون ، وأنّ الذين تحرّروا من سجن الضيق الفكرى لن يعودوا إلى سجنهم أبداً بعد أن أصبحوا قادة التحرّر الفكرى فى محيط المسلمين .

الباب الثالث

ثقافة التقريب

آراء وتجارب

ويشتمل على ثمانية فصول :

❊ الأوّل: القافلة تسير
❊ الثانى: جولة بين الآراء
❊ الثالث: خلاف نرضَاهُ ، وخلاف نأباهُ
❊ الرابع: فى سبيل الوحدة : هدية من تجاربنا
❊ الخامس: رحم الله امْرأً عَرَف قدرَ نفسه
❊ السادس: أُمة واحدة وثقافة واحدة
❊ السابع: وحدة المسلمين حول الثقافة الإسلامية
❊ الثامن: فرصة سانحة

الفصل الأوّل

القافلة تسير

التطوّر سنّة من سنن الخليقة يقول به كلّ مفكّر ، فالموحّدون فى توحيدهم ، والمتصوّفة فى تعبيراتهم ، وأرباب السلوک فيما يرون من التدرّج فى المنازل ، والطبيعيون فى فلسفتهم الطبيعية ; كلّ أولئک يقرّون التطوّر ، وهل ما دار فى مسألة قدم العالم وحدوثه ، وما قام بين المعتزلة والأشاعرة من خلاف معروف ، إلاّ ألوان من التفكير القديم يرجع كثير منها إلى نظرية التطوّر ؟ !

على أنّ هؤلاء وأولئک رغم اختلافهم فى آرائهم تبعاً لآفاقهم الفكرية ، يجمعون على أن التطوّر سير إلى الكمال... فبعضهم يقول : إنّه السير إلى الخير ، وبعضهم يقول : إنّه السير إلى الإنسان الكامل ، وبعضهم يقول : إنّه السير إلى الله .

والديانات السماوية كلّها كانت أخذاً بيد الإنسانية نحو الكمال ، وسموا بها من كامل إلى أكمل ، وتلک سنّة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً .

والأمم كالأفراد لابد أن تخضع لسنّة التطوّر ، وإذا كان الأصل فى الإنسان أن يتطوّر نحو الكمال ، فإنّ الأمم كذلک تتحرک بطبيعتها فى مدارج الرقى ، وتسعى بفطرتها نحو الكمال المنشود.

وإذا قيل : إنّ الفرد يتطوّر من طفولة إلى صبا فشباب ورجولة ، ثم إلى شيخوخة وهرم ، أى ضعف ووهن ; قلنا : إنّ تطوّر الأمم يكون فى المعنويات لا فى الماديات ، لأنّ ما يربط الأفراد بعضهم إلى بعض بحيث يكوّنون أمةً ، إنّما هى روابط معنوية . فما يقال إذاً من أنّ للأمم شباب وشيخوخة غير صحيح ،

لأنّ المعنويات لا تضعف فى الإنسان إذا تنفّس به العمر ، بل أنّها تبلغ أقصى درجات الرقى فى الفرد حين يشيخ ، إلاّ أنّ العوائق قد تعترض الأمم فتحوّلها عن السير فى طريق الكمال ، وتنحرف بها إلى السير نحو الانحلال ، وهذه حركة قسرية تكره فيها الأمم على غير طبيعتها.

والأمة الإسلامية سارت فى طريق التطوّر سيراً طبيعياً ، فامتصّت الثقافات القديمة التى أوشكت أن تزول ، وحملت علم الحضارة ، وقدّمت للعالم زاد العلم والمعرفة ، وغزت بمبادئها الامبراطوريات القديمة ، ورفعت علم التوحيد فى البلاد الوثنية والثنائية ، وأوجدت للإسلام عصراً ذهبياً كانت السماحة أكبر عون على ازدهاره ، ولا ندرى إلى أىّ درجة من الرقى كانت تصل بالبشرية لو تركت فى طريقها تسير .

لكنّها ابتليت بأدواء وعوائق لم تعطّلها عن السير فحسب ، بل حوّلتها عن مجرى التطوّر ، ودفعت بها إلى طريق الضعف والتفكّك . وحين فقدت كثيراً من مقوّماتها الشخصية ، لم تقو على صدّ أهواء حكّامها ، فحطّموا وحدتها ، وفرّقوا كلمتها ، ثم جاء الاستعمار فزادها فرقةً ، وعجّل بها إلى الانحلال ، فأصبحت هزيلة ضعيفة يجتاحها التعصّب الأعمى بعد أن كان يسيطر عليها التفكير الحرّ السليم ، وأصبحت بمرور الزمن تقدّس الآراء وتعتبرها من المعتقدات ، وويل لأمة تتحوّل فيها الآراء إلى معتقدات.

وهكذا توقّفت الأمة عن السير فى طريق الكمال ، وغشيها سبات عميق ، وتركت معاول الهدم تعمل عملها فى بنائها الشامخ ، رغم أنّ دينها هو بطبيعته دين الكمال ، جاء ليأخذ بيد الإنسانية نحو الوحدة والقوة والخير للبشر أجمعين .

وعوامل الهدم فى الأمم كمثل المخدّر لا يمكن أن يدوم مفعوله ، ولابد من تجديده ، والطريقة التى اتّبعت فى تجديد تخدير أمتنا الإسلامية هى تقوية الخرافات والاهتمام بالقشور لصرف الناس عن الدين الصحيح . قلنا : إنّ المخدر

لا يمكن أن يدوم أثره ، ولابد من فترة تنبّه تعقب كلّ تخدير ، ومن هنا بدأت الشعوب تحسّ أنّ بها أمراضاً ، وتدرك أنّها تخلّفت عن الركب ، وتلمس أنّ فى العالم أقوياء وضعفاء ، وأنّ الضعيف لا وزن له ، وأنّ القوى يتحكّم فى مصير الضعيف ويرسم له خطّته ، وأنّ التقاطع بين الشعوب الإسلامية حرّمها الانتفاع بما فى أخوّة أربعمائة مليون من قوة.

والتنبّه للمرض أول خطوة نحو العلاج . ومن هنا بدأ المفكّرون يحاولون إيقاظ الأمة من سباتها ، ويكافحون للرجوع بها إلى التطوّر الطبيعى ، وكثرت المحاولات ، وظهر الوعى ، ثم جاءت فكرة التقريب ، وهى تتّفق مع طبيعة التطوّر والعقل السليم ، وأُسس دين الأخوّة والتوحيد.

التقريب بين أرباب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم آراء لاتمسّ العقائد التى يجب الإيمان بها ، وحمل لواءها علماء من مذاهب أهل السنّة الأربعة ، ومذهبى الإمامية والزيدية من الشيعة ، وبدأت تعالج التفرّق بين أخوة فى الدين ، كتابهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وصلواتهم واحدة ، وحجّهم واحد ، يؤمنون بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) رسولاً ، وبأنّه أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، وبأنّ ما جاء به لابد أن يؤخذ به ، وبأنّ سننه من المصادر الحتمية للأحكام.

وسارت فكرة التقريب هادئة مطمئنّة ، يؤيّدها الفاهمون فى كلّ شعب ، وحملة الأقلام الذين يعتقدون أنّ لأقلامهم رسالة ، ويترفّعون عن الدجل فيما يكتبون.

وكان طبيعياً ـ وقد تركت الفكرة أثرها فى النفوس ـ أن يقف فريق من الناس يسألون أنفسهم : ماذا كسبنا من الماضى بما فيه من تخاصم وتطاحن ، وماذا جرت علينا النعرات الطائفية ، وأن يرغب المثقفون عمّا يقال لهم عن الطوائف ، ويميلوا إلى الاطّلاع بأنفسهم على ما عند كلّ طائفة.

أمّا فريق المتزمّتين فشأنهم ألاّ يعجبوا بمثل هذه الفكرة ، لأنّهم لايودّون

الرجوع إلى النهج السوى ، ويفضّلون البقاء على ما هم فيه . وهؤلاء هم دعائم التفرّق فى كلّ عصر ، لأنّهم يصوّرون كلّ مذهب بالصورة التى يرونها لا بصورته الحقيقية ، وما الشقاق بين المذاهب الإسلامية بنتيجة اختلاف على عقائد وآراء فيها ، بل من نتيجة مفتريات تقال عن أربابها .

ألم ينسب المتزمّتون إلى خمس المسلمين عقائد هم براء منها؟ ألم يقولوا : إنّ الشيعة تعتقد بالحلول؟ ألم يقولوا : إنّ الشيعة تعتقد بأنّ الرسالة كانت لعلى وأنّ محمداً أخذها ؟ ألم يقولوا : أنّ للشيعة قرآناً غير هذا القرآن ؟

ومثل هذه المفتريات كانت تقال عن الشيعة بينما أسانيد الشيعة فى متناول اليد، وكان بالإمكان الاطّلاع على أىّ كتاب شيعى، أو السفر إلى أىّ بلد شيعى للتأكّد من أنّ هذا كذب وبهتان.

وها قد جاء دور الإصلاح ، ووقف رجال باسم التقريب يتحدَّون أىّ إنسان أن يأتى بسند واحد يثبت أنّ مذهباً واحداً من المذاهب الإسلامية المعروفة يقرّ أمثال تلك الخزعبلات.

نحن لا نتكلّم عن القرامطة والباطنية، ولا عن غيرهم من الفرق البائدة التى يقال أنّهم كانوا كذا وكيت ، ولا نقف منهم موقف الدفاع ، وإنّما نتكلّم عن الشيعة الذين يبلغون خمس المسلمين عدداً ، ويسكنون بالعراق وسوريا وإيران والهند واليمنوغيرها من البلاد ، ولهم فقهاؤهم وآراؤهم واجتهادهم ، ولهم مراكزهم الدينية وجامعاتهم العلمية ، وكتبهم تملأ المكتبات .

لقد جاء التقريب على أساس فكرة التعارف العلمى ، وأوجد مركزاً لمن يريد أن يعرف كثيراً أو قليلاً عن المذاهب الإسلامية المعروفة ، ولكن المتزمّتين يحكمون على أىّ مذهب دون أن يتعبوا أنفسهم بالاطّلاع على كتبه ، ويجحدون كلّ ترابط ثقافى ، ويلعنون كلّ اتّصال يؤدّى إلى التعارف ، ويحرصون على البقاء فى أبراجهم العاجية وسط أوهامهم وظنونهم، ويتناسون أنّهم فى عصر أبرز مظاهره سرعة المواصلات واتّصال أجزاء العالم بعضها ببعض ، ويتجاهلون أنّ البشرية لم

تعد تكتفى بالتعرّف على ما فى كرتنا الأرضية ، بل إنّها تتطلّع إلى اكتشاف مافى الأقمار والنجوم .

فهل يصحّ فى مثل هذا العصر أن يقف جامد فى وجه التطوّر ، ويأخذ علمه عن الطوائف من قصص أشبه ما تكون بالأوهام والخرافات ؟

إنّ المتزمّتين ـ ومن حسن الحظ أنّهم قلّة فى كلّ شعب ـ من دأبهم أن ينفروا ممّا لم يألفوا ، وأن يقفوا فى وجه مالم يعرفوا ، وأن يحتفظوا بقديمهم لأنّه تغلغل فى نفوسهم ، فهم لا يرضون به بديلاً ، ولا يطيقون له تحويلاً ، كما أنّ من دأبهم أن يتلمّسوا الأوهام فى المعارضة إذا لم تسعفهم الحقائق .

أليسوا يصرّون إصراراً عجيباً على أنّ التقريب محاولة لإدماج مذهب فى مذهب ، أو تغليب مذهب على مذهب ، على الرغم من أنّ كلّ صوت من أصوات التقريب ، وكلّ نشاط يصدر عن التقريب ينادى بغير ذلک ؟

إنّ التقريب لأسمى من هذا وأجلّ شأناً ، إنّه ـ على العكس ممّا يتخيّلون أو يريدون أن يخيّلوا للناس ـ ينادى بوجوب أن تبقى المذاهب ، وأن يحتفظ المسلمون بها ، فهى ثروة علمية وفكرية وفقهية ، لا مصلحة فى إهمالها ولا فى إدماجها ، لكن شتّان بين هذا وبين إيجاد جوّ من الهدوء والثقة والصفاء بين المسلمين ، يرتفعون به عن الضغائن والجدل العقيم ، ويتفرّغون بسببه إلى ما هو أولى بهم من مشاركة الركب العالمى ، بل من قيادة هذا الركب وتوجيهه لو استطاعوا.

ذلک ما يريده التقريب ، وأنّ القافلة تسير ، تسير مع ركب الحضارة والعلم الصحيح ، تسير مع التطوّر إلى الحقّ ونحو الحقّ ، إنّها فى الواقع تسير إلى الله ، وإنّ الله معنا (قُلْ هذه سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللّهِ عَلى بَصِيرَةَ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحانَ اللّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[1] .

---

۱ . يوسف : ۱۰۸ .

الفصل الثانى
جولة بين الآراء

تختلف الآراء فى أمر رسالة التقريب ، فمن قائل : إنّها أمر ليس يصعب تحقيقه فقط ، بل يكاد يكون مستحيلاً ، أليست الخلافات قد استحكمت منذ قرون ؟ أليست كتب كلّ طائفة مشحونة بالطعن فى غيرها ؟ أليست الخلافات موجودة فى الأحكام الفقهية وأدلّتها ، وإلى جانبها خلافات فى الأصول الكلامية مشهور أمرها ؟ أمن المعقول أن يتشيّع السنّى أو يتسنّن الشيعى ؟

ومن قائل : إنّ التقريب حقيقة واقعة ، فالأفكار تهذّبت ، والعقول تبصّرت ، والأجناس المختلفة تتجمّع ، والأديان تتكتّل ، وروح التسامح تسود المسلمين وغير المسلمين ، فكيف بأبناء دين واحد! هل نرى اليوم حرباً بين السنّة والشيعة ؟ هل نسمع عن معارك بينهم ؟ هل يخاصم الشيعى ، أو يجافى السنّى الشيعى ؟ هل يختلف هؤلاء وأولئک فى هذا العصر ـ عصر الذرّة ـ فى أمور لا ترتبط بالحياة فى شىء ، أو فى مسائل انقضى زمانها ؟ هل هناک مشكلة لنعالجها ؟

هذا ما يقول به الفريقان المتناقضان ، فريق يحسب أنّ الجهود التى تبذل للتقريب سعى وراء المحال ، وآخر يراها تحصيل حاصل .

والفريق الأوّل يتكوّن فى الغالب ممّن لايعرف مهمة التقريب على حقيقتها، ولم يدرس برامجها ، بل غاب عنه مدلول الإسلام ، فحسب التقريب توحيداً، أو من ضاق تفكيره وانحصرت ثروته الفكرية والدينية فى محيط مذهب خاصّ ، لاينظر فى غيره ، أو تأثّر بعالم أو كاتب لا يستمع أو يقرأ لسواه ، وما دام

لا يرى الحقّ إلاّ ما هو عليه ، فهو يعرض عن كلّ المذاهب ، بل يهاجمها إن اختلفت مع ما حصّله أدنى اختلاف .

وليس بغريب على أمثال هؤلاء أن يؤمنوا باستحالة التقريب ، حتّى لو علموا أنّ التقريب لا يطلب إليهم أن يعتنقوا مذهب غيرهم ، أو يتنازلوا عمّا ثبت عندهم ، لأنّ المحذور لا ينحصر فى ذلک فقط ، بل المحذور عندهم التقرّب إلى غيرهم ، والنظر فيما عندهم ، والاطّلاع على كتبهم وأقوالهم ، وهل رسالة التقريب إلاّ الدعوة إلى هذا ليحصل التعارف بين الطوائف ، وتقف كلّ طائفة على ما عند الأخرى ؟ وما فائدة تعارف ـ هم فى غنىً عنه ـ مع من هم عن الطريق مبعدون ، وعن الحقّ معرضون؟

وأمّا الفريق الثانى ، فهم الذين لايختلطون بالحياة الدينية ، ولا يعرفون حقيقة أحوال البلاد الإسلامية ، ويظنّون أنّ الفكرة التى تسيطر عليهم هى نفسها التى تسيطر على غيرهم ، ولا يسمعون من هذا وذاک ، ويحسبون أنّه لم يبق ثمّة خلاف ، أو يغفلون دور الدين فى الحياة ، وبالتالى خلافاتنا المذهبية ، ورجال السياسة والاقتصاد ـ مع الأسف ـ أكثرهم من هذا الفريق .

وفى الناس فريق ثالث يتمسّک بمذهبه ويتشبّث به ، ولكنّه يحترم المذاهب التى تتّفق فى الأصول معه ، بل ينظر فيها بروح الإنصاف ، ويتعمّق فى تفهّمها ، ويقتبس منها ما يصحّ ، ولا مانع من أن يردّ على بعض ما يرد فيها فى أدب واتّزان ، رغبةً فى إظهار ما هو أفضل ، لا حرصاً على تسفيه آراء الغير .

ومن هذا الفريق تكوّنت جماعة التقريب فى القاهرة وأنصار فكرتها فى العالم الإسلامى ، وعلى هذه الأُسس تقوم ، وبهذه الروح تسير فى الناس ، وكلّما فُهمت الفكرة ازداد الالتفاف حولها ، والدعوة إليها ، حتّى أنّنا لنعتقد أنّه سيأتى يوم تشمل كافة المسلمين .

* * *

لسنا نرى ما يراه الفريق الأوّل ، ولسنا ننكر الخلاف ، ولسنا نرى للخلافات

آثاراً تستحيل معها مهمة التقريب .

لاننكر أنّ الخلاف وقع بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولو زعمنا أنّ الأوائل لم يكن بينهم أيّ خلاف لجانبنا الحقّ ، ومن له أقلّ إلمام بالتاريخ لا يمكنه أن يزعم ذلك . بيد أنّهم حصروا الخلاف فى دائرته المعقولة ، ولم يجعلوا له أثراً يضرّ بالوحدة الإسلامية ، ولا أعطوا به فرصةً لأعداء الإسلام . كان خلافاً فى الرأى لا تشاجراً ، والخلاف فى الرأى من طبيعة الإنسان ، وتحتّمه البيئات وتطوّر الزمن ، وليس لأيّة قوة أن تمنعه ، ولا ضرر منه بوصفه خلافاً ، إنّما الضرر فى أن يتطوّر إلى تشاتم وتخاصم .

ولنأخذ دليل ذلك من التاريخ ، تاريخ الإسلام نفسه ، فى قصة حدوث الخلاف بين السنّة والشيعة بالذات . إنّ اختلاف الرأى لم يخلق بين المسلمين معركة الخصام ، حتّى إذا استباح بعضهم الإسفاف والمسبّة ظهرت المقاومة العنيفة ، واضطرب الأمر ، ولم يستقرّ بعد ذلک بل انتهى إلى خصومة مريرة ، فقامت الحروب ، واشتدّت المعارک بين أبناء دين واحد ، وسلّت على المسلمين الآمنين سيوف كان أولى بها أن تسلّ على الأعداء .

ليست جماعة التقريب تريد القضاء على كلّ خلاف ، ولاتفكّر فى ذلک ولا تبتغى أن يتشيّع السنّى ، أو يتسنّن الشيعى ، حتّى توصف رسالتها بأنّها مستحيلة ، إنّها مع النظر إلى الخلافات تسعى للتقريب ، وتنادى بلزوم التعارف .

نعم ، إنّ الجماعة ترى أنّ كثيراً من الخلافات تحلّ فى ظلّ التعارف ، إمّا لأنّها نشأت عن اعتقاد إحدى الطائفتين خطأً أنّ الأخرى تعتقد أموراً يتّضح بعد التعارف خطأ نسبتها إليها ، أو لأنّها جاءت نتيجة دليل معقول أو أصل مقبول ، فتقبلها الأولى ، أو لأنّها تستند إلى أساس وأدلّة إن لم تكن مقبولة عند الأولى ، فقد ثبت عندها اعتبارها ، وعندئذ تلتمس عذراً لمن يعمل بها .

فإذا أضفنا إلى هذا أنّ الطوائف المشتركة فى الجماعة متّفقة على الأصول التى يجب على المسلم أن يدين بها ليكون مسلماً ، ظهرت سخافة الاعتقاد

باستحالة التقريب بين تلك الطوائف .

وأمّا الفريق الثانى فلو أنعم النظر لأدرک أنّ الخلاف واقع فعلاً ، وأنّه لا يقوم بين الشيعة والسنّة فحسب ، بل لا يزال رجال من أهل السنّة أنفسهم يفضّلون مذهبهم ، وينتقصون غيره من مذاهب أهل السنّة المعروفة ، ويسجّلون ذلک فى كتبهم ، بل أنّ أندونيسيا ـ البلد الإسلامى العظيم الذى يسود فيه المذهب الشافعى وحده ـ يقوم فيها الخلاف بين الشافعية أنفسهم ، فبعضهم يتّبع أفكار القدماء ، وبعضهم يأخذ بالجديد من الآراء ، وكلٌّ يعتمد فى آرائه على المذهب ذاته ، وقد أخذ الخلاف بينهما يستفحل وتتّسع شقّته ، بل إنّا لنعرف بلاداً ليس للدين فيها وزن ، ولكن التعصّب المذهبى يتحكّم فى أهلها ، ومع أنّهم لم يهاجموا من صادر حرّيتهم الدينية ، وعبث بمعتقداتهم ، فهم يثورون على إخوانهم لخلافات طائفية . ولايتركون مناسبةً تمرّ دون أن يطعنوا فيهم .

لنا أن نعترف مع الأسف بأنّ القطيعة موجودة بين أبناء الدين الواحد أكثر ممّا هى بينهم وبين من ليسوا على دينهم ، ومع هذا فنحن نتّفق مع الفريق القائل : إن تهذّب الأفكار ، وتبصّر العقول لهما أحسن الأثر فى تسهيل مهمة التقريب .

بقى لنا أن نتكلّم عن فريق ثالث يتّخذ سبيلاً وسطاً ، ويرى ما تراه جماعة التقريب ، وإنّى لواثق أنّ التقريب ـ كما وضعوا منهاجه ـ سيحصل إن شاء الله، أقول هذا لا استناداً إلى كثرة عدد هذا الفريق ، وهو الغالبية العظمى ، ولا اعتماداً على منهاج الجماعة المستقيم ، وقوة إيمانها وصبرها ـ وكلّ هذا له أهميته ـ بل أقوله ذلک لأنّ الفكرة قائمة على إيجاد التعارف ، والدعوة إلى التثبّت قبل الحكم ، وهذا منطق جبّار يشقّ طريقه ، ويسحق كلّ من يقف فى سبيله ; وهذا التعارف سيكون أساسه التحكّم فى العواطف ، وعدم إثارة الشعور بالطعن والتجريح ، فإنّ هذا سبّب فى الماضى اتّساع شقّة الخلاف والتنافر والتباغض التى انتهت بالمسلمين إلى التقاطع والتدابر ، وبمراعاة ذلک تتمكّن كلّ طائفة أن تسمع الآخرين صوتها . ولو قصدت طائفة إثبات مذهبها أو الرّد على غيرها ،

فإنّ التزام الحسنى أشدّ تأثيراً . والنقد النزيه أقوى نفوداً .

ولعلّ الوعى الذى وجد عند أصحاب الفكر فى كلّ طائفة ، يجعل كلّ كاتب يسلک فى تآليفه مستقبلاً ، طريقةً لا تحصر تداول مؤلّفاته فى محيط طائفته ، وتصرف عنها بقية الطوائف لما تشتمل عليه من طعون وافتراءات .

إنّ مشكلة الحكم والحكّام التى كانت علّة العلل فى إثارة العواطف والصراع الطائفى ، ليست ـ ولله الحمد ـ مشكلة اليوم ، لو استثنينا بقعة من البقاع الإسلامية لايزال حكّامها يهتمّون بدعايات من شأنها بثّ روح الفرقة ، نسأل الله أن يكلّل بالنجاح جهودنا معهم .

وإنّ حبّ الاستطلاع وتثقيف الشعوب يخدمان جماعة التقريب فى مهمّتها ، وإنّ تردّد كثير من الكتّاب والأساتذة على مكتبة دار التقريب للاطّلاع على ما فيها من كتب الطوائف المختلفة ، وتلهّف المسلمين لتلقّى فكرة التقريب واهتمامهم بنشراتها ... كلّ ذلک يبشّر بالخير، ويدلّ على الاتّجاه القوى نحو التقريب .

وإنّ الجماعة فى تحقيق رسالتها لا تقرّب بين الشيعة والسنّة فحسب ، بل تقدّم خدمةً علميةً جليلةً ، إذ تكشف عن ثقافة إسلامية مستمدّة من أفكار موزّعة وكتب محجوبة ، وشخصيات محتكرة على طوائف معيّنة ، فتظهر للعالم الإسلامى ، بل للإنسانية كلّها أعظم ثقافة فكرية ناضجة تأملها البشرية ، والله المستعان .

الفصل الثالث
خلاف نرضَاهُ ، وخلاف نأباهُ

هناک فرق بين خلاف وخلاف .

هناک خلاف تمليه طبيعة التفکير وتقتضيه سنن الاجتماع ، ونحن نقبله ونرضاه ، وهناک خلاف يصطنع اصطناعاً ، ونحن نرفضه ونأباه .

إنّنا نقبل الخلاف الفکرى ما دام فى دائرة معقولة ، ونرحّب بالخلاف المذهبى لأنّه وليد آراء اجتهادية مرجعها الکتاب والسنّة ، أو ما أعطاه الکتاب أو السنّة قوة الحجّية . ونرحّب بما عند الشيعة وأهل السنّة ، لأنّهما تؤمنان بما يجب على المسلم أن يؤمن به وإن اختلفتا فى مسائل فقهية ، وتميّزتا فى مسألة الولاية والخلافة . ونرحّب کذلک بالمعارف الکلامية ، لأنّها ميدان من ميادين التفکير للمسلم أن يجول فيه .

نحن نرحّب بهذه الخلافات کلّها ، بل نعتزّ کمسلمين بالکثير منها ، لأنّها إن دلّت على شىء فإنّما تدلّ على الحرية الفکرية . ولأنّها إن أحسن النظر إليها ، تسعد الأمة ، وتکفل رقيّها ، وتبقى على سلامتها .

إنّ هذه الخلافات فى جوهرها تنبئ عن معنى الوفاق ، فهى ترتبط بأصل واحد هو الکتاب والسنّة .

وليس معنى هذا أنّ فى الکتاب خلافاً ، فالمسلمون بحمد الله متّفقون فى کتابهم ، مجمعون على ما بين الدفّتين ، وهذا فخر ليس فوقه فخر ، تنفرد به هذه الأمة دون غيرها من سائر الشعوب .

وکذلک ليس معناه أنّ فى السنّة خلافاً ، بمعنى أنّ البعض يقبل ما صدر عن

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والبعض لا يقبله ، معاذ الله ، فالمسلمون يتّفقون فى وجوب الأخذ بسنّة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولكنّهم قد يختلفون فى الفهم أو التفسير ، أو فى أنّ هذا صدر عن الرسول الأعظم أو لم يصدر . أمّا من لا يأخذ بما أمر به الرسول فليس بمسلم .

فالآراء الاجتهادية إذاً ، يجمعها الكتاب والسنّة ، وليس بعد هذا من وفاق .

على أنّ الاجتهاد نفسه مقيّد بشروط ، منها : أنّه لا يقوم إلاّ على الكتاب والسنّة والأصول المستوحاة منهما أو من أحدهما ، وأنّه لا يباح إلاّ لمن استوفى شروط العدالة ، وأنّه لا يكون إلاّ فيما يجوز الاجتهاد فيه . فإذا حاولنا أن نحمّله وزر بعض الأخطاء التاريخية ، أخطانا فهم معناه . وإذا أجزناه فى غير محلّه ، جانبنا الصواب ، فحيث يكون ظالم ومظلوم مثلاً ، لا يجوز أن يبرّر الظلم بإعطائه اسم الاجتهاد ، وإلاّ كان للظالم أجر على ظلمه ، كما للمجتهد أجر على اجتهاده ، وفى هذا مغالطة وانحراف .

وليس يجوز الجدال فى قيمة الاجتهاد مهما يكن من تعدّد الآراء بين المجتهدين ، فهذا ممّا يشرّف التشريع الإسلامى ، ويجعله صالحاً لعلاج ما يجدّ وما يحدث فى كلّ زمان ومكان .

أمّا كيف تنشأ الخلافات بين مذهب ومذهب ، سنّى وسنّى أو سنّى وشيعى، فإن ذلك يرجع تارة إلى تفسير آية أو فهم معنى منها ، أو فهم رواية على معنىً يفهم الغير منها معنىً سواه ، أو أنّ هناك ماثبت صدوره عن الرسول الكريم عند فريق ولم يثبت عند فريق آخر . ولا يختلف الجميع على أنّ ما جاء به الكتاب وما جاء به النبى فأصل لا رادّ له .

وأمّا الخلافات حول أوائل المقولات ، أو المعارف الكلامية ، أو ما يسمّى بعلم الكلام ، فإنّها حول معارف إسلامية تبلور كثيراً من الحقائق وتصقل العقول والأفهام ، وتحدث باحتكاكها وميضاً يكشف سبل البحث وطرائق الاستدلال .

تلك هى خلافات المسلمين ، وهى فى باطنها تشير إلى الوحدة لا إلى

الفرقة ، وتنبئ عن الاجتماع لا عن التشتّت . وما دام الحقّ هو المبتغى فالوصول إليه ليس بعسير إذا نظر كلّ فريق نظرةً هادئةً إلى ما عند سواه ، فإن اقتنع بوجهة نظره فبها ونعمت ، وإلاّ عذره فيما ثبت عنده واحترم رأيه فيه .

ومثل هذا المسلك الطبيعى يحقّق للأمة الخير ، ويقابل بكل تقدير ، وأكبر دليل على ذلک : ما قوبل به كتاب فقه الإماميةْ الذى طبع فى مصر أخيراً ، فقد قوبل بترحيب حارّ ، رغم أنّه كتاب مذهب لم يكن معروفاً عند الكثيرين ، ورغم أنّ فيه خلافات فى بعض مسائل فقهية اقتضتها طبيعة الفقه وطبيعة الاستنباط ، والترحيب بهذا الكتاب يدلّ على أنّ المسلمين بطبيعتهم يحسنون التقدير .

أمّا الخلاف الذى لا نرحّب به ولا نقبله ، بل نرفضه ونقاومه ، فهو الخلاف الذى تمليه الكراهية والبغضاء ، وتغذّيه الشبه والأوهام ، ويوجد البلبلة فى صفوف الأمة ، ويؤدّى إلى تفريق كلمة المسلمين .

ذلک خلاف لا يتّفق والخلق الإسلامى ، ولايستند إلى المعارف الإسلامية ، حمل لواءه مؤلّفون كتبوا قبل التثبّت تارةً ، وبداعى الغرض والهوى تارات ، فسوّدوا صحيفة الشيعة فى نظر أهل السنّة ، وسوّدوا صحيفة أهل السنّة فى نظر المتشيّعين ، بعضهم خلط بين أهل السنّة والنواصب ، وأكثرهم خلطوا بين الشيعة والغلاة ، وبينها وبين الفرق البائدة ، وألصقوا بها آراء لا تمت إليها بصلة ، بل الشيعة منها براء .

وكم من كتب وضعت لتأجيج الخصومة بين طوائف المسلمين ، وكم من أقلام أسفت فى التجريح خدمةً لحكّام طغاة أقاموا عروشهم على أساس الخصومة بين المسلمين . وكان لهذه التآليف أسوأ الأثر فى تصدّع وحدة الأمة ، فقد غرست البغضاء فى القلوب ، والظنّة فى العقول ، وأبعدت طائفةً كبيرةً عن أخوانهم فى الدين .

ثم جاء التقريب ، فلم يدع إلى توحيد المذاهب ، ولم يقصد إلى إلغاء الخلاف ، وإنّما نبّه الوعى ، وأوضح بأدقّ بيان وأوفاه أنّ الهجوم والتشنيع وجرح

العواطف لا تخدم أيّ مذهب ، وأنّ الإسفاف فى السبّ والشتم لا يفيد أيّ طائفة ، بل على العكس يجلب الضرّ لكل فريق .

وتأثّر بدعوتنا كثير من حملة الاقلام ، فجنحوا إلى سلوك سبيل المنطق والبرهان ، وأسرع هذا الأثر أكثر ممّا كنا ننتظر ، إلاّ أنّ بعض الأقلام لا تزال تسفّ ، ولكنّها ـ والحمد لله ـ ليست بذات وزن ، وعمّا قليل ينتهى أمرها إلى زوال .

وإذا كان المتزمّتون هنا ، والجامدون هناك حاولوا عرقلتنا ، وبذلوا جهدهم ليعوقوا سيرنا ، فقد نجحنا فى إسكات أكثرهم ، وكان أسلامهم أكبر عون لنا عليهم ; لأنّ العواطف الدينية تصدّ المسلم عن خدمة أغراض أعداء الإسلام .

وليت الأمر يقف عند المتزمّتين والجامدين من المسلمين ، بل أنّ هناك من أقحموا أنفسهم فى الدراسات الإسلامية وهم ليسوا بمسلمين ، أولئك هم المستشرقون . لقد ألّف بعضهم فى التاريخ الإسلامى وعلم الكلام ! وكتب بعضهم فى الطائفية فى الإسلام ! وأضفوا على بحوثهم ـ تحت اسم الاستشراق ـ مظهراً علمياً يجعل المسلم يكاد لا يشكّ فيما يكتبون .

ونحن وإن كنّا نعترف بأنّهم خدموا بعض العلوم الشرقية ، إلاّ أنّنا نتّهمهم فى ناحية البحوث الإسلامية ، فليس فيهم من لم يبثّ السموم فى بحوثه ، وليس فيهم من لم يكن وراء ما يكتب أغراض تسىء إلى المسلمين تارةً، وإلى سمعة الإسلام تارةً ، وتؤجّج الخصومة بين أبناء هذا الدين .

إنّهم يحمّلون الإسلام وزر كل التصرّفات السيئة التى ارتكبها الظالمون ، ويخلقون أبطالاً خياليين كعبد الله بن سبأ وأمثاله ، ويصوّرونهم على أنّهم أصحاب كل حول وطول فى تاريخ الإسلام . ويناصرون بكل قوتهم أيّ عمل يفرق كلمة المسلمين . وأكبر دليل على ذلک موقفهم من النحل الجديدة التى ظهرت منذ قرن ، والتى تدّعى الإسلام ، كالبابية والبهائية وأضرابهما ، فهم يطبّلون لها ويزمّرون ، وهم يعتبرونها من الفرق الإسلامية رغم أنّ المسلمين

أنفسهم لايعترفون بإسلامها قط ، بل يبلغ الأمر ببعضهم أن يخصّص جزءاً من بحوثه فى أدب البابيين ، ثم هم بعد ذلك ينسبون لأنفسهم الأفكار الإصلاحية فى الإسلام !

إنّ الأمر قد يكون مفهوماً بالنسبة للمتزمّتين أو المتعصّبين من المسلمين ، أمّا بالنسبة لهؤلاء ــ وهم غير مسلمين ــ فليس مفهوماً على الإطلاق ما دخل هؤلاء بالطائفية، وهم ليسوا بشيعة ولا بسنّة ، وما اهتمامهم بالفرق الإسلامية وهم ليسوا بمسلمين؟ !

إنّهم دخلوا المعركة بكل قوتهم ، وكأنهم قوّام على أبناء هذا الدين ، دخلوا بدعايتهم الجبّارة للدسّ وبثّ السموم باسم البحوث ، وحرصوا جد الحرص على إظهار المسلمين دائماً بمظهر المتفرّقين المتطاحنين . يتصيّدون الحوادث من هنا وهناك ليبرزوا النقط الخلافية ويرجعوها إلى منابع قديمة تسبق الإسلام ، غير مبالين بمعنى التوحيد عند المسلمين ، ولا بإيمان أهل القبلة بالقرآن الكريم ، وبالملائكة والنبيّين ، وبالبعث والحساب ، ولا آبهين لوحدة الصلاة والزكاة والصوم والحجّ وغير ذلك من أصول الإسلام الحنيف .

وإذا دُعوا لإلقاء محاضرات فى الجامعات ، جعلوا همّهم توكيد معنى الفرقة بين المسلمين ، وإذا ألقوا بحوثاً فى مؤتمر علمى انصبّت بحوثهم على إظهار الطائفتين الكبيرتين فى الإسلام بمظهر أصحاب دينين مختلفين ، لا دين واحد !

وإذا عثروا على كتاب قديم فى التجريح والسباب ، لا يهدأ بالهم إلاّ أن يعيدوا طبعه ، وإذا وجدوا نسخةً خطّيةً فيها التشنيع والتشهير حرصوا على طبعها ونشرها فى العالمين.

وياليتهم يكتفون بهذا ، بل أنّهم بدأوا يؤلّفون كتباً ، يسرف فيها بعضهم فى التشيّع إلى حدّ الغلو . ويسرف فيها البعض الآخر فى التسنّن إلى أقصى الحدود حتّى لكأنّه من الخوارج ! ذلك لكى يكسب كلٌّ منهما عطف فريق من المسلمين، فتتاح لهما فرصة الدسّ والإيقاع ، وتسميم الأفكار فى أوسع

الحدود .

وأخطر من ذلک كله أنّ نفراً من المؤلّفين المسلمين يعتمدون فى بحوثهم على أقوال المستشرقين كأصول مسلّمة ، نظراً لحسن ظنّهم بهؤلاء ، وفى هذا من السذاجة والبساطة ما يضحک نفس المستشرقين .

إنّ دعاة الاستشراق الذين يتظاهرون بالتعصّب للشيعة تارةً ، وللسنّة أخرى ، هم فى الغالب من أشدّ الناس تعصّباً لدياناتهم ، وهم فى الحقيقة أحرص الناس على تحطيم المسلمين كمجتمع ، والقضاء على الإسلام كفكرة ، ومحو العقيدة الإسلامية من الوجود .

أذكر أنّنا حين كنّا نحاول إقناع أصحاب دار نشر ليصرفوا النظر عن طبع كتاب قديم ، فيه من الخرافات ما يضحک غيرنا علينا ، وفيه من السخافات ما يثير سخرية شبابنا نحن بعد أن تفتّحت عقولهم بالثقافة ، وفيه من تجريح العواطف ما كانت تمليه سياسة الحكّام فى عهد المؤلّف ، إذا مستشرق يهاجمنا فى مجلّة فرنسية ، ويجزم أنّ هذا النوع من الكتب ضرورى لفهم عقلية المسلمين قبل قرون ، ومعنى هذا أنّ الكتاب سند ، وأىّ سند يخدم أغراضهم ، ويساعد على تحقيق مآربهم !

فماذا علينا نحن المسلمين؟

أليس علينا أن نعنى بدراساتنا عنايةً تغنينا عن هؤلاء المصحّحين للألفاظ ، الذين لا همّ لهم إلاّ نبش الماضى ، وبعث ما يثير الأحقاد بين المسلمين ، كى تتفرّق كلمتهم ، وتتفتّت وحدتهم ؟

أليس علينا أن ندفن إلى الأبد كل ما يظهرنا بمظهر المنحرفين المتفرّقين ؟

أليس من واجبنا أن نثبت أنّ أهل البيت أدرى بما فيه ، وأن نتعب أنفسنا ونظهر حقائق خلافاتنا التى نعتزّ بها كأصحاب فكرة حرّة سليمة ؟

أليس من واجبنا أن نخرج كنوزنا ، ونبرز ما فى التراث الإسلامى من روعة وجلال ؟

إنّنا بين أحد أمرين : إمّا أن ندخل الميدان بكل قوتنا فننجو من أحابيل دعاة الفرقة ، وإمّا أن نتخاذل ونتواكل فيجهز علينا أعداء الإسلام .

الفصل الرابع
فى سبيل الوحدة : هدية من تجاربنا

كل خطوة نحو التكتّل تثير منّا الاهتمام ، وكلّ فكرة ترمى إلى الوحدة تحرّك فينا الأمل ، وكل محاولة لضمّ صفوف المسلمين تقع من نفوسنا أحسن موقع ، فطبيعى وهذه حالنا أن نستبشر خيراً حين نلحظ اتّجاهاً إلى تحقيق التعارف بين إخوة تخاصموا فى الميراث ، وتقاطعوا على الزمن ، وتنكّر بعضهم لبعض دهراً طويلاً ، وصارع بعضهم بعضاً صراعاً رهيباً ضعضع قوتهم ، وحطّم كيانهم ، وجرّ المذلّة والضعة عليهم جميعاً .

إنّ أربعمائة مليون من المسلمين قوة لايستهان بها ، وجمع كلمتهم أمر لايكرهه إلاّ عدو ، ولا يخافه إلاّ طامع ، ولكن تحقيق ذلك بصورة كاملة يحتاج إلى تفكير جدّى عميق ، وبحث مستفيض دقيق ، ودراسة شاملة لخريطة العالم الإسلامى ، وإلمام كامل بالأحوال القائمة فى كل جزء ، والآراء السائدة فى كل صقع ، والنزعات المتباينة فى كل قطر ، فإذا أحطنا بكل ذلك علماً ، أمكن أن نجمع المسلمين على منهاج لا تنفر منه طائفة ، ولا تجحده فرقة.

وليس ذلك بعسير إن صحّت العزائم وتهيأت النفوس ، لأنّ المسلمين متّفقون فى الأصول ، والخلاف بين طوائفهم ومذاهبهم إنّما هو فى آراء لا تمسّ العقائد التى تحتّم على المسلم ليكون مسلماً أن يؤمن بها .

ونحن حينما نتكلّم عن الطوائف ، إنّما نعنى تلك التى تتّفق فى الأصول من أهل السنّة والشيعة ، ولا دخل لنا بالطوائف التى لا وجود لها إلاّ فى كتب الملل والنحل ، أو التى تختلف فى الأصول ، فأتباعها فى نظرنا ليسوا بمسلمين ، وإذا

كان هناک غلاة فنحن أول من نحكم بكفرهم .

إنّ إله المسلمين واحد ، ونبيّهم (صلى الله عليه وآله) واحد ، وكتابهم ـ ولله الحمد ـ لا يختلف على حرف منه مسلم شيعى ولو فى أقصى الصين ، مع مسلم سنّى ولو فى أقصى المغرب ، وهم جميعاً يتّجهون فى صلواتهم إلى قبلة واحدة ، ويحجّون إلى بيت واحد ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بالغيب والملائكة والنبيّين واليوم الآخر ، وغير ذلک من العقائد التى لسنا بصدد حصرها ، ورغم ذلک كلّه فإنّ التباعد بينهم ـ وهم أبناء الدين الواحد ، وأصحاب العقيدة الواحدة ـ يزيد أحياناً على التباعد بين أبناء دينين مختلفين ، بل يزيد على التباعد بين المؤمنين والملاحدة فى بعض الأحيان !

إنّها لمأساة عجيبة أن يعيش ٤٠٠ مليون من المسلمين فى قطيعة وتدابر وهم أبناء ملّة واحدة ، وسكّان بقاع من الأرض متجاورة ! إنّها لمأساة عجيبة حقّاً تدعو كل غيور إلى التفكير الجدّى ، وتدفع كلّ قادر إلى السعى الحثيث والعمل الدائب لتخليص هذه الأمة المسلمة من التقاطع والتدابر ، ومن الذلّ والهوان .

من هنا جاءت فكرة التقريب ، وظهرت جماعة التقريب ، لا لتوحّد المذاهب ، ولا لتصرف أىّ مسلم عن مذهبه ، ولا لتحجر على التفكير ، وإنّما جاءت لتذكّر المسلمين جميعاً بالنقط الوفاقية عندهم ، وهى كثيرة ، وهى الأصول لحسن الحظ ، ولتوجد التعارف بين الطوائف بإطلاع كل طائفة على ما عند سواها ، فإن رأت الحقّ بجانب أختها احترمته ، وإن لم تقتنع بما ثبت عند سواها عذرتها فيه .

وكانت هذه الجماعة واقعية ، لا تتجاهل الخلافات ، ولا تتغافل عمّا يصعب علاجه ، ولا تخشى مواجهة الحقائق ، ولا تجامل طائفة على حساب أخرى ، فهذا سبيل من لا يثق بنفسه أو من يشکّ فى صحة دعوته ، ولسنا كذلک ولله الحمد .

كنّا ولانزال صرحاء صادقين فى علاج المشاكل ، وكم من مشاكل يحتاج

علاجها إلى الصدق والصراحة ، وكان شعارنا التمهّل والتروّى والتدقيق ، وضرب المثل فى الاعتدال فى القول والهدوء فى النقاش ، ولم يفتنا أنّ المهمة أدقّ من إجراء جراحة فى القلب ، ولم ننس قط أنّ هناک من يثير الخواطر ويؤجّج العواطف ، وأنّ هناک معوقين يعرقلون السير ، وأنّ بقية من الاستعمار لا تزال جاثمة فى أرضنا تعاكسنا بطرقها الخاصة ، وتغرى بنا نفراً من دعاة الفرقة كُشف أمرهم وعُرفت حقيقتهم .

كنّا ندرک تماماً أنّ المهمة شاقّة ، وأنّ الطريق طويلة ، وليست مفروشة بالورود والرياحين ، بيد أنّنا توكّلنا على الله وحده ، واعتمدنا على عونه سبحانه ، وتجنّبنا السياسة حتّى لا تجرفنا تياراتها الهوجاء.

وكان من العوامل التى ساعدتنا على النجاح : أنّ الفكرة جاءت فى وقت ضعف فيه شأن الاستعمار ، وخفّت وطأة سياسته التى تقوم على قاعدة «فرّق تسد» ، وظهرت فيه موجة من الإلحاد تهدّد الكثير من البلاد الإسلامية ، فبدأ عقلاء المسلمين يفكّرون فى التكتّل . وكان من حسن الحظّ أن شمل هذا عقلاء المسلمين من مختلف المذاهب والشعوب المسلمة ممّا تجلّت صورته بصفة واضحة من تأليف جماعة التقريب من أعضاء يمثّلون تلک المذاهب ، وتلک العقليات النيّرة ، أضف إلى ذلک أنّ انتشار الثقافة يخدم هذا الغرض وييسّر فهم الفكرة ، ويساعد الفرد على الاطّلاع والبحث بدل الاعتماد على الشائعات والأخذ بأقوال المغرضين .

وهكذا بدأت جماعة التقريب منذ نشأنها تشقّ طريقها ، وتلتزم سبيلها، وتمدّ يدها لمن يضمر للأخوّة الإسلامية خيراً وللمسلمين وحدةً ، وتستجيب إذا دُعيت إلى مؤتمر أو تبعث برأيها إن فاتها الحضور .

واتّفق أن انعقدت فى السنين الأخيرة عدّة مؤتمرات متفاوتة فى القوى ، وفى الإمكانيات ، ونظرنا إليها نظرة التأييد لأنّها لا تخلو من كونها محاولات لخير المسلمين .

وكان لزاماً علينا أن نفكّر ونستقصى ، ونستمع إلى تعليل غيرنا ، لعدم نجاح مؤتمراتنا الماضية فى الوقت التى كانت تنجح فيه المؤتمرات فى غير بلادنا؟

كان ذلک لزاماً علينا لنفيد منه ، ولا نقع فى مستقبل أمرنا فيما وقع فيه من قبلنا .

قالوا : ما السبب؟ أهو كثرتها؟ أهو قلّة عدد المؤتمرين فيها؟ أهو عدم الدقّة فى انتخاب الأشخاص ، فغالباً ما يكون المؤتمرون غير منسجمين ; لما بينهم من اختلاف فى التفكير ، وتفاوت فى المركز ، وتباين فى التمثيل .

أهو أنّ تلک المؤتمرات تعوّدت إصدار قرارات جزافية لم يسبقها البحث والتنظيم ، أو غير عملية لم يراع وقت صدورها إمكان التنفيذ؟

وقلنا بدورنا : هذه كلّها أسباب صحيحة ، ولكن وراءها جميعاً سبب آخر له تأثيره وله خطره ، هو الطائفية ، وقى الله الدعاة إلى الوحدة الإسلامية العالمية شرّها .

فهناک اختلاف فى الرأى نشأ عنه مذهبان رئيسيان قديمان : مذهب أهل السنّة ، ومذهب الشيعة . وهما رغم اتّفاقهم فى الأصول ، ورجوع كليهما فى الأحكام إلى كتاب الله وسنّة رسوله (صلى الله عليه وآله) ، إلاّ أنّ الاختلاف حول الخلافة والإمامة وكونها بالنصّ أو بالانتخاب ، وأنّ فى الكتاب والسنّة ما يثبت هذا أو لا ، أوجد تلک الطائفتين .

وكان بالإمكان أن يبقى الخلاف فى دائرته المحدودة ، لولا حكّام السوء وجور الظالمين الذين ابتدعوا العنف : العنف فى الكتابة ، والعنف فى الجدل ، والعنف فى التعصّب ، ثم التوسّل بالاتّهام والطعن ، فضلاً عن الحروب الدامية ، والفتن العمياء ، هذا مضافاً إلى النعرة المفرّقة التى جدّت أخيراً ـ وكم كنّا فى غنىً عنها ـ تفرّق بين مسلم ومسلم فيما كانوا فيه على وفاق من قبل ، كأنّ رصيدنا من الخلافات لم يكن يكفينا!

وهذه كلّها تركت فى مجتمعنا رواسب أفقدتنا الثقة فيما بيننا ، وأدّت بنا إلى

التقاطع فى كلّ شىء حتّى فى الثقافة .

ولو أنّك سألت جامعة تدّعى أنّها للمسلمين جميعاً : ماذا يعرفون عن مذاهب المسلمين من غير أهل السنّة المعروفة ، لأجابوك بالشائعات ، ذلك لأنّها فى الوقت الذى تهتم فيه بدراسة أحوال الإغريق القدامى ، والمذاهب البائدة كاللاأدرية ، تغفل دراسة أحوال فريق كبير من المسلمين ، وتحجم عن دراسة فقه كفقه الإمام جعفر بن محمد الصادق ، والإمام زيد بن على بن الحسين ، وهما من هما ، وأتباعهما يقربون من ربع عدد المسلمين !

هل من الرأى أن يجهل المسلم حال إخوإنه ويهتم بغيرهم؟

هل يصحّ أن يعنى بالمذاهب غير الإسلامية وهو يهمل بعض المذاهب الإسلامية الصحيحة التى هى جزء من التراث الإسلامى المجيد؟ وهل الفقه شىء يُحارب ؟

وإلى متى تظلّ الثقافة الإسلامية مجزَّأة ، وهى خير كفيل لوحدتنا؟ وكيف يمكن أن تجتمع كلمتنا وفى قلوبنا رواسب، وفى صدورنا حرج، وفى عقولنا ظنون وأوهام ؟

وكيف يرجى النجاح لمثل هذه المؤتمرات التى كانوا غالباً ما يجتمعون فيها بأجسامهم ، ويتباعدون بأفكارهم ، وتنعدم الثقة فيما بينهم ؟

وكيف نصل إلى تفاهم صحيح ، وكثيراً ما كنّا نكتفى بالكلام العام المعسول ، ولا نتصارح خيفة أن نظهر ما يضمره بعضنا لبعض من نفور؟

لقد حدث فى «مؤتمر العلماء الإسلامى» الذى انعقد فى كراتشى حين أريد الأخذ بلون من الصراحة أن ظهرت بوضوح النزعات المختلفة ، ولولا حنكة رئيس المؤتمر لتكهرب الجو أكثر وساءت العاقبة ! !

ثم ماذا؟

ثم أحالوا بالإجماع المسائل الخلافية المعروضة عليه إلى جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة لعلاجها ، وهى مطروحة أمامنا ، داخلة فى

منهاجنا .

هذه هى تجاربنا أملتها علينا ـ مع الأسف ـ الوقائع الماضية ، ودعانا حبّنا لأمتنا ، وإخلاصنا لوحدتنا ، أن نهديها لإخواننا الذين يحاولون مخلصين أن يصلوا إلى الوحدة الإسلامية ، ولنا أن نقول بعد ذلک فى صراحة وقوة : إنّ أيّة دعوة للتكتّل لابد لها من تمهيد ، وأىّ مؤتمر يراد له النجاح لابد له من أن يهتم فى نفس الوقت بدراسة البلاد الإسلامية والآراء السائدة فى أجزائها ، وإعطاء فكرة صحيحة لكل عضو عن مذاهب الآخرين ، والتنبيه على حملة الأقلام أن يقفوا عند حدودهم ، فلا مهاجمة ولا نبش للماضى ، ولا إثارة لمسائل خلافية من جديد من شأنها أن تهدم ما يبنيه المصلحون .

ولعلّ من اليسير بعد ما قدّمنا أن ندرک أنّ الذين يتبنّون فكرة المؤتمرات الإسلامية ، والذين تنعقد فى بلادهم هذه المؤتمرات عليهم تبعات جسام ، فى مقدّمتها أن يعملوا على فتح آفاق جديدة للتفكير الإسلامى ، تكون ثمراته أجدى على المسلمين من نبش الماضى ، وإثارة الأحقاد ، وأن يكونوا فى ذلک كله جرآء أقوياء ذوى أُفق أوسع من التعصّب للطائفية البغيضة التى تتّخذ أحياناً فى بعض البلاد مقياساً للفصل بين الكفر والإيمان ، وهى لم تكن كذلک فى سالف الزمان .

إنّ الطائفية التى لا تحسّ بها بلاد لا طوائف فيها ، تلعب دوراً هاماً فى كثير من بلاد المسلمين ، وكلّ محاولات لجمع الكلمة ينبغى أن تتفادى هذا الداء الوبيل ، وجماعة التقريب حين اتّجهت إلى هذه الغاية ، إنّما وضعت يدها على النقطة الحسّاسة ، فلو نجحت فى علاجها لنجح المسلمون .

الفصل الخامس
رحم الله امْرأً عَرَف قدرَ نفسه

من الحِكَم النبوية المأثورة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : «**رحم الله امرأ عرف قدر نفسه**» .

وكثير من الناس حين يسمعون هذا القول النبوى المأثور يفهمونه على معنىً أنّه نهى عن الغرور بالنفس يردى النفوس ويهلكها ، ويحول بين المرء وما ينبغى أن يتعرّض له من نفحات الرحمة الإلهية التى لا يستحقّها إلاّ المتواضعون ، ولاينالها أهل الكبر والغطرسة والاستعلاء بغير الحقّ .

ويؤيّدون ذلک بمعان وآثار کثيرة :

منها : غرور «إبليس» بنفسه ، إذ قال مخاطباً ربّ العزّة حين أمره بالسجود لآدم : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نار وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِين)[1] . فكان هذا الغرور سبباً فى حلول غضب الله على هذا المخلوق ، وسبباً فى احتماله أعباء الإضلال والإفساد على عاتقه إلى يوم يبعثون .

ومنها : غرور فرعون الذى أرداه وجعله مثلاً فى الأولين والآخرين ، إذ أرسل الله إليه نبياً هادياً (فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرى فَكَذَّبَ وَعَصى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى فَحَشَرَ فَنادى فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلى فَأَخَذَهُ اللّهُ نَكالَ الآخِرَةِ وَالأُولى)[2] .

بل دعاه الغرور بنفسه إلى ما هو أبعد من ادّعاه الألوهية ، حيث أراد أن يصل إلى إله موسى ليحاربه فقال :(يا هامانُ ابْنِ لِى صَرْحاً لَعَلِّى أَبْلُغُ الأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّى لأَظُنُّهُ كاذِباً وَ كَذلِکَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ

---

١ . الأعراف : ١٢ .

٢ . النازعات : ٢٠ ـ ٢٥ .

وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاّ فِى تَبابٍ)[١] .

إلى هذا الحدّ يفعل الغرور بالنفس !

وإذا كانت هذه المثل قد وردت فى كتاب الله الذى يتلى على الناس بكرةً وعشياً ، فإنّ هناك مثلاً كثيرة تفيض بها صفحات التاريخ فى هذا الكون .

فكم من ملك طغى ، وذى سلطان اغترّ بنفسه ، فأساء تقدير أمره ، فأفلت منه الزمام ، وانحسر عنه ظلّ الأمان ، وجانبته رحمة الله ، فصار من المهلكين .

هذا معنى يفهم به الحديث الشريف كثير من الناس .

وهو فهم صحيح مقبول ، ولكنّه ليس هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن يؤخذ من هذا الحديث ، فنحن نستطيع أن نفهم من هذا التوجيه النبوى الحكيم معنىً آخر .

ذلك أنّ الإنسان عليه أن يدرك قيمة نفسه ، وأن يعلم أنّه مخلوق له رسالة يجب عليه أن يحتمل أعباءها ويقوم بحقّها ، فإنّ كثيراً من الناس ربّما هربوا من معنى الغرور بالنفس إلى معنى احتقار النفس ، والاستهانة بها ، والشعور بأنّهم ليسوا شيئاً مذكوراً ، فتراهم ينزوون عن كل عمل صالح ، ولايشاركون الناس فى أمر من أمورهم ، شعوراً منهم بالنقص فى أنفسهم ، والقصور عن ملابسة كرائم الأعمال ، وبذل كرائم الجهود ، فيعيش الواحد منهم ما عاش كمّاً مهملاً ، لايحسّ بنفسه ولا يحس به أحد ، يعيش عالةً على غيره ، يحمله مجتمعه الخاص ومجتمعه العام كما تُحمل الأنفال التى تنوء بها الكواهل دون أن يكون لها نفع ، أو يرجى منها خير .

إنّ هؤلاء لم يعرفوا قدر أنفسهم ، ولم يدركوا أنّ الله حين وهبهم الوجود ، وهيّأهم لخوض غمرات الحياة بأسلحة من العقل المفكّر ، والجسم المجهّز بكل ما يصلحه ، قد خلقهم ليعملوا ، كلٌّ على شاكلته ، وكلٌّ بنصيبه وجهده ، كى يحقّقوا خلافة الإنسان فى الأرض ، فيعمروها ويستكشفوها ، ويعرفوا الله الذى

---

١ . غافر : ٣٦ و ٣٧ .

خلق ورزق ووهب ، وأمات وأحيا ، وأغنى وأقنى ، فيعبدوه ويمتثلوا أمره ، ويكونوا رحمةً مهداةً إلى إخوانهم الأقربين والأبعدين .

إنّ هؤلاء لم يدركوا قيمة ابن آدم كما ينبغى لها أن تدرك .

إنّ ابن آدم لا ينبغى أن يكون نسخةً واحدةً متكرّرةً فى الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وفى القرن الأوّل والقرن الأخير ، وفيما بينهما ، بل يجب على كل إنسان أن يحاول بجدٍّ وصدق أن يكون له وجود كريم .

وما وجوده الكريم إلاّ بأنّ يكون له «وحديّة» أو امتياز، وتفرّد فى ناحية ما ، حتّى يكون ـ ما عاش ـ محتاجاً إليه من الناس احتياجاً خاصاً ، منظوراً إليه نظراً خاصاً ، وحتّى يحسّ المجتمع إذا ذهب أنّه فقد شيئاً كان له كيان ، وكان له وجود .

وكما يقال هذا فى الأفراد ; يقال فى الجماعات والشعوب والأمم. فلكلّ جماعة هدف ، ولكلّ شعب طابع وغاية ، ولكلّ أمة رسالة .

فإذا تكرّرت النسخ رخصت القيم ، وخفّت الأوزان ، وهان وجود الهيئات والشعوب والأمم .

ونحن هنا فى التقريب لنا وجود خاص ورسالة خاصة والحمد لله ربّ العالمين.

إنّنا نعلم قيمة أنفسنا ، وأهمية دعوتنا ، نعلم ذلک فى غير غرور ولا خيلاء ، ونعرف أنّ المسلمين أمة واحدة ، إلهها واحد ، ورسولها واحد ، وكتابها واحد ، وأصولها واحدة . وأنّه لم يعد يصلح أمرهم على اختزان الحزازات ، واجترار العداوات ، ولم يعد العالم يطيق خلافاً يتيح للأخ أن يقطع أخاه وقد ربط الله بينهما برباط الإيمان ، وأنّ ما كان يجد رحابةً فى الصدور ، وتقبّلاً من العقول بالأمس البعيد ، حيث كان الناس يتناظرون ويتخالفون ، ويتعارضون ويتقارضون ، ويقضون فى ذلک أوقاتاً ثمينةً ، ويبذلون فى سبيله جهوداً مضنية ; لم يعد هو ذلک الغذاء الفكرى أو الدينى الذى تصلح عليه أمور

المسلمين فى عصر العلم والذّرة والفضاء والكواكب .

فمن واجب المسلمين أن ينسوا ما كان من جدل ، وأن ينزعوا عمّا ألفوا من خلاف ونضال ، وأن يأخذوا الحياة أخذاً جديداً على أساس أنّهم إخوة ، وأصحاب رسالة هادفة ، وقيادة بصيرة عارفة .

هذه هى دعوة التقريب ، ليست نسخة تشبه غيرها ، أو يغنى عنها سواها ، فلها وجود حقيقى «وحدى» ذاتى ، ولو لم توجد لكان على المسلمين أن يوجدوها.

وإنّ فى بقائها وجهادها ، وارتفاع لوائها ، وانبعاث دويّها ، واشتغال العقول بها للخير كلّ الخير للمسلمين .

الفصل السادس
أمة واحدة وثقافة واحدة

جرى الحديث بينى وبين العلاّمة الشهير المغفور له الإمام الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر[١]، وكأنّى أرى هذا الحديث أمامى كما لو كان بالأمس القريب ، والحال أنّه قد مرّ عليه زمان لا يقلّ عن عشرة أعوام .

كان موضوع الحديث هو المشكل الخطير الذى على المسلمين أن يعالجوه إذا أرادوا نهضةً موحّدةً تشمل جميع شعوبهم وبلادهم : وهو توحيد المسلمين ثقافياً .

كان الكلام بيننا فى أنّ المسلمين لايعرف بعضهم بعضاً ، وأنّ الصلة منقطعة بينهم ، ولابد من تقريبهم ثقافياً ، ليعرف كلٌّ ما عند الآخر ، وبذلک يحصل التوحيد المنشود ، وترتفع المنازعات والخلافات فى كل المسائل أو فى أكثرها ، أو تقف ـ على الأقلّ ـ عند حدودها الحقيقية .

ذكّرنى هذا الكلام يومئذ بقصة ذكرها فى أحد كتبه عارف إلهى عظيم [٢] فى سياق أراد به استنتاج بعض المعانى العرفانية السامية ، فذكرت لفضيلته هذه القصة ، ولا أرى بأساً من أن أعيد ذكرها للقرّاء ، لأنّها تعبّر عمّا نحن فيه أصدق تعبير ، وتوحى بمعالجته من أقرب سبيل .

كان أربعة من الفقراء جالسين فى طريق ، وكلٌّ منهم من بلد : أحدهم رومى ، والثانى فارسى ، والثالث عربى ، والرابع تركى ، ومرّ عليهم محسن فأعطاهم

---

١ . وكان ثالثنا فى هذه الجلسة هو حضرة صاحب السعادة محمد خالد حسنين بک (باشا) كبير مفتشى الأزهر حينذاک .

٢ . هو مولانا جلال الدين البلخى الشهير بالرومى فى كتابه العرفانى الجليل «المثنوى».

قطعةً من النقد غير قابلة للتجزئة ، ومن هنا بدأ الخلاف بينهم ، يريد كلٌّ منهم أن يحمل الآخرين على اتباع رأيه فى التصرّف فى هذا النقد ، أمّا الرومى فقال : نشترى به (رستافيل) ، وأمّا الفارسى فقال : أنا لا أرى من (أنگور) بديلاً ، وقال العربى : لا والله لا نشترى به إلاّ (عنباً) ، وقال التركى متشدّداً فى لهجة صارمة : إنّ الشىء الوحيد الذى أرضى به هو (أوزوم) ، أمّا ما سواه فإنّى لا أوافق عليه أبداً ، وجرّ الكلام بين الأربعة إلى الخصام ، وكاد يستفحل الأمر لولا أن مرّ عليهم رجل يعرف لغاتهم جميعاً ، وتدخّل للحكم بينهم ، فبعد أن سمع كلامهم جميعاً ، وشاهد ما أبداه كلٌّ منهم من تشدّد فى موقفه ، أخذ منهم النقد واشترى به شيئاً ، وما إن عرضه عليهم حتّى رأى كلٌّ منهم فيه طلبته ، قال الرومى : هذا هو (رستافيل) الذى طلبته ، وقال الفارسى : هذا هو (الأنگور)، وقال العربى : الحمد لله الذى آتانى ما طلبت! وقال التركى : هذا هو (أوزوم) الذى طلبته ، وقد ظهر أنّ كلاًّ منهم كان يطلب «العنب» من غير أن يعرف كلّ واحد منهم أنّه هو بعينه ما يطلبه أصحابه .

لسنا فى هذا المقام بصدد بيان ما دار فى هذه الجلسة أو فى الجلسات الأخرى الممتعة التى كنت اجتمع فيها بفضيلة الإمام المراغى ، ولسنا أيضاً بصدد بيان ما وصلنا إليه فى نفس تلك الجلسة من إقرار تدريس بعض اللغات الإسلامية كوسيلة للتفاهم بين البلاد الإسلامية المختلفة ، كما أنّنا لسنا بصدد أن نقول : هل واصلنا السير إلى الأمام منذ ذلك الوقت أو رجعنا القهقرى، ومهما يكن من شىء فإنّ أمامنا فى اللجنة الثقافية لجماعة التقريب مشروعاً يرمى إلى توحيد المسلمين ثقافياً ، أو إن شئت فقل : توحيد الثقافة الإسلامية بين المسلمين : فكرة ضخمة ، ومشروع جليل ، ينظر إلى المسلمين كأمة واحدة ، لغاتها محترمة عند الجميع ، آدابها للجميع ، رجالها للمسلمين عامة .

ليس أحد ينكر على المسلم أن يعرف الأدب الغربى ، لكن عليه فى الوقت نفسه أن يعرف شيئاً عن أدب رجال نشأوا فى الإسلام ، ونبغوا فى البلاد

الإسلامية . لا مانع يمنع المسلم أن يعرف اللغة الغربية ، ولكن ممّا ينكر عليه ألاّ يعطى قسطاً من اهتمامه للغات الإسلامية ـ ولعلّ منها ما يتكلّم به أكثر من مائة مليون من المسلمين ـ فتكون لغة التخاطب بين كثير من المسلمين بعضهم وبعض إحدى اللغات الغربية ، لأنّ كلا الطرفين المسلمين لايعرف من لغة الآخر شيئاً .

ليس بمنكر على المسلم ـ بل من المستحسن ـ أن يعرف كثيراً عن القارة الأوربية أو الأمريكية أو غيرهما ، غير أنّه بوصفه مسلماً عليه أن يعرف أكثر ممّا يعرفه الآن عن البلاد الإسلامية وأقطارها .

إنّ توحيد المسلمين ثقافياً لا ينافى أن تعمل كلّ طائفة من الطوائف الإسلامية ، بما ثبت عندها واعتقدته ، ما دام هذا لايمسّ العقائد الأساسية ، التى يجب الإيمان بها ، ولكن من الواجب أن تعرف كلّ طائفة من المسلمين حقيقة عقائد الآخرين ، لعلّها تجد فيها ما تستفيد منه ، أو ـ على الأقلّ ـ إذا أراد أحد باحثيها أن يكتب عنهم شيئاً ، أو ينقل بعض فتاواهم ، فلا يكتب «وأمّا ما سمعنا عنهم أنّهم يقولون كذا وكذا ، أو أنّه يقال عنهم كذا وكذا» ولعمرى إنّ هذا لسبّة فى جبين العلم ، أن لا يتعب رجاله أنفسهم بالبحث عن كتاب يجدون فيه كل ما يبحثون عنه ، من غير أن يسندوا أقوالهم إلى السماع ، وكثيراً ما يجىء هذا القول المسموع من ذوى الأغراض الخبيثة .

وممّا هو واضح أنّه ليس معنى توحيد الثقافة توحيد اللغة ، وليس هذا أمراً ممكناً ، ولعلّه لايفكّر فى هذا ولا يتفوّه به إلاّ من يريد أن يبعث التعصّب للغات أيضاً ، أو يريد أن يستعمر الآخرين ، ولكنّ المهم هنا أن يفهم بعضنا بعضاً ، وهذا ممكن جداً إذا وجد فى البلاد العربية مثلاً رجال يعرفون لغات الآخرين ، وعند الآخرين من يعرف العربية ويتحدّث بها ، وهذا ما كان فى العصر الذهبى للإسلام ، شعوب لم يصطبغوا بالصبغة العربية ، واحتفظوا بلغتهم القومية ، إلاّ أنّ رجالاً منهم ـ وهم علماؤهم عامة ـ كتبوا ودوّنوا العلوم بالعربية ، وخدموا اللغة العربية نفسها أيّة خدمة ، من دون أىّ تعصّب ، أو أقلّ تحيّز .

ألا وإنّ الترجمة ممّا لابد أن يهتم بها ، وكثيراً ما نترجم آثاراً من الغربيين بأنواعها ، فنجد فيها ما يفيد ولا ننكره ، ونجد فيها ما يفسد الأخلاق وينشر الخلاعة حيناً ، والإلحاد والمادية حيناً آخر ، ولا يشكّ مسلم فى خطر هذا النوع على الدين والآداب الإسلامية .

وما دام عندنا هذا الاستعداد للترجمة ، وليس لدينا مانع من أن نعطى لفكرة نشأت فى بيئة مغايرة لبيئتنا ، وصيغت فى جو تقاليد غير تقاليدنا الدينية والقومية ; صورة مناسبة أو أقلّ بعداً ، نقول : ما دام عندنا هذا الاستعداد أليس من الخير أن نوجّهه إلى الصحيح من الأدب الغربى ، وأفكار أهله ، وإلى الآثار الإسلامية بما فى ذلک ترجمة الكتب والدواوين ، والحكم والقصص ، وأخبار التاريخ السائرة بين الشعوب الإسلامية ، وإنّ منها لكتباً لو كان أحدها هو الكتاب الوحيد فى لغته ، ولم يكن سبيل لترجمته ، إلاّ بتعلّم اللغة ، لكان على الإنسان أن يتعلّم تلک اللغة ليعرف ذاک الكتاب ويلتذّ بما فيه !

إنّ فى البلاد الإسلامية معادن وكنوزاً ، وإنّ للمسلمين رجالاً نابغين ، وعلماء أكفّاء عاملين ، وأدباء قديرين ، فهل يعرفهم العالم الإسلامى ؟! وهل يعرف عنهم عُشر ما يعرف عن بعض علماء المادة وكتّاب السوء؟! وهل سمع عن آثارهم؟ وهل عرف أنّ منهم مؤلّفين خلّفوا مجلّدات من الكتب ، يعدّ كل واحد منها مرجعاً من المراجع ، ودليلاً قائماً بذاته ، لفكرة ناضجة عند المسلمين ؟

إنّ للمسلمين جامعات علمية كبرى فى مختلف البلدان ، وإنّ فيها لما يجتمع به أكثر من ألفين من طلاب علوم الدين ، وإنّ النظام الدراسى فيها لنظام حرّ ، فهل عرفت الأغلبية من المسلمين عنهم شيئاً ؟

لو أنّ التعارف بين المسلمين تمّ على أساس توحيد الثقافة ، بما فى ذلک التبادل الثقافى ، وتأليف كتب عن كلّ طائفة ، لإعطاء صورة صحيحة عنها ، وتعليم اللغات الإسلامية فى جامعاتهم ، وترجمة آثارهم ورجالهم ; لعرف المسلمون أنفسهم ، وعلموا قوتهم ومقدرتهم ، وأنّهم مسلمون قبل كل شىء ،

مسلمون فى كتابتهم وتآليفهم ، مسلمون فى قصصهم وأشعارهم ، وأنّهم أُمناء فيما يكتبون .

لابد أن يلتقى المسلمون بعضهم ببعض ، وهل من منكر أنّ خير اللقاء هو اللقاء عند الثقافة ، الثقافة الصالحة لأن تكون ثقافة إسلامية ، بعيدة عن كل تعصّب أعمى ، ثقافة تحت ظلّ الدين ، ثقافة يجتمع المسلمون فى ظلّها ، مثلاً «بالحافظ الشيرازى» المتوفّى فى القرن الثامن ، و«حافظ ابراهيم» المصرى ، المتوفّى فى القرن الحاضر ، ومحمد إقبال المسلم الهندى المتوفّى أخيراً ، مع اختلاف لغاتهم وتفاوت درجاتهم .

وإذا كان هذا شأن الآداب لدى المسلمين ، فأسهل منه شأن الفقه وعلوم الدين ، والعلماء كلّهم من أىّ مذهب من المذاهب الإسلامية ، قد استمدّوا علومهم من الكتاب والسنّة ، واللغة العربية هى لغة الدين ، وبما أنّ المصدر واحد واللغة واحدة ، فإنّ أقلّ تبادل ثقافى يكفى لأن تحترم كل طائفة ما عند الأخرى ، ولأن يقمع كثير من الخلاف الذى نحن فى غنىً عنه .

هذا ما نبغيه ، وهذا ما نسعى إليه ، وإنّ لنا فى توحيد الثقافة الإسلامية الذى يجعل كلاًّ منّا يعرف ما عند الآخرين لأملاً كبيراً فى أن يرجع للمسلمين مجدهم ، ويجعل الأجانب والمستعمرين ، يحسبون لهم ألف حساب ، وترجع للعلم الإسلامى قدرته على إنتاج أطيب الثمار ، وبالله التوفيق وهو وليّنا ونعم النصير .

الفصل السابع
وحدة المسلمين حول الثقافة الإسلامية

لا يهمّنى إن كانت هذه القصة حقيقة واقعية أو خرافة من نسج الخيال ، وإنّما يهمّنى أن تكون مقدّمة لنتائج نتعرّض لها فى هذا المقال .

ولا يهمّنى إن كان بطلها من حكماء الفرس ، أو من أبطال الرومان ، أو من غزاة العرب ، من الموحّدين أو من غيرهم ، بقدر ما تهمّنى فكرته السامية .

كان حكيماً نافذ الكلمة فى عشيرته ، شديد الغيرة على مصالحهم ، تقدّمت به السنّ ، فأراد أن يزفّ وحيده ويتنازل له عن رياسة قومه ، فقدّم إليه أتباعه ـ على عادة القبائل والعشائر ـ هدايا ثمينة ، فأراد أن يستغلّ شعورهم هذا فى توطيد الإمارة لولده ، ولأحفاده من بعده ، فخطب فيهم شاكراً ، ورجاهم أن يستردّوا هداياهم ، فألحّوا عليه فى قبول شىء ، فقال لهم : «إن كان لابد من تقديم شىء ، فأقيموا لولدى بيتاً يسكنه ، بشرط أن تشتركوا فى بنائه ، وتساهموا فى إقامته ، وأحبّ أن أراكم تحملون لبناته بأنفسكم ، وتضعونها فى البناء بأيديكم . فأقدموا على هذا العمل الذى يرضى شيخهم الكبير ، ولمّا تمّ البناء ، أوصى ولده أن يقيم فيه ، ولا يتحوّل عنه ، لأنّ مقامه فى بناء مشترک ربط للقلوب والنفوس جميعاً ، ولأنّ الناس يتمسّكون به ، ويتعلّقون بإمارته ما أقام فى هذا البيت الذى صنعوه بأنفسهم ، ويقولون : إنّ نبوءة الشيخ تحقّقت ، وكان نزيل هذه الدار من أحفاده أميراً مرموقاً وحاكماً مطاعاً .

إذا كانت هذه قصة خيالية ، فهناک قصة من صميم الواقع ، عن قصر فخم لم تر عين الزمان مثله ، أُقيم على أساس متين ، وشيّد من حجر صلد بأيدى أمهر

البناة المخلصين من الأبيض والأسود ، ساهم فى إقامته رجال من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، من بلخ وبخارى وسمرقند وطوس وطبرستان والرى والعراق والشاموالحجاز ومصر والأندلس وما بينها ، وتعبت فيه عقولهم ـ إن صحّ هذا التعبير ـ واستعملت فيه لبنات نورانية بدل اللبنات الظلمانية المعروفة .

وإذا كانت مرضاة ذلك الشيخ هى الدافع إلى بناء ذلك البيت الصغير ، فإنّ الدافع إلى بناء هذا القصر المنيف ، هى مرضاة الله فى الدارين ، وإرضاء الضمير والإيمان والعقيدة ، بنى باسم الإسلام ، وقدّمه بناته إلى الإسلام ، ليكون فى خدمة الإسلام والمسلمين ، ولم يكن لحدائقه أسوار تمنع الناس من الدخول فيه ، ولا بين أقسامه حواجز تحجب عن الروّاد بعض نواحيه ، فتوجّهت إليه عقول الملايين ، وتعلّقت به قلوب مئات الملايين ، وعبق عطره فى أركان العالم الإسلامى ، وفاح شذاه فى أركان الكون كلّه ، وأطلّت عظمته على الشرق والغرب .

ذلك قصر الثقافة الإسلامية التى أراد الله أن تكون أعظم مفخرة للمسلمين ، وأعظم ثمرة للإسلام ، تلك الثقافة التى لم يوح بها أحد ، وإنّما أوحى بها الشعور والإيمان والرغبة فى أن يكون للإسلام ثقافة خاصة ينهل منها المسلمون ، واندفع لتحقيق ذلك بنّاؤون من كل شعب مسلم ، ومن كل طائفة إسلامية ، وتخلّوا جميعاً عن كل قومية ولغة ، إلاّ قومية الإسلام ولغة القرآن ، فالبلخى نسى بلخيته ، والفارسى نسى فارسيته ، والبخارى نسى أنّه من بخارى ، والعربى نسى عروبته، وجعلوا أنفسهم فى خدمة الإسلام ولغة الإسلام ، وخلقوا ثقافة إسلامية ، استنبطوا قسماً كبيراً منها من الإسلام نفسه، وأخذوا قسماً آخر من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية ، التزموا فيه نهجاً لم يلتزمه البُناة قبلهم ، هو أن يصبغوه بصبغة الإسلام ، ويسخّروه فى خدمة فكرة الإسلام ، ليكون ثقافة إسلامية قبل كل شىء ، ووفقوا فى هذا توفيقاً عجيباً ، حتّى أنّهم أخذوا الفلسفة اليونانية ـ التى كانت تثبّت العقائد الوثنية ، والتى استغلّتها الكنيسة

فيما بعد لخدمة التثليث ـ وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، وأثبتوا بها التوحيد والمعاد ... ولست بصدد شرح هذا ، وسأفرد له بحثاً خاصاً .

ولم ينشط فى إقامة هذا القصر البنّاؤون فحسب ، بل نشط كذلک النجّارون والبستانيون ، واهتم كلٌّ بناحيته ، وتقدّم كل فنّ يشجّعه الإسلام ، من تفسير إلى أدب ، ومن طبّ إلى كيمياء ، ومن علوم إسلامية إلى نبوغ فى الفقه بنوع خاص ، وهكذا أوجدوا كنزاً ثميناً ، يليق أن يسمّى بحقٍّ أغنى كنز فى العلوم الإسلامية ، ازدهرت كل هذه العلوم دون أن يؤخذ عهد من القائمين عليها ، ودون أن تشرف على تنسيقها منظمة كاليونسكو ، ودون أن يمنع أحد من الدخول فى أىّ بحث ، أو يحرم من الرجوع إلى أىّ مرجع ، أو الاغتراف من أىّ منهل .

كانت ثقافة إسلامية ، تقدّم لكلّ المسلمين ، لا لشعب دون شعب ، ولا لطائفة دون طائفة ، وكان لكلّ عالم حقّ الدخول فى كل بحث ، ومراجعة أىّ كتاب ، والأخذ بأىّ رأى ، ولا ينظر أحد إلى من يخالفه فى الرأى إلاّ نظرة التقدير والأخوّة .

فالخليفة يقدّم إلى الإمامى كرسى الدراسة ببغداد ، والسنّى يستمع إلى دروسه كثير من غير أهل السنّة ، ومرجع الفتوى إلى كل مذهب ، والباحث يقف على رأى كل مفكّر .

كانت ثقافة عامة مشتركة ، تعلّق بها كل قطر لأنّه يساهم فيها ، وغار عليها كل صقع لأنّ له قسطاً منها ، وحفظ حرمتها وكرامتها كل مسلم ، واحترم رجالها ونظر إليهم كمجموعة يكمل بعضها بعضاً ولا تقبل التجزئة .

لعلّک تتساءل : أين هذا القصر؟ هل عدا عليه الدهر فخربه ، أم غصبه أحد الطغاة ودمّره؟ كلاّ : لا هذا ولا ذاک ، إنّما تنازع فيه ورثته ، وقسّموه فيما بينهم، وأقاموا الحواجز بين أقسامه ، واستقلّ كل فريق بحصّته ، وامتنع الآخرون من الدخول إليها .

وهكذا تحوّلت الثقافة الإسلامية من عامة جامعة إلى مذهبية ضيّقة ، ومن قومية شائعة إلى طائفية محدودة ، وعكف كل عالم على مراجع مذهبه ، وأغضى عن ما فى المذاهب الأخرى ، وتعصّب لما درس ، واستراب فى كل ما جهل . وتأثّرت كل طائفة بعلمائها ، وتمسّكت بنهجهم ، ونفرت من كل من يخالفهم فى الرأى ، بل ذهبت إلى الشكّ فى عقائد الطوائف الأخرى .

وانتهز كثير من غير المسلمين هذه الظلمة ، وتسلّلوا إلى الصفوف ، وتسمّوا باسم المسلمين ، واستغلّوا جهل الطوائف بعضها ببعض ، يزعمون لكل طائفة أنّهم من الأخرى ، يقولون للشيعة : نحن من أهل السنّة ، ويقولون لهؤلاء : نحن من أولئک ، واستطاعوا فى غفلة المسلمين وجهلهم أن يسيئوا إلى الإسلام قروناً عديدة.

كل هذا حصل بسبب التعصّب المذهبى الذى تريد جماعة التقريب القضاء عليه، وبتأثير النزعات الشعوبية التى ترمى إلى تقسيم هذا التراث باعتبار العنصرية .

فلوا أنّنا فتحنا صدورنا من جديد ، واعتبرنا الثقافة الإسلامية مجموعة يكمل بعضها بعضاً ، وتفاهمنا فيما بيننا على هذا الأساس ، وأدركنا أنّ هذه الثقافة إسلامية ، بنيت على أن تكون للإسلام قبل كل شىء ، وليست ملكاً لفرد ولا لمذهب أو طائفة ، كما أنّها ما أوجدت لتكون عنصرية ; لجدّدنا بناء هذا القصر المنيف ، ولمحونا عن كلّ طائفة باطل الاتّهامات الموجّهة إليها ، ولأخرجنا من بيننا من ليسوا بمسلمين ; كأولئک الأدعياء الذين انتسبوا كذباً إلى الإسلام وهم معاول هدم فى الكيان الإسلامى .

وفى رأيى أنّ ثقافة إسلامية موحّدة ـ إذا التفّ حولها المسلمون ـ كفيلة بتوحيد صفوفهم ، ولا يخفى ما تؤدى إليه الوحدة من عزٍّ ومجد وسؤدد .

وما دامت هذه الثقافة موجودة ، فإنّ من الميسور بلوغ هذا الهدف ، وهو ما نعمل له ونسعى إلى تحقيقه ، والله ولىّ التوفيق.

الفصل الثامن
فرصة سانحة

تسنح الفرص نادراً ، وتمضى سراعاً ، والسعيد من ينتهزها ويفيد منها ، وما الفتوحات إلاّ فرص اغتنمتها الأمم ، وما أبطال التاريخ إلاّ رجال لم تفلت منهم الفرص .

واليوم تسوق العوامل الكثيرة والمؤثّرات العظيمة القوية فرصةً لا مثيل لها ، يمكن بانتهازها توطيد القوة الهائلة الكامنة فى الإسلام ، وإبرازها إلى حيّز الوجود .

فأمام العالم الإسلامى الآن فرصة فى ميدانين : ميدانى السياسة والأخلاق .

أمّا فى ميدان السياسة ، فالعالم ينقسم إلى معسكرين ، كلٌّ يريد أن يضمّ إليه أكبر عدد من الأمم ، وكلٌّ يريد أن يجرّ إلى صفّه فى الجامعات الدولية أكبر عدد من الأصوات ، ببذل الوعود ، وتخفيف الضغط ، ومنح الاستقلال ، وهما يتصارعان فى معركة يعتبرانها حيوية ، يبذلان فى سبيلها كل ما فى الطوق ، وهذا ما دفع بكليهما إلى مصانعة الشعوب الصغيرة وملاينتها ، مع أنّ البطش بها والتعسّف معها كانا سنّة الجميع إلى الأمس القريب .

ثم إنّ تسابق المعسكرين فى التسلّح وما ينفقان فى هذه السبيل ، وما تتطلّبه حاجات شعوبهما الجائعة ، ومحاولة إصلاح ما دمّرته الحرب ، ومعالجة الضعف المالى ، وانعدام الأسواق لمنتجاتهما ، والأزمة الاقتصادية السائدة ، كل هذا هبط بدخل دول المعسكرين ، وزلزل مراكزها ، وطوّح بهيبتها ، وجعلها تخطب ودّنا وتشترى صداقتنا ، وتمنحنا استقلالنا وتحترمه ، وهى التى تسلّطت علينا تسلّط

الشياطين على النفس الضعيفة ، وعشنا طويلاً على الخوف منها ، والحاجة إلى أرضائها فى كل صغيرة وكبيرة .

إنّ إحدى الكتلتين تشجّع اليوم ـ ولو لأغراض سياسية ـ الحركة الدينية ، وهو ما لم يكن من قبل ، فلماذا لا نسارع إلى إدخال الدين فى كل معهد ، وفرضه على كل فرد ، وجعله أساس الحكم فى كل بلد إسلامى ، لنتحصّن به ضد كل عدوّ ، ونقوى به على كل مشكلة ، ونتخلّص بفضله من دعاة الإلحاد والتفرقة إلى الأبد ، ونخلق به جيلاً سليماً قوياً ؟ ولماذا لا نركّز ـ فى هذه الفرصة ـ روح الإسلام فى النفوس والبلاد ، حتّى لا تزلزله الحوادث ، ولا تعطّله يد قوية ودكتاتور ظالم لو أرادت السياسة ذلك فيما بعد ؟

إنّ المسلم إذا رضى أن يكون نصيبه فى الحياة ألاّ يعترضه القوى فى إقامة صلواته وشعائره ، أو يكون غاية مرامه بناء مسجد فى حيّه ، أو التمتّع بالحرية فى لباسه أو ترضيه المجاملات ، ومثل هذا اللون من الاستقلال الموهوب ، دون أن يهيّئ نفسه لاحتمال تكاليف الحرية والاستقال ، أقول بصراحة ـ ولنا أن نكون صرحاء مع الإخوة ـ : إنّه لم يحصل على شىء ، وليس هذا فحسب ، بل أنّ هذه الحريات الوقتية الممنوحة ـ التى لا يد له فيها ـ يمكن أن تسلب بسهولة حين تصفّى الكتلتان المشاكل بينهما ، أو تقضى الحرب المقبلة على أحداهما وتبقى الأخرى بغير منافس .

هذه ـ لا شكّ ـ فرصة أُتيحت لنا بغير جهد ، لو ننتهزها لأمكن أن نستغلّ لمصلحتنا اضطراب الكتلتين أكبر استغلال .

أمّا فى الميدان الأخلاقى ، فعلى أثر الحربين العالميتين الماضيتين ـ ولا سيما الأخيرة ـ انهارت المبادئ الأخلاقية ، وانتشر الفقر وعمّت الفوضى ، وبسبب كثرة القتل ، ودمار البلاد ، وهدم البيوت ، واختلاط الغالب بالمغلوب ، وإجلاء الملايين عن بيوتهم ، وتشرّد الكثيرين فى الآفاق ، وانفصام روابط الأسر بل انعدامها ، حتّى أصبح ربّ الأسرة لا يأمن على نفسه ولا يطمئنّ على أهله ، ثم

التعذيب والنفى ، ومعاملة الناس كالرقيق ، وإعدام آلاف الاسرى بشكل جماعى فى معسكرات الاعتقال ، حتّى أنّ هيئة الأمم اقترحت عقد اتفاقية تحرّم «القتل الجماعى»... كل هذا قضى على الأخلاق ، ومسخ فى أعين الناس معانى الفضيلة ، فأصبحنا نرى العلماء أنفسهم ـ وهم أصحاب العقول الناضجة والفكر المستنير ـ يتفاخرون بصنع ما يدمّر ويخرّب ويفنى البشر ! فهذا يتيه بصنع قنبلة تقضى على مليون فى أقلّ من ثانية ، وذاک يفخر بتوفيقه إلى صنع قنبلة أخرى أشدّ وأقوى ، يبقى أثرها فى الأرض ألف سنة . . وسواء أصدّقنا هذا أم لم نصدّقه ، فإنّ إعلان الفريقين لهذه الأخبار يدلّ على مدى الأنهيار الخلقى ، واشتغال العلماء بما ينزل بالعالم الدمار والهلاک ، ويهدّد البشرية بالفناء ، أكبر دليل على انعدام المبادئ الإنسانية .

على أثر هذا ، بدأ المفكّرون يبحثون عن طريق للنجاة من هذا الوضع الوحشى ، ويفتّشون عن نظام ـ لا ينبعث عن الميول السياسية والنزوات الحزبية ـ بل يقوم على قواعد سليمة يضمن للبشرية العيش فى راحة وسلام ، ولايمنعها من التقدّم فى كل نواحى الحياة ، والتقى أكثرهم عند فكرة الأخذ بدعوة روحية ، وهى فكرة نرى لها أنصاراً وأعواناً فى كل بلد وصقع يزدادون يوماً بعد يوم .

وعندنا نحن المسلمين قانون إلهى ، يضمن السعادة للبشرية ، ويقضى على الوحشية والبربرية ، ويقيم موازين الاجتماع بالعدل ، ويحرّم قتل النفوس ، ويحضّ على التواصى بالخير والفضل ، ويؤمن الفرد على نفسه وعرضه وماله ، ويشبع الفقير الجائع ، ويشفى الغنى المتخوم ، ويضع للحرب قوانين إنسانية إذا احتيج إليها .

فلماذا لا نخرج بنور شريعة الإسلام على هذا العالم المضطرب، كما خرج المسلمون الأوائل على العالم المحيط بهم من الفرس والروم أثر حروبهما واختلال أوضاعهما ، وضعف العقيدة الدينية فى أبنائهما ، فتقبل الناس دعوتهم ، واطمأنّت القلوب إلى دينهم ونظامهم ، واستقرّت بهم أمور الدنيا بعد اضطراب

عاصف ، وقلق شديد؟

لو انتهز المسلمون هذه الفرصة الذهبية ، لأمكن أن يكونوا هداة العالم المضطرب ، وأطباء النفوس المريضة ، ورسل النجاة والخلاص ، ولأمكن أن يغزوا الدنيا غزواً روحياً خلقياً تشريعياً ، يبقى على البشرية ويسعدها قبل أن يقضى عليها دعاة الدمار ودعاة التخريب .

لكنّنا مع الأسف الشديد ، لا نستطيع بحالتنا الراهنة أن نستفيد من الفرصة السانحة فنقوّى بناءنا ، وننشر دعوتنا ، لأنّ ذلک يتطلّب التكتّل والتآخى ، وأن يفهم بعضنا بعضاً ، كما يتطلّب الأخذ بتعاليم الإسلام الصحيحة ، والعمل بأحكامه واتّباع آدابه ، حتّى لا تكون ـ على الأقلّ ـ حرب بيننا ، وحتّى نظهر أمام العالم بالمظهر الذى يليق بمن يريد حفظ حقّه ، وبثّ دعوته ، وإنقاذ الآخرين .

ولست أعنى بالتكتّل الإسلامى ، ما اصطلح عليه الساسة ، أو ما يفرضه علينا غيرنا ، أو ما يبرمه رؤساء الحكومات على الموائد ويشربون (نخب) توقيعه ، فهذا تكتّل لا وجود له إلاّ على الورق ، لأنّ الشعوب لا تؤمن به ، بل ترتاب فيه ، وهل يحتاج الأخ إلى توقيع ميثاق صداقة مع أخيه؟

وإنّما أعنى التكتّل الطبيعى الذى أوجده الله فى أمة بعث فيها نبيّه ، وبثّ فيها دعوته ، وهداها إلى كتابه ، وجمع أبناءها على قبلة واحدة ، ووّحد صلاتهم وصيامهم وحجّهم ، فاجتمعت قلوبهم ، وتلاقت أرواحهم ، وصفت ضمائرهم ، واتّحدت مصالحهم .

هذا التكتّل هو أمر طبيعى للمسلمين، لولا أن عصفت به النزعة العنصرية، والتعصّب المذهبى ، وهما مشكلتان خطيرتان على التكتّل يجب أن نقف أمامهما قليلاً .

فالأولى : مشكلة العنصرية ، أثبت التاريخ منذ القدم ، وأثبت الغرب أخيراً أنّها سبب كثير من الويلات ، وما كانت الحرب العالمية الأخيرة إلاّ مظهراً من مظاهرها ، ومن أجل ذلک دعا المخلصون للإنسانية إلى نبذها ظهرياً ، وأخذ

العالم الغربى يحاربها بطرق عملية ، فيرفع الحواجز بين الشعوب المختلفة العنصر «كالانجلوسكسون» و«اللاتين» ، ويدمج الشعوب المختلفة الأصول بعضها فى بعض .

أمّا نحن فى الشرق الإسلامى فلا نزال نصغى إلى دعاة العنصرية ، ونسكت على ألاعيب الأيدى الأجنبية التى تحبّذ العنصرية ، وتخترع الوسائل لتمكينها فى النفوس ، مع أنّ الإسلام مال بنا عنها ، ووجّهنا إلى الطريق القويم ، وقرّر أن لا فضل لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى ، ولا ميزة للعرب ـ وهم قوم الرسول ـ على غيرهم من المسلمين إلاّ بحسن العمل .

والثانية : التعصّب المذهبى أو الاختلاف الطائفى، ولولا شهوات الحكم لم يتعدّ حدوده المعقولة ولم يصبح مشكلة ، لقد استغلّته السياسة أشنع استغلال، فجعلت المسلم يفرّ من أخيه أكثر ممّا يفرّ من عدوّه ، ويضمر لأخيه عداوةً أشدّ ممّا يضمر لخصمه ، وكم من مآس جرّها على المسلمين هذا التعصّب ! وكم أُريق بسببه من دماء ; وكم من سيوف شهرت على الاخوة بدل أن تشهر على الأعداء ! وكم من قوى بذلت فى محاربة أبناء التوحيد بدل أن تبذل فى محاربة المشركين !

مع أنّنا لو دقّقنا النظر ، وأنصفنا فى الحكم ، لوجدنا الخلافات المذهبية لاتمسّ أصول العقائد التى يجب الإيمان بها ، ولو أنّ أهل السنّة تعرّفوا على إخوانهم الإمامية والزيدية من الشيعة ، وتعرّف الشيعة على إخوانهم أهل السنّة ، لتبيّن لهم جميعاً أنّ الخلاف بينهم ليس على الأصول ، وأنّ كثيراً من الشبه التى وجدت فى أفكار كل طائفة عن الطائفة الأخرى ، ليست إلاّ من صنع المفترين ، وأنّ الخلاف بينهم غالباً شبيه بخلاف الفقهاء فى أنّ واحداً يجهر بالبسملة فى صلاته والآخر يسرّها ، أو أنّ واحداً يمسح على القدمين والآخر يغسلهما ، ونحو ذلک من خلافات يمكن أن يحتفظ كل فريق برأيه فيها وأن يحترم رأى غيره ، فإذا كان المسلمون قد استطاعوا أن يقفوا أمام خلافاتهم الفقهية فى العصر

الأخير موقف التسامح ، ولم يعد بينهم من يعتدى على مخالفه فى الرأى ـ كما فعل الذى كسر أصبع صاحبه لأنّه يرفعها فى التشهّد ـ فإنّهم قادرون على مثل ذلک فى آرائهم الفكرية ومعارفهم التى لا تتصل بالعقائد ، ولا تشترط فى الإيمان .

وها نحن أُولاء نرى الأزهر الشريف يدرّس الفقه المقارن بين جميع المذاهب ـ بصورة إجمالية نرجو أن تكون فيما بعد تفصيلية ـ دون تمييز بينها ، ولا اقتصار على بعضها ، ونرى كبار شيوخه يشتركون فى لجان القوانين ويفتّشون عن أقوال الائمة الموافقة لمصلحة الأمة ، فيعدلون أحياناً عن مذهب أبى حنيفة إلى مذهب غيره ، بل يعدلون عن الراجح فى مذهب أبى حنيفة إلى المرجوح ، وقد يخرجون عن دائرة مذاهب السنّة الأربعة إلى مذهب أخر ، كما فعلوا فى قانون الطلاق والوصية وغيرهما ، إذ أخذوا برأى ابن تيمية وابن القيّم والشيعة الإمامية ، وكل ذلک قد تمّ بهدوء ورضى وإقبال دون تحرّج ولا تذمّر ، وأدرک الناس ما فيه من مصلحة وراحة وتيسير ، فماذا عليهم لو استقبلوا ما وراء الفقه كما استقبلوا الفقه ، وما الفرق بين الفروع العملية والفروع العلمية ، وكلّها ليست خلافات جوهرية تنهض سبباً للقطيعة والخصومة ؟!

هنا نقف قليلاً لنقول : إنّ هذه المشكلة الأخيرة ، قد وجد اليوم ـ ولله الحمد ـ من يعالجها ، فهاهى ذى جماعة التقريب تسير فيها باتّزان وتعقّل وحزم ، وقد تمكّنت فى مدة وجيزة من أن تلفت العالم الإسلامى إلى دعوتها ، وإنّا لنرجو الله أن يوفّقها فى إنجاز مهمتها .

إنّه لجدير بالمسلمين أن يدركوا أنّهم بتخلّصهم من هاتين المشكلتين ، يمكنهم أن يفيدوا من هذه الفرصة السانحة ، وينهضوا بأمتهم نهضةً مباركةً، ويصدّوا عن بلادهم كلّ عدوان .

إنّ المسلم إذا احتفظ بتعاليمه كان أمةً ، وإنّ المسلم إذا صحّ إسلامه كان حصناً ، وإنّ الأمة الإسلامية إذا حكمت بكتابها ، برزت قوة الإسلام الكامنة

فيها ، ويومئذ تكون أمة موجّهة تحفظ التوازن فى العالم ، وتتحكّم فى الكتلتين المتناحرتين ، وتوقف كلاً منهما عند حدّه ، يساعدها فى ذلک ثراؤها العريض ، وموقعها الجغرافى الممتاز ، وكثرة أبنائها ، وعميق الإخلاص الذى يغرسه فى قلوب أبنائها دينهم الإسلامى الحنيف .

القسم الثانى

التراث والتقريب

أصالة وتجديد

ويشتمل على فصلين :

* الأوّل: محنة التراث الخالد على أيدى أهل الجديد
* الثانى: ابن سينا : بين الفرس والعرب

الفصل الأوّل
محنة التراث الخالد على أيدى أهل الجديد

لا أدرى بالضبط ، هل هى فكرة الأخذ بالجديد تشقّ طريقها إلى علم الحديث ، أم يد النقد والتحليل الذى يتشدّق به الأدباء المستغربون أو الغربيون المستشرقون ، تمتدّ إلى عيون كتب الحديث التى بقيت سليمة طوال القرون الماضية ، لا يمسّها الكتّاب والأدباء التحليليون؟

ولا أحسب القارئ يطالبنى بمزيد من الإيضاح حول الموضوع وصبحات النقّاد تصكّ سمعه بمناسبة وبغير مناسبة ـ ومن ورائها مصالح بعض الكتّاب أو الناشرين ـ ينادون بتصفية الكتب التى سمّوها من قبل بالصحاح ، بدعوى تصفيتها من الإسرائيليات ، وإسقاط ما لا يقبله العقل ، واستبعاد ما يتنافى ودعوة التوحيد .

فكاتب يأخذ على الأحاديث أنّ فيها ما يخالف قواعد الصحة ، وثان يزعم أنّ الإكثار من أكل ما حثّت الأحاديث على تناوله يسبّب مرض كذا ، وثالث يجزم أنّ ما ورد فى الصحاح لا يوافق ما وصل إليه العلم الحديث، ورابع يحسب نفسه تخلّص من الأرض والأرضيات ، فيحلّق فى أقطار السماوات ، ويؤكّد أنّ ما جاء فى الأحاديث لا يتّفق وما ثبت فى علم الفلك والنجوم ، وربّما يتجاوز الأمر هذه الحدود ، فيّدعى كاتب دعاوى مضحكة لا وجود لها فى صحيح من كتب الحديث ، ولا تدلّ إلاّ على قوة فى الاختلاق ، وإغراق فى الخيال السقيم !

أذكر أنّ محدِّثاً تكلّم معى فى جلسة خاصة وبحماس شديد فى وجوب التخلّص من الإسرائيليات ، وضرب مثلاً لذلک خلق السماوات والأرض فى

ستة أيام ، وبعد أن فرغ من محاضرته الطويلة ، وظنّ أنّه أقنعنى ، قلت : ولكن هذا فى القرآن يا أخى ، وليس من الإسرائيليات فى الحديث كما تعتقد . فبهت واستولى عليه الوجوم .

ولا يحسب القارئ أنّى أريد الدفاع عمّا بين أيدينا من كتب الحديث ، وما أختلفنا أو اتّفقنا فى تسميته صحاحاً ، وأزعم أنّها خلو من الإسرائيليات أو ممّا يخالف الحقّ ، أو أجزم بأنّ كل ما فى الصحاح صحيح ـ أخذاً بكلمة صحيح فلان ـ كلا ، بل يحتمل ـ فى رأيى ـ أنّ كثيراً من الدوافع لعبت دورها فى خلق ما ليس بواقع ، وأنّ جبروت الحكم والسلطان جعل الرواة لا يظهرون كلّ ما عندهم ، وأنّ بعض ذوى الأهواء قالوا عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مالم يقله .

ومن ينكر ما للطغاة وحكّام السوء من أثر على تراث له القداسة بعد القرآن؟

لست أنكر أنّ هناك دسّاً وخلقاً ، ولكنّنى مع ذلك أعارض أشدّ المعارضة فى أن نمسّ كتب الحديث، ونستبيح لأنفسنا حقّ التصرّف فيما نراه نحن من دسّ الدسّاسين.

كان لدى القدماء مقاييس وموازين للحكم على الأحاديث ، استعملوها فيما سجّلوه لنا ، وربّما كانوا على شىء من حسن الظنّ ببعض الرواة ; لمكانتهم وحسن القبول عنهم لما خفى من أحوالهم . وكيفما كان الأمر ، فممّا لا شكّ فيه أنّ الذين جمعوا هذا التراث الضخم ، وكانوا أقرب منّا إلى زمن مصدر الأحاديث ، وأعرف منّا برجاله ، قد بذلوا غاية جهدهم وأرهقوا أنفسهم فى التحرّى ، والتزموا الأمانة والدقّة ، ولا اعتراض عليهم ، وإنّما الكلام ينصبّ على أنّ ما جمعوه فيه اسرائيليات ، وفيه ما ينافى الدعوة والعقل أو العلم الحديث .

وهذه نقطة استميح القارئ أن أقف عندما لأقول : إنّ هذا التراث تراث إسلامى خالد ، وملك للمسلمين عامةً ، لا لطائفة دون طائفة ، وإنّه ـ بما له وعليه ـ مصدر كثير من الحركات الفكرية ، وحجّة للآراء المذهبية ، ومبعث

للعقائد الكلامية ، وما ليس ملكاً لفرد لا يتصرّف فيه فرد، ثم إنّ الأفكار تتغيّر بتغيّر الزمن ، تختلف فى زمن واحد حول موضوع واحد ، ربّما يظنّ من البديهيات ، فإذا أردنا أن نعالج النقص بحذف ما نراه نحن أنّه من الإسرائيليات ، ورأى غيرنا أنّه من صميم الإسلام أو العكس ، فأيّنا يكون على الحقّ؟ وما هو المقياس الصحيح؟

إنّ الذين أوصلوا إلينا هذا التراث بذلوا غاية جهدهم فى تسجيله وتحقيقه وتصحيحه ، فلا يجوز أن نقطع بتخطئتهم ، فإنّ ما يخالف عقولنا اليوم كان يوافق عقلية أبناء العصور السابقة ، ومن واجبنا أن نحمل هذا التراث إلى من بعدنا ، وقد يصل رجال الغد فى أمره إلى ما لم نصل إليه ، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه .

أمّا مسألة معالجة ما ينافى التوحيد ، فإنّ المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام بفضل دعوته الصريحة لا شكّ أنّهم موحّدون وليسوا بمشركين.

والقرآن الكريم الذين هو عصب الدعوة الإسلامية ، والذى لايختلف اثنان فى قداسته والأخذ به ، والذى هو نسخة واحدة لا تختلف فى حرف ولا رسم فى العالم الإسلامى كلّه ، هذا القرآن وحده كفيل بتربية الموحّد ومن يجرؤ أن ينكر هذا؟ ومع ذلک هناک مسائل تراها طائفة أنّها شرک كالتوسّل بأصحاب القبور أو الشفاعة مثلاً ، فهل نعالج هذه المسائل على أساس التوحيد الخاص بتلك الطائفة، أو نعالجها بما يتّفق ورأى كثير من المسلمين الذين لايرون فى هذا ما يمسّ فكرة التوحيد؟

وهناک مسائل كلامية ليست وليدة اليوم ، وإنّما ورثناها عن أقطاب الفكر والبحث وغواصى المعرفة فى كل طائفة ممّن كوّنوا لنا مدارس فكرية نعتزّ بها إلى اليوم . فعلى أىّ أساس نعالج هذه المسائل وماذا يكون المقياس؟

وهناک مسائل ترتبط بالعصبيات إلى حدٍّ بعيد ، كتفضيل صحابى على صحابى ، فربّما رأى باحث غير هذا ، أو رأى أن يسجّل بعض المآخذ على

بعض الأصحاب ممّا ينافى رأى الآخرين فى الصحابة ، الذين يرون كل ذلک من دسّ الدسّاسين ووضع الواضعين ، فإذا جرى البحث فيما يحذف وفيما يبقى بين هؤلاء وهؤلاء ، فعلى أىّ أساس يكون ذلک ، ومن الذى يؤخذ برأيه ، ومن الذى يهمل؟ أم نحذف هذا وذاک مضافاً إليه ما لا يتمشّى ومذاهب أصحاب المعارف الكلامية ، وما لايقرّه الطبّ الحديث بشأن الصوم ، أو ما وصل إلى خلافه علماء الفلک ، أو لايتّفق مع الذوق!! ولو اقتحم هذا الميدان اثنان أو ثلاثة فلن يبقى لنا بفضلهم من هذا التراث شىء .

ونحن إذا نظرنا إلى الحديث من ناحية القداسة الدينية ، وأنّه كلام فوق كلام البشر ، فليس لنا أن نقيسه بالمقاييس العادية ، أو نحكم عليه بعقولنا البشرية المحدودة ، وإذا نظرنا إليه نظرة عادية فليس لنا حقّ التصرّف فيه ، فالكلام المادى قد يتّفق مع بعض الأمزجة ويختلف مع بعضها الآخر .

فواجبنا إذاً أن نبقى عليه ، مع ملاحظة أنّ من سبقونا غربلوا ما وصل إليهم ، وسجّلوا ماثبت عندهم وإن كان يخالف مذهبهم ، حفظاً لهذا التراث واحتراماً لقداسته ، وبلغ الحرص ببعضهم أن جمعوا ما نقله رواة اشتهر عنهم الكذب فى كتب خاصة ، وذكروا أنّهم لم يأخذوا بها ، ورغم ذلک جمعوها لئلاّ تضيع ، فقد يصدق الكاذب أحياناً فى حديثه ويكون هذا الذى رواه صادقاً فيه .

وقد يكون للأحايث المكذوبة أو المعلولة فوائد أخرى فى غير الأحكام الشرعية ، كأن يستدلّ بها بعض الباحثين على شيوع فكرة معيّنة فى وقت الراوى الذى رويت عنه ، أو على تأثّر هذا الراوى بثقافة خاصة ، أو على غير ذلک ، فليس الاستدلال بالأحاديث مقصوراً على استنباط الأحكام الشرعية منها ، ولذلک يرى بعض اللغويين أن يستشهد بنصوص الأحاديث الموضوعة فى اللغة إذا علم أنّ تاريخ وضعها يرجع إلى العهد الذى يجوز الاستشهاد بكلام أهله ، لأنّها وإن كانت كذباً على الرسول فى حكم شرعى ، فإنّها نصّ عربى .

إنّ الباب ليس مقفلاً أمام الباحث ، وله إن أراد التحرّى الدقيق أن يمحّص

تلك الكتب ويبحث حال الرواة ، ويستعمل أساليب البحث العلمى الحرّ ، ويأخذ بما فى تلك الكتب أو لا يأخذ به ، ويحكم على ما صحّحوه بأنّه لايعتمد عليه لكذا ، وعلى ما نبذوه بالصحة بدليل كذا ، وأمامه كتاب الله وهو الحكم المحكم بطرح ما يعارضه . أمّا أن يتصرّف فى كتاب أو أثر على هواه فلا يجوز . نعم لكلّ امرئ أن يؤلّف كتاباً من عنده ، ولكن ليس له أن يتصرّف فيما ليس ملكاً له ، بل هو لصاحبه أولاً ، وبالتالى للمسلمين عامة ، والأمانة العلمية تحتّم علينا أن نوصله إلى أسلافنا كما تسلّمناه .

ثم ماذا يكون الحال لو جاءت طبقة أخرى من المولعين بالنقد والتحليل والغربلة فزعمت أنّ فى القرآن ما لا يوافق العلم ، أو أنّ فيه ما يجافى الذوق أو يخالف الطبّ ، أو ما لا يعرفه علماء الهيئة ؟! أتراهم أيضاً يحاولون غربلة القرآن وقصره على ما يوافق عقولهم ؟!

وأكرّر ما قلته ، وهو أنّ من المحتمل أن يكون فيما نتداوله وننقل عنه ونستند إليه من كتب الصحاح شيء من الإسرائيليات ، أو ما أملته شهوات الحكّام وميولهم ، أو ما حكمت فيه بعض الاتجاهات ، ولكنّى أعارض أشدّ المعارضة فى حذف كلمة ممّا وصل إلينا ، وأكرّر ما سبق أن ناديت به ، وهو أنّ الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامى على اختلاف الطوائف والمذاهب ملك للمسلمين جميعاً.

الفصل الثانى

ابن سينا : بين الفرس والعرب

رغم تقدّم العلوم واتّساع دائرة البحوث فى العصر الحديث ، تلاحظ أنّ السماحة العلمية فى عصر ابن سينا كانت أكثر جدّاً ممّا هى عليه الآن ، وأعنى بالسماحة العلمية : تجرّد العلماء من التعصّب لبلد أو لغة ، وإقبال طلاّب العلم على مؤلّفات العلماء ، دون نظر إلى مذهب المؤلّف أو عنصره .

نعم ، لم يتعصّب العلماء القدامى للغاتهم الأصلية ، وإنّما التمسوا اللغة التى رأوها أصلح لإبراز أفكارهم ، وأنسب لتبليغ آرائهم ، فاعتبروها لغتهم والتزموها .

وهذا التسامح بالنسبة للغة لم يقتصر على محيط العلماء ، بل تعدّاه إلى كل بيئة ومكان حتّى شمل بعض الملوك المتنافسين والبلاد المتناحرة ، وخير مثل لذلك ملوك آل عثمان وملوك الدولة الصفوية ، فالسلطان سليم والشاه إسماعيل كلاهما كان يتذوّق الشعر ويقرضه ، إلاّ أن الأوّل وهو السلطان سليم التركى كانت جلّ أشعاره بالفارسية ، وله ديوان فى الشعر الفارسى ، والثانى وهو الشاه إسماعيل الصفوى كان يقرض أشعاره بالتركية . هذا رغم الخصوصية واللدد بين الصفويين وآل عثمان ، وبين السلطان سليم والشاه إسماعيل بالذات ، ورغم الحروب الدامية بين فارس وتركيا ، ورغم الاختلاف المذهبى الشديد بين الدولتين ، إذ كان العثمانيون يحكمون باسم السنّة ، والصفويون تقوم حكومتهم على الدعوة للتشيع ، ومن هذا يتّضح أنّ السياسة التى تقضى على كل رطب ويابس لم تكن ترى فى اللغة شيئاً يحارب .

وفى ظلّ هذه السماحة المطلقة تمكّنت اللغة العربية من الانتشار والتوسّع ، وانفسح أمامها الطريق وتعبّد ، وأصبحت لغة العلم والعلماء بين المسلمين من ساحل الأطلنطى إلى الشرق الأقصى .

فهذا هو الفارابى وموطنه «ماوراء النهر» ولغته التركية ، ألّف كتبه الفلسفية بالعربية ، وعلى بن الطبرى وهو من مازندران بطبرستان وضع بالعربية كتبه الطبية ; كفردوس الحكمة ، والرازى محمد بن زكريا من أهل الرى قرب طهران ، كتب مؤلّفاته : الحاوى الصغير ، والحاوى الكبير ، ورسائله الطبية وغيرها باللغة العربية ، وأبو نصر سرّاج الطوسى وضع بالعربية كتاب اللمع فى التصوّف ، والغزالى الطوسى ، وهو من خراسان ألّف كتبه المعتبرة بالعربية ، وأكثر من هذا أنّ عمر الخيام النيسابورى وضع كتبه العلمية فى الرياضيات باللغة العربية ، وعلى بن عباس الأهوازى ألّف كتابه كامل الصناعة الطبية فى الطب باللغة العربية ، مع أنّه قدّم كتابه هذا إلى عضد الدولة الديلمى من حكّام إيران .

وللغة العربية عند علماء الشرق فى البلاد الإسلامية نظير عند الغربيين فى اللغة اللاتينية ، فهذا فرانسيس باكون العالم المعروف والفيلسوف الانجليزى الشهير وضع كتبه باللاتينية ، وديكارت فرنسى الأصل ألّف بنفس اللغة ، والقدّيس توما داكنكتب كتبه باللاتينية ، بل أنّ بيرو الجرّاح الفرنسى حين وضع كتابه باللغة الفرنسية أثار اعتراض الخاصة وتهكّم العامة ، لأنّه تحوّل عن طريقة العلماء ولم يكتب كتابه باللاتينية التى ظلّت لغة العلم والعلماء فى أوربا إلى نهاية القرن السابع عشر .

بقى أن نورد أهم الأسباب التى مكّنت للغة العربية ، وساعدت على جعلها اللغة العلمية فى البلاد الإسلامية ، ذلک لأنّها كانت لغة الطبقة الحاكمة ، فوق أنّها لغة الدين ، وبها نزل القرآن الكريم حتّى أصبحت كلمة العربية مرادفة للإسلام ، كما نرى ذلک فيما يرد فى تعابير المستشرقين ، ولأنّها تنفرد بمزايا جعلتها تصلح للتعبير عن المسائل العلمية ، فوجود الصيغ والأوزان والاشتقاق ، جعلها

مرنة يسهل بواسطتها التعبير عن أىّ معنى غامض ، أضف إلى ذلك أنّ كثيرين من مترجمى صدر الإسلام كانوا من السريانيين ، كحنين بن إسحاق وولده إسحاق بن حنين وأمثالهما ، وقد نقلوا التآليف إلى السريانية ، فسهل نقلها إلى العربية ، لما بين اللغتين الساميتين من تشابه، وحسب العربية فخراً أنّها كانت تنتشر دون ضغط أو دعاية ،بل بطبيعتها وقيمتها .

وابن سينا أحد الذين وضعوا جلّ مؤلّفاتهم بالعربية ; ومؤلّفاته بالفارسية وإن كانت قليلة بالنسبة لما ألّفه بالعربية ، إلاّ أنّها فوق قيمتها العلمية تعدّ خدمةً للمكتبة الفارسية ، لما وضع من المصطلحات الفلسفية فى تلك اللغة .

فما موقف ابن سينا بين الفرس والعرب؟

لقد سئلت مرة فى حفل عن رأيى فى ابن سينا ، فقلت : ليس بفارسى . قال السائل مندهشاً : أترون أنّه عربى ؟ قلت : وليس بعربى . قال : إذن فتركى؟ قلت : ولا بهذا أيضاً . قال : فماذا يكون؟

قلت : مثل ابن سينا كمثل الشمس ، إنّه للعالم كله ، وليس لبلد دون آخر ، وإذا كان من حسن حظّ إيران أنّه ولد فيها ، وخدم ملوكها وحكّامها ، ومات بها ودفن فى أرضها . فإن قيمته بعلمه لا بجسده ، وقيمته العلمية للإسلام ، ومن الإسلام بل للعالم أجمع .

واليوم تقدر العروبة هذا الرجل الذى قدّم للمكتبة العربية مجموعةً قيّمةً من التآليف العربية ، ومن ثم كان احتفال البلاد العربية بعيده الألفى ، وكان احتفال إيران بهذا العيد أيضاً ، كلا الاحتفالين يشترك فيه العرب والفرس ، ويساهم فيه المهتمّون بالثقافة من العالم المتمدّن ، فمرحى بهذا التقدير الجليل ، ورحم الله ابن سينا الذى خدم العالم بعلمه ، ونبذ التعصّب للعنصر أو اللغة ، واليوم تنبذ التعصّبات فى سبيل الاحتفال بذكره ، فتطلب إلىَّ اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية لتخليد ذكرى ابن سينا التى أتشرّف بعضويتها ، أن أكتب عن ابن سينا بين الفرس والعرب ــ وإن كنت أرى أنّ ابن سينا ليس بين الفرس والعرب ، وأنّه

للفرس والعرب كليهما ، بل وللعالم المثقّف كله ـ وهى إذ تطلب هذا ، تضرب مثلاً فى البعد عن كل نواحى التعصّب ، وهو ما لمسته فعلاً فى جلساتها المتكرّرة ، ممّا يجعلنى أتطلّع إلى مستقبل الثقافة فى البلاد الإسلامية بعين المتفائل المستبشر .

وممّا هو جدير بالذكر ، ولابد من تسجيله هنا : أنّ الترابط الثقافى ، وبالتالى التعارف بين أبناء الشرق ـ والبلاد الإسلامية بوجه خاص ـ كان عند آبائنا رغم صعوبة الأسفار ، وانعدام المواصلات السلكية منها أو اللاسلكية أو البريدية المنظمة ، وعدم اختراع الطبع (المطبعة) ، كان أكثر بكثير ممّا نحن عليه فى عصرنا هذا ، وذلك لعوامل تتحكّم ـ مع الأسف ـ فينا لسنا بصدد ذكرها الآن .

وكيفما كان نرى هذا الاحتفال خطوةً مباركةً فى سبيل التقريب بين المسلمين والتعارف بينهم ، نرجو أن تتبعها خطوات أخرى من هذا القبيل ، وبهذا الروح النبيل إن شاء الله .

القسم الثالث

مشاريع التقريب

للعقل لا للعاطفة

للعقول وليس للعواطف

بين أيدينا مشروع علمى جديد لدار التقريب[١] ، هو : «جمع الأحاديث التى اتّفق عليها الفريقان ـ أهل السنّة والشيعة ـ فى مختلف أبواب الإيمان والعمل والأخبار والأخلاق ، وغير ذلک من أبواب السنّة المطهّرة» .

وهو مشروع جليل ، عنوانه يدلّ على جسامته ، وشموله يجعله الأوّل من نوعه ، وتعدّد أبوابه يوضّح مدى تأثيره فى سير التقريب ، وفى اتّجاه الدراسة والبحث مستقبلاً ، وفى تقوية الروابط العلمية والفقهية بين مذاهب المسلمين .

ونحن الآن لسنا بصدد شرح المشروع وتوضيح آثاره ، وإنّما نحن بصدد الإجابة على سؤالين :

الأوّل : هل نحن إذ رسمنا هذا المشروع ، قدّرنا ما يحتاج إليه من الرجال والوقت والجهود؟

والثانى : ألم يكن نجاح دعوة التقريب فى هذه المدّة الوجيزة ـ التى تعتبر فى عمر الدعوات كأيام ـ يغنينا عن هذا المشروع الذى يستغرق السنين الطوال ، ويتطلّب الجهود الجبارة؟

إنّ التفكير فى الرجال هو الشرط الأوّل لنجاح أىّ مشروع ، بل أنّ التفكير فى الرجال يجب أن يسبق دوره أىّ إعداد لأىّ مشروع . ولعلّ الله أراد لهذا السبب أن يكون التفكير فى هذا المشروع بعد انقضاء سنوات من عمر التقريب ، انتشرت فيها دعوته ، واجتذبت حولها خيرة العلماء والفضلاء فى كل بلد من بلاد الإسلام ، وأظهرت كفاءات لم يكن أصحابها يجدون مجالاً للعمل فجنحوا

---

١ . نشرت رسالة الإسلام فى العدد ٥٠ مقالاً حول هذا المشروع تحت عنوان : «مشروع علمى جليل بين شلتوت والقمى» سنأتى عليه فى الفصل التالى .

إلى الصمت والانزواء ، وكشفت عن شخصيات لها فى العالم مكانة ، وفى البيان قوة ، وفى التفكير رشد وسداد ، هذا فضلاً عن أعلام من ذوى الزعامة الدينية يشار إليهم بالبنان ، انضمّوا إلى هذه الدعوة ، وجعلوها رسالتهم الأساسية ، يؤدّونها ابتغاء مرضاة الله ، ويخدمونها تثبيتاً لدين الله .

هؤلاء وأولئك هم رجال التقريب المنتشرون فى كلّ بقعة من بقاع العالم الإسلامى، وعليهم ــ بعد توكّلنا على الله ــ نعتمد فى تنفيذ هذا المشروع ، والنتيجة بعون الله وتأييده مضمونة ، فإنّ الله الذى هيّأ الجو لدعوة التقريب ، فنجحت بفضل إخلاص هؤلاء الرجال وتفانيهم ، سيهيّئ الجو ويعين على تنفيذ هذا المشروع ، وسينفذ بإذن الله على مراحل ، وستوزّع الأعمال على علماء الفريقين فى مختلف البلاد .

فلنا إذاً أن نطمئنّ السائل الكريم .

أمّا عن سبب حاجة التقريب إلى مشروع ضخم كهذا ، رغم نجاح دعوتنا ، فإنّ نظرةً واحدةً إلى سير الدعوة يكشف عن سرّ نجاحها ، إنّها نجحت لأنّها جاءت على أساس علمى ، وجعلت البحث العلمى وسيلةً لعلاج ما أرادت إصلاحه ، ولهذا السبب كانت محدّدة الأهداف ، بعيدةً عن الارتجال ، بعيدةً عن مسايرة العواطف ، فإنّ السير على أساس من العلم والدراسة هو فى نظرنا سبب النجاح .

إنّ التقريب الذى كان يوماً أملاً وحلماً فى صدور المصلحين ، أصبح فكرةً مدروسةً ، ودعوةً عالميةً عالية ، وهو اليوم حقيقة واقعة ملموسة .

فملخّص القول : أنّ دعوة التقريب جاءت لتكون ــ فى الإسلام ــ مدرسةً فكريةً علميةً ، لها قواعدها وأسسها ، جاءت لعلاج التفكّك والاضطراب اللذين سببهما سوء فهم الخلاف المذهبى على حقيقته ، جاءت لتضع الأمور فى نصابها بالنسبة لأىّ خلاف ، فلم تحاول إجراء علاج مؤقّت ، أو تخدير موضع المرض ، أو تهدئة الخواطر بكلمات معسولة ، وإنّما جاءت لتكون مدرسةً لها

منهاج واضح ، وهدف محدود ، وشتّان بين مدرسة فكرية تقوم على أسس مدروسة ، وقواعد محدودة ، وبين خطب رنّانة ومقالات عابرة .

وليس معنى هذا أنّنا نقلّل من قيمة أيّ مجهود بذل ، فكلّ مجهود فردى سبقنا كان له تأثيره ، ولكن فى محيط محدود ، ولزمن محدود ، وسيجزى الله كل مجاهد عن الإسلام بمقدار ما قدم ، ولعلّنا انتفعنا كثيراً من تلك المحاولات الفردية ، بل أنّنا على ضوء تلك الجهود أدركنا أنّ وضع الدعوة على أساس علمى مدروس ، وعلى أكتاف رجال لهم قيمة ومكانة يضمن لها النجاح الشامل ، كما يكتب لها الخلود ، لأنّ كل علاج على أساس عاطفى سرعان ما يزول .

إنّ إثارة العواطف أمر سهل ميسور ، وإنّ كلمةً تلقى فى ظروف مناسبة كفيلة بأن تحرّك العواطف وتهزّ القلوب ، لكن هذا التأثير بقدر ما يكون سهلاً سريعاً تزول آثاره بنفس السرعة والسهولة بزوال الظروف المؤاتية ، أو بطروء طارئ جديد ، والعواطف كما يمكن إثارتها لفكرة ما ، يمكن أن تثار على نفس الفكرة إذا هيّجت ضدّها ، وإذا فرض وأثّرنا اليوم على فرد من الأفراد أو مجموعة من الناس ، فكيف نضمن غداً أنّ هذا الفرد أو هذه المجموعة لا تقع تحت تأثير من يخالفنا .

إنّ الرجل قد يكون من القوة الروحية والمنطقية بحيث يؤثّر فى من يستمع إليه ، إلاّ أنّ ذلک التأثير محدود طبعاً بزمانه وبسامعيه ، ومثل هذا لايناسب دعوةً تريد أن تبقى كأساس حى يرجع إليه فى أيّ زمان ومكان ، فلابد لها إذاً من قواعد محدّدة ، وآثار ثابتة ، لتبقى كمرجع ثابت قوى ، ولعلّ هذا يفسّر لنا سرّ الإيحاء إلى كلّ نبى من المرسلين بكتاب سماوى ، ليكون المرجع الثابت والأثر الباقى الذى يحكم الناس بقواعده ، ويرجعون إلى تعاليمه .

وكيف يمكن أن تعالج على أساس عاطفى مشكلة عمرت قروناً، وملأت صحائف التاريخ ، وتحصّنت وراء الأقلام المفرّقة أحياناً ، والمأجورة فى أكثر

الأحايين ، مشكلة رسّخت فى النفوس أوهاماً أصبح الناس يعتبرونها حقائق ثابتة ؟!

تلك هى مشكلة تشكّك كل فريق فى كل ما يصدر عن الفريق الآخر ، بل فى كل ما يعتقد به ، مشكلة بغض كل فرقة للأخرى ، واتّخاذ البغض شعاراً يدفع إلى تصديق كل ما يقال فى الخصوم ، بل توهّم كل ما ليس بحسن وإلصاقه بالخصوم .

ونحن لسنا بصدد حالة الفريقين حين بدأت فكرة التقريب ، وكيف كان أهل السنّة يعتقدون أنّ القرآن عند الشيعة يختلف عمّا هو عندهم ، وكيف كانوا يؤوّلون معانى العبادات ، حتّى لكأنّ الصلاة عندهم لم تكن لله ، وكأنّ السجود لم يكن إلاّ للتراب ، وكأنّ الحج لم يكن يقصد به إلاّ ما يخجل الإنسان من ذكره ، بل كانوا يرون أنّ الشيعة إن لم يكونوا يؤلّهون علياً فإنّهم على الأقلّ يرونه أحقّ بالنبوّة من سواه ؟!

وأمّا مطاعن الشيعة ، فأقلّ ما كانوا يقولون فى أهل السنّة أنّهم مجسِّمة ، وأنّهم نواصب ، وأنّهم يكرهون أهل البيت (عليهم السلام) !

أمّا عن كتب هؤلاء وهؤلاء ، فقد انعدمت سنّة الاطّلاع فيها ، اللّهم إلاّ لتصيّد بعض الشواذّ التى تستغل فى التجريح وتوسيع شقّة الخلاف بين الفريقين.

فهل كان للتقريب أن يرسم خططه على أساس ترك الرواسب كما هى ، وترك المسلمين كلاًّ على رأيه ، واتّخاذ طريق الخطب العاطفية ، والتودّد المؤقّت ، أم نفتح طريقاً للبحث والدراسة ، ونجعل شعاره القراءة والاطّلاع لنعالج المشكلة على أساس مدروس يبقى على الزمن ؟

ولو أنّنا أخذنا المسألة من الجانب الأكثر يسراً ، وجعلنا العلاج على أساس من العاطفة ، لكان الطريق أمامنا سهلاً ، لكنّنا نكون مخدوعين إن حسبنا أنّ هذا علاج ناجع للمشكلة ، إنّنا بهذا ربّما نخفيها حيناً ، لكنّها بغير شكّ تبرز مرةً أخرى حين تريد السياسات المفرّقة أو الأغراض الذاتية .

ومع يقيننا من أنّ الدعوات العاطفية تمشى سريعة فى الناس إن أمكن إثارة عواطفهم ، والدعوات المنهجية تسير وئيدة بطيئة ، فقد اخترنا هذه دون تلك ، لأنّ الأولى تزول بزوال المؤثّر ، والثانية تدوم بداوم الفكرة ، وفرق كبير بين جهد يبذل لإثارة العواطف ، وبين جهود كبيرة تُبذل للإغراء بالدراسة والبحث .

ولذلک جعلت الفكرة على أكتاف مجموعة ممتازة من الرجال العاملين ، الذين بذلوا جهودهم ، وجعلوا الفكرة سمتهم ، فكان لهم تأثيرهم ، وانضمّ إليهم كل عالم ومفكّر ، واشتركوا جميعاً فى حمل هذه الدعوة ، لأنّها جاءت كمدرسة فكرية تقوم على أساس علمى مدروس .

إنّ مدرسة التقريب ما جاءت لإزالة الخلاف ، بل جاءت للدراسة فقط ، والدراسة أظهرت أنّ هناک خلافات أوجدتها الكراهية ، وأقبل عليها المقبلون حبّاً فى الخلاف ، وهذا النوع كان مصدر البلاء ، وسبب التقاطع والتدابر ، وهذا خلاف نأباه . وهناک خلاف فى الرأى وخلاف حول الرواية ; يقوم لثبوت رواية أو عدم ثبوتها ، فلا بأس على الباحث المسلم أن يختلف مع غيره فيه ، ما دام الخلاف يجول فى ميدان لايضرّ الخلاف فيه بالإيمان ، وهذا الخلاف هو الذى ترضى به وترحّب به مدرسة التقريب ، بل وتظهره حين ترى أنّ إبرازه يفتح آفاقاً علميةً جديدةً ، والخطوات المستمرّة فى التقريب جاءت واحدة تلو أخرى ، على هذا الأساس تواجه الحقائق ولا تتهرب منها ، لا تتستّر على خلاف ، ولا ننكر على المسلمين حقّهم فى أن يبحثوا وأن يختلفوا مادام هذا مستمدّاً من دليل ثبتت دليليته شرعاً .

فالدليل لابدّ أن يُحترم ، من أىّ أفق طلع .

ومن المعروف أنّ دعوة التقريب لم تقم على أساس تنازل أىّ فريق عن جزء ممّا عنده إرضاءً للفريق الآخر ، ولا اجتذاب العواطف على حساب أىّ حقيقة من الحقائق ، أو على حساب تشويه التاريخ ، بل كانت دعوة صريحة تهتم بموارد الخلاف ، وكنّا كلّما تقدّمنا فى هذا الميدان ازداد إيماننا بأنّ الأكثرية الساحقة تلتقى

فی‌كثير من نقط الوفاق .

فالمسلمون يتّفقون فی كتابهم ، وهو الأصل الأوّل ، وهو الذی بقی سليماً ، فلايختلف مسلم مع مسلم علی سورة أو آية أو كلمة (إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُون) وإذا كان هناک خلاف فی تفسير آية ، فإن هذا يرجع إلی الاختلاف فی ثبوت وعدم ثبوت ما روی من السنّة .

وأمّا السنّة فكما ذكرنا فی مقالاتنا مراراً ، وكما ذكر فی رسالة الإسلام أخيراً ص ٢١٨ ، ٢٢٠ من العدد ٥٠ : «إنّ جميع المذاهب الإسلامية تؤمن بالسنّة النبوية المطهّرة كمصدر مقدّس من مصادر الشريعة ، مثلها فی ذلک كمثل القرآن الكريم ، فليس لمسلم أن ينكر حجّية السنّة ، شيعياً كان أو سنّياً ، وليس فی هؤلاء وهؤلاء من يقول : هذا الحديث صحّ وروده عن رسول الله (صلی الله عليه وآله وسلم) ومع ذلک فلا أعمل به ، ولست ملزماً شرعاً بالعمل به ، ولكن ربّما يقول قائل من هؤلاء أو هؤلاء : هذه الرواية لم تصحّ عندی فأنا لا أعمل بها ، وإنّنا لنری هذا بين علماء أهل السنّة أنفسهم فی مختلف مذاهبهم ، كما تراه بين علماء الشيعة فی نطاق المذهب ، ومع المذاهب الأخری ، فكم من أحاديث صحّت عند فقيه ولم تصحّ عند آخر ، وكم من أحكام فقهية خلافية انبنی الخلاف فيها علی موقف كلٍّ من قبول حديث معيّن أو عدم قبوله» .

والواقع أنّه لا غضاضة فی ذلک ما دام الإخلاص هو رائد الجميع ، وما داموا كلّهم مؤمنين بالسنّة كأصل من أصول التشريع ، وبأنّه لا يجوز لمسلم أن يرفض ما صحّ عن رسول الله (صلی الله عليه وآله وسلم) .

ويتلخّص هذا المبدأ المسلَّم به عند الفريقين فی أنّ الاختلاف ليس واقعاً فی كبری القياس ، وإنّما يقع أحياناً فی صغراه ، فإذا قلنا فی قياس من الشكل الأوّل عند المناطقة : هذا الأمر قد ثبت عن رسول الله (صلی الله عليه وآله وسلم) ، وكل ما ثبت عن رسول الله (صلی الله عليه وآله وسلم)يجب العمل به ، كان معنا مقدّمتان ، الأولی منهما : هی المعروفة عند المناطقة بالمقدّمة الصغری ،

والثانية : هى المقدّمة الكبرى ، فإذا سلمت المقدّمتان صحّت النتيجة ، وهى هذا الأمر يجب العمل به .

فالمسلمون لايختلفون فى المقدّمة الكبرى التى تقول : كل ما ثبت عن رسول الله يجب العمل به ، بل كلّهم يؤمن بها إيماناً لايعتريه الشكّ ، وكلّهم يعتبر هذا الإيمان ركناً أصلياً من أركان الإسلام ، من شذّ عنه خرج من ربقة الإيمان .

لكن الخلاف حين يوجد إنّما هو فى المقدّمة الصغرى التى تقول : هذا الأمر ثبت ورووه ، فيقول بعضهم : نعم ثبت فأقبله ، ويقول بعضهم : لم يثبت فأنا لا أقبله .

ولذلک اشتهر بين علماء المناظرة قولهم فى بعض الأحيان : هذا الخلاف صغروى لا كبروى ، أو خلاف فى الصغرى دون الكبرى ، هذه حقيقة ، وهناک حقيقة أخرى نؤمن بها ونعمل على تجليتها ، وندعو الناس إلى الإيمان بها : تلک هى أنّ العدد الأكبر ممّا ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فى شؤون العقيدة والشريعة والأخلاق وسائر الجوانب التى جالت فى ميادينها السنّة المطهّرة قد اتّفق عليه كلا الفريقين ، فهو وارد عن طريق صحيح يرتضيه كلٌّ منهما ، أو وارد من طريقين لهؤلاء وهؤلاء ، تطابقا عليه لفظاً أو معنى ، وأنّه لا يوجد خلاف إلاّ فى العدد الأقلّ من أحاديث الأحكام أو الأخبار ، وليس هذا العدد الأقلّ من حسن الحظ فى الأصول التى لا يكون المسلم مسلماً إلاّ بها .

ورغم هذا الذى يعنى أنّ المسلمين متّفقون كبروياً على السنّة ، ويعتبرونها الأصل الثانى للأحكام من غير منازع ، وصغروياً على إثبات كثير ممّا يروى باعتباره من السنّة على اختلاف الرواة ، إلاّ أنّ الشكل الذى أخذه يعطى صورةً للخلاف .

كل فريق له صحاحه ــ أىّ كتبه التى تعتبر صحاحاً فى نظره ــ وصحاح هذا الفريق غير صحاح ذاک الفريق ، وبهذا يأخذ مظهر الصنفين المتخالفين ، وأىّ مظهر من مظاهر الخلاف أكثر من هذا؟ لو كان ما فى الصنفين من الصحاح مختلفاً كل الاختلاف ، لقلنا : نحن على اختلاف ، واسترحنا ، ولكن الدارس

لصحاح كلا الجانبين يرى أنّ الروايات الوفاقية هى التى كبّرت فى الغالب أحجام تلك الصحاح وكم هو مؤسف أن مظهراً يمكن أن يستفاد من وفاقه ، يعطى صورة الخلاف المطلق ، كل صنف منعزل عن الآخر ، ودارس هذا غير دارس ذاك ، اللّهم إلاّ أن يقصد الدارس اصطياد شاذّ ليهاجم به الآخر كسند يمكن أن يعتبر نقطة ضعف ، وعلى سبيل المثال فى الأحكام ، هذه الصلاة ، وهذا الصوم ، وهذا الحج ، وغير ذلك من العبادات التى نحمد الله تعالى على أنّ المسلمين اليوم يعرفون أنّهم متّفقون فيها ، وإذا كان هناك خلاف مثلاً فى الصلاة فلا يتجاوز مسألة الجهر والإخفات بالبسملة ، أو وضع اليدين أو إرسالهما الذى هو موجود بين مذاهب أهل السنّة نفسها ، مع أنّ مجموعة الأحكام فى الصلاة تبلغ المئات .

هل ورد فى الكتاب الكريم بشأن هذه العبادات أكثر من آية أو آيات معدودة كـ (**أقم الصلاة**) ، أو (**كتب عليكم الصيام**) ، أو (**ولله على الناس حج البيت**) ، مع ترك الشرح والتفسير وبيان الأركان والشروط والواجبات وما يستحبّ للسنّة ، وإذا لم تكن السنّة بطريقها فى الروايات متفقة ، هل كانت هذه الشعائر تؤدى بالصورة الوفاقية؟

فالروايات إذاً مع اختلافها من حيث الطرق ، متفقة على إثبات ما هو المهم فى الأحكام ، وإذا بدأ التقريب يجمع ما هو متفق عليه ، فهذا ـ فضلاً على أنّه يتمشّى مع مبدئه ـ فإنّه لا يمسّ التراث الإسلامى بحذف أو تعديل أو تحريف ، فهو يرى أنّه مع بقاء صحاح كلّ فرقة على ما هى عليه إذا جمع ما هو متفق عليه بين الصحاح تظهر النتيجة ، بحيث يجد المسلمون فيها عجباً عجاباً ، فيصبح ما يتصوّرونه السند القوى للخلاف خير برهان للوفاق ، ونتخلّص بذلك من كثير من محاولات التبعيد والتقطيع ، وفى نفس الوقت ، فإنّ الروايات الخلافية تبقى فى دائرتها الخاصة ، وهى محدودة طبعاً ، ويسهل على الدارس أن يتعمّق فى فى الروايات التى ينفرد بها فريق دون آخر ، هذا وإنّ الروايات

الشاذّة عند فريق يوجد فى الغالب مثلها عند الفريق الآخر ، وتعتبر شاذّة فى نظر مخالفيه .

إنّنا لا ننكر أنّ التعصّبات عملت عملها ، والأغراض دخلت بأشكالها ، والمذهبية لعبت دورها فى رواية الأحاديث ، وأنّه أدخلت أقوال رجال كان من الأفضل التدقيق فيهم ، وأبعد رجال بداعى طعن أو استناداً إلى طعن هو عند المحقّق يعتبر ممّا يثبت جدارته للأخذ عنه .

ونحن فى التقريب على مبدئنا ، نهتمّ بحفظ التراث ، وعدم إدماج بعضه فى بعض ، ونهتمّ بإطلاع المسلمين على الوفاقيات بينهم ، وتخريج ما اتفق عليه الفريقان ، والدراسة ستحكم ، وسيترتّب عليها من الخير للمسلمين ، والربط بين قلوبهم ، والتقريب بين مذاهبهم ما سوف يسجّله التاريخ .

إنّ التعصّبات احتجزت كثيراً ممّا فى هذه الكتب ، بحيث إنّ بعض أصحاب المذاهب حينما يسمعون شيئاً ـ وهو عندهم ـ يبدو وكأنّه غريب لم يسمعوا به من قبل ، ولعلّ القارئ اقتنع معنا أنّ للتقريب كمدرسة فكرية إسلامية أن يطرق هذا الباب رغم ما يتطلّب من جهود ووقت ورجال ، وذلک بعون الله.

القسم الرابع

كتب فى ميزان التقريب

انتماء وأصالة

ويشتمل على ثلاثة فصول :

* الأوّل: مقدّمة كتاب مجمع البيان لعلوم القرآن
* الثانى: مقدّمة كتاب المختصر النافع فى فقه الإمامية
* الثالث: مقدّمة كتاب شرح اللمعة الدمشقية فى فقه الإمامية

الفصل الأوّل
مقدّمة كتاب
مجمع البيان لعلوم القرآن[١]

كل ما أثمره الفكر الإسلامى ـ وفى مقدّمته ما يتّصل بالقرآن الكريم ـ هو ملک للمسلمين جميعاً ، فلقد اتّجه إليه مفكّروهم من كلّ جنس وصقع ، وأسهم فيه أفذادهم بما أبدعته قرائحهم المتّقدة ، ومحصته عقولهم الكبيرة ، وفاضت به قلوبهم المؤمنة ، وخلّفوه لهذه الأمة تراثاً عزيزاً هو ما نسمّيه بالثقافة الإسلامية ، وهى من أعظم الثقافات التى عرفها التاريخ ، بل أنّها فى عصرها الذهبى كانت أعظم ثقافة فى العالمين.

لقد نشأت هذه الثقافة ونمت وأثمرت فى سرعة حيّرت الكثيرين ممّن بحثوا سرّ قوتها ، وحاولوا تعليل سرعة تكوّنها وانتشارها ، وفاتهم أنّها تدين بوجودها ونمائها وانتشارها قبل كل شىء لذلک الكتاب الكريم ، الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

أجل! إنّ شعوباً وأُمماً أسلموا وصدّقوا بكتاب الله ، واعتقدوا أنّه الحقّ ، وأنّه المبين النور ، وأنّه حبل الله المتين ، وأنّه الأصل الأوّل للتشريع ، وأنّه موجّه إليهم جميعاً ، لا فرق بين أبيضهم وأسودهم ، فاستمسكوا به ، وتوجّهوا بقلوبهم إليه ، وبذلوا جهدهم ليجيدوا قراءته ، وليفهموا معانيه ، وليدركوا أسراره . وهكذا التقت العقول فى صعيده ، وتركّزت الأفكار حوله ، وامتلأت القلوب بما فيه من مبادئ إنسانية سامية ، ومن مثالية رفيعة ، فذابت العصبيات فى الأفراد ، وبطلت

---
١ . وكان قد تمّ طبعه ونشر من قبل دار التقريب عام ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٢ م .

العنصريات فى المجتمع ، وتكوّن من شتّى الشعوب المسلمة أمة واحدة ، لا تؤمن بجنسية إلاّ جنسية العقيدة ، ولا تتعصّب لفكرة سوى فكرة التوحيد ، ولا تعتزّ بمبدأ إلاّ بمبادئ الإسلام .

ولولا ما وقع من الأحداث فى هذه الأمة ، وما اقترفه الحكّام من جور وعسف ، وإحياء للنعرات العنصرية ، وإثارة للعصبيات المذهبية ، لولا هذا وأمثاله لكانت حالنا اليوم غير هذه الحال ، ولكانت ثقافتنا فى الطليعة ، تطّرد فى النمو ، وتأخذ دائماً بيد البشرية إلى المعانى السامية ، وتصونها من التردّى فى حمأة المادية الجافّة التى تجرّ إلى الدمار ; لبعدها عن المعانى الروحية .

إنّ ما فعله الحكّام كان يكفى للقضاء على أيّة فكرة جديدة ـ لا سيّما والذين اعتنقوا الإسلام لم يعتنقوه إلاّ متأثّرين بما فيه من مثالية رفيعة ـ فما الذى أبقى على الفكرة الإسلامية؟ وما الذى أقرّ الطمأنينة فى نفوس المسلمين؟ وما الذى ضاعف ثقتهم بهذا الدين رغم ما رأوه من انحراف وما تعرّضوا له من عنت، ورغم الفتن العظمى ، وما أصاب كثيراً من الحقائق من مسخ وتشويه؟

إنّه القرآن وحده! لقد بقى سليماً ، ووقف فى الميدان يبدّد من القلوب اليأس ، ويمحو من النفوس رواسب الضعف ، ويشرق على العقول بما فيه من مبادئ ومثل لا يضيرها أن تعطل حيناً ، ولا تنال منها كثرة الفتن ، بل يستعان بها على الخروج من كل فتنة ، مصداقاً لحديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذى رواه على أمير المؤمنين (عليه السلام) والذى يقول فيه :

«سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : إنّها ستكون فتن ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال : كتاب الله ، فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة ردّ ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى من عمل به أجر ، ومن حكم به

عدل ، ومن دعا إليه دعا إلى صراط مستقيم» .

وكتاب هذه صفته لابد أن يجد من المؤمنين به أشدّ الاهتمام ، وأول مظهر من مظاهر اهتمامهم به شدّة حرصهم على قراءته ، فلقد تعلّم الأميون من العرب القراءة والكتابة ليقرؤوه ويكتبوه ، وتعلّم المسلمون من غير العرب لغة الضاد ليقرؤوه ويتدارسوه ، فكان أعظم مؤثّر فى تثقيف الأمة ، والله أعلم حيث سمّاه قرآناً وكتاباً ، وهما الوصفان البارزان للقراءة والكتابة .

وحين لمسوا الحاجة إلى ضبط إعرابه وكلماته لتوقّف فهم المعنى الصحيح على ذلک ; زادت عنايتهم بالنحو والصرف ، واهتمّوا بمعانى مفرداته وغريب كلماته ، فتعمّقوا فى اللغة ، وتضلّعوا فيها ، ودرسوا ما ورد من أشعار الأقدمين ، واستتبع هذا وضع المعاجم والقواميس ، وبحث المغازى والأيام .

ثم اهتمّوا بفصاحته وإعجازه ، فوضعوا علوم البلاغة من المعانى والبيان . ومن الطريف أنّ فريقاً درس «العروض» لا ليقرض الشعر ، ولكن ليثبت أنّ القرآن ليس بشعر!

ولقد شارک فى كل هذا بأوفى نصيب مسلمون لم تكن لغتهم العربية ، ولم تكن بلادهم فى أرض الجزيرة : كالزمخشرى وسيبويه والفيروزآبادى وأبى على الفارسى والجرجانى وغيرهم من مختلف بلاد المسلمين; كسمرقند وبخارىوغرناطة وقرطبة.

فلماذا كرّس هؤلاء حياتهم وسخّروا نبوغهم لخدمة لغة ليست لغتهم؟

إنّهم فعلوا ذلک لأنّ العربية هى لغة القرآن ، والقرآن هو كل شىء فى حياة المؤمنين ، ولو أنّ هذا الكتاب الكريم نزل بلغة غير العربية لكرّس هؤلاء حياتهم لها ، ولقدّموا من الخدمات لها مثل ماقدّموه للعربية .

وكان من نتيجة الاهتمام البالغ بالعربية أنّها أصبحت لغة العلم والعلماء عند المسلمين ، كمثل اللغة اللاتينية التى كانت لغة العلم عند الغربيين قروناً عديدة ، بل أصبحت كلمة العربية مرادفة لكلمة الإسلام ، والمستشرقون إلى الآن فى

تعبيراتهم يأخذون بهذا المعنى الأخير .

وكما أدّى اهتمام المسلمين بألفاظ القرآن إلى وضع علوم اللغة ، كذلک أدّى اهتمامهم بمعانيه إلى فتح أبواب علوم كثيرة جعلت من هذه الأمة رائداً للفكر البشرى ، وموطناً للمعارف والعلوم قروناً وقروناً .

فما فى القرآن من المباحث الروحية أوحى بكثير من المعارف الكلامية والسلوک الروحى .

وما فيه من الأمر بالتدبّر والنظر فيما خلق الله فتح آفاقاً جديدةً للفكر حول الأرض والأرضيات والسماء والسماوات ، وحول قدرة الله الخالق المبدع المصوّر .

وما فيه عن القبلة ومواقيت الصلاة والأهلّة كان له أكبر الأثر فى العناية بالحساب والفلک وتقويم البلدان .

وما فيه من قصص السابقين وأخبار الأنبياء والمرسلين أغرى بالتطلّع فى التاريخ من أقدم العصور .

وما فيه من ذكر للتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية دفع إلى البحث فى كتب الأقدمين ، والعناية بدراسة لغاتها بتدقيق .

بل أنّ المعارف الكلامية وما انبثق عنها من معارف فكرية بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم ، إنّما كان أساسها الفهم من القرآن ، وقد تمخّض الخلاف بين هؤلاء وأولئک مع ما لازمه من العنف والشدّة فى بعض الأحايين عن صقل فى الفكر ، وتقدّم فى أساليب النظر .

ذلک بأنّ المسلمين حين اتّسعت دائرة تفكيرهم واحتاجوا إلى مناقشة ما جدّ من مسائل فكرية توسّلوا بالمنطق فى الاستدلال والمناظرة ، وهو علم لم يكن له عندهم وجود ، وإنّما نقلوه ليخدموا به عقيدتهم ، وهم لم يستعيروا من غيرهم المنطق فحسب ، وإنّما استعاروا كل سلاح فكرى يمكن أن يخدموا به دينهم ، وأخذوا من كل حضارة علمية أو عقلية ما يستطيعون به تدعيم فكرتهم .

مثل ذلک ما حدث بالنسبة للفلسفة ، فحين أحسّ بعض العلماء أنّ الفلسفة بجانب الدين من شأنها أن تقوّيه ، استعاروا فلسفة اليونان ، وصبغوها بلون تفكيرهم ، فإذا بهذه الفلسفة التى خدمت الوثنية فى نشأتها ، واستعانت بها الكنيسة فى خدمة التثليث من بعد ، توجّه عند المسلمين إلى خدمة المعانى القرآنية ; كإثبات الوحدانية ، والقدم ، والبقاء ، والرسالة ، والمعاد وغيرها .

وأمّا الاهتمام بالحديث فأساسه اهتمام المسلمين بأحكام القرآن ، فإنّ روح الإجمال الذى يسيطر على أسلوب الكتاب فى كثير من الأحكام اقتضى البحث عن الحديث ، لأنّ الرسول صلوات الله عليه وآله هو الذى کان يتولّى الإبانة والإيضاح (وَأَنْزَلْنا إِلَيْکَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)[١] .

ومن هنا اشتدّت العناية بجمع ما روى عن رسول الله ، فتكوّنت ثروة حديثية ضخمة لا مثيل لها فى الشرائع ، وأدّى ذلک إلى تكوّن الحديث روايةً ودرايةً ، والعناية بمسائل علم الجرح والتعديل .

وقد برز فى استنباط الأحكام من الكتاب والسنّة فقهاء نوابغ ، استطاعوا بفضل اجتهادهم أن يجعلوا الفقه يساير الزمن ، واستحقّوا بسبب تفانيهم فى خدمة الشريعة أن يكونوا قادةً للفكر ، وأصحاب مدارس للرأى ، وأئمة لمذاهب فقهية مختلفة تزداد نموّاً وازدهاراً بفضل الاجتهاد الذى لولاه ما وجد أئمة الفقه ، أربعة كانوا أو ستة أو اكثر ، ولا كانت تلک المذاهب التى يتعصّب لها أتباعها ، ولا وجدت الآراء المختلفة التى انتفع بها المجتمع الإسلامى فى كل ما جدّ من شؤون .

وطبيعى أن يتولّد بين المذاهب خلافات ، بيد أنّها ترجع فى أساسها إلى فهم آية أو عدم صحّة رواية ، يستوى فى ذلک ما بين مذاهب أهل السنّة بعضها وبعض ، وما بينها وبين مذاهب الشيعة . فهؤلاء وهؤلاء يجمعهم كتاب واحد ، لا يختلفون فى آية من آياته ، ويعتبرونه الأصل الأوّل للأحكام ، كذلک

---

١ . النحل : ۴۴ .

يأخذون بالسنّة ولا يختلفون فى حجّيتها ، وكيف يختلفون فيها والكتاب الكريم يقول : (وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)[١] ، وهم جميعاً أحرص الناس على الأخذ بما فى كتاب الله .

وليس معنى تسمية فريق بأهل السنّة أنّ الآخر لا يعمل بها ، فإنّ السنّة هى الأصل الثانى للأحكام عند الشيعة كما هى عند أهل السنّة .

ففيم الخلاف إذاً ؟ وما الذى ميّز بين الطائفتين وجعلهما مدرستين فى الإسلام؟

أساس الخلاف بينهما هو : من يكون أحقّ بولاية أمر المسلمين وتولّى السلطة العامة الدينية والدنيوية؟ وهل النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) ذهب إلى الرفيق الأعلى دون أن يشير إلى الإمام بعده ، وترک الأمر للمسلمين ولم يبتّ فيه أصلاً؟ وما هو رأى القرآن فيه؟ وماذا ورد عن الرسول؟

لذلک حرصت المدرستان على مضاعفة الاهتمام بالكتاب والحديث ، ومضاعفة العناية بالتفسير وموارد التنزيل ، فورثنا من وراء ذلک ثروة طائلة فى علوم الكتاب وفى المباحث العقلية ، ومزيداً من الدقّة والمهارة فى النقد والتمحيص .

وإذا كانت سياسة الحكم والحكّام قد استغلّت هذا الخلاف وكبرّته ، وجعلت من نفسها أحياناً دعاةً للشيعة أو سياجاً للسنّة ، وأثارت حروباً ، واستخدمت أقلاماً ، وأوجدت بغضاء وكراهية بين أبناء الدين الواحد ، فإنّ أساس الفكرة كان دينياً ، وممّا يدلّ على ذلک أنّ عدداً كبيراً من رجال الدين والعلماء والفقهاء والمتكلّمين والمفسّرين وأرباب العقول الجبارة فى الطائفتين كانوا يعتنقون هذه الفكرة ويخلصون لها ، وهذا يجعل أىّ باحث يتردّد كثيراً فى الحكم بأنّ الخلاف كان أصلاً وليد السياسة وإن كانت السياسة استغلّته وكبّرته ، أو وليد مؤثّرات خاصة أو نزعة عنصرية من بلاد معيّنة ، فإنّ الإمام الطبرسى والطوسى وأبا

---

١ . الحشر : ٧ .

الفتوح الرازى وأمثالهم من أئمة المفسّرين من الشيعة من نفس البلاد التى ينتمى إليها الزمخشريوالفخر الرازى والنيسابورى والبيضاوى وأمثالهم ، وهم من أئمة التفسير عند أهل السنّة ، والبلد الذى أخرج حجة الإسلام الغزالى هو نفس البلد الذى أخرج شيخ الطائفة الطوسى .

على أنّ الخلاف بين العلماء كان فى أكثر الأحيان رفيقاً إلى حدٍّ أنّ الإنسان لايدرک فى بعض المواطن بسهولة إلى أىّ الفريقين ينتمى صاحب هذا الرأى أو ذاک .

ولعلّ من يقرأ تفسير الإمام الرازى ، أو تفسير الإمام الزمخشرى ، يجد فيهما كثيراً ممّا يؤيّد ما يعتنقه الشيعة وإن كانا إمامين جليلين من أئمة السنّة .

بل أنّ هناک نفراً من العلماء ـ منهم بعض أئمة التفسير ـ كانوا فى بحوثهم غاية فى الاعتدال ، حتّى أنّ كل فريق عدّهم من رجاله ، ووجد من كلامهم ما يرجّح به رأيه .

وهذا ولاشکّ دليل على ما عرفوا به من إنصاف مستمدّ من أدب القرآن الذى يلتزمه الصالحون .

أمّا بعد فهذا هو إيمان المسلمين جميعاً بعظمة القرآن ، وهذه هى عنايتهم فى مختلف أجيالهم وبلادهم ومذاهبهم بعلوم القرآن .

فإذا كانت جماعة التقريب قد اختارت ميدان التفسير ليلتقى فيه المشرقى بالمغربى ، والشيعى بالسنّى ، فإنّما اختارت ميداناً ألف المسلمون أن يلتقوا فيه إخواناً متفاهمين متعارفين .

وإذا كانت قد اختارت هذا الكتاب بالذات فانّما اختارت كتاباً وقف مؤلّفه موقف الإنصاف ، والتزم جادّة الأدب القرآنى ، فلم يعنّف فى جدال ، ولم يسفّه فى مقال ، بل أعطى مخالفيه ما أعطى موافقيه من حسن العرض ، وبيان الحجّة ، ورواية السند ، فمكّن القارئ بذلک من الحكم السديد ، وجعل من كتابه موضعاً للقدوة الحسنة فى الجدال بالتى هى أحسن .

إنّ جماعة التقريب لتحرص أشدّ الحرص على أن تهدى العالم الإسلامى مثل هذا الغذاء الفكرى الذى يحتوى على جميع العناصر المعترف بمصادرها السليمة ، لأنّها تعلم أنّ مثل هذا الغذاء هو الذى يستقيم به ، وعليه كيان المسلمين .

نسأل الله جلّت قدرته أن ينفعنا بكتابه الكريم ، وأن يهدينا صراطه المستقيم ، وأن يجعل قلوبنا على كلمة الحقّ ، إنّ الله هو الحقّ المبين.

الفصل الثانى
مقدّمة كتاب
المختصر النافع فى فقه الإمامية

بسم الله ، نقدّم كتاب المختصر النافع وهو على إيجازه يعطى صورةً واضحةً لمذهب فقهى لا يقلّ أتباعه أتباع عن أىّ مذهب من المذاهب المعروفة ، ذلك هو مذهب الإمامية .

ولعلّ القارئ حين يطّلع على الكتاب ، يعجب من أنّ هذا الفقه لم يكن فى متناول يد الجمهور إلى اليوم ، ولكن لا غرابة ، فإنّ الماضى قد شحن بكثير من الأغراض التى دفعت إلى محاربة من يسند إليهم هذا الفقه ، فانسحب ذلك على الفقه ذاته وإن لم يكن فيه ما يحارب .

إنّ مبدأ الخلافة والإمامة معروف ، وهو الذى ميّز بين الطائفتين : السنّة والشيعة ، وإنّ اتّجاه الأنظار فى الإمامة إلى آل على (عليه السلام) جعل الفقه المسند إليهم يناله ما نالهم من أيذاء وإرجاف ، يرجع أكثره إلى أسباب سياسية تتعلّق بالحكم ، ولولا هذا لم يكن مذهب الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ وتقديره عند أئمة المذاهب معروف ـ يُقاطع ، ولا يدخل فى دائرة المذاهب المعروفة عند الجمهور ، وكذلك يقال فى مذهب إمام ، كزيد بن على ، وليس يتّسع المقام لسرد ما ترتّب على هذه القطيعة من حرمان وفراغ ، ومن مصادرة لجانب عظيم من الفكر الإسلامى ، ثم ما انتهت إليه هذه القطيعة من سوء ظنّ أدّى إلى التشتّت ، والأخذ بالأوهام ، وتقطيع أواصر الأخوّة فى الدين .

إنّ ثروتنا الفقهية ـ معشر المسلمين ـ ثروة ضخمة ، لا مثيل لها فى أىّ

تشريع من التشريعات ، وليس يغضّ من قيمة هذه الثروة أنّ فيها نقط خلاف إلى جانب الآلاف من نقط الوفاق ، فإنّ هذا وذاك له دلالته : أمّا الوفاق فيدلّ على أنّ الأصول تتحكّم ولا يهملها أحد ، وأمّا الخلاف فيدلّ على أنّ مجال النظر فيما يصحّ فيه الاجتهاد يُحترم ويقدّر . والفقه الذى بين أيديكم قلّما يوجد فيه رأى لا يكون له مثيل فى مذاهب آخر .

* * *

وهذا الكتاب على إيجازه ، يتحدّث عن العبادات ، وعليها تقوم الصلة بين العبد وربّه ، وعن المعاملات ، وعليها تقوم صلة الإنسان بالإنسان .

فهو يحدّثنا عن الطهارة المائية والترابية ، وعن الوضوء والأغسال ، وعن النيّة والقربة ، وعن المسح على القدمين المأخوذ من قراءة ثابتة معتدّ بها عند الجميع ، وعن منع مسّ المصحف لمن ليس على طهارة ، ولا يغفل حتّى آداب الخلوة، ومنها حرمة استقبال القبلة أو استدبارها عند قضاء الحاجة ، ولو فى الأبنية .

ثم هو يجعل للطهارة قداسة ، ويحتاط فيها أشدّ الاحتياط ، لأنّها مقدّمة لعبادة أهم ، هى الصلاة .

وأمّا فى الصلاة فنرى كثيراً جداً من وجوه الوفاق مع بقية المذاهب : فلا صلاة إلاّ بتكبيرة الإحرام ، ولا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب ، ولاخلاف فى عدد الفرائض ولا فى الركعات والسجدات ، وهم يولّون وجوهم شطر المسجد الحرام ، ويشترطون القراءة بالعربية ولا يجيزون الترجمة، ومن لا يعرف العربية فعليه أن يتعلّم منها ما يؤدّى به الصلاة ، وهم لا يجيزون ترك الصلاة بحال حتّى أنّ الموحل والغريق يوميان ويصلّيان ، فإن وجد خلاف ففى مثل أنّهم يشترطون بعد الحمد سورة كاملة ولا يجتزئون ببعض السورة ، ويشترطون الجهر بالبسملة ، وإرسال اليدين ، والعدالة فى الإمام ، والخروج من الصلاة بالتسليم ، وتلك خلافات لا تزيد عمّا بين المذاهب الأخرى بعضها وبعض .

وأمّا القبلة فهى الكعبة مع الإمكان، وإلاّ فجهتها وإن بعُد المصلّى .

وفى الصوم يذكر المؤلّف أنّه يبدأ بالرؤية وينتهى بالرؤية ، ويعدّد المفطّرات ، ولكن الذى يلفت النظر أنّ الإمامية يرون أنّ الكذب على النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) مفطر يجب فيه القضاء والكفّارة . فإن وجد بعد ذلك خلاف فلا يعدو أن يكون مثل اشتراطهم التثبّت من العدالة فى شهود الرؤية ، أو اشتراطهم زوال الحمرة المشرقية للإفطار لا مجرّد مغيب الشمس ، أىّ أنّهم يتأخّرون بعض الوقت بالإفطار.

أمّا النوافل فى رمضان فتجد من الإمامية اهتماماً كبيراً ، وهم يطبّقون فيها الحديث الصحيح : «أفضل الصلاة : صلاة الرجل فى بيته، إلاّ المكتوبة» .

وأمّا الحجّ فيأخذ فى كتب هذا الفقه حيزاً أكبر ممّا يأخذه غيره ; نظراً للدقّة فى تحديد شعائره ، وهو عندهم من أعظم دعائم الإسلام ، ويعتبرونه جهاداً بالمال والبدن ، ويرون تاركه على حدّ الكفر بالله . وإذا مات المكلّف دون أن يحجّ اعتبر الحجّ ديناً ويُحجّ عنه ، وبلغ من ثبوت هذا الحقّ أنّه يؤدّى بغير إذن فيما لو حصل بيد إنسان مال لميت عليه الحجّ ، وعلم أنّ الورثة لا يؤدّون ، فإنّه يجوز له أن يقتطع قدر أجرة الحجّ ويبذلها لمن يحجّ عنه ، لأنّ هذا دين الله ، وهو خارج عن ملك الورثة ، والديون تقضى قبل التوريث ، ودين الله أحقّ بالقضاء . ودرجة الوفاق فى الأركان والمناسك والشعائر بين هذا الفقه وغيره كبيرة إلى حدٍّ يجعل الحجّ أعظم مظهر لوحدة المسلمين ، ولعلّ هذا من بركات بيت الله العتيق .

أمّا الاعتكاف والزكاة والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد أفرد لكلّ منها كتاب خاص .

هذا شأن الإمامية فى علاقاتهم بربّهم : يعبدونه لا يشركون به شيئاً ، ويحتاطون لعبادتهم أعظم احتياط ، فما هو شأنهم مع الناس؟

إنّ أبواب المعاملات فى فقه الإمامية تحدّد كل جانب ، وتلتزم الكتاب

والسنّة والقواعد المستقاة منهما ، فهم يكثرون من الشروط التى تربط معاملاتهم بالروح الإسلامى ; ويستحبّون البدء بالبسملة فى كلّ معاملة ، ويشترطون الصيغة العربية فى العقود ، ويكرهون التعامل مع تارک الصلاة والمستهتر ، ويحرّمون الاتّجار بالمحرّمات، وما يترتّب عليه فساد فى المجتمع .

والإمامية فى النكاح والطلاق يتّفقون مع بقية المذاهب ، فإن يكن خلاف ففى مثل أنّهم يشترطون فى الطلاق شاهدين عدلين لا يقع بدونهما ، لقوله تعالى : (فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوف أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوف وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْل مِنْكُمْ)[١] ، ولا يوقعون طلاق الثلاث بلفظ واحد ، أو متتابعاً فى مجلس واحد ، ولا ينعقد عندهم الطلاق بالحلف ; وبعض هذا أخذ به أخيراً فى الأحوال الشخصية فى مصر ممّا يدلّ على فائدة الاطّلاع والتعرّف على كلّ مذهب .

زواج المتعة ، ليس أساس الخلاف فيه التردّد فى أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) شرّعه ، ولا أنّ من الصحابة من عمل به على عهده ، ولا أنّ بعضهم استمرّ يرى بقاء هذه المشروعية بعد وفاة الرسول ، إنّما الخلاف فى أنّ هذا الحكم نُسخ أو لم يُنسخ ، فثبت النسخ عند فريق ، ولم يثبت عند الفريق الآخر . وسوف يدرک القارئ البون الشاسع بين ما أُشيع عن هذا الزواج ، وبين ماهو حقيقة يجيزها المذهب . فهو زواج امرأة خالية من الموانع الشرعية ، يلزم فيه عقد ومهر ، ويترتّب عليه ميراث الولد وعدّة الزوجة بانقضاء المدّة أو الانفصال .

وكما انتفع فى الأحوال الشخصية ببعض ما عند الإمامية من أحكام فى الطلاق ; انتفع ببعض ما عندهم فى الوصايا والوقف .

أمّا عن الحدود والتعزيرات ، فإنّ هذا الفقه يشدّد فيها درءاً للمفاسد ، وضرباً على يد كلّ من يقدم على منكر . فحدّ الزنا الجلد أو الجرم ، وحدّ اللواط القتل ، وحدّ السرقة القطع ، وجزاء من يدّعى النبوة القتل ، ومن قال : لا أدرى أمحمد صادق أم كاذب وهو على ظاهر الإسلام ، فجزاؤه القتل . ومن سبّ النبى (صلى

---

١ . الطلاق : ٢ .

الله عليه وآله) فجزاؤه القتل .

هذا عرض سريع لبعض ما فى هذا الجزء من الكتاب .

كلمة عن المؤلّف

أمّا المؤلف فهو جعفر بن الحسن بن يحيى بن الحسن بن سعيد الحلّى ، المعروف بالمحقّق ، أو المحقّق الحلّى ، المتوفّى سنة ٦٧٦ هـ ، إمام من الفقهاء الأفذاذ الذين لم يخلقوا لعصرهم فحسب ، والذين يستحقّون خلود الاسم وبقاء الذكر .

كان أستاذ مجتهدى عصره ، وصاحب متون من أكبر المتون التى تدرّس إلى الآن ، لم يقتصر فى مطالعاته على كتبه المذهبية الخاصة ، وإنّما اطّلع على ما عند غيره ، وهو فى مؤلّفاته المفصّلة يذكر آراء فقهاء المذاهب الأخرى باحترام يليق برجال العلم ، ويناقش ما يخالف رأيه منها بهدوء ، ويبرز حجّته فى غير تحامل ولا تعسّف .

ولم يكن فى بحوثه يقنع بالنظر اليسير ، أو يقول برأى ثم يتصيّد له ما يسنده ، بل كان موسوعة علمية ، يقول بالرأى ويدعمه بالمتخيّر من الأسانيد ، يدلّ على هذا ما ذكره فى إحدى وصاياه حين يقول : «وأكثر من التطلّع على الأقوال لتظفر بمزايا الاحتمال ، واستنفض البحث عن مستند المسائل لتكون على بصيرة فيما تتخيّره»[1].

ويقول فى وصية أخرى : «ليكن تعلّمك للنجاة ، لتسلم من الرياء والمراء ، وبحثك لإصابة الحقّ لتخلص من قواطع الاهوية ومآلف الغشاء...»[2].

ثم هو من التقى والورع بحيث يرى نفسه بين يدى الله حين يصدر الفتوى، فيقول فى وصية من وصاياه : «إنّك فى حال فتواك ، مخبر عن ربك ، وناطق بلسان شرعه ، فما أسعدك إن أخذت بالجزم ، وما أخيبك إن بنيت على

---

١ . من وصاياه التى دوّنها فى مقدمة كتابه المعتبر .

٢ . من وصاياه التى دوّنها فى مقدمة كتابه المعتبر .

الوهم ، فاجعل فهمک تلقاء قوله تعالى : (وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ)[١] ، وانظر إلى قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْق فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ)[٢]...»

ثم يقول : «وتفطّن كيف قسم ـ الله ـ مستند الحكم إلى القسمين ، فما لم يتحقّق الإذن فأنت مفتر»[٣] .

ومعنى هذا أنّ الأمر عنده دقيق ، وأنّ من يفتى يكون بين مأذون من الله أو مفتر عليه . وليس وراء ذلک فى التحرّز والاحتياط غاية ، وهو يعطى صورة لما عليه فقهاء الإمامية حين يفتون .

هذا هو المحقّق الحلّى كما عرفناه من أقواله ، فماذا قيل عنه فى تراجم العلماء؟

يقول تلميذه الشيخ الجليل ابن داود الحلّى[٤] حين يتحدّث عنه فى كتاب الرجال : «جعفر بن الحسن بن يحيى بن سعيد الحلّى شيخنا نجم الدين أبو القاسم المحقّق المدقّق الإمام العلاّمة ، واحد عصره . كان ألسن أهل زمانه، وأقومهم بالحجّة ، وأسرعهم استحضاراً .. . توفّى فى شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين وستمائة ، وله تصانيف حسنة محقّقة محرّرة عذبة . فمنها : كتاب شرائع الإسلام مجلّدان ، كتاب النافع فى مختصرها (المختصر النافع وهو مختصر الشرائع) مجلّد ، كتاب المعتبر فى شرح المختصر لم يتمّ ، مجلّدان ، كتاب نكت النهاية مجلّدان ، كتاب المسائل الغرية مجلّد ، كتاب المسائل المصرية مجلّد ، كتاب المسلک فى أصول الدين مجلّد ، كتاب المعارج فى أصول الفقه مجلّد ، كتاب الكهنة[٥] فى المنطق مجلّد ، وله كتب غير ذلک ليس هذا موضع استيفائها ،

---

١ . البقرة : ١٦٩ .
٢ . يونس : ٥٩ .
٣ . من وصاياه فى مقدمة كتابه «المعتبر» .
٤ . ابن داود تقى الدين الحسن بن على بن داود الحلى ولد سنة ٦٤٧.
٥ . من الكهانة بالفتح بمعنى الصناعة .

فأمرها ظاهر ، وله تلاميذ فقهاء فضلاء (رحمه الله) ...» .

وجاء فى إجازات بعض المشايخ ذكر كتباً أخرى للمحقّق ، منها كتاب فى اختصار مراسم سلاّر الديلمى[1] ، وكتاب سمّاه نهج الوصول إلى معرفة الأصول .

وهناك رسالة فى القبلة ذكرها جمال الدين بن فهد الحلّى فى كتابه (المهذّب فى شرح المختصر) بتمامها ، ويذكر سبب تأليف تلك الرسالة ، وهو أنّ نصير الدين الطوسى[2] حضر ذات يوم حلقة درس المحقّق بالحلّة ، فقطع المحقّق الدرس تعظيماً له وإجلالاً لمنزلته ، فالتمس منه الطوسى إتمام الدرس ، فجرى البحث فى مسألة استحباب التياسر للمصلّى بالعراق ، فقال نصير الدين : إنّه لا وجه لهذا الاستحباب ، لأنّ التياسر إن كان من القبلة إلى غير القبلة فهو حرام ، وإن كان من غيرها إليها فهو واجب ، فقال المحقّق فى الحال : إنّه منها إليها . فسكت نصير الدين ، ثم إنّ المحقّق ألّف رسالةً بهذا المعنى وأرسلها إليه ، فاستحسنها .

أمّا بعد ، فإنّ رجلاً هذا شأنه ، ليس بغريب أن يربّى نخبةً من العلماء الأجلاّء الذين صاروا من أئمة الفقهاء والمتكلّمين ، فمن تلامذته : ابن أُخته جمال الدين العلاّمة الحلّى صاحب كتاب تذكرة الفقهاء التى تعدّ مرجعاً لمذهبه وللمذاهب الأخرى ، ومنهم الشيخ رضى الدين على بن يوسف ، وابن داود الحلّى ، والسيد عبدالكريم بن أحمد بن طاوس ، وحسن بن أبى طالب اليوسفى الآبى ، والوزير شرف الدين أبو القاسم ، والشيخ شمس الدين محفظ بن وشاح ،

---

١ . أبو يعلى سلاّر بن عبد العزيز الديلمى ، صاحب كتاب المقنع فى المذهب ، والتقريب فى أصولى الفقه ، والمراسم فى الفقه المتوفّى سنة ٤٦٣ هـ .

٢ . نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسى الجهرودى ، من كبار الحكماء المتكلّمين ، صاحب تجريد الكلام ، وهو من كتب الإمامية فى الكلام ، يحقّ لمن يريد الاطّلاع على العقائد الكلامية أن يطّلع عليه ، وعليه شروح من علماء السنّة والشيعة ، ويقول علاء الدين على بن محمد المشتهر بقوشجى من علماء الكلام عند الجمهور فى شرحه لهذا الكتاب : «إنّه كتاب كثير العلم ، جليل الشأن ، حسن الانتظام ، مقبول عند الائمة العظام ، لم يظفر بمثله علماء الأمصار . .» ، وله تلخيص المحصّل للفخر الرازى، وكذلك شرح قسم الإلهيات من الإشارات لابن سينا ، وغيرها من الكتب ، توفّى سنة ٦٧٢ هـ .

وكثير غير هؤلاء ممّن لهم آثار وتآليف عدّة .

❊ ❊ ❊

أمّا هذا الكتاب ــ وهو المختصر النافع ــ فقد لخّصه المؤلّف من كتاب شرائع الإسلام فى مسائل الحلال والحرام الذى يعتبر متناً من المتون الحيّة إلى الآن .

وهو مرتّب على أربعة أقسام[١] : العبادات والعقود والإيقاعات والأحكام .

فقسم العبادات يبدأ بكتاب الطهارة وينتهى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقسم العقود يبدأ بكتاب التجارة وينتهى بكتاب النكاح .

وقسم الإيقاعات يبدأ بكتاب الطلاق وينتهى بكتاب النذر .

وقسم الأحكام يبدأ بالصيد والذباحة وينتهى بالديات

واشتمال كلّ قسم على الكتب المشار إليها بهذه الصورة هو المتعارف عليه فى مؤلّفات الإمامية ، منذ عصر المؤلّف إلى الآن ، أمّا قبل عصره فلم يكن الحال على هذا النمط تماماً ، فمثلاً فى أبواب العبادات يقول يحيى بن سعيد الهذلى الحلّى[٢] فى مقدّمة كتابه نزهة الناظر فى الجمع بين الأشباه والنظائر : «قال شيخنا السعيد أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى قدّس الله روحه ; عبادات الشرع خمس : الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والجهاد . وقال الشيخ أبو جعفر

---

١ . جرت العادة عند المؤلّفين من فقهاء الإمامية أن يقسّموا الموضوعات الفقهية إلى أربعة أقسام : العبادات ــ العقود ــ الإيقاعات ــ الأحكام . ولعلّ وجه الحصر أنّ المبحوث عنه فى الفقه إمّا أن يتعلّق بالأمور الأُخروية ــ أىّ معاملة العبد ربّه ــ أو الدنيوية . فإن كان الأوّل فهو عبادات ، وأمّا الثانى : فإمّا أن يحتاج إلى صيغة أو لا ، فغير المحتاج إلى صيغة هو الأحكام كالديات والميراث والقصاص والأطعمة ، وما يحتاج إلى صيغة فقد يكون من الطرفين أو من طرف واحد ، فمن طرف واحد يسمّى الإيقاعات كالطلاق والعتق ، ومن الطرفين يسمّى العقود ، ويدخل فيها المعاملات والنكاح . وتبدأ العبادات بكتاب الطهارة كمقدّمة للعبادات .

٢ . هو من كبار علماء الإمامية ، صاحب كتاب الجامع فى الفقه، والمدخل فى الأصول ، ونزهة الناظر فى الجمع بين الأشباه والنظائر المتوفّى سنة ٦٨٩ هـ .

محمد بن على الطوسيالمتأخّر (رضى الله عنه)[1] فى الوسيلة : عبادات الشرع عشر ، أضاف إلى هذه الخمس : غسل الجنابة والاعتكاف والعمرة والرباط . وقال الشيخ أبو يعلى سلاّر : العبادات ستّ ، أسقط الجهاد من الخمس الأولى ، وأضاف إليها الطهارة والاعتكاف . وقال الشيخ أبو الصلاح[2] : العبادات عشر ، أسقط الجهاد أيضاً من الخمس الأولى ، وأضاف إليها الوفاء بالنذر والعهود والوعود وبراهين الإيمان وتأدية الأمانة والخروج عن الحقوق والوصايا» .

ولأنّ الكتاب من المتون المختصرة ، فقد اهتموا كثيراً بشرحه ، وله شروح متداولة تدرّس إلى الآن ، وبقدر ما يحضرنا نذكر بعض تلك الشروح :

١ ـ للمحقّق الحلّى نفسه شرح للمختصر سمّاه المعتبر فى شرح المختصر .

٢ ـ شرح عزّ الدين حسن بن أبى طالب اليوسفى الآبى ، ذكره بحر العلوم وقال فى حقّه : إنّه أول من شرح النافع ، محقّق فقيه قوى الفقاهة ، وكان فراغه من تأليف الكتاب سنة ٦٧٢ هـ ، أىّ فى زمن المحقّق .

٣ ـ شرح الشيخ جمال الدين أحمد بن فهد الحلّى ، ويسمّى المهذّب البارع فى شرح المختصر النافع .

٤ ـ شرح العلاّمة الحلّى[3] على المختصر .

---

١ . عالم إمامى ، من فقهاء القرن الخامس ، يطلق عليه «ابن حمزة» ، له تصانيف فى الفقه منها : الوسيلة إلى نيل الفضيلة والواسطة ويشتمل على جميع أبواب الفقه ، وهما من المتون الفقهية المشهورة ، وكتاب الرائع فى الشرائع ومسائل الفقه .

٢ . هو من مشاهير علماء «حلب» ومن كبار علماء الإمامية ، يعاصر شيخ الطائفة «الطوسى» ، وله تصانيف منها : كتاب تقريب المعارف والكافى فى الفقه والبدائع فى الفقه وشرح الذخيرة للسيد المرتضى علم الهدى وكتاب البرهان على ثبوت الإيمان.

٣ . الحسن بن يوسف بن على بن المطهّر الحلّى ، المعروف بالعلاّمة ، المتوفّى سنة ٧٢٦ هـ ، من كبار الإمامية ، يقرأ على المحقّق الحلّى وجماعة من العلماء بعضهم من السنّة ، وقرأ عليه كثير من أفاضل علماء الفريقين . وهو صاحب المؤلّفات الكثيرة فى الفقه والأصول والحكمة والتفسير والحديث ، منها : تذكرة الفقهاء ، فى الفقه الاستدلالى المقارن ، ومنتهى المطلب الذى قال فى حقّه : «لم يعمل مثله ، ذكرنا فيه جميع مذاهب المسلمين فى الفقه» ، وتلخيص المرام فى معرفة الأحكام ، وتحرير الأحكام الشرعية ، ومختلف الشيعة فى أحكام الشريعة ، يذكر فيه الآراء المختلفة عند فقهاء الإمامية ، وكشف المراد فى شرح تجريد الاعتقاد ، ونهاية المرام فى علم الكلام ، وتهذيب الوصول إلى علم الأصول ، وقواعد الأحكام فى معرفة الحلال والحرام ، ونهج المسترشدين فى أصول الدين ، وغير ذلك من كتبه النافعة.

٥ ـ شرح السيد محمد بن على بن الحسين الموسوى الجبعى[١] وهو من كتاب النكاح إلى آخر كتاب النذر .

٦ ـ شرح السيد نور الدين العاملى[٢]. وقد أطال فى البحث والاستدلال إلاّ أنّه لم يتم .

٧ ـ الشرح الكبير وهو رياض المسائل فى بيان أحكام الشرع بالدلائل وهو أكبر شرح للمختصر ، ألّفه المير سيّد على بن السيد محمد على بن السيد أبى المعالى الطباطبائى ، المتوفّى سنة ١٢٣١ هـ ، ويعدّ من أحسن الكتب الاستدلالية فى الفقه . ولصاحب الرياض شرح آخر للمختصر يسمّى الشرح الصغير .

وقد علّق بعض العلماء بحواش على الرياض منهم الوالد (قدس سره)[٣] فى كتابه تعليقات على الرياض ; وكذلک السيد محمد بن عبد الصمد الشهشهانى علّق بحاشية سمّاها أنوار الرياض على الشرح الكبير . وغير ذلک من الشروح والتعليقات على الشروح التى لو جمعت كلّها لكوّنت مكتبةً فقهيةً حول هذا الكتاب .

إنّ الكتاب على اختصاره ، واضح العبارة ، واف بالغرض ، وما رأينا توضيحه ـ وهو قليل ـ فسّرناه بكلام المؤلّف نفسه من كتبه الأخرى ، لا سيّما شرائع الإسلام والمعتبر أو بكلام بعض شرّاح كتبه ، أو كلام تلميذه العلاّمة الحلّى فى تذكرة الفقهاء.

ونحن لم نرد بهذا الكتاب تقديم فقه استدلالى ، بل اخترناه لإعطاء صورة عن فقة آل البيت . ومن يريد استقصاء الأدلّة فعليه بالكتب المفصّلة ـ وقد ذكرنا بعضها ـ فليرجع إليها الباحث إذا شاء .

---

١ . هو صاحب كتاب مدارک الأحكام فى شرح شرائع الإسلام خرج منه العبادات فى ثلاثة مجلّدات ، وهو من أحسن الكتب الاستدلالية فى فقه الإمامية ، فرغ منه سنة ٩٩٨ هـ .

٢ . هو أخو كل من صاحبى المدارک والمعالم ، والمتوفّى ١٠٦٨ هـ .

٣ . هو العلاّمة المجتهد الأقا أحمد القمى المتوفّى سنة ١٣٤٩ هـ بطهران .

مصادر الأحكام عند الإمامية

مصادر الأحكام عند الإمامية أربعة : الكتاب ، والسنّة ، والإجماع ، والعقل أو الأدلّة العقلية .

الأوّل : الكتاب

من أكبر نعم الله على المسلمين ، أنّهم لايختلفون فى كتابهم ، فالمسلم فى أقصى المغرب لايختلف كتابه عن المسلم فى أقصى المشرق ، والمصاحف فى بلاد العرب هى نفسها فى كلّ بلد ، لايختلف فى آية ، ولاخطّ ، ولا رسم حرف ، فإن كتبت كلمة «رحمت» بتاء مفتوحة ، ألفيت ذلک فى كلّ مصحف بأىّ أرض من بلاد المسلمين ، لا فرق بين عربى وعجمى، أو سنّى وشيعى .

وفوق هذا الاتّفاق الكامل الشامل فى كتاب الله ، يجمع المسلمون على أنّ كتابهم هو حبل الله المتين ، وأحد الثقلين ، والأصل الأوّل للشريعة .

ولا بأس من أن نعطى فكرةً عمّا يرويه الإمامية عن على أمير المؤمنين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بشأن القرآن الكريم ، قال :

«سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : إنّها ستكون فتن ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة ردّ ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى من عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ،ومن دعا إليه دعا إلى صراط مستقيم».

هذا هو القرآن، وهذا هو الأصل الأوّل فى التشريع عند الإمامية كما هو عند غيرهم .

الثانى : السنّة

لايختلف الشيعى عن السنّى فى الأخذ بسنّة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بل يتّفق المسلمون جميعاً على أنّها المصدر الثانى للشريعة ، ولا خلاف بين مسلم وآخر فى أنّ قول الرسول وفعله وتقريره سنّة لابد من الأخذ بها ، إلاّ أنّ هناك فرقاً بين من كان فى عصر الرسالة يسمع عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وبين من يصل إليه الحديث الشريف بواسطة أو وسائط . ومن هنا جاءت مسألة الاستيثاق من صحة الرواية .

واختلفت الأنظار ، أى أنّ الاختلاف فى الطريق وليس فى السنّة ، وهذا ما حدث بين السنّة والشيعة فى بعض الأحايين . فالنزاع صغروى لا فى الكبرى ، فإن ما جاء به النبى لاخلاف فى الأخذ به ، وإنّما الكلام فى مواضع الخلاف ينصبّ على أنّ الفرد المروى : هل صدر عن الرسول أو لا ؟

وإذا كان ينقل عن أئمة المذاهب فى بعض المسائل روايتان ، أو روايات مع قرب عهدهم بنا نسبياً ، وإذا كان الإمام على ـ وهو عند الشيعة الإمام المنصوص ، وعند أهل السنّة إمام يقتدى به ـ ينقل عنه فى المسائل الخلافية روايتان مختلفتان ، إحداهما أخذت بها السنّة والأخرى أخذت بها الشيعة ، وإذا كنّا نطلب الاستيثاق فى أقوال الأئمة وما يروى عنهم ، فطبيعى أنّ الأمر بالنسبة للسنّة النبوية يحتاج إلى دقّة واستيثاق أكثر .

إنّ كلامه (صلى الله عليه وآله وسلم) تشريع ، وهو المشرّع الوحيد للمسلمين ، حلاله حلال إلى يوم القيامة ، وحرامه حرام إلى يوم القيامة . والوصول إلى نصّ عبارته بحيث يعرف إن كان حديثه مطلقاً أو مقيّداً ، عاماً أو خاصاً ، يتطلّب إلمام الراوى بفنون التعبير حتّى لايترك قرينة أو خصوصية لها تأثير فى بيان الحكم .

فلا خلاف فى أنّ السنّة هى الأصل الثانى من أصول التشريع ، إنّما الخلاف فى ثبوت مروى أو عدم ثبوته ، وهذا ليس خاصّاً بالسنّة والشيعة ، وإنّما يوجد بين مذاهب السنّة بعضها وبعض ، فكم من مروى ثبت عند الشافعى ولم يثبت

عند غيره .

ومع أنّ الجمهور يأخذون برواية أيّ صحابى ، والشيعة تشترط أن تكون الرواية عن طريق أئمة أهل البيت لأسباب عدّة ، منها : اعتقادهم أنّهم أعرف الناس بالسنّة ، فإنّ النتيجة فى أكثر الأحيان لاتختلف ، فهذه هى الصلاة لم يرد عنها فى القرآن تفصيلات ، وكلّ ماجاء من ذلک كان عن طريق السنّة ، ونقل ما فعله الرسول فى صلاته ، ومع هذا فإنّا نرى الخلاف فيها بين الفريقين يسيراً على كثرة ما فيها من الأركان والفروع . وكذلک الحجّ وغيره .

وإذا كانت الشيعة تتّبع أهل البيت وتقتدى بهم كأئمة ، فليس هذا إلاّ لما ثبت من فضلهم حسب ما هو مذكور فى كتب الفريقين .

وإذا سمّت طائفة بالسنّة وطائفة بالشيعة ، فليس هذا إلاّ اصطلاحاً ، فإنّ الشيعة يعملون بالسنّة ، وأهل السنّة يحبّون آل البيت ويجلّونهم أعظم الإجلال حسب مافى كتبهم عنهم ، مع فارق واحد هو أنّ الشيعة يعتقدون فيهم النصّ بالإمامة ، ولذلک سمّوا «الإمامية» ، وهذا أنسب لهم لاعتقادهم فى إمامة أهل البيت .

الثالث : الإجماع

أمّا الإجماع فهو أصل من أصول التشريع عند الإمامية كما هو عند غيرهم ، ويذكر بعد الكتاب والسنّة كأصل ثالث .

وإنّ إجماع العلماء على حكم يكشف فى الحقيقة عن حجّة قائمة هى النصّ من المعصوم ، ويورث عادةً القطع بأنّ هذا العدد مع ورعهم فى الفتوى ، لولا الحجّة لما أجمعوا على رأى واحد .

فإذن هناک حجّة ، وحجّية الإجماع ترجع إليها ، والإجماع يكشف عنها .

الرابع : العقل أو الدلائل العقلية

المعروف عن دليل العقل أنّه البراءة الأصلية والاستصحاب ، ويرى البعض أنّ الاستصحاب ثبت بالسنّة ، كما أنّ البعض الآخر يجعلون مع البراءة الأصلية

والاستصحاب التلازم بين الحكمين ، وهو يشمل مقدّمة الواجب ، وأنّ الأمر بالشىء يستلزم النهى من ضدّه الخاص ، والدلالة الالتزامية ، وفسّره البعض بلحن الخطاب ، وفحوى الخطاب ، ودليل الخطاب ، وما ينفرد العقل بالدلالة عليه ، وهذا هو رأى مؤلّف هذا الكتاب فى دليل العقل والاستصحاب ، نورده هنا من مقدّمة كتابه المعتبر :

وأمّا دليل العقل فقسمان :

أحدهما : ما يتوقّف فيه على الخطاب ، وهو ثلاثة :

الأوّل: لحن الخطاب، كقوله تعالى: (اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ)[1] أراد فضرب.

الثانى: فحوى الخطاب، وهو مادلّ عليه بالتنبيه ، كقوله تعالى : (فَلا تَقُلْ لَهُما أُفّ)[2].

الثالث : دليل الخطاب ، وهو تعليق الحكم على أحد وصفى الحقيقة كقوله: «فى سائمة الغنم الزكاة» فالشيخ يقول : هو حجّة ، وعلم الهدى ينكره ، وهو الحقّ . أمّا تعليق الحكم على الشرط كقوله : «إذا بلغ الماء قدر كرٍّ ; لم ينجسه شىء» وكقوله تعالى : (وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْل فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)[3] فهو حجة ، تحقيقاً لمعنى الشرط ، ولا كذا لو علّقه على الاسم كقوله : اضرب زيداً ، خلافاً للدقّاق .

والقسم الثانى : ماينفرد العقل بالدلالة عليه ، وهو إمّا وجوب كردّ الوديعة أو قبح كالظلم والكذب ، أو حسن كالإنصاف والصدق ، ثم كلّ واحد من هذه كما يكون ضرورياً فقد يكون كسبياً : كردّ الوديعة مع الضرورة ، وقبح الكذب مع النفع .

وأمّا الاستصحاب ، فأقسامه ثلاثة :

---

١ . البقرة : ٦٠ .
٢ . الإسراء : ٢٣ .
٣ . الطلاق : ٦ .

استصحاب حال الفعل : وهو التمسّک بالبراءة الأصلية ... ومنه أن يختلف الفقهاء فی حکم بالأقلّ والأکثر فيقتصر على الأقلّ ...

الثانی : أن يقال : عدم الدليل على کذا فيجب انتفاؤه ، وهذا يصحّ فيما يعلم أنّه لو کان هناک دليل لظفر به ، أمّا لا مع ذلک فإنّه يجب التوقّف ، ولا يکون ذلک الاستدلال حجّة . ومنه : القول بالإباحة ، لعدم دليل الوجوب والحظر .

الثالث : استصحاب حال الشرع ، کالمتيمّم يجد الماء فی أثناء الصلاة ، فيقول المستدلّ على الاستمرار : صلاة کانت مشروعة قبل وجود الماء ، فتکون کذلک بعده . وليس هذا حجّة ، لأنّ شرعيتها بشرط عدم الماء لا يستلزم الشرعية معه .

ثم مثل هذا لايسلم عن المعارضة بمثله ، لأنّک تقول : الذمّة مشغولة قبل الإتمام ، فتکون مشغولة بعده[1].

* * *

من البديهی أنّه ليس فی إمکان من يکتب مقدّمةً وجيزةً کهذه ، إعطاء فکرة کاملة عن مذهب إسلامی يعدّ فقهه ثروة عظمى، إلى جانب ما لعلمائه من ثمرات إنتاجية فی شتّى علوم الدين من تفسير وحديث وأصول ورجال وغير ذلک ، وإنّ ثمراتهم العلمية فی هذه العلوم لا تقلّ عن ثمراتهم فی علم الفقه ، وإنّ هذا وذاک ليکوّن مکتبةً إسلاميةً عظمى ، تعدّ مجلّداتها الضخمة بعشرات الألوف .

ولعلّ ممّا يمهّد لنا سبيل العذر فی عدم اضطلاعنا بهذا ، وجود هذا العدد الضخم من الکتب فی شتى النواحی الدينية ، وکثير منها مطبوع ، وهی خير مرجع لمن يريد الاطّلاع على ما فی هذا المذهب ، وإنّه لجدير بالباحثين فی

١ . وأمّا القياس فلا يؤخذ به عند الإمامية ، ويقول صاحب الکتاب فی ذلک : «أمّا القياس فلا يعتمد عليه عندنا ، لعدم اليقين بثمرته ، فيکون العمل به عملاً بالظنّ المنهی عنه، ودعوى الإجماع من الصحابة على العمل به لم تثبت ، بل أنکره جماعة منهم» .

على أنّ من مذاهب أهل السنّة من لا يرى العمل بالقياس ، ومن علمائهم من بيّن أنّ کل حکم قيل: إنّه مقيس ، قد أخذ عن دليل نص أو إشارة أو نحوهما .

علوم الشريعة أن يعطوا مزيداً من العناية لهذه الكتب ، فإنّ الفكرة الإسلامية فى أىّ مذهب ، هى ملك للمسلمين جميعاً ، لا لأصحاب هذا المذهب فحسب .

ثم إنّ هناک مبدأ علمياً هاماً متّفقاً عليه بين الباحثين الراسخين ، ذلک هو أنّ الإنصاف والأمانة العلمية تحتّمان على الباحث أن يستقى ما يريده من المعلومات من مصادره الصحيحة ، وأنّه مادامت المراجع المعتمدة لمذهب ما ميّسرة ، فلايسوغ الرجوع إلى غيرها ، ولا سيّما إذا كانت تستند إلى الشائعات ، أو تصدر عن عصبيات ، وأنّه لمن الخير أن يطبّق أهل العلم فى كلّ مذهب هذا المبدأ ، وعندئذ سيتجلّى لمن يدرس مذهب الإمامية ويعرف آراءهم من الواقع الماثل أمامه أىّ خير وأىّ علم فى هذا المذهب ، ثم يتجلّى له مدى التجنّى الذى ناله من المتحيّزين أو المتعصّبين عليه ، حتّى خلطوا بين الغلاة الذين ينتحلون وصف الشيعة ، وبين الشيعة أنفسهم الذين يبرؤون إلى الله منهم ، ويحكمون بكفرهم .

وكم من كتب خلطت بين الشيعة والفرق البائدة التى لا وجود لها إلاّ فى زوايا التاريخ ، أو فى تفكير المتحيّزين .

إنّنا معشر المسلمين إذا تمسّكنا بهذا المبدأ فى كتاباتنا وبحوثنا ، فإنّما نخلص للحقيقة ، ونساعد على أن يزدهر هذا الميراث الثقافى الإسلامى ازدهاراً يجعله موضع أنظار العالم الحديث ، كما كان موضع أنظار العالم القديم ، وإنّنا بهذا لنخطو خطوات كبرى فى سبيل تحقيق الخير الكثير لأمتنا ، وفى سبيل إقامة وحدتنا فى الدين ، وأخوّتنا فى الإيمان .

(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمنا بالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتحينَ)[١] ، **(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلإِخْواننَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالإْيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّکَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ)**[٢] .

---

١ . الأعراف : ٨٩ .
٢ . الحشر : ١٠ .

الفصل الثالث
مقدّمة كتاب
شرح اللمعة الدمشقية فى فقه الإمامية

هذا كتاب شرح اللمعة الدمشقيۀ فى فقه الإماميۀ ; مصنّفه وشارحه ـ وهما الشهيدان ـ فقيهان من كبار الفقهاء ، وعلمان من أعلام الإسلام .

ونحن إذ نقدّم كتابهما هذا ، نرى فيه تحفةً فقهيةً ممتازة ، ونرى فيما أصاب مؤلّفيه صفحة من تاريخ التعصّب المذهبى ، ومأساة من مآسى الطائفية .

وكان يكفى أن نقدّم الكتاب على أنّه فقه الإسلام وحسب ، إلاّ أنّ العادة جرت أن يوزّع الفقه على حسب المذاهب ، كأنّما هو ملک لمذاهب خاصة ، بينما هو فى واقعه ملک للمسلمين جميعاً .

وما كان يصحّ أن يبتلى الفقه بالتعصّب ، وأن يخصّص لفريق دون فريق ;لأنّه نتاج حكم كتاب الله الكريم والسنّة النبوية الشريفة ، والكتاب لا يختلف فيه اثنان من المسلمين ، ولاتختصّ به طائفة دون طائفة ، والنبى الكريم بيّن بسنّته للناس دينهم ، والمسلمون لايشكّون فى كتابهم ، ولا يتردّدون فى الأخذ بما ثبت من سنّة نبيّهم ، لا فرق فى ذلک بين سنّيهم وشيعيّهم[١] ، وهم إن اختلفوا فإنّما يختلفون نتيجةً لطبيعة الاجتهاد والاستنباط ، وطبيعة الأدلّة والقرائن والظروف .

فالخلاف الفقهى فى أصله ليس صادراً عن الهوى والتعصّب ، ولكنّه صادر

١ . التسمية بالشيعة وأهل السنّة قد توحى بأنّ الفارق بين الطائفتين هو العمل بالسنّة . والحقيقة أنّها تسمية اصطلاحية ، فكما أنّ الأصل الأوّل عند الشيعة هو القرآن فإنّ الأصل الثانى عندهم هو السنّة ، كما هو كذلک عند أهل السنّة .

عن أصول الشريعة وأدلّتها التى يجب على المسلمين أن يعوّلوا عليها فى معرفة دينهم ، والتعبّد بما شرّعه الله لهم .

فالقرآن الكريم الذى هو المصدر الأوّل والأعظم للمسلمين ، نزل بأسلوب جاء قاطعاً فى أصول العقائد ، وما لا يتغيّر بتغيّر الأزمان والأحوال ، محتملاً فى كثير من وراء ذلك من الأمور والأحكام . فكان هذا من أول أسباب الخلاف ; تبعاً لاختلاف الأفهام ، وقواعد النظر ، وتقدير العلل والمصالح .

والسنّة المطهّرة التى نُقلت بطرق مختلفة جاءت نصوصها تارةً مطلقة ، وتارةً مقيّدة بقرائن وظروف تساعد على فهمها ، وقد تبلغ الرواية عالماً ولا تبلغ آخر ، وقد يعتمد عالم على راو وآخر لايثق به ، وقد يثبت حديث عند مجتهد ولايثبت عند غيره ، وقد تتعارض الروايات فى بعض الأحايين . كلّ هذا كان ذا أثر ظاهر فى الخلاف .

كذلك اختلفت القواعد التى استنبطها العلماء لفهم الكتاب والسنّة ، والأدلّة التى رأى بعضهم أنّها تفيد حكم الله ، ورأى آخرون أنّ كتاب الله وسنّة رسوله تغنيان عنها .

هذا على وجه الإجمال هو ما دعا إلى اختلاف العلماء ، وهذا هو ما قضت به الحكمة الالهية ، ولو شاء الله لجاءت أحكام الشريعة ومسائلها جميعاً على نمط واحد ; ولكن الله جلّ جلاله علم أنّ أمر الناس لايصلح على ذلك ; فلا يصلح فى أمور العقائد وأصول الدين التى يدخل بها المرء فى ربقة الإيمان ، ويخرج من هذه الربقة حين يخرج عنها ; لايصلح فى هذه أن يترك الناس لعقولهم وأفكارهم وظنونهم ، فلذلك بيّنها بياناً واضحاً ، وجعلها من أمور الدين وأحكامه حرماً مقدّساً لايجوز أن تختلف فيه الأنظار ، ولا أن تكون مجالاً لتعدّد الآراء ، ولا لجدال المتجادلين ، ذلك بأنّها حقائق أخبرنا الله تعالى بها ، وأوجب علينا أن نعتقدها ، وليس من شأنها أن تتغيّر بتغيّر الزمان ، أو تختلف باختلاف المصالح ، أو تتأثّر باجتهاد المجتهدين . وقد أُلحق بهذه الأصول ما

شابهها فى عدم التأثّر بالأزمان أو الأفهام من حقائق العبادات وصورها ـ فى الجملة ـ وأصول المعاملات ، ونحو ذلك .

فكان هذا كلّه رحمةً من الله وحكمة ، لأنّه وقى الناس شرّ التفرّق فى الأسس والأصول ، ورسم لهم دائرة محدودة واضحة المعالم ، يعرف من دخلها ومن خرج منها ; وألحق بها ما هو فى حكمها من رسوم العبادة التى لا يرجع فيها إلاّ إلى ما يريده المعبود ، ومن دعائم المعاملة التى يجب فى كلّ زمان ومكان أن تكون مرتكزة على أساس سليم من العدل والخلق الكريم .

أمّا الفروع التى لايضرّ الاختلاف فيها ، سواء أكانت فى الشؤون العملية أم فى المسائل النظرية ، فلم يكن يصلح أمر الناس على توحيدها والإلزام بصورة معيّنة منها ، ذلك بأنّ الله خلق العقول ، وجعل لها مجال النظر والتفكير ، والموازنة والترجيح ، والاستقراء والتتبّع ، ولذلك جاءت أكثر أحكام الفقه ظنّية ، وكثر فيها الاختلاف والترجيح ، وأصبحنا نرى فى كثير من المسائل الخلافية آراء الفقهاء التى تمثّل جميع الصور المحتملة عقلاً .

وأمر آخر هو أنّ التصرّفات التى تقع من الناس والقضايا التى تحدث فيها لا تنتهى ولا تقف عند حدّ ، فكلّما جاء جيل من الناس جاءت معه أحداثه وتصرّفاته وألوان نشاطه . وإذا كان من قصد الشريعة أن تنصّ على حكم من لدن جاء به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أن تقوم الساعة ، لما وسع الناس أن يحفظوها ، لاسيّما وقد نزلت على قوم أُميّين ، فى جزيرة صغيرة محدودة الأحداث ، وفى زمان أقرب إلى البدائية الأولى ، لم يكن العلم فيه قد تقدّم كعهدنا به اليوم ، ولم تكن المذاهب الاجتماعية والاقتصادية قد ظهرت وتعدّدت صورها ; فلم يبق إلاّ أن تضمن الأدلّة والمصادر المحدودة للشريعة ما يمكن العقول من الاستنباط منها كلّما دعا إلى ذلك داع ، ولذلك وجدت فيها المبادئ العامة والأصول التى يرجع إليها ، وكان منها ما هو قطعى دائم ، ككون الشريعة يسراً لا عسراً ، وكون المعاملات مبنية على رعاية المصالح ومجانبة

الضرر ، ووجوب حفظ المال والنفس والعرض والعقل والدين ... وغير ذلك من الكلّيات التى ترجع إليها الفروع والأحكام .

هذا هو الوضع الحكيم الرحيم الذى جاءت عليه الشريعة الإسلامية ، ولم يكن من الحكمة ولا من الرحمة أن تجيء على وضع سواه .

وتبعاً لذلك ظهر من بين الصحابة والتابعين وتابعيهم والمتأخّرين فقهاء ومجتهدون يشار إليهم ، فمن بين الصحابة نفر عُرفوا بفقههم وعلمهم بالكتاب والسنّة ، كان يرجع إليهم ويؤخذ برأيهم ، ومن التابعين لمعت أسماء عدد كبير ، كان أشهرهم وأعظمهم مكانة الفقهاء السبعة[١] ، عاشوا فى المدينة فى عصر واحد ، وكانوا مصادر الفتوى لمن بعدهم .

ثم اتّسعت الدائرة فى منتصف القرن الثانى والثالث ، واشتهر أعلام فى الفقه، منهم أصحاب المذاهب الأربعة ، وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، والأوزاعى ، وإسحاق بن راهويه ، وداود الظاهرى ، والليث بن سعد ، وسعيد بن جبير .

وإلى جانب هؤلاء من الصحابة والتابعين أئمة أهل البيت ، وهم على أميرالمؤمنينوالحسن والحسين وزين العابدين على بن الحسين وأولادهم (عليهم السلام) . وهؤلاء وإن كانوا فى نظر الشيعة أئمة منصوصين فإنّهم عند الجمهور أئمة فى العلم والدين ، وسادة لهم فضلهم فى الأمة ، ومكانتهم فى الإسلام .

ثم جاء عصر التقليد وحصر المذاهب المتّبعة فى الأربعة ، وبالتالى إقفال باب الاجتهاد ، وما كان هذا رأى أئمة المذاهب أنفسهم ، فقد كانوا يقدّرون العلم ولا يحطّون من شأن غيرهم ، حتّى أنّ الخلاف السياسى بين خلفاء بنى العباس وآل على (عليه السلام) ، والذى كان أساسه اتّجاه الأنظار فى الخلافة إلى هؤلاء

---

١ . وهم : خارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى ، سعيد بن المسيّب ، أبو أيوب سليمان بن يسار ، أبو بكر بن عبد الرحمان بن الحارث القرشى ، القاسم بن محمد بن أبى بكر ، عروة بن الزبير بن العوّام ، عبيد الله بن عبدالله بن عتبة .

ممّا جعل العباسيين يطاردونهم ويضطهدونهم ويحاربون ما يسند إليهم من فقه ، هذا الخلاف لم يترک فى الأئمة أىّ أثر .

فأبو حنيفة يقول : «ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق»[١] .

وحين يصف سعة علمه وإحاطته بالخلافات الفقهية يقول فى حقّه : «وأعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس» .

كذلک كان (رضى الله عنه) عظيم التقدير لأستاذه الإمام زيد بن على بن الحسين ، ومؤازرته له فى دعوته معروفة.

والإمام مالک يقول : «ما رأت عين ولا سمعت أُذن أفضل من جعفر الصادقفضلاً وعلماً وعبادةً وورعاً» . كذلک يقول : «اختلفت إلى جعفر بن محمد زماناً ، فما كنت أراه إلاّ على إحدى ثلاث خصال : إمّا مصلّياً ، وإمّا يقرأ القرآن ... وكان من العلماء الزهّاد الذين يخشون الله» .

وقوله : «اختلفت إلى جعفر بن محمد زماناً» يستفاد منه أنّه كان يحضر عليه ويتلقّى عنه .

وكان الإمامان مالک وأبو حنيفة يرويان عن الإمامين جعفر الصادق وأبيه (عليهما السلام) .

ويقول الشافعى فى على بن الحسين فى الرسالة : «وجدت على بن الحسين أفقه أهل المدينة» .

ولو أنّ الأئمة استشيروا فى حصر المذاهب وإقفال باب الاجتهاد لما وافقوا على الإطلاق .

فالإمام مالک أبى أن يقبل ما عرضه عليه صاحب السلطان ، وفى هذا يروى : لمّا حجّ المنصور قال لمالک : قد عزمت أن آمر بكتبک هذه التى صنّفتها فتنسخ ، ثم أبعث فى كلّ مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم

---

١ . وجاء فى كتاب عمدة التحقيق والتلفيق ما هذا نصّه : «وأمّا جعفر الصادق فقد ملأ الدنيا علمه وفقهه ، ويقال : إنّ أبا حنيفة وسفيان الثورى من تلامذته ، وحسبک بهما» .

بأنّ يعملوا بما فيها ، ولا يتعدّوه إلى غيره ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تفعل هذا ، فإنّ الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كلّ قوم بما سبق إليهم ، وأتوا به من اختلاف الناس ، فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم[١] .

فالمنصور شهد اختلاف العلماء فى عصره ، وهو حاكم نظامى، يهمّه كما يهمّ سائر الحكّام النظاميين أن يتوحّد الناس فى مملكته تحت قانون واحد ، يؤخذ به قاصيّهم ودانيّهم ، ويعمل به فى كلّ ناحية من نواحى هذه المملكة المترامية الأطراف .

ولعلّه من جهة أخرى لم يكن يحبّ هذا الضجيج الذى أثاره العلماء بجدالهم ونقاشهم ، وذهاب كلّ فريق منهم مذهباً يخالف صاحبه وتمسّكه بهذا المذهب حتّى يراه وحده هو الجدير بأنّ يتّبع ، ويرى غيره فاسداً أو باطلاً، كما أنّه من الممكن أنّه من جهة ثالثة أراد أن يرضى أهل الحجاز ويصطنعهم ويتقرّب إلى هذا الإمام العظيم ، إمام دار الهجرة ، وقد بهره ما فى كتابه من العلم المستمدّ من الرواية عن الرسول (صلى الله عليه وآله) ، وعن الثقات أصحابه ، ليخالف بذلك عن سنّة الأمويين الذين كانوا لا ينظرون إلى أهل الحجاز نظرة المطمئنّ إلى ولائهم لسطانهم ودولتهم .

كما أنّ المتتبّع لتاريخ العباسيين ومواقفهم من العلويين يجد سبباً آخر ، هو رغبة المنصور فى الحدّ من نفوذ آل على المذهبى بصرف الناس عن فقههم ، إلاّ أنّ مالكاً ينهى المنصور عن تنفيذ فكرته ، فيعدل عنها عدول من تبيّن له وجه الخطأ فيها ، فقد جاء فى بعض ما روى فى هذا الشأن : أنّ المنصور حين سمع مقالة مالک أكبره وشكره ، ودعا له بالتوفيق .

إنّ مالكاً لم تستهوه هذه الفكرة وإن كان فيها كل التأييد لمذهبه ، ولم ينتهز

١ . القصة موجودة فى كثير من الكتب المطبوعة المتداولة ، وقد نقلتها بنصّها عن ص ۴۵ ج ١ من كتاب حجة الله البالغة للدهلوى .

الفرصة لقبول هذا الاقتراح ممّن يملك تنفيذه وحمل الناس عليه بما له من قوة السلطان والحكم ، فلقد كان أجلّ من أن يخدعه هذا الإغراء عن الحقّ ، وأجلّ من أن يتعصّب لنفسه أو لمذهبه فى هذه القضية الأساسية ، وأجلّ من أن يكتم السلطان ما يجب عليه من النصح له وللمسلمين وإن فوّت عليه هذا النصح ما قد يحرص عليه كثير من الناس .

إنّ مالكاً قد أرجع المسألة إلى أصلها ، ولم ينظر إلى أواخر الأمر فى هذا الخلاف بين علماء الشريعة ، وإنّما نظر إلى أوائله .

إنّه يعلم أنّ كتابه الذى ألّفه وجمعه ليس هو كلّ شىء فى هذه الشريعة ، وليس هو الكلمة الفاصلة فى كلّ أمر من أمورها ، أو مسألة من مسائلها ، فلغيره نظر كنظره ، وبحث كبحثه ، وجمع كجمعه ، وقد يكون عند غيره من العلم ما ليس عنده ، ولعلّه لو اطّلع عليه لأخذ به ، ورجع عمّا كان قد اختاره ، وقد يحمل علمه إلى قوم فى بلد من بلاد المسلمين سبق إليهم من قبله علم عن غيره أخذوا به وعرفوا أنّه الحقّ ، فكيف يحملون على غير ما يعلمون ، كلّ هذا دعا مالكاً إلى أن يقول للمنصور وهو يعلّل إباءه قبول ما عرضه عليه : إنّ الناس قد سبقت إليهم أقاويل ... فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم .

إنّ مالكاً حين أشار على صاحبه أن يدع الناس وما اختاروا لأنفسهم لم يشر عليه بذلك لأنّه لا يعتدّ بأمر المسلمين ، أو لايعبأ بهم ، ولكنّه أشار عليه بذلك لأنّه هو الخير كلّ الخير ، وهو الموافق لما أراده الله عزّ شأنه حين وضع شريعته هذا الوضع الحكيم الرحيم ، ولا يعقل أن يكون مالك قد أراد مع ترك الناس وما اختاروا أن يتعصّبوا لما عندهم ، وأن يحتربوا عليه فيما بينهم ، وأن يقطعوا فى سبيل التعصّب له ما أمر الله به أن يوصل من أخوّة الإيمان وتعاون الإسلام .

❊ ❊ ❊

ولم ينفرد مالك بالنهى عن اتّباعه فى كلّ ما قال به وإلغاء ماسواه ، فقد

حدّثنا التاريخ عن سائر الأئمة بمثل ما حدّثنا به عن مالك .

فأبو حنيفة كان يقول : «لا ينبغى لمن لا يعرف دليلى أن يفتى بكلامى» .

وكان إذا أفتى يقول : «هذا رأى النعمان بن ثابت ــ يعنى نفسه ــ وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب» .

والإمام الشافعى كان يقول : «إذا صحّ الحديث فهو مذهبى» . وقال يوماً للمزنى : «يا إبراهيم ، لا تقلّدنى فى كلّ ما أقول ، وانظر فى ذلک لنفسک فإنّه دين» .

وكان الإمام أحمد يقول : «ليس لأحد مع الله ورسوله كلام» . وقال يوماً لرجل : «لا تقلّدنى ولا تقلّد مالكاً ولا الأوزاعى ولا النخعى ولا غيرهم ، وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنّة» .

ولقد كانت سيرة سلفنا هؤلاء فى ثقة بعضهم ببعض ، وعذر بعضهم لبعض فى كثير من الأحيان آيةً من آيات الله فى الإخلاص وحسن النيّة ، والاحتفاظ بما ينبغى أن يكون بين أهل العلم والدين من أخوّة. رحم الله سعيد بن المسيّب، كان المستفتى إذا أتاه يقول له : «اذهب إلى سليمان بن يسار فإنّه أعلم من بقى اليوم» . كان بعضهم يصلّى خلف بعض مثل ما كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعى وغيرهم رضى الله عنهم يصلّون خلف أئمة المدينة وإن كانوا لا يقرؤون البسملة ، لا سرّاً ولا جهراً .

وصلّى الرشيد إماماً وقد احتجم ، فصلّى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يعد ، وكان إفتاء الإمام مالک بأنّه لا وضوء عليه .

وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة ، فقيل له : فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضّأ ، هل تصلّى خلفه؟ فقال : كيف لا أصلّى خلف الإمام مالک وسعيد بن المسيب؟ وصلّى الشافعى (رحمه الله) قريباً من مقبرة أبى حنيفة (رحمه الله) ، ولم يقنت تأدّباً معه .

على أنّ الفكرة التى أرادها المنصور فى أواخر القرن الثانى وصرفه عنها

الإمام مالک ، قد نفّذها خليفة عباسى آخر قبل منتصف القرن الرابع ، فحصر المذاهب فى أربع ، وبذلک ميّز مذاهب ، وترک مذاهب ، ولم يأخذ عن أئمة أهل البيت مذهباً ، ولعلّ هذا يرجع إلى ما بين العباسيين وآل على من خلاف معروف .

بيد أنّ حصر المذاهب فى الأربعة أدّى ببقية المذاهب إلى الانعزال أو الاندثار.

أمّا الانعزال فيتمثّل فى الشيعة التى تتمسّک بآراء أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، عملاً بالأحاديث النبوية الكثيرة التى وردت بشأنهم ، والتى ذُكرت فى كتب الشيعة والسنّة على السواء ، فهؤلاء الشيعة من إمامية وزيدية عكفوا على مذهب أئمتهم ، «أئمة أهل البيت (عليهم السلام)» ولم يقفلوا باب الاجتهاد عندهم ، ومن هنا كانت المقاطعة التى عزلت هذا الفريق الكبير من المسلمين عن بقية إخوانهم ، وإن لم تقض عليه .

أمّا الاندثار فيتمثّل فى مذاهب عدّة لفقهاء من أعلام أهل السنّة قضى عليها حصر المذاهب ، فلم يعد لها وجود كمذاهب لها أتباعها ومراجعها . أين مذهب الليث ابن سعد؟ أين مذهب الثورى؟ أين مذهب الظاهرى؟ أين مذهب الزهرى؟ أين مذهب الأوزاعى؟ اين مذهب إسحاق بن راهويه؟ هؤلاء كان لهم مذاهبهم واستنباطهم وأتباعهم ، وخلّفوا فى الفقه ثروة نحن فى أشدّ الحاجة إلى الانتفاع بها ، فأين الآن مذاهبهم؟ ألأنّهم لم يكونوا من المذاهب الأربعة يقضى على تراثهم؟ إنّ الفكرة الإسلامية سلسلة متّصلة الحلقات منذ عصر النبوة ، فلا ينبغى أن يكون فيها قديم وجديد ، أو مأخوذ ومتروک .

إنّ مسألة إقفال باب الاجتهاد قد يرجع فى أصلها إلى غيرة على الإسلام مشكورة ، فلعلّ الذين قالوا بها إنّما أرادوا ألاّ تقع فى الدين فوضى ، وألاّ يقع استنباط الأحكام بأيدى رجال غير أُمناء يفتحون على المسلمين ثغرات ، ويتجاوزون حدود ما يصحّ فيه الاجتهاد ، فيحلّلون الحرام ، ويحرّمون الحلال .

ولعلّهم رأوا كيف استغلّ الاجتهاد فى بعض العهود أسوأ استغلال ، وكيف صار سلاح بطش وظلم وجور ، وكيف حاول البعض أن يلبس الأخطاء المقصودة ثوب الاجتهاد ويجعل لها أجراً من الأجرين ، ولعلّهم كذلك رأوا بعض أهل الفتيا يفتون بما يرضى الحاكمين ، ولعلّهم خافوا ازدياد الخلافات عمّا كانت عليه .

لعلّ هذه العوامل كلّها هى التى أوجدت فكرة إقفال باب الاجتهاد عند قائليها ، لكنّنا حين ننادى بفتح باب الاجتهاد إنّما ننادى بمبدأ حقّ التفكير والاستنباط من الأدلّة والأصول الثابتة ، وهو مبدأ ثابت فى الإسلام ، على أن يكون الاجتهاد فيما يصحّ فيه الاجتهاد ، وأن يكون فى حدود أدلّته الشرعية ، والخلاف فيما يصحّ الخلاف فيه لا يضرّ ، بل هو سعة ورحمة ، وهو موجود رغم إقفال باب الاجتهاد ، لا بين المذاهب المتعدّدة ، بل بين أتباع الإمام الواحد .

ولا يصحّ أن يغيب عن القائلين بإقفال باب الاجتهاد أنّنا أصحاب رسالة وعلينا واجبات لابد أن نؤدّيها ، فنحن المسلمون نكوّن خمس سكّان العالم ، والمواصلات ورسائل النقل تربطنا بكل أطرافه شئنا أم أبينا ، وليس فى استطاعتنا أن ننكمش ونغلق بابنا على أنفسنا ، ونتجاهل ما يدور حولنا ، وليس فى مكنتنا أن نحيا حياةً نستغنى فيها عن كلّ ما جدّ ويجدّ ، إنّ هناک مشاكل جديدة تطالعنا ، ومذاهب اجتماعية واقتصادية تحاول غزونا ، ونظماً خاصة تقبل على عالمنا ، وهناک شبابنا الذين يبهرهم كلّ جديد ، فماذا يكون موقفنا تجاه هذه الأمور؟

إنّ هناک قوانين تنظّم روابط الأفراد بالهيئات ، وتجعل لهذه شخصيات معنوية أو اعتبارية ، وترتّب لها حقوقاً ، وتفرض عليها واجبات ، وتنظّم ملكية الفضاء وطبقات الأبنية ، وملكية الاختراعات ، وتحدّد أنظمة المعاملات ، فماذا نضع فى كلّ ما يحدث من شؤون؟

إنّنا أمام أحد أمرين : إمّا أن نستسلم للقوانين الوضعية على اعتبار أنّ فقهنا عاجز عن معالجة ما جدّ ويجدّ من أمور ، وإمّا أن نقرّ بأنّ هناک اجتهاداً ، وأنّ مجاله هو هذا المجال .

ولا أظنّ أنّ مسلماً يرضى بأنّ نأخذ بالقوانين الوضعية التى لاتمت إلى ديننا بصلة ، بدلاً من أن نستنبط حکم الله من شريعتنا الحيّة الخالدة .

على أنّ الاجتهاد نفسه له قيود ، فليس المجتهد من يحفظ قواعد الاستنباط کما يحفظ التلميذ کتبه الدراسية ، بل لابد من أن تکون له ملکة الاستنباط ، وليس کلّ من حصل على ملکة الاستنباط يؤخذ بقوله ، بل لابد بجانبها من ملکة العدالة ، وأىّ رجل يتّسع علمه إلى درجة تمکّنه من الاستنباط ، ويکون له من الاستقامة والتقى والورع ما يحقّق له ملکة العدالة ، يغلب ألاّ يقع فى خطأ أو يتورّط فى متابعة الهوى .

وإذا کان بيان حکم الإسلام فى ما جدّ ويجدّ من مسائل ـ سواء أکان الحکم بالسلب أو الإيجاب ـ يحتاج إلى دراية بها ، ودراسة لنظمها ، وإلمام بما يدور حولها من آراء ، فإنّ الفقه يتقبّل هذا ، وفقهاؤنا يرحّبون به کما رحّب أسلافنا بمثله ، فألمّوا بعلم الهيئة (الفلک) ليعرفوا القبلة ومواقيت الصلاة ، واهتمّوا بدراسة الرياضيات لينتفعوا بها فى تحديد أنصبة المواريث ، ونبغ منهم کثيرون فى هذين العلمين . هذا هو تاريخ الفقه الإسلامى مجملاً ، ولکنّه واضح کلّ الوضوح ، وللمسلمين فى عصرنا الحاضر أن يأخذوا منه العبرة التى تجعلهم حرّاصاً على شريعة الله کما حرص أسلافهم الصالحون ، والتى تجعلهم يفتحون آفاقاً جديدة أمام الناظرين فى هذه الشريعة ، والتى تحتّم عليهم أن ينظروا فى فقه کلّ مذهب ، لأنّ العلم لا يقاطع ولا يکتم ، وفقه کلّ مذهب ملک المسلمين جميعاً .

ونحن إذ نقدّم هذا الکتاب ، إنّما نقدّم فقه مذهب يعمل به ما يقرب من خمس المسلمين ، حُجب عن الجمهور قروناً ، لا لمأخذ عليه ، بل لقطيعة سببها

التعصّب الطائفى ، وغذّتها السياسات المفرّقة .

ومع أنّ الكتاب هو فى فقه مذهب لم يقفل باب الاجتهاد ، فإنّ القارئ يرى فيه من الوفاقيات مع بقية المذاهب كثرة غالبة ، ومن الخلافيات قلّة محدودة ، والوفاق فى الوفاقيات يثبت أنّ الأصول تتحكّم ولا يهملها أحد ، كما أنّ الخلاف يدلّ على أنّ مجال النظر فيما يصحّ فيه الاجتهاد يحترم ويقدّر .

أمّا تاريخ الشهيدين المصنّف والشارح فإنّ صاحب الفضيلة العلاّمة الجليل الشيخ عبدالله السبيتى ـ جزاه الله عنّا وعن المسلمين خير الجزاء ـ قد قام بالترجمة لهما فى دقّة تليق بقلمه ، وعبارة مؤثّرة تصوّر حياتهما وتعرض ما أصابهما ، وذلک إلى جانب قيامه مشکوراً بطبع الكتاب ، وإخراجه على هذه الصورة ، وبذل الجهد فى تحقيقه .

أمّا بعد . فإنّ خير مانختم به هذه التقدمة أن نتوجّه إلى الله جلّ وعلا سائلين إيّاه أن يكثر بين عباده المؤمنين من (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِکَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللّهُ وَأُولئِکَ هُمْ أُولُوا الأَلْبابِ)[1] .

---

١ . الزمر : ١٨ .

القسم الخامس

رسائله الموجّهة

إخلاص ووفاء

ويشتمل على فصلين:

* الأوّل: رسالة موجّهة إلى الشيخ محمد متولّى الشعراوى
وزير الأوقاف وشؤون الأزهر
* الثانى: رسالة موجّهة إلى العالم الاسلامى

الفصل الأوّل
رسالة موجّهة إلى الشيخ محمد متولّى الشعراوى
وزير الأوقاف وشؤون الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد متولّى الشعراوى،

وزير الأوقاف وشؤون الأزهرتحية طيّبة مباركة ، وبعد ، فقد كنت فى الفترات التى أقضيها بمصر ــ فى السنوات الماضية ــ شديد الحرص على الاستماع إلى أحاديثكم فى الإذاعة حول آيات من كتاب الله الكريم ، وكم كان يخطر ببالى أنّكم لو كنتم تقيمون بمصر لاستفدنا وانتفعنا بكم ، ببيانكم الاجتماعى المؤثّر فى جمع كلمة المسلمين ، وإبعاد النفور والوحشة بين أرباب المذاهب الإسلامية المختلفة ، ولطلبنا إليكم الانضمام إلى جماعتنا ــ جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ــ التى شجّع فكرتها المغفور له الإمام المراغى ، وشارك فى تأسيسها رجال من أئمة أهل السنّة ، أمثال الشيخ الإمام عبدالمجيد سليم وشيخنا شلتوت والمدنى وغيرهم (رحمهم الله) ، وأمدّ الله فى أعمار من بقى منهم ، إلى أن رأيت بين المستقبلين لى فى المطار مندوبكم المحترم ، وعرفت فيما بعد رغبتكم فى الاجتماع بنا ، فتفاءلت وهيّأت نفسى لأن أضع أمامكم مشاكل المسلمين، وأن أضع بين يديكم تجاربى ، واستمدّ من شخصكم كعالم فقيه مفسّر ، وكوزير للشؤون الدينية ، استمدّ العون على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم آراء لا تمسّ العقائد التى على المسلم أن يؤمن بها .

وكنت على يقين أنّكم بما كسبتم فى أسفاركم الكثيرة من تجارب ستقبلون

الإسهام معنا فى العمل لجمع كلمة المسلمين .

لكنّنى فوجئت ـ مع الأسف ـ بخطبة الجمعة ، التى ألقيتموها فى التاسع من صفر ١٣٩٧ من فوق منبر الأزهر الشريف ، الأزهر الذى يجب أن يكون للمسلمين جميعاً ، والذى يجب أن يحترمه المسلمون جميعاً ، وبحضور السيد رئيس الجمهورية ، وعلية القوم ، وعامة الناس ، ففى هذه الخطبة بعد ذكر مقدّمة بأنّ كلّ ما يقال على هذا المنبر يكون كلاماً مدروساً فى أروقة الأزهر ، استهللتم بالهجوم على الشيعة الفاطميين ، وأنّ الله بحكمته وقدرته أنقذ الأزهر من أيدى مؤسّسيه ، لأنّهم شيعيون ! والذى حزّ فى نفسى قولكم : ولكن شاء الله أن يخلّصه ـ أى الأزهر ـ ويقصره على المذهب النقى الصافى ، مذهب أهل السنّة والجماعة . ومعناه الصريح نفى النقاوة والصفاء عن أىّ مذهب آخر .

وأرجو يا فضيلة الوزير أن تقدّر موقعى كرجل رسالته التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وإنّى لست فى موقف دفاع عن المذهب الشيعى الفاطمى ، وفى أخذى مذهب الشيعة الإمامية والزيدية فقط إلى جانب مذاهب أهل السنّة فى جماعة التقريب أمرٌ له معناه ، وإنّما أريد أن أدافع عن مبدأ جاءت به دعوة التقريب ، وهو العيش فى سلام وأخوّة للمسلمين ، وعدم توسيع الشقّة بينهم، وعدم الهجوم عليهم ، والعمل على جمع كلمتهم .

والموقف الذى أقفه حيالكم هو موقعى من كلٍّ من الشيعة والسنّة على السواء . ولو أنّ خطيباً شيعياً ذكر عن أهل السنّة مثل ما ذكرتم بالنسبة للشيعة، ونفى النقاء عن مذهبهم لوقفت منه موقفى منكم الآن .

أليس قصر المذاهب على أربعة جاء لأنّ خليفةً من العباسيين أراد تجاهل مذهب أهل البيت ؟ ولولا الخصومة بين العباسيين وبين آل البيت لما تجاهلوا مذهب أئمة أهل البيت . وهل لو أخذ الخليفة العباسى بمذهب إمام جليل كالإمام جعفر بن محمد الصادق ، هل كان يوصف مذهبه بعدم النقاء وخلوّه من الصفاء؟

ولا بد أنّكم تعلمون من هو جعفر الصادق ، وتعلمون قطعاً من تتلمذ عليه من أئمة المذاهب ، وكم أودّ أن تدرسوا مذهبه الفقهى ، وأن تطّلعوا على بعض ما أُلّف حول فقهه ، وستعلمون أنّه مذهب نقى صاف يضارع المذاهب التى وصفتموها بالنقاوة والصفاء ، وكذلك الأمر بالنسبة للشيعة الزيدية ، وأنتم تعلمون من هو الإمام زيد ، ومن من أئمة المذاهب تتلمذ عليه .

وأنت أدرى منّى بأنّه ما من فقيه يمكن أن يقول فى مسألة من المسائل الاجتهادية : هذا علمى ومن لم يأخذ بعلمى فهو خارج عن دينى ، بل يقولون : هذا ما وصل إليه علمى أو هذا هو دليلى ، فمن وجد دليلاً أقوى فله أن يأخذ به ويضرب بقولى عرض الحائط .

هذا هو شأن اختلاف المذاهب الإسلامية فى المسائل الاجتهادية ، سنّيهم وشيعيّهم ، فلا يصحّ أن يتّصف جزء منهم بالصفاء وجزء آخر بعدم النقاء بعد اتّفاقهم على الأصول ، وهم لله الحمد متّفقون عليها .

ولعلّكم تتّفقون معى على أنّ مثل هذا الكلام فى هذا الوقت بالذات فوق أنّه لم يكن هناك داع لذكره ، فإنّه تجريح لعواطف الشيعة ، مع أنّ هناك مسألة لابد أن نعمل لها كلّ الحساب، وهى الصداقة القائمة بين امبراطور إيران وبين السيد رئيس الجمهورية . كذلك فإنّه ـ بغير شكّ ـ يتعارض مع الاحتفاء بى وأنا ضيف القاهرةالآن ، يجتمع بى رجال الدين ورجال العلم والصحافة تقديراً لدعوتى التى هى الدواء للأمة الإسلامية التى شتّتتها التفرقة ، ومزّقها التعصّب للمذهبية . وفضيلتكم بلا شكّ تقدّرون ما قامت به إيران شعباً وحكومةً نحو هذا البلد الطيّب فى محنته القاسية . أليس ما صنعوه منبعثاً عن عصبيتهم للإسلام وعواطف إخوة الإيمان ؟

وإنّى لأرجو ألاّ تتأثّر روابط الأُخوّة بين الشيعة فى إيران وغيرها مع أهل السنّة بعد طول ما قمنا به ، فقد يظنّ أنّ الحديث فيه إزراء على مذاهب الشيعة، لأنّ ما جاء من عدم النقاء والصفاء جاء عامّاً دون تخصيص .

يا فضيلة الأخ : لا تنس أنّنا أمام قوة إلحادية جارفة مارقة ، وأنّنا مهدّدون فى عقائدنا وكياننا ، ولا تنس أنّ عصر تكفير المسلم لأخيه المسلم قد ولّى من غير رجعة ، ولاتنس أنّه لا قيام ولا قوة للمسلمين إلاّ بوحدة الكلمة ، ووحدة الكلمة لا تأتى إلاّ بنبذ التعصّب واحترام المسلم لأخيه المسلم .

هذا ، وإنّى لا أزال أقدّركم ، وأرى فيكم الخير ، وبانتظار ما يتطلّب الموقف منكم ، خاصةً وأنّ الخطبة أُذيعت فى الآفاق .

أدعو لكم بالتوفيق والسداد . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

١٢ صفر ١٣٩٧ هـ ـ ٣١ يناير / كانون الثانى

١٩٧٧ م

الفصل الثانى

رسالة موجّهة إلى العالم الاسلامى[١]

تواصلت ردود الفعل بشكل قوى على النداء الذى كان وجّهه الزعيم اللبنانى الكبير الرئيس صائب سلام من أجل تحرّک عربى لإنقاذ لبنان . وكان النداء قد وجّه عبر الشرق الأوسط ، وامتدح فيه الدور الإيجابى الملحوظ لخادم الحرمين الشريفين الملک فهد بن عبد العزيز الذى أكّد فى الأوان الأخير أنّ إنقاذ لبنان مسؤولية عربية .

وتلقّت الشرق الاوسط أمس ردّ فعل الشيخ محمد تقى القمى مؤسّس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية وسكرتير عام جماعتها ، وأيّد فيه نداء الرئيس سلام ، وفيه قال :

استمعت إلى نداء الزعيم اللبنانى الرئيس صائب سلام بشأن محنة لبنان . وكان نداءً قوياً ، صريحاً متّصفاً بالواقعية ، ولا أشكّ فى تأثّره على كلّ من سمعه ، لا سيّما وإنّه صدر عن شخصية ، عرفت بكونها من أصحاب المبادئ .

كنت استمع إلى النداء ، وتمرّ أمامى ذكريات عن هذا البلد الذى أحبّه وليس غريباً عنّى ، وكان يعجبنى فيه ويلفت نظرى جوّ التآلف والسماح بين أتباع الأديان السماوية فيه بعضهم بالبعض الآخر ، وكذلک الفرق الكثيرة التى يعيش فيه أفرادها معاً فى أُلفة ووداد . وقد كتبت فى مذكراتى ذات يوم : «إنّ هذا البلد الجميل ـ رغم صغره ـ عرف كيف يختار لنفسه هذا الجوّ الممتاز الملىء بالحبّ والسماح» .

---

١ . نشرته صحيفة الشرق الأوسط الصادرة فى ١٢ تشرين الاول سنّة ١٩٨٨ م العدد ٣٦٠٦ .

أمّا النداء ، فكان إنذاراً بما كان لبنان معرّضاً له وهو التفتيت . هذا الخطر العظيم الذى يهدّد كيان لبنان ، وهو بذلک لو تحقّق تغنى خطورته عن البيان ، ولو لم يكن فى هذا النداء إلاّ هذا فقط فهو يكفى لبعث أعظم الاهتمام فى الذين وجِّه إليهم ... غير أنّه أُشير فيه إلى ما هو أشدّ من التفتيت وأنكى ، وهو تطاير شرر ما قد يحدث فى لبنان إلى الدول العربية الأخرى ، فيحدث هناک ما حدث فى لبنان... ويا للمصيبة الكبرى !

وهنا أقف لأقول بوصفى رجلاً من رجال الدين ، يحمل فى نفسه المسؤولية ، وكمسلم صرف حياته فى سبيل وحدة كلمة المسلمين والتقريب بين مذاهبهم، بأنّ الخطر الذى خصّه صاحب النداء بالبلدان العربية لا يخصّها وحدها ، بل يهدّد البلاد الإسلامية سواء بسواء .

إنّ الفواصل لا دور لها فى عالمنا الحديث وفى وسائل إعلامنا المتقدّمة ، فما يقع فى المشرق تظهر آثاره فى المغرب فى ساعات ، وما من بلد من البلدان الإسلامية ـ عربية كانت أم غير عربية ـ إلاّ وفيه الأكثرية والأقلية الدينية ، أو الطائفية أو الجماعات التى أوجدتها الايديولوجيات المستوردة المتطرّفة.

فإذا نجح هذا المبدأ ـ التفتيت ـ فى بلد ما ، لا سيّما لبنان ـ بلد السماح ـ فكيف يمكن أن تنجو منه دول إسلامية أخرى فيها طوائف وأقلّيات ؟ إنّه عدوى إذا سرت لن يسهل وقفها .

ومع اهتمامى بعلاج محنة لبنان ليخرج موحّداً مستقلاًّ ، وتموت فتنة التفتيت فى مهدها ، اسمح لنفسى أن أوجّه كلمةً إلى زعماء الدين من الطائفتين معاً : الأعلام علماء الإسلام العظام ، والسادة الزعماء الروحيين المسيحيين ، ليبثّوا بين الناس روح السماح ، ويقوموا بما يجب عليهم القيام به فى هذه الظروف كرسل للسلام ، فيسجّلون بذلک أمام العالم قيمة الدين وتأثيره فى إصلاح ما عجزت عنه المنظّمات الدولية ، وما أوجدته السياسات العالمية لضمان الأمن والسلام .

وأُخاطب القادة ورؤساء البلاد الإسلامية العظام ، لأُطالبهم بأنّ يساهموا

ويهتمّوا بإعادة الهدوء والأمن والسلام إلى لبنان ، حفظاً لأمن البلاد ومصالح المنطقة بأكملها ، وأنّ التاريخ سيسجّل مواقفكم الحميدة من أجل البلد الجميل .

القسم السادس

بعض مقابلاته ولقاءاته الصحفية

إيمان وصلابة

ويشتمل على خمسة فصول :

❋ الأوّل: لقاؤه مع مجلّة روز اليوسف
❋ الثانى: لقاؤه مع صحيفة الأهرام
❋ الثالث: لقاؤه مع صحيفة الأخبار
❋ الرابع: لقاؤه مع صحيفة الأخبار
❋ الخامس: لقاؤه مع صحيفة الإهرام

الفصل الأوّل
لقاؤه مع مجلّة روز اليوسف[1]

كتب المحرّر يقول :

على امتداد الحوار معه كان يملأ عقلى وقلبى اقتناع وإحساس بالصدق والنقاء أنّنى فى حضرة واحد من الثوّار المجاهدين الذين تنبّأ رسول الله عليه الصلاة والسلام يظهورهم من بعده : «إنّ الله يبعث كلّ مائة عام من يجدّد أمر دينه».

نعم ، إنّ دعوته للتقريب بين المذاهب الإسلامية ثورة على السائد والمألوف ، وجهاد متّصل لتأصيل روح الدين الحنيف ، وأول مبادئه فى توحيد الكلمة ، ونبذ التعصّب ، وسدّ أبواب الفرقة والخلاف .

صاحب الدعوة والداعية هو الإمام محمد تقى الدين القمى ، وسماحته لم يعد غريباً على سمع أحد من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما لم تعد دعوته للتقريب المذهبى بالمستوحشة بين دعوات الإصلاح والتجديد التى حفل بها التاريخ الإسلامى زهاء أربعة عشر قرناً من الزمان .

لعلى بن أبى طالب كرّم الله وجهه قولة حقّ ليست ببعيدة عن حال الإسلام وأحوال المسلمين اليوم : «أول الحرب الكلام» . ولقد مضى من عمر الدعوة والداعية ما يقرب من أربعين عاماً فى جهد جهيد لايعرف الكلل ، وارتحال ومشاقّ من أجل أن تتوحّد كلمة المسلمين ، نهجاً وتأسيّاً بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام : «لن يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها».

---

١ . الصادرة فى ٧ مارس / آذار سنة ١٩٧٧ م .

وأقول الحقّ : إننى دخلت مجلس الإمام «صحفياً» يبحث عن ثغرات فى دعوة التقريب ، ورغم القضايا المتشابكة التى حوّمنا حولها ، وحاولت قدر فهمى أن أتوقّف عندها ، إلاّ أنّ دراية الرجل وحنكته وجلاء بصيرته سلبتنى كلّ ملكات المناورة والبحث عن القصور . وهكذا ودّعت مجلسه وأنا أشدّ إيماناً بدعوته إلى سدّ الثغرات ، ودعم أواصر الفهم والاتّفاق ، واستشراف آفاق الإسلام الرحبة التى ترى فى الاختلاف بين المذاهب رحمةً بالناس ويسراً !

ولم يكن من الصعب أن أتفرّغ لتسجيل نصّ حديثه وعباراته ومفرداته ، لكن فيض الله على الإمام وإشراقاته أنستنى مهمتى ... وكأنّنى مبهور ومسحور أمام ذلك الرجل المتجدّد الفكر الوافر الهمة ، وهو يسكب فى حديثه روحاً وإشعاعاً وإيماناً وتجرّداً للدعوة التى نذر لها حياته وجهده وماله ... حتّى تعود الأمة الإسلامية خير أُمة أُخرجت للناس !

ولست أدرى كيف بدأنا الحديث ، ولكنّى أذكر الآن بعض آرائه وأفكاره التى ردّدها وسط مجلسه الذى ضمّ بعضاً من المتشيّعين لدعوته ، والعارفين لفضله ، ومريديه وتلاميذه الذين سمعوا عن زيارته لمصر ، فجاءوا ينهلون من مناهل علمه وروحه المتّقدة بالغيرة على الإسلام :

● عندما تسود الدنيا بحالك الظلم والمظالم ، وعندما يتوه الناس بين دوائر الشرك والتخلّف والفرقة ، فذلك مناخ وزمان ظهور الأنبياء والرسالات ، والدعوة الجديدة دائماً وأبداً تحمل فى طيّاتها روحاً جديدةً وتياراً متدفّقاً للإنقاذ والإغاثة ، وقلباً لكل الأوضاع البالية والمهترئة ، وإرساءً لنظام وقواعد بديلة يلتفّ حولها الناس ، ويعبّرون فوقها إلى ضياء الحقّ والخير والعدل والتقدم .

● رجل الدين فى الإسلام من تمثّل أخلاق الرسول ، والتزم أصول العقيدة ، هو رجل ثائر لايتوقّف جهاده ضد الظلم والجور ، ظلم الشرك ، وظلم الإله والواقع والحقيقة . ولأنّ الدين الإسلامى رسالة الثائرين ، من هنا كان ارتداء رجال الدين زى الزهّاد والمجاهدين إبّان صحوة الدعوة وفتوحاتها وانتشارها .

● هل فقد المسجد دوره وتأثيره؟ معظم الذين يؤمّونه فى زماننا هذا من العجزة وكبار السنّ ، أين الشباب؟ ولماذا انصرفوا عن المساجد ؟ هل يفتقدون حاجتهم عند خطباء المساجد ؟ رجل الدين الذى يتصدّى للإرشاد والتوجيه من فوق المنبر مبشّراً بالجديد فى الغالب ، ليس فقط فى أمور الدين ، ولكن أيضاً فى أمور الدنيا ، عليه أن يتابع نمو الشرّ واستفحال الرذيلة والظلم فى نفس الوقت الذى يتابع فيه أوجه الخير والفضيلة والعدل . الطبيب شاغله علاج البدن ، ورجل الدين مسؤوليته علاج الروح التى تتحكّم فى البدن . إنّ ٦٠٪ من حالات المرض فى هذا العصر هى أمراض الروح أو الحالة النفسية كما يقولون .

● الأمة المتخلّفة فى نظر الإسلام من ضربت عليها الذلّة والمسكنة ، وهو وصف القرآن لبنى اسرائيل، لكن حال بنى اسرائيل اليوم تغيّر وتبدّل ، لأنّهم أخذوا بأسباب الحضارة والقوة والعلم ، بينما تخلّفنا فى حلبة الحضارة والعلم والإيمان أمداً طويلاً رغم ثرواتنا واتّساع أراضينا وشواطئنا ، ورغم زيادة عدد المسلمين إلى ٧٠٠ أو ٨٥٠ مليوناً ، ثم كانت المحصلة أنّ اسرائيل التى لايزيد سكانها عن مليونين تذيقنا ألواناً من التعصّب والاغتصاب والقهر ! .

❊ ❊ ❊

تلك بعض الآراء والأفكار التى كان يطرحها الإمام القمى عندما دخلت عليه مجلسه ، وهكذا كان مدخلى إليه ، إلى الداعية والدعوة .

ولقد كانت ولادة أو نشاة فكرة التقريب فى إيران على يد الإمام محمد تقى الدين القمى فى وسط يدين بالمذهب الشيعى ، وكأى أصحاب الدعوات تحمّل الداعية ألواناً من المعاناة وحملات التشكيك ، إلاّ أنّ الدعوة كسبت عوامل الاستمرار والثبات ، من صدق قصدها ، ووضوح حجّتها ، الأمر الذى كسب إلى صفّها كبار علماء الإمامية ، وفى مقدّمتهم مولانا البروجردى إمام الشيعة قاطبةً ، ثم كان لشخص الداعية فضل كبير فى انتشارها والانتصار لها فى العالم الإسلامى ، فالرجل واحد من القمم الشوامخ الذين يتصدّرون علماء الشيعة ،

وهو من جهة أخرى ليس فى حاجة إلى مال ، وفوق كلّ إغراء ، وما تدرّه عليه الزراعة وكدّ يده يكفيه ، ويفيض الكثير الذى يصرفه فى وجوه الدعوة .

رقيق البدن فى غير نحافة ، بسيط الثياب ، ودود العبارة ، تحسبه فى الأربعين أو الخمسين وهو يمارس نضاله اليومى ، وهو يتكلّم ويناقش فى همّة الشباب وصحوتهم رغم اقترابه نحو سبعينيات العمر التى تفصح عنها لحيته التى ودّعت السواد ، واحتفظت بالهيبة ووقار المشيب .

ومرّت دقائق كنت أتأهّب خلالها للحوار ، بينما الإمام يرحّب بضيفه، ويطلب لى فنجاناً من القهوة ثم فتح الله علىّ و قلت وأنا أتحسّس كلماتى : كنت أودّ ألاّ تفوتنى جلستك مع أبنائك ومريديك ، ولكنّها مشكلة المواصلات وحركة المرور فى القاهرة حالت دون الوصول فى الموعد؟

قال الإمام : يا أخى ، لقد عرفنا فى مصر والمصريين العزم والسبق دائماً لكلّ خير ، وشتّان بين أحوال المصريين بعد نكسة ١٩٦٧ وحالهم بعد حرب رمضان ! كان حديثهم مبتئساً يفقد الأمل فى المستقبل ، أمّا اليوم فقد تبدّل كلّ شىء رغم تراكمات المشاكل والمعاناة ... وأشعر أنّ المصريين استعادوا قوتهم الروحية وإيمانهم بالمستقبل ، وإصرارهم على حتمية النصر على مشاكلهم وعلى أعدائهم .

نبرات الإمام الهادئة تعدل مسار الحديث . وأساله :

■ فى تقدير سماحتكم ، ما هى الدلالات وراء هذا التغيير الذى طرأ على المسار الروحى للشعب المصرى بعد حرب رمضان؟

● الله قوى، يحبّ للمسلم أن يتمثّله فى قوته ، ويحبّ أن يسعى إليه العبد بالصلوات والعبادة والدعاء وهو قوى ، فالرجل المتزلزل المهزوز لا يتوسّل إلى الله بقوة ، والدين الإسلامى يسعى للتكامل بين القوة والروح ، ليس قوةً للطغاة والجبابرة ، ولكن قوة الحدث والتأثير والفعل ، ولم يكسب الإسلام رغم حجّته وبيانه مزيداً من الأنصار إلاّ عندما ساندته القوة .

ويداعب الإمام مسبحته ثم يتابع أجابته على السؤال : من خلال ملاحظاتى واستقرائى للأوضاع فى مصر ، أستطيع القول : إنّ حالة الإقبال على الدين بعد نكسة ١٩٦٧ كانت مشوبة بالإحساس بالذنب. بعد حرب رمضان نجد أنّ العودة إلى رحاب الإيمان والعقيدة وعمران المساجد ورواج الفكر الدينى بين الشباب ظاهرة تستلفت النظر ، لأنّ الشباب رمز لقوة المجتمع، وجواد السباق إلى المستقبل ، حرب رمضان كانت انتصاراً لإرادة الأمة وقوتها المادية وقوتها الروحية . ومن هنا كان شعار «الله أكبر» الذى تردّد فى سيناء معنى له وزنه ومغزاه على كلّ مؤمن أن يتوقّف عنده كثيراً ، ويستخلص منه العبر والدروس .

■ هل ترى سماحتكم أنّ حرب رمضان عكست آثارها الايجابية على دعوتكم للتقريب بين المذاهب؟

● مصر على مدى تاريخها الاسلامى كانت دوماً مصدر قوة ودعم لكل حركات التجديد فى الفكر الإسلامى . ومنذ الشباب وأنا جوّال الفكر والبصر فى أحوال المسلمين ، وجدت أنّ اختلاف كلمتهم سبب كلّ ضعفهم ، واستهانة أعدائهم ، لأنّ أعداءهم لايواجهون أمة موحّدة الفكر والكلمة ، ولكنّها أمة ممزّقة شيعاً ومذاهب متناحرة ، وهو ما أتاح للمستعمر أن يرتع فى أرض الخلافات الخصبة ، ويضرم فيها النار لتزداد اشتعالاً وفقاً لشعار : فرّق تسد . إنّ أحد الدروس المستفادة من حرب رمضان يأتى من جدوى وفاعلية التضامن والترابط بين الشعوب والدول الإسلامية مع مصر ، ودعم موقفها وصمودها ، وممّا لا شكّ فيه أنّ دعوة التقريب نالت حظاً وفيراً من إيجابيات حرب رمضان ، لأنّها دعوة إلى وحدة الكلمة ووحدة الصف ، وسبيل إلى قوة الإسلام والمسلمين ، الأمر الذى هيّأ للدعوة أفضل مناخ للاقتناع بها ومناصرتها ، ليس فقط بين العلماء ورجال الدين فى مصر .ولكن أيضاً بين الشباب وعامة الناس .

■ حدّثنى عن استقبال علماء السنّة فى مصر لدعوة التقريب؟

● أتيت إلى مصر الكنانة عام ١٩٣٧ استمدّ من علمائها الدعم والفهم

المشترک لدعوة التقريب ، ولم أكن فى حاجة إلى بذل جهد كبير ، فقد وجدت العقول والقلوب معى ، ووجدت علماء أهل السنّة يدور بخاطرهم ما دار بخاطرى ، وأنّ ما بين الشيعة والسنّة من اتّفاق على أصول العقيدة يجب ما بين تلک المذاهب من أسباب الخلاف والاختلاف .

كلانا متّفق على أنّ إلهنا واحد ، ونبيّنا واحد ، وكتابنا واحد ، لا يختلف السنّى عن الشيعى ـ ولله الحمد ـ فى كلمة من كلمات القرآن ، وهذا فخر ، وأىّ فخر ، للدعوة الإسلامية !

■ وفيم الاختلاف إذاً ما دامت أركان الإسلام الخمسة شرط من شروط الإسلام الصحيح لدى مختلف المذاهب؟

● هذا هو السؤال ، لقد عملت مراحل سياسية وأنظمة متعاقبة هنا وهناک على منع المسلم فى هذا المذهب أو ذاک من أن يمدّ بصيرته ويتعرّف على ما لدى أخيه من حجّة أو اجتهاد رغم أنّ قبلة المسلمين على اختلاف مذاهبهم واحدة ، وهى الكعبة المشرّفة ، وصلواتهم المفروضة خمس صلوات من ركعاتها وسجداتها وقراءاتها وإن كان هناک خلاف فى: هل يكفى جزء من السورة بعد الحمد أم السورة كاملة . ثم إنّ صوم المسلمين واحد وإن كان هناک اختلاف بين صوم السنّة والشيعة ، فإنّ أهل السنّة يفطرون بمغيب الشمس ، بينما الشيعة يشترطون ذهاب الضوء تماماً ، أى بعد المغيب بربع ساعة زيادةً فى الحيطة .

تكسو ملامح وجهه ابتسامة بالرضى ، ويقول : وكما ترى هذه أمثلة من الاختلافات بين مذاهب أهل السنّة ومذهبى الشيعة : الإمامية والزيدية وهى خلافات من الظلم للإسلام الذى جاء من أجل إعلاء كلمة المسلمين ووحدتهم وقوتهم . إنّ بين الشيعة والسنّة فى مسألة الإمامة أو الخلافة فأمره معروف وأدلّة كلٍّ فريق يرجع إليها فى كتب كلٍّ منهما !

■ وماذا قدّمت الدعوة من أساليب ومناهج للتقريب بين المذاهب السنّية والشيعية؟

● بداية الدعوة كانت بمثابة إشعال الضوء على طبيعة الخلافات الثانوية بين المذاهب ، والتى لا تمسّ جوهر العقيدة وأصولها الثابتة . ذلک أنّ كثيراً من الأفكار والأوهام المتبادلة بين المذاهب نمت وترعرعت فى الظلام ، كان شعارنا «أعرف أخاک تعرف على أفكاره ، إذا لم تقتنع اعذره واحترم رأيه» .

❊ ❊ ❊

الإمام المراغى وفكر الشيعة

كنت استعدّ لمواصلة طرح أسئلتى على الإمام ، وإذا بشريط من ذكريات الدعوة الأولى تمرّ بخاطرى .

إنّ العشر سنوات الأولى من عمر الدعوة فى مصر ليست بالزمن الطويل فى عمر الدعوات والثورات ، لأنّ الدعوات والرسالات تستهدف قلب أوضاع راسخات ، عاشت وعششت فى العقول أجيالاً وحقباً من الزمان .

وعندما أرسل الإمام القمى بدعوته إلى مصر عام ١٩٣٧ التقى بالإمام الأكبر مصطفى المراغى شيخ الأزهر الذى تفهّم دعوته وحسن قصده ، وكان سنداً ونصيراً قوياً للدعوة ، حيث جمع ما بين الإمام القمى وكبار علماء مذاهب السنّة ، من أمثال : الشيخ عبدالمجيد سليم ، ومصطفى عبدالرازق ، واللبّان ، والفحّام ، ودار النقاش طويلاً ومثمراً بينهم حول فكرة التقريب بين المذاهب ، وأثرها فى وحدة كلمة الإسلام والمسلمين و... سقطت الكثير من المحاذير ، وانفتحت القلوب والعقول تحتضن الفكرة وتناصر صاحبها .

ومنذ ذلک التاريخ حدثت تحوّلات غاية فى الاهمية فى مناهج وفكر أهل السنّة ، وكان الفضل يرجع إلى الإمام المراغى الذى تفجّرت على يديه ينابيع ظلّت محبوسه فى العقول والكتب وحلقات التدريس فى الأزهر سنوات وقروناً ، وكان يرحمه الله قد بدأ يعتمد فى تدريسه للتفسير بالأزهر ـ معقل فكر السنّة ـ بعدد من مؤلّفات ومراجع «الإمامية» ، مثل كتاب مجمع البيان ، وكان لهذا الحدث وقعه وصداه فى العالم الإسلامى كلّه .

وفى عام ١٩٤٨ ، أىّ بعد عشر سنوات من التبشير بالفكرة فى مصر ، عاد الإمام القمى ليكتشف أنّ فكرته قد أصبحت دعوة يتبنّاها عشرات العلماء وأقطاب المذاهب السنّية ، وكثيرون من أصحاب القلم وقادة الفكر والاجتماع والقانون فى مصر ،وأدرک الداعية أنّ البذرة قد أنبتت وأثمرت وحان قطافها، وكان أن أسّس جماعة التقريب ، وتتوالى الاجتماعات بين كبار علماء أهل السنّة والفكر والقانون والاجتماع وبين علماء الشيعة ، وتتّفق الآراء على أنّ المذاهب المشاركة فى «جماعة التقريب» مذاهب متّفقة فى أصول العقيدة ، وأنّ خلافاتهم اجتهادية فى الدائرة المقبولة .

وسقطت كثير من الأفكار الجامدة التى سادت طويلاً لدى كلّ مذهب عن الآخر ، وكانت هناک شائعات تكاد ترقى إلى مرتبة الجزم واليقين : أنّ بعض نسخ القرآن التى يتداولها الشيعة محرّمة ، وثبت لدى المذاهب السنّية بشكل قاطع أنّه لا يوجد بين ملايين النسخ المتداولة بين الشيعة تحريف واحد ، لا فى الكلمة ولا حتّى فى التشكيل . وكان بعض الشيعة على قناعة أنّ أهل السنّة فى مصر لا يحبّون أهل البيت ، فاذا بهم يكتشفونهم متشيّعين لأهل البيت أكثر من الشيعة .

■ وأسأل الإمام القمى : ماذا قطعت الدعوة من أشواط منذ تأسيس جماعة التقريب؟

● يداعب مسبحته فى هدوء ويقول : إنّ أول الغيث قطرة ، وهذه القطرات كانت مستعصية على النزول وسط الضباب والغبار الكثيف الذى اكتنف مسيرة الدعوة . كانت قطرة الندى التى بلّلت جبين الدعوة ، عندما أصدر الإمام الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر فتواه الشهيرة فى يناير عام ١٩٥٩ فى جواز التعبّد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول والمعروفة المصادر ، ومنها مذهب الشيعة الإمامية . وفى الحقيقة أنّ تلک الفتوى صدرت فى اجتماعات دار التقريب عند تأسيسها عام ١٩٤٧ ، وكان الشيخ محمود شلتوت آنذاک أحد المشاركين فيها ،

ثم أعاد تأكيدها ودعمها سواء بتوزيع صور الفتوى «الزنكغرافية» فى مختلف بلاد الأمة الإسلامية ، وسواء فى ردوده على أسئلة السائلين واستفتاءات المستفتين التى كانت تأتى إليه من الشخصيات والمحافل الإسلامية .

ويحلّق الإمام القمى بعيداً كمن يبحث عن شىء أو يتذكّر أمراً ، ثم يقول : الإنسان فى العادة لا يدرك كيف تغيّرت أحواله من الطفولة إلى الشباب ، ولا من الشباب إلى الرجولة . كذلك دعوة التقريب ، لم تعد أسيرة مرحلة التعريف بها والردّ على حملات التشكيك والافتراءات التى وجّهت إليها . نحن الآن فى مرحلة العمل المنظّم الذى يتحكّم فى المستقبل المرتجى للدعوة : أن يسرى تيارها ليس فقط بين رجال الدين والمحافل الإسلامية فحسب . ولكن أيضاً بين قادة الفكر والرأى وعامة الناس ، حتّى تؤتى ثمارها فى وحدة كلمة الأمة الإسلامية فى مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع.

■ ماذا عن الجديد فى مناهج وفكر جماعة التقريب؟

● إنّ دعوة التقريب فى حقيقتها حرب شعواء بالقلم والفكر وكلّ أدوات الاتصال ضد تنابلة المسلمين ، الذين يصدّون عن قراءة ما لدى إخوتهم من المسلمين الذين يجاورونهم أو يعيشون بينهم ، هؤلاء الذين تجمّدوا عند حدٍّ ما سمعوا من أسلافهم دون مراجعة وتفكير وتمحيص!

أمثال هؤلاء وهؤلاء ، نسعى إلى أن نصل إليهم فى عقر دارهم ، فى عقر عقولهم ، وهم فى النهاية يتناقصون ويعزلون أنفسهم عن دعوة التقريب التى تكسب إليها كلّ يوم مزيداً من المتفهّمين والمؤيّدين والدعاة .

وفى مصر على سبيل المثال حركة تأليف وتحقيق نشطة لدار التقريب، شعارها «أعرف أخاك» ، وهناك عشرات العلماء الأجلاّء يضعون الآن كتاب الفقه الجامع الذى يقنّن فقه علماء السنّة وعلماء الشيعة فى العبادات والمعاملات ، وعشرات من العلماء آخرون يعكفون على تحقيق كتاب تفسير مجمع البيان فى عشرة مجلّدات . وهو فى رأى الكثيرين أدقّ وأشمل تفسير

للقرآن .

■ قلت : أذكر قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : «إنّ الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن» فهل تحجم دعوة التقريب عن كسب الأنظمة والحكومات الإسلامية بما لديها من قوة التأثير فى نشر الدعوة؟

● كان حذرنا فى بداية الدعوة أن نتجنّب الولوج إلى ميادين السياسة أو نستدرج إليها ، وكان الجو ملبّداً بغيوم التشكيك والافتراءات ومحاولات الاستقطاب . والآن بعد أن رسخت أقدام الدعوة ، وعرفها القاصى والدانى لوجه الله وخير المسلمين قاطبة ، يسعدنا بالطبع كلّ عمل من شأنه أن يدعم الدعوة، ويفسح لها مجال الانتشار والازدهار . ويسعدنا أكثر أن يتوقّف كلّ عمل من شأنه وضع العقبات والمعوّقات أمام توجّهات الدعوة لجمع كلمة المسلمين وقوتهم .

إنّ دولة اسلامية واحدة ـ مهما صغرت رقعتها وعدد سكانها ـ تسعى لأن تكون مثالاً حيّاً لمبادئ الإسلام فى الحكم والعدل والمساواة ، يمكن أن تقدّم للإسلام والمسلمين القدوة الحسنة لبقية الدول والشعوب الإسلامية إذا ما نجحت فى التطبيق والممارسة السليمة .

❊ ❊ ❊

وتمضى ساعتان وأكثر ، والإمام القمى ما زال متدفّق الروح واسع الصدر ، وكان علىّ أن انسحب بلطف .

■ هل أسألك عن أمنياتك لدعوة التقريب؟

● قال وهو يشدّ على يدىَّ مودّعاً : دعنا من الأحلام ، وعلينا أن نتمنّى ما هو ممكن التحقيق ، إنّنى أطمع فى جيل جديد من المسلمين تربّى على المعرفة والاستكشاف ورحابة الفكر .

ماذا لو وضعت مناهج لتدريس الدين الإسلامى بمختلف مذاهبه واجتهاداته فى المعاهد والجامعات الإسلامية ، وأن تدرَّس نفس المناهج بشكل مبسّط فى

مختلف مراحل التعليم المدنى ، بذلك نكسب مستقبلاً للأمة الإسلامية ، دعائمه الفهم والوفاق ، وليس التعصّب والاختلاف .

■ سؤال فى الصميم يا سماحة الإمام ، لكنّى ـ للأسف ـ لا أملك إجابته!

يوسف الشريف

الفصل الثانى
لقاؤه مع صحيفة الأهرام[1]

■ قلت لسماحة الإمام محمد تقى القمى، العالم الإيرانى الشيعى، صاحب دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية: بصراحة، ماذا تريد؟ هل تريد أن تجعل السنّى شيعياً ، أو أن تجعل الشيعى سنّياً ، أم تريد من كلٍّ منهما أن يتنازل عن بعض معتقداته ؟

● أنا لا أطلب أن يتحوّل أصحاب المذاهب عن مذاهبهم ، كلّ ما أدعو إليه هو أن يتعرّف أصحاب كلّ مذهب على أفكار المذاهب الأخرى ، فأمّا أنّ يقتنع ويلتقى معه ، وأمّا أن يحترم مالدى الآخر لأنّ لديه دليله . وأعتقد أنّ بناء الأمة الإسلامية وثقافتها سوف يصبح أقوى وأكبر إذا أضفنا الثروة الفقهية للشيعة إلى ثروة أهل السنّة ، الشيعة عددهم الآن ١٠٠ مليون مسلم ، ولهم حوالى ٢٥ ألف كتاب فى الفقه ، كلّها باللغة العربية ، فلماذا لا يتعرّف أهل السنّة عليها؟

■ بصراحة أيضاً ، لماذا جئت بدعوتك إلى القاهرة بالذات؟

● لأنّها قلب العالم الإسلامى ، وفيها الأزهر وهو أكبر جامعة تحمى الإسلام ، لهذا أردت أن أبدأ بحلّ المشكلة مع الأزهر ، وفيه أكبر رجال السنّة .

■ وهل فى طهران فرع لدار التقريب كما فى القاهرة؟

● دارى فى طهران هى مركز الدعوة إلى التقريب ، وقد زارنى فيها عدد من رجال القاهرة ، ورأوا آثار الدعوة هناك .

■ أهل السنّة والشيعة يلتقون على الإيمان بإله واحد، وقرآن واحد ، ورسول واحد ، ولكن أريد أن أعرف نقاط الخلاف الإساسية بين المذهبين؟

---

١ . الصادرة فى ٣٠ يناير / كانون الثانى سنة ١٩٧٦ ـ ٢٩ محرم ١٣٩٦ هـ .

● الخلاف الأساسى حول الإمامة والخلافة ، هى عند أهل السنّة تقوم على الانتخاب أو الاختيار ، والشيعة يعتقدون أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد نصّ على إمامة على وأولاده من بعده .

■ والخلافات حول أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام؟

● عند أهل السنّة والشيعة : سنّة الرسول هى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن ، ولكن هناك رواة لا يثق الشيعة فيهم ، فالجمهور يأخذون برواية أىّ صحابى ، والشيعة يشترطون أن تكون الرواية عن طريق أئمة أهل البيت ، لاعتقادهم أنّهم أكثر معرفةً بالسنّة من غيرهم .

■ من أين إذاً جاءت القطيعة والتخوّف بين أهل المذهبين ؟

● من أعداء الإسلام ، وبينهم عدد من المستشرقين ، صوّروا لكلّ فريق أنّ الآخر يقول كفراً ، مثلاً لقد وصل الأمر إلى التشكيك فى وحدة المصحف ، وقيل : إنّ مصحف الشيعة مختلف عن المصحف فى أيدى سائر المسلمين ! ومع ذلك لم يكلّف أحدهم نفسه مشقّة تقليب نسخة من ملايين النسخ التى يتداولها الشيعة ، ولو فعل لذهب الشكّ ، وحلّت المشكلة .

■ أعرف أنّ جهودكم انتهت إلى صدور فتوى فى مصر بجواز التعبّد بمذهب الشيعة الإمامية ، ما قصة هذه الفتوى؟

● عندما بدأت دعوة التقريب عام ١٩٣٨ جئت إلى القاهرة ، وقمت بعدّة اتّصالات مع علمائها ، ولم يمض وقت طويل حتّى انضمّ إلى الدعوة رجال لهم وزنهم ، مثل : الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، والشيخ عبد المجيد سليم ، والعلاّمة محمد فريد وجدى ، والشيخ حسن البنّا ، والدكتور أحمد أمين ، والشيخ محمد المدنى ، وانضمّ إلينا الشيخ شلتوت ، وحين أصبح شيخاً للأزهر سئل فأصدر فتواه التاريخية ، وقال فيها : «أنّ مذهب للشيعة الإمامية كسائر المذاهب الإسلامية الأخرى» . وقال : «فينبغى أن يعرف المسلمون ذلك ، وأن يتخلّصوا

من العصبية بغير الحقّ لمذاهب معيّنة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب ، أو مقصورة على مذهب ، فالكلّ مجتهدون عند الله».

■ أريد أن أعرف الخلافات بين فقه السنّة والشيعة ، ولنبدأ بالصلاة .

● الشيعة لايجيزون ترك الصلاة بحال ، حتّى أنّ الموحل والغريق عليهما الصلاة بالإشارة ، ويشترطون بعد الفاتحة قراءة سورة كاملة وإن تكن قصيرة ، ولا يجيزون قراءة جزء من سورة ، وعندهم قعدة بعد السجدتين ، وبعد ذلك فكلّ أركان الصلاة واحدة.

■ وفى الصيام؟

● الشيعة الإمامية يرون أنّ الكذب على النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) مفطر، ويجب فيه القضاء والكفّارة ، وهم يفطرون بعد أهل السنّة بحوالى ربع ساعة; لأنّهم يشترطون زوال الحمرة المشرقية لا مجرّد مغيب الشمس ، ولاخلافات أخرى .

■ وفى الحجّ؟

● الحجّ يأخذ فى كتب فقه الشيعة حيّزاً أكبر ، ويعتبرونه جهاداً بالمال والبدن ، ويرون تاركه على حدّ الكفر بالله ، وإذا مات المكلّف دون أن يحجّ اعتبر الحجّ ديناً ويحجّ عنه ، ويؤدّى بغير إذن . ولو كان بيد إنسان مال لميّت عليه الحجّ ، وعلم أنّ الورثة لا يزكّون ، يجوز له أن يقتطع قدر أجرة الحجّ ويبذلها لمن يحجّ عنه ، لأنّ هذا دين الله أحقّ بالقضاء .

■ وفى الزواج والطلاق؟

● هم كبقية المذاهب ، لكنّهم يشترطون للطلاق شاهدين ، لقوله تعالى: (فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوف أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوف وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْل مِنْكُمْ)[1]، ولا يوقعون طلاق الثلاث بلفظ واحد أو متتابعاً فى مجلس واحد ، ولاينعقد الطلاق

١ . الطلاق : ٢ .

عندهم بالحلف .

■ وفى الاجتهاد؟

● عند أهل السنّة باب الاجتهاد أُقفل ، وعند الشيعة باب الاجتهاد مفتوح دائماً وحتّى الآن .

■ ولكن للشيعة مذاهب كثيرة وليسوا مذهباً واحداً ؟

● فى إيران والعراق الشيعة الإمامية التى أحدّثك عنها ، وفى اليمن الشيعة الزيدية، وفقههم لا يختلف عن فقه أبى حنيفة ، ثم هناك الشيعة الإسماعيلية وهما طائفتان : البهرة فى الهند ، والآغاخانية المعروفة ، وقد رفضنا دخولها معنا فى دار التقريب . وسوف تجد فى كتب الملل والنحل فرقاً للشيعة لم يعد لها وجود فى العالم الآن.

■ ولكن ما يزال هناك بعض المتطرّفين من الشيعة الذين نسمّيهم غلاة الشيعة.

● هؤلاء نبرأ منهم ، ونحكم بكفرهم .

■ معروف أنّ فى بعض كتب الشيعة هجوماً على أصحاب مذهب أهل السنّة؟

● لقد شكّلنا لجنةً فى إيران لمراجعة الكتب الدينية ، وإزالة الهجوم المذهبى منها.

■ لقد بدأت دعوتك فى القاهرة عام ٣٨ ، والآن بعد حوالى ٤٠ سنّة، هل تشعر أنّ دعوتك أثمرت؟

● أشعر أنّنى حقّقت تقدّماً ، الدعوات تحتاج إلى عمر طويل ، لقد أصبح هناك عدد من علماء السنّة والشيعة يتفهّمون بعضهم بعضاً . وقد طبعت وزارة الأوقاف فى عهد الشيخ الباقورى كتاب المختصر النافع فى فقه الشيعة الإمامية ، وطبعت دار التقريب فى القاهرة ٨ أجزاء من تفسير القرآن للطبرسى ، وأصدرنا مجلّة رسالة التقريب ، وأصبح مذهب الشيعة يدرَّس فى الأزهر ، ومذهب السنّة

يدرَّس فى جامعة طهران. لقد أوجدنا وعياً، وعالجنا بعض رواسب قرون طويلة ماضية.

الفصل الثالث
لقاؤه مع صحيفة الأخبار[1]

كتب المحرّر يقول :

الفلاح القادم من طهران إلى القاهرة يقول :

- ☐ الخلاف بين أهل السنّة والشيعة . . مسألة تاريخية
- ☐ الباب المكسور يسمح بدخول اللصوص والهلافيت
- ☐ أزمة التديّن سببها عدم وجود القدوة

كأىّ فلاح فى مصر كان الرجل يتكلّم بيده ، إنّه يرفض بإصرار أن تتحوّل كلماته إلى شيک بلا رصيد ، ويذكّرنا بما كان يعنيه العرب عندما يصفون رجلاً بأنّه يتكلّم بيده ، ويقول : إنّهم يقصدون بذلک أنّه رجل أعمال لا رجل أقوال . ويضيف الرجل الفلاّح القادم من طهران : ومنذ البداية ـ وبتواضع شديد ـ اخترت أن أكون هذا الرجل .

وبكل البشاشة والبساطة والوضوح رحّب الرجل بالأسئلة التى وجّهتها إليه جريدة الجمعة ، وأخذ يهمس وكأنّه يزأر : ليس عندى ما أخفيه ، ولا ما أتستّر عليه ، وأنا منذ جئت إلى القاهرة لأول مرّة ، ومنذ أربعين عاماً ، وأنا أسعى فى وضح النهار، وتحت بصر الجميع وسمعهم إلى هدف نبيل وجليل هو التقريب بين المذاهب الإسلامية.

وبعبارة واضحة ومحدّدة : كان هدفى وما زال هو التقريب بين المسلمين من أهل السنّة والشيعة وإزالة ما بينهما من جفوة وخلافات استمرّت لقرون طويلة .

ويتوقّف سماحة الإمام محمد تقى الدين القمى إمام الشيعة فى إيران ليستمع

---

١ . الصادرة فى الجمعة ١٨ ربيع الأوّل ١٣٩٦ هـ ـ ١٩ مارس / آذار ١٩٧٦ م العدد ٧٤١١ السنة (٢٤).

مرةً أخرى إلى السؤال الذى وجّهته إليه جريد الجمعة عن رأيه فيما يقوله بعض الناس عن تصريحاته وأحاديثه فى الصحف والمجالس حول التقريب بين أهل السنّة والشيعة ، وأنّ هذه التصريحات والأحاديث هى الوجه الظاهر من كلام الشيعة ، وأمّا الباطن فهو فى كتب ومعتقدات لا يظهرونها ، وهى متناقضة تماماً مع أهل السنّة ، بل ومحرِّضة على كراهيتهم .

ويبتسم الإمام القمى فى وجوم معبّراً عن امتنانه لهذه الصراحة التى يتّسم بها الحوار ، وقال : أحبّ أن تعلم أنّنى لست موظّفاً لدى أيّة جهة من الجهات أو حكومة من الحكومات ، وإنّنى لا أتكسّب عن طريق هذه الدعوة ، أنا رجل فلاّح ، أعيش من عمل يدى وكدح ذهنى وعرق جبينى ، لا يد لأحد علىّ ولله الحمد والمنّة .. ومازلت أذكر اللحظة التى وصلت فيها إلى القاهرة لأول مرة منذ حوالى أربعين عاماً ، ليلتها كنت وحيداً ، لقد اتّجهت إلى السماء وقلت : يا إلهى ، لقد جئت إلى بلد لا أعرف فيه أحداً ، ولا يعرفنى فيه أحد ، يا إلهى أنت تعلم فيم كانت رحلتى ، ولمَ كانت غربتى ، ولماذا أؤمن بفكرتى .. فانصرنى . وأستطيع أن أقول الآن : إنّ الله قد نصرنى .

اليوم حدث تحوّل عظيم ، مذاهب الشيعة تدرَّس الآن ضمن مناهج الفقه المقارن فى الأزهر ، آراء فقهاء الشيعة يؤخذ بها فى قوانين الأحوال الشخصية فى مصر ، كتب الفقه والتفسير التى وضعها علماء الشيعة تُطبع الآن ويتمّ تداولها فى مصر . كلّ هذا حدث نتيجة للجهود الضخمة والشريفة التى بذلها كثيرون من العلماء، فتحوا قلوبهم وعقولهم لما نقول .

لقد قلنا : إنّه ليس هناک ما يمنع التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وأعنى بذلک المذاهب المتّفقة فى الأصول ، والمؤمنة بكل ما لا يتمّ الإسلام إلاّ به . إنّه لا خلاف يستحقّ أن نقف عنده ، ولنكن صرحاء ونقرّر أن كان هناک خلاف حول الخلافة ومن يتولاّها .

وكان ... ما كان

الشيعة يرون أنّ على بن أبى طالب هو الخليفة المنصوص عليه ، وهو الذى عيّنه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأوصى به ، والخلافة بمعنى الولاية حقّ له ولأولاده من بعده ، وللشيعة أدلّتهم على ذلك . أمّا أهل السنّة فإنّهم يرون شغل منصب الخلافة بالاختيار .

وكان ما كان ... وكان يمكن أن يبقى الخلاف محصوراً فى دائرة معقولة لولا شهوة الحكم وبريق السلطة وكيد الأعداء . وعلى أىّ حال ، فإذا كان الخلاف حول الإمامة والخلافة هو ما فرّق بين الشيعة وأهل السنّة ، فإنّ هذا الأمر لا تترتّب عليه الآن أيّة آثار.

إنّ هذه القضية أصبحت من اختصاص العلماء والمؤرّخين ، وهدفنا الآن هو رفع الأنقاض ، وإزالة آثار هذه المعارك ، وتمهيد الأرض لقيام وحدة إسلامية قوية وعزيزة ، لا تزعزعها الرواسب القديمة والأحقاد وسوء الفهم .

ليست غايتنا أن يترك الشيعى مذهبه ، أو السنّى مذهبه ، إنّما نريد أن يتّحد الجميع حول الأصول المتّفق عليها ، وأن يعذر بعضهم بعضاً فيما وراء ذلك .

ونحن لا نخفى أنّ هناك من يتسمّون باسم الشيعة من الفرق الباطنية والغلاة ، ونحن نرفض هؤلاء ، ولكن الشيعة التى أمثّلها ، والتى أحاول التقريب بينهم وبين أهل السنّة ، هم الشيعة الاثنا عشرية والزيدية ، وكلّ عقائدهم ظاهرة ومعلنة ، واتحدّى أىّ إنسان فى أىّ بلد وفى أىّ مكان أن يأتينى بكتاب لهم تكون له صفة السرية أو ممّا يقال عنه من الأسفار .

القضايا ... المعاصرة

■ يا سماحة الإمام : ألا ترى أنّ الطريق الأقرب إلى التقريب هو اتّخاذ خطوات إيجابية لتكوين رأى عام لجميع المسلمين ، يتجاوز الشيعة وأهل السنّة ممّا على أساس وحدة النظر إلى القضايا المعاصرة التى يرتبط بها مصير الإسلام والمسلمين ، مثل قضية فلسطين والاستعمار ، وقضية مواجهة الغارات الفكرية التى تهب علينا من الشرق والغرب إلحاداً وانحلالاً ، ومواجهة قضيه انصراف الشباب عن الدين؟!

● لا أحبّ أن تطلقوا علىَّ ألقاباً فخمة ولها رنين ، لست إماماً هنا فى القاهرة، ولكنّى جندى فى ساحة التقريب ، وداعية أتشرّف بالدعوة إلى وحدة الصفّ الإسلامى .

ونحن فعلاً نرى الآن أنّ هذا هو الطريق الأقرب إلى التقريب ، أقول : نرى هذا الآن ، ولكن قبل الآن ما كان يمكن أمام كلّ ما خلّفته سنوات الفرقة والخلافات والظلمات التى جعلت كلّ فريق يتخوّف من الآخر ويتربّص به .

إنّ الإقبال على فكرة التقريب ، وتأسيس جماعة التقريب ، وإصدار مجلّة تتحدّث باسمها وتخدم أهدافها ، هذا كلّه يعتبر نجاحاً منقطع النظير ، يمكن بعده أن نسلک الطريق الأقرب إلى التقريب الذى تتحدّثون عنه .

وإمام أئمة الشيعة المرحوم آية الله البروجردى كان يرى معنا أنّ المصلحة تفرض على المسلمين أن يتوحّدوا ، وأن تضمّهم جامعة إسلامية تكون لها شخصية سياسية واحدة ، لا تتدخّل فى المسائل الخاصة بكل بلد ولكنّها تجتمع على المسائل العامة .

الباب ... المكسور!!

أمّا قضية التيارات الفكرية المعادية ، وانصراف الشباب عن الدين ، فإنّنى أقول لک ببساطة : إنّه ما دام الباب مكسوراً ، فإنّ ذلک معناه الترحيب باللصوص ، وإنّه ينبغى أن نؤمن تماماً بأنّ ما لدينا من فكر يحقّق لنا الاكتفاء الذاتى ، وإنّنا إذا لم نتحوّل إلى مصدِّرين للقيم النبيلة والمثل الرفيعة والعدل والحرية إلى خارج بلادنا ، فإنّنا نتيح الفرصة لأىّ «هلفوت» من الشرق والغرب لكى يعبث فى بلادنا فساداً وتخريباً !

الشباب ... والقدوة

وتلفّت الرجل الفلاّح ـ القادم من طهران إلى القاهرة ليجمع المسلمين على كلمة سواء ـ إلى أوراقه يجمعها ، وحقائبه يجمعها ، ويشدّها ، فقد كان يتهيّأ

لمغادرة القاهرة عائداً إلى بلاده بعد زيارة استمرّت شهرين ، اجتمع خلالهما بعدد من العلماء والمسؤولين ، بهدف دعم دعوة التقريب ، وزيادة فاعليتها ، والانتقال بها إلى مرحلة جديدة أكثر تطوّراً وأشد تأثيراً .

ثم يلتفت إلينا قبل أن يودّعنا ويقول : أمّا عن الشباب وانصرافه عن الدين ، فإنّنى أشدّد على أنّ الشباب يحتاج فقط إلى القدوة .

ولنكن صادقين ونقولها : إنّ شبابنا يتلفّت إلى القدوة الصالحة ، وقد طال انتظاره لها .

الفصل الرابع
لقاؤه مع صحيفة الأخبار[1]

كتب المحرّر يقول :

كان ذلک عام ١٩٣٨ حينما دعاه الأمير يوسف كمال إلى الغداء فى قصره ، ثم فاجأه الأمير بهذا السؤال : يا سماحة الإمام ، لماذا يقول الشيعة : إنّ جبريل عليه السلام نزل بالرسالة على سيدنا على بن أبى طالب، فأخطأ ونزل بها على محمد (صلى الله عليه وآله) ؟

قال تقى القمى للأمير : يحكى أنّ أميراً كان يعطف على الشعراء حتّى أنّهم كانوا يتزاحمون على بابه ، ولكن شاعراً منهم كان دائماً يخونه الحظّ فلايحظى بالمثول بين يديه . وحدث أنّ شاعراً من أرباب المبالغة وصف مائدة الأمير بأنّها استقبلت ـ بكرمه ـ كلّ من بالكون من بشر! فبعث الشاعر بورقة إلى الأمير ، يقول فيها : إن لم أكن شاعراً ولم أكن بشراً فأنا ممّن يضمّهم هذا الكون لم يحظ بالجلوس إلى مائدة الأمير !

ثم قال الإمام تقى الدين القمى : وإن لم أكن عالماً أو باحثاً فى المذاهب فأنا على الأقلّ واحد من الشيعة ، لم أسمع فى حياتى أنّهم يقولون هذه الخرافة المضحكة ، وهى حكاية خطأ جبريل هذه !

من هذا الباب دخل تقى الدين القمى ، ومن أشهر علماء المسلمين فى العالم ، ومن أئمة الشيعة ، إلى الحديث عن دعوته ، حين زرته فى غرفة هادئة بفندق شيراتون . . حيث يزور القاهرة زيارته السنوية المعتادة منذ عام ١٩٣٧ .

---

١ . الصادرة فى ١١ محرم ١٣٩٦ هـ ـ ١٢ يناير / كانون الثانى سنة ١٩٧٦ م .

رجل رقيق الحاشية ، متدفّق بالحيوية رغم أنّه فى العقد السابع من عمره . فقد ولد عام ١٩٠٧ فى طهران ، والعربية يتحدّثها بطلاقة أسلافه من علماء فارس المسلمين ، شوامخ القرن الثانى والثالث والرابع الهجرى .

هو رجل شغله النضال ضد التعصّب منذ صدر الشباب ، وقرّر أن يكون التقريب بين المذاهب الإسلامية رسالة حياته ، وقرّر أن تكون القاهرة منبر رسالته ، لأنّها موطن الأزهر ، ومنارة الإسلام ، وعاصمة المصريين ، أهل السماحة فى الدنيا ، كما قال لى وهو يشرح دعوته :

● أصل الانقسام فى الإسلام هو جهل كلّ فريق بما عند الفريق الآخر ، نقص المعرفة من منبعها ، ودعوتى تعتمد أساساً على أن نبدأ بالحبّ ، ونتعارف بالعقل ، على أن تكون الحرية الفكرية هى عدّتنا . إنّنا فى عصر التطّلع إلى السماء ، ومع ذلك ونحن فى البلد الواحد نجهل ما عند جارنا ، أفكارنا الثابتة تصل إلينا بالوراثة . . بالتقاليد . . أو بالسماع !

إنّ زراعة الحب بين المسلمين هى متعتى .. أحبّ أن أراهم متحابّين ، أحاسيسهم واحدة ، قضاياهم واحدة ، وهمومهم واحدة .

شغلتنى قضية الفوارق بين مذاهب المسلمين ، فلم أجد بينهم فوارق جوهرية ، هم متّفقون على الإيمان بالله ووحدانيته ، قرآنه كتابهم لا يختلف السنّى مع الشيعى على كلمة منه ، نبيّهم محمد هو خاتم النبيين ، يصلّون الخمس لا يختلفون على عدد ركعاتها أو سجداتها أو أركانها ، وصيامهم واحد يبدأ بالرؤية وينتهى بالرؤية . وحجّ البيت فريضة عليهم جميعاً ، وأساس استنباط الأحكام الشرعية عندهم جميعاً: كتاب الله وسنّة رسوله .

وإذا كانت هناك خلافات فهى خلافات اجتهادية فى مواضع يسمح فيها بالاجتهاد والنظر ; كالجهر بالبسملة أو إخفائها .

المسألة التى صارت سبب تمييز بين السنّة والشيعة هى درجة حبّ أهل البيت ، وقد رأيت أنّ أهل مصر من السنّة يعشقون أهل البيت فآمنت أنّ

المسلمين سنّيون متشيّعون جميعاً لأهل البيت .

فى التاريخ ـ ولا أنكر ـ بعض الغلاة ، بعض المتعصّبين ، وحالياً هناك قلّة قد تقول فى على ما لا تقول فى الله سبحانه وتعالى ، والشيعة هى التى تحكم بنجاسة هؤلاء الغلاة المتطرّفين .

وبصراحة أكثر أقول : إنّ الخلاف بين السنّة والشيعة أساسه الولاية والخلافة . الشيعة ترى أنّ لعلى وأولاده حقّ الولاية ، ويعتمدون فى قولهم على وقائع فى حياة النبى وأقواله ممّا نرى بعضاً منها ثابتاً فى الكتب المدوّنة .

ليس هذا دفاعاً ولكنّه سرد لحقيقة الخلاف الوحيد الآن ، لا الخلافة قائمة ولا الإمام المهدى المنتظر قد ظهر، الخلاف الوحيد ليس له أثر عملى كما ترى . تبقى مسألة العواطف تجاه أهل البيت ، وخلاف على تقييم بعض المسلمين الأوائل .

دعوتنا إذاً واقعية : لا ندعو أن يتنازل السنّى عن سنّيته ، ولا الشيعى عن شيعيّته ، «هما مكتبان» فى الإسلام ، والتقريب قائم على كيانين ليس بينهما خلاف على أصول العقيدة .

■ كيف استقبلت مصر دعوتك ؟

● استقبلها الأزهر بقلب عطوف ، ورمقها الملك السابق بقلق ، ورحّبت بها الثورة على مدار مراحلها ، عرفت عبد الناصر عن قرب ، والسادات عن مودّة ، ورجال الدين المصريين عن أخوّة فى الإسلام حميمة .

عام ١٩٣٧ عرضت فكرتى على الشيخ المراغى ، ورحّب بها ، وجمعنى بعدد من رجال الدين ، منهم الشيخ عبدالمجيد سليم ـ كان مفتى الديار وقتها ـ والشيخ مصطفى عبدالرازق ـ وكان وزير الأوقاف ـ وغيرهم من كبار العلماء فى ذلك الوقت ، رحّبوا وكان رأيهم أنّ الدعوة تحتاج إلى تمهيد ، مكثت بمصر حتّى عام اندلاع الحرب العالمية الثانية ، ثم عدت بعد نهايتها وأسّسنا للدعوة دارها عام ١٩٤٧ ، وهى دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وهى التى تضمّ

علماء من المذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السنّة ومذهبى الشيعة الإمامية والزيدية .

بالجهد المشترك تقرّر تدريس فقه أهل السنّة فى جامعة طهران ، والفقه المقارن فى الأزهر ، وطبعت وزارة الأوقاف المصرية مرجعاً لفقه الشيعة ، وأصدر شيخ الأزهر ، الشيخ محمود شلتوت فتوىً تجيز التعبّد على مذهب الشيعة الإمامية ، ويعتبر ذلک حدثاً تاريخياً إسلامياً لإزالة الكثير من الخلافات ، وانتصرت الألفة على التعصّب .

■ هل وجدت عقبات فى الطريق؟

● نعم وكان الله يذلّلها . وروى : فى عام ١٩٤٧ ، سمع آغا خان بدعوتى وكان فى القاهرة ، التقينا مرتين فى محاولة منه للانضمام إلى الجماعة ، قلت له : إنّنا نعمل بقلوب مفتوحة ، واشترطت أن يقدّم عن جماعته الإسماعيلية «الآغاخانية» مراجعها ليطلّع عليها المشاركون فى «دار التقريب» ليكونوا على بيّنة قبل اتّخاذ قرارهم بضمّها أو رفضها .

اعتذر آغا خان ، قال : خذونا على علاّتنا ! رفضنا ، وكانت أخبار المقابلتين قد وصلت إلى فاروق عن طريق الوشاة، وكأنّها اتّصال سياسى ، وكان انجليز ـ يوم أن كانت لهم كلّ السلطة فى مصر ـ قد فكّروا بعقلية المستعمرين أن «يمنحوا» حكم مصر لآغاخان ، ثم استقرّ رأيهم على الملک فؤاد ، من هنا عزف الوشاة على وتر الخوف عند فاروق!

توفيقاً من الله سأل فاروق الشيخ مصطفى عبدالرازق ـ وكان فى ذلک الوقت شيخاً للأزهر ـ عن حقيقة اتّصال آغا خان بى ، وروى له الشيخ الحقيقة فهدأ ، ومرّت العاصفة بسلام .

وأيام التأزّم بين القاهرة وطهران زمن الثورة ـ أكثر من عشر سنوات ـ كنت أقوم بزياراتى المعتادة إلى القاهرة بغير قيد على حركتى ، وفى إطار التقدير والترحاب .

واستطرد : الصراحة تكفّلت أيضاً بخلق مناخ طيّب ، الفكرة واضحة والمنهج هو الصراحة ، ولم يحدث منذ بدأنا الدعوة حتّى اليوم أن نادينا بتغليب فريق على الفريق الآخر ، أو بضمّ فرد من الشيعة إلى السنّة أو العكس . إنّنا نوفّق ولا نجنّد أحداً لهذا المذهب أو ذاك .

■ هل تعتقد أنّ هناك من يستفيد من تعميق الخلافات المذهبية بين المسلمين؟

● بكل تأكيد ، وعلى رأس المستفيدين : الاستعمار . إنّ الاستعمار يرتعد من تضامن المسلمين ، والفرقة المذهبية تزعزع التضامن . وأقطع بأنّ حركة المستشرقين فى أساسها كانت تزرع مزيداً من جذور الفرقة بيننا ، وساروى لك حكاية : لويس ماسينيون ، المستشرق ذائع الصيت، عرفته فى القاهرة عندما قام بزيارة مفاجئة لدار التقريب فى أول تأسيسها للاستفسار عن رسالتها، ثم التقيت به فى حفل كان يضمّ الدكتور حسين هيكل ، وراح الرجل يحدّثنا ـ وهو يظنّ أنّ حديثه يرضينى ـ عن أبحاث له جديدة عن فاطمة الزهراء ، بحث يقارن بينها وبين العذراء مريم ، وبحث عن حقّها فى وراثة النبى . ولقد فوجئ الحاضرون حين رحت أسأل ماسينيون منكراً صدق حماسته لفاطمة وحقّها فى الإرث : ما حماسك الشديد لفاطمة يا سيدى . . اتركوا لنا الأمر كلّه ولا تزرعوا الشوك فى أرض المسلمين الطيّبة ، وأولى بك وأنت فرنسى لك مكانتك فى بلادك أن تطالب حكومتك بالكفّ عن ضرب المسلمين الجزائريين ، وكانت فرنسا فى ذلك الوقت فى حرب ضروس مع الجزائر .

بعض المستشرقين يبحثون عن بقايا التعصّب ليدعموا جدرانها المتهاوية بسندات من أبحاثهم ، وهؤلاء تزعجهم دعوتنا ، لأنّها تخلق التضامن، والتضامن حتف الاستعمار .

مع دعواته بأنّ يؤيّدنى الله غادرت الفندق ، فيه نقاء أصحاب الدعوات بغير شكّ ، وفيه حميّة على حرّية المسلمين بغير مواربة ، وفى صدره رفض للعبة

الاستعمار القديم والجديد : فرّق تسد .

الفصل الخامس
لقاؤه مع صحيفة الإهرام[١]

كتب المحرّر يقول :

يزور القاهرة الآن سماحة الإمام محمد تقى الدين القمى إمام الشيعة فى إيران ، ومؤسّس حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية . وفى القاهرة لا يعتبر الإمام القمى ضيفاً ، حيث اعتاد منذ ٤٠ عاماً أن يقضى فيها عدة شهور كل سنة ، يلتقى فيها بمئات من قيادات الفكر ورجال الأزهر والعاملين فى حقل الدعوة .

وفى الزمالک يلتقى أعضاء جماعة التقريب بين المذاهب فى مقرّهم الذى أسّسه الإمام القمى منذ ٤٠ عاماً ، وقد زار الإمام القمى عدداً من كبار الشخصيات على رأسهم فضيلة الشيخ محمد متولّى الشعراوى وزير الأوقاف وشؤون الأزهر .

عن جماعة التقريب بين المذاهب يقول الإمام القمى : إنّ هدفها هو إتاحة الفرصة للمسلم السنّى والمسلم الشيعى لكى يعرف كلٌّ منهما ما عند الآخر من أفكار وآراء ، وبذلک تزول الجفوة ، ويزول سوء الظنّ ، وهما من صنع الجهل والدعايات المغرضة التى تهدف إلى تمزيق وحدة العالم الإسلامى، وإيجاد صراعات بين المسلمين ليس لها مبرّر حقيقى .

وبادرة الإمام القمى التى بدأها منذ ٤٠ عاماً لها قصة ، فقد جاء إلى القاهرة ـ كما يقول ـ لأنّها قلعة الإسلام ، وبلد الأزهر العظيم ، وكل دعوة لا تنطلق من

١ . الصادرة فى ٥ نيسان / أبريل سنة ١٩٧٨ م .

القاهرة لا يمكن أن يكتب لها النجاح ، يقول : جئت إلى القاهرة وأنا لا أعرف أحداً فيها ، وكان من الطبيعى أن يتصوّر البعض أنّ هدفى هو تحويل السنيّين فى مصر إلى شيعة ، ولكن مع مرور السنين اتّضح الهدف الحقيقى ، وهو أن يعرف المسلمون بعضهم ، ويلتقوا حول المبادئ الجوهرية التى يتّفقون عليها والتى لا يكون المسلم مسلماً بغيرها .

ووصل النجاح بدعوة التقريب بين المذاهب إلى حدٍّ أن دخل فيها أكبر رجل الدين فى مصر ، أمثال المغفور له الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق الذى كتب يقول عن دعوة التقريب بين المذاهب :

«كان الجو السائد عند بدء الدعوة مليئاً بالطعون والتهم ، مشحوناً بالافتراءات وأسباب القطيعة وسوء الظنّ من كلّ فريق بالآخر ، حتّى عدّ تكوين جماعة التقريب بأعضائها من المذاهب المختلفة السنّية الأربعة ، الإمامية والزيدية من الشيعة ، نصراً مبيناً أهاج نفوس الحاقدين ، وهوجمت الدعوة لا من فريق واحد ، بل من المتعصّبين أو المتزمّتين من كلا الفريقين .

حارب هذه الفكرة ضيّقو الأُفق، كما حاربها صنف آخر من ذوى الأغراض الخاصة السيئة ، ولا تخلو أيّة أمة من هذا الصنف من الناس ، حاربها الذين يجدون فى التفرّق ضماناً لبقائهم وعيشهم ، وحاربها ذوو النفوس المريضة، وأصحاب الأهواء والنزعات الخاصة ، هؤلاء وأولئك ممّن يؤجرون أقلامهم لسياسات مفرّقة ، لها أسبابها المباشرة وغير المباشرة فى مقاومة أيّة حركة إصلاحية ، والوقوف فى سبيل كلّ عمل يضمّ شمل المسلمين» .

ثم يختم الشيخ شلتوت حديثه عن دعوة التقريب فيقول : «وإنّا لنحمد الله أن أصبحت فكرة التقريب نقطة تحوّل فى تاريخ الفكر الإصلاحى الإسلامى قديمه وحديثه ، وأنّه ليحقّ للمسلمين أن يفخروا بأنّهم كانوا أسبق من غيرهم تفكيراً وعملاً فى تقريب مذاهبهم وجمع كلمتهم».

ويقول الإمام القمى : لقد مضت ٤٠ سنة ولم نحاول مرةً واحدةً تحويل

شخص سنّى إلى الشيعة أو العكس ، والزمن وحده هو الذى أظهر حقيقة دعوتنا التى بدأت بسؤال : لمصلحة من يختلف المسلمون؟ ودعوة التقريب لا تستند إلى حكومات أو هيئات رسمية، ولكنّها جهد شعبى فى مصر وإيران .

وقد أصدرنا بالتعاون مع وزارة الأوقاف المصرية كتاباً عن فقه الشيعة الإمامية ، وهو متّفق مع فقه السنّة ، ومشروعنا الحالى هو إعداد كتاب من الفقه الإسلامى على مذاهب السنّة ومذهبى الشيعة الإمامية والزيدية ، ليعرف الجميع فى كلّ البلاد الإسلامية أنّه ليست بينهما خلافات جوهرية ، فلماذا الجفاء؟ ومن المستفيد منه ؟

وكذلك ـ كما يقول الإمام القمى ـ فإنّ جهدنا هذا العام سيتّجه إلى الفرق الباطنية فى بعض البلاد المحيطة بنا ، والتى تصدّر أفكاراً غريبةً إلى البلاد الإسلامية تحمل السموم والخطر ، وهذه الجماعات التى تخفى عقائدها ، وتعمل بشكل أقرب إلى السرّية تتعارض مع حقيقة الإسلام الذى هو دين عالمى لكل البشر، يجب أن تكون كل حقائقه منشورة ومعروفة ، وليس فيه أسرار ، والمطلوب الآن ـ كما يقول الإمام القمى ـ من كل فرقة إسلامية فى العالم أن تظهر كل أفكارها ومعتقداتها وتعاليمها ، وبعض هذه الفرق انحرفت واسندت أفكاراً غريبة إلى الشيعة عامة دون تحقّق ، فإذا أزحنا الستار سنجد أنّ أباطيلهم ليست من الإسلام فى شيء .

ومن الضرورة ـ كما ينبّه الإمام القمى ـ أن نحمى شبابنا من تيارات الغزو الفكرى التى تأتى من أعداء الإسلام لتسمّم أفكارهم ، وتدفعهم إلى العنف والرفض والجريمة .

ملاحق

فى طريق التقريب

ويشتمل على:

* وثائق تاريخيۀ
* رسائل متبادلۀ موثّقۀ
* لقاءات وزيارات تقريبيّۀ
* ندوۀ التقريب فى القاهرۀ
* مؤتمر الإمامان البروجردى وشلتوت فى طهران

سيد هادى الخسروشاهى

ملاحق الكتاب

وفى ختام «قصة التقريب: أمة واحدة، ثقافة واحدة» نرغب أن نأتى هنا ببعض الرسائل المتبادلة، وأخبار اللقاءات المتكرّرة بين المراجع وعلماء الشيعة الإمامية ومشايخ الأزهر الشريف، وندرج بعض الصور والوثائق التاريخية ـ حسب تاريخها ـ الداعمة للتقريب بين المذاهب، بل الوحدة الإسلامية برمّتها.

وهذه الوثائق والصور يرجع بعضها إلى نصف قرن من قبل، والبعض الآخر حصيلة السنين الماضية القريبة، وكلّنا أمل أن يستفيد الباحثون والدارسون فى علاقات المذاهب الإسلامية وقصة التقريب من هذه المجموعة النادرة من الرسائل والوثائق; لدعم الحركة الإصلاحية التقريبية فى كلّ البلاد الإسلامية بإذن الله تعالى.

والله من وراء القصد.

قم ـ ايران ١٤٢٧ هـ

ملحق رقم (١)

وثائق تاريخية

البيان الأول لجماعة التقريب[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

أمّا بعد، فإنّ الدين الإسلامى دين واضح الأُصول، بيّن المعالم، لا تعقيد فيه ولا غموض، ولا حرج ولا إعنات، أنزله الله على رسوله وخاتم أنبيائه محمد (صلى الله عليه وآله) على حين فترة من الرسل، وضلالة من الناس، واختلاف بالهوى، وتنازع وتطاحن بالقوى، فهدى الناس فى العقيدة إلى كلمة سواء، هى كلمة الله التى بعث بها كلّ رسول، وأنزل بها كلّ كتاب، وبيّن لهم شريعة الحكمة والرحمة والصلاح.

وأساس هذا الدين هو القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، بهما تقرّرت عقائده وأُصوله، ومنهما استنبطت قواعده وأحكامه، وإليهما يرجع المسلمون فى كلّ شأن من شؤون دينهم ودنياهم.

تلقّى المسلمون الأوّلون هذا الدين كما أنزله الله، والتفّوا حوله، يعتقدون عقيدته، ويدرسون شريعته، ويمضون على سنّته وطريقته. فما كان من نصٍّ ظاهر واضح فى دلالته، قاطع فى معناه، اجتمعوا عليه، ونزلوا على حكمه متوافقين. وما كان محلّ نظر وتأمّل أعملوا فيه عقولهم، واجتهدوا فيه بقدر وسعهم فى دائرة الأُصول التشريعية، والمقاصد التى أرشد إليها كتاب الله وسنّة رسوله.

فإذا شجر بينهم خلاف عالجوه بالحجّة والإقناع، ولم يتجاوزوا به دائرة العلم والبحث، ولم يسمحوا له ـ مهما تباعدت وجهات النظر فيه ـ أن يقطع ما بينهم

١ . دعوة التقريب، تاريخ ووثائق، وزارة الأوقاف المصرية / القاهرة ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م : ٧٧ وما بعدها.

من الأواصر، أو يفسد ما أصلحه الله من القلوب، بل كانوا يتبادلون الثقة والمحبّة والاحترام، وربّما سأل بعضهم بعضاً عن دليله أو مدركه على ما يقول، فإذا لقّنه واستراح إليه سارع إلى إعلان قبوله والرضى عنه، غير مستكبر على الحقّ، ولا متعنّت فى الخطاب.

هكذا كان شأن الأمة الإسلامية فى أولها، ثم عَدَت عليها بعد ذلک عواد جعلتها تتفرّق فرقاً، وتقسم طوائف وشيعاً، وابتدأت هذه الانقسامات بأواخر عهد الراشدين، ثم ما زالت السياسة والحرب الأهلية تغذّيها وتنفخ فى نارها حتّى تمخّضت البلاد الإسلامية عن فرق شتّى، وتشعّبت كلّ فرقة إلى شُعَب، وكان هذا هو الأساس الأول لما عاناه، وما يزال يعانيه المسلمون إلى الآن، من تفرّق وتنازع، وتقاطع وتدابر.

وقد كانت المساجد والمجامع والمجالس أندية رأى ونقاش وجدل، ذهبوا فيها مع الحريّة الفكرية والنشاط العقلى إلى مدىً بعيد جعلهم يخوضون حتّى فيما نُهوا عن الخوض فيه من البحوث العقيمة، والمسائل التى لاتتّصل بها فوائد عملية. وساعد على اتّساع دائرة هذا الجدل: امتزاج الثقافات المختلفة، والعلوم الجديدة التى جاءتهم من الأُمم الأخرى حين دخل الناس فى دين الله أفواجاً من كلّ جنس ولون، حاملين معهم قضايا تفكيرهم، وأساليب منطقهم وجدالهم.

ولم تقف الاختلافات والآراء عند دائرة المعارف الفكرية الكلامية، بل شملت الفقه والأحكام التشريعية المستنبطة، غير أنّها لم تكن فى هذه الناحية الأخيرة عنيفة ولا مشتطّة، وإنّما كانت تجرى فى هدوء وسكينة ووقار، لايسيطر عليها إلاّ العلم والحجّة والبرهان، وذلک فى عهد الأئمة المجتهدين، ومن بعدهم من تلاميذهم الذين أُشربوا مبادئهم، وساروا على سنّتهم، فلم نعرف أنّ أحداً منهم رمى غيره بالخروج على الشريعة، أو المروق من الدين لخلاف بينه وبينه، ولم نعرف أحداً زعم لنفسه أنّه هو وحده صاحب الرأى المقدّس فى الشريعة، أو فكّر فى حمل الناس على ما يراه، بل كلّهم ورد عنه ما يدلّ على أنّه مجتهد، قد أتى

بما وسعه أن يأتى به، ويحتمل أن يكون مصيباً وأن يكون مخطئاً، وأنّ العمدة فى ذلك: كتاب الله وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام، وما ارتضاه المسلمون من قواعد الشريعة وأُصولها العامة.

وها هو ذا مالک (رضى الله عنه) يصرف أبا جعفر المنصور عمّا همَّ به من حمل الناس على «الموطّأ» ذاكراً له أنّ أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)قد تفرّقوا فى الأمصار، وعند كلٍّ منهم علم، وليس من الرأى أن يحمل الناس على كتاب ما إلاّ كتاب الله.

هكذا كانت ريح الفقه تجرى رخاءً، ولذلک نما وزكا، وأينعت ثمراته، ودنت قطوفه، ووفى أعظم التوفية بحاجات المسلمين: أُمةً ودولةً وأفراداً، وحفظ به التاريخ أعظم تراث فكرىٍّ فى الأحكام التشريعية، والمبادئ الإصلاحية التى تقوم عليها الأمم.

ولذلک أيضاً استطاع الفقه الإسلامى أن يقف عالى الرأى، عزيزاً كريماً، فلم يغزه يومئذ فقه فارسى ولا فقه رومانى ولا فقه يونانى، على كثرة ما دخل بلاد المسلمين من علوم هذه الأمم وثقافاتهم، وعلى ما عهد فى المسلمين من ترحيب بالنافع من هذه العلوم والثقافات، وتلقّيه بسماحة وحسن قبول.

ثم جاءت بعد ذلک طبقات من المقلّدين والمتعصّبين للمذاهب، كلّت هممهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم من العلم والنظر، وصادف ذلک عهود الضعف السياسى وانقسام الأُمة الإسلامية إلى دويلات صغيرة لاتربطها رابطة، ولاتجمعها جامعة، ومن شأن الضعف السياسى ـ إذا أُصيبت به أُمة ـ أن يخيَّل إلى أبنائها أنّهم أقلّ من سواهم قوةً وعلماً وتفكيراً، وأن تركد معه ريح العلم، ويفتر نشاط العلماء.

بهذا وبغيره تأثّر أكثر المشتغلين بالفقه، فحكموا على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم فى زمانهم بأنّهم ليسو أهلاً للنظر والاستنباط، ولا لفهم كتاب الله وسنّة رسوله، ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد. وترتّب على ذلک أن وقف الفقه

وجمد، وأن تعصّب كلٌّ منهم لرأى إمام، وزعم أنّه الحقّ، وأنّ ما سواه باطل! وأسرفوا فى ذلک إسرافاً بعيداً حتّى كان منهم من لايصلّى وراء إمام يخالفه فى مذهبه! ومن لايزوّج ابنته لفلان! أو يتردّد فى أكل ذبيحة فلان! أو فى قبول قضاء فلان! لمجرّد أنّه يخالفه فى المذهب!

ثم حصروا الأئمة الذين أوجبوا اتّباعهم فى عدد معيّن، وهكذا ضاق أُفق الأتباع والأشياع عمّا اتّسع له أُفق المتبوعين، وضاقت بهم دائرة الفقه الإسلامى، وركدت ريحه، وصوِّح نباته، وقلّت ثمراته.

وكان من آثار ذلک أن خرج كثير من البلاد الإسلامية عن هذا الفقه عامةً، والتمسوا فقهاً آخر فى هذه القوانين الوضعية يحكمون به، ويجعلونه نظامه فى القضاء والتشريع والمعاملات، التسموا فقهاً لم يتقيّد بهذه القيود الطارئة، ولم يحدّ بهذه الحدود المصنوعة. ومن ثم رأينا القذى فى العيون، والشجى فى الحلوق حين رأينا أُمم الإسلام تحكم فى بلادها بغير فقه الإسلام ومنهاج الإسلام!

ولكنّا قد استطعنا فى عهدنا الحاضر ـ ونرجو أن يكون ذلک أولى الخُطى فى سبيل العودة إلى مجدنا الفقهى التشريعى ـ استطعنا أن نتخلّص إلى حدٍّ بعيد من آثار هذه العصبيات التى تنكرها الشريعة، ولايعرفها الأئمة المجتهدون أنفسهم، وأن يسير بعضنا مع بعض على وفاق، فلم نعد نسمع خلافاً يؤدّى إلى تضارب أو تقاذف أو تراشق بالتُهم بين حنفى وشافعى مثلاً.

وها هو ذا الأزهر الشريف، أكبر جامعة إسلامية يدرَّس فيه المذاهب الإسلامية الأربعة، ونرجو ألاّ يكون هناک من يمنع أو ما يمنع من دراسة غيرها من مذاهب المسلمين إذا تهيّأت له أسباب هذه الدراسة، وإنّ كلّية الشريعة لتدرّس فى العهد الحاضر إلى جانب الدراسات المذهبية: دراسات فقهية مقارنة، لاتتقيّد فيها بالمذاهب الأربعة. وممّا يبشّر بالخير أنّ الأساتذة والطلاّب يتلقّون هذه الدراسات المقارنة بإقبال وشغف، وبروح من السماحة، ورفض العصبية المذهبية، غير ناظرين إلاّ إلى الدليل، ولا باحثين إلاّ عن الحقّ.

إذن قد انتهت هذه المشكلة أو كادت، ولم يعد لها خطرها ولا ضررها، ولعلّنا نشهد فى القريب العاجل إن شاء الله مذاهب إسلامية أخرى يدرّس فقهها فى الأزهر، كما يدرَّس فقه المذاهب الأربعة، ويومئذ يحقّ لنا أن نستوفى هذا الفخر برجوع الفقه الإسلامى إلى مجده الأول، يوم كانت الآراء المحكمة، والحجج المتقابلة، والأدلّة، ووجهات النظر هى مادّته وغذاءه، وعمدته فى التنوير الفكرى، والوصول إلى الحقّ، لا قول فلان، ولا رأى فلان.

إنّنا لنستبشر خيراً بهذا، وقد قارنه فى نفس العهد إحساس المسلمين بأنّه لاينبغى أن يحكموا بغير شريعتهم، وتلك هى الصيحات ترتفع عالية من كلّ جانب ينادى بها المشتغلون بالفقه الإسلامى، والمشتغلون بغيره من رجال القانون والقضاء والتشريع: أن عودوا إلى فقهكم، فإنّه عنوان مجدكم وعزّكم.

وقد اعترف بقيمة هذا الفقه وعظيم صلاحيته مؤتمر دولى عقد فى مدينة لاهايسنة ١٩٣٧م، حضره ممثّلون للأزهر الشريف والحكومة المصرية.

وما كان هذا كلّه ـ علم الله ـ إلاّ لأنّنا نبذنا التعصّب، فتجلّى لنا ما فى شريعتنا وفقهنا من روعة وجلال، ومن قدرة على مسايرة أرقى أنواع الحضارات والمدنيّات.

هذا هو تاريخ الخلاف فى الفقه والشتريع، بدأ خلافاً علمياً مهذّباً، فكان بركةً وفتحاً مبيناً، ثم تطوّر إلى عصبية مذهبية عمياء، فكان جموداً وركوداً، وكان سبباً فى انسلاخ كثير من الشعوب الإسلامية من تشريعها، ثم أخذ يعود إلى هدوئه وسنّته الأولى، فاستروحنا منه روح النهضة والتجدّد، وابتدأنا نلتفت إليه، ونستعزّ به، وننادى بأنّه فكرتنا ومنهاجنا فى الحياة.

هكذا كان شأن الفقه، فماذا كان شأننا فى غير هذه الدائرة؟

ماذا كان شأننا فى المعارف الفكرية والقضايا التى أثارها الخلاف الطائفى والكلامى؟

لقد بكرت هذه الخلافات على المسلمين منذ أول الأمر كما قلنا، وكانت

عنيفةً حادّةً، وكانت فى نفس الوقت متلوّنةً بألوان مختلفة; تبعاً لما كان يمدّها من السياسة والأهواء، ولما كان يغذّيها من الثقافات المختلفة. وظلّت هكذا تتزايد وتقوّى وتتّسع آفاقها، ويتفاقم شرّها، حتّى أصبح المسلمون فرقاً شتّى، وطوائف مبعثرة، بل أصبحت الأمة الواحدة متشعّبة إلى فرق، والفرقة الواحدة متشعّبة إلى شُعَب، وكلّهم متقاطعون متدابرون، ينظر بعضهم إلى بعض كأنّهم أرباب أديان مختلفة، فلا تعاون ولا تزاوج، ولا تبادل للأفكار، كلّ طائفة عاكفة على ما عندها، متعصّبة له، نافرة عمّا سواه، تعتقد أنّها على الحقّ، وأنّ سواها على الباطل.

وإذا تقاربت منها طائفتان أو أكثر فى بلاد واحدة احتكّ بعضها ببعض، وهاج بعضها على بعض، وكثيراً ما أفضى ذلک إلى سفک الدماء، وتخريب البيوت، وعداوات الأُسر والطوائف، ممّا نشهده بأعيننا، ونسمعه بآذاننا فى الحين بعد الحين.

وساعد على ذلک المستعمرون الذين يهمّهم أن تتقطّع أسباب المودّة، وعوامل الائتلاف بين المسلمين، ليسودوا عليهم فى بلادهم، وليكونوا هم قبلة المختلفين، والحكم الأعلى بين المتنازعين. وهكذا طاوع المسلمون هذه الأساليب الاستعمارية الماكرة، فزادوا من حدّة الخلاف بينهم، وتراموا بالكفر والفسوق والزندقة، والخروج على الدين، وأمثال تلک الاتّهامات الطائشة التى أرست بينهم العداوة والبغضاء، وزرعت فى قلوبهم الحقد والضغينة وسوء الظنّ، وبذلک ساعدوا على أنفسهم، ومكّنوا لأعدائهم من رقابهم وأوصالهم.

حدث هذا كلّه، وما زال يحدث، مع أنّ هذه الخلافات عند كثير من طوائف المسلمين وفرقهم لاترجع إلى أُصول الدين، ولاتمسّ العقائد التى أوجب الله الإيمان بها، والتى يعدّ الخروج عنها خروجاً عن الدين، ومن الممكن ـ إذا وجدت هذه الفرق من يقرّب بينها، ويدرس أسباب خلافاتها ـ أن تعرض هذه الخلافات عرضاً هادئاً، دون تأثيرات خارجية ولا تعصّبية، فيتبيّن الحقّ فيها،

ويزول كثير من أسباب الجفوة والقطيعة بين أرباب الدين الواحد، والنبى الواحد، والكتاب الواحد.

من الممكن أن يتقارب المسلمون فيعلموا أنّ هناک فرقاً بين العقيدة التى يجب الإيمان بها، وبين المعارف الفكرية التى تختلف فيها الآراء دون أن تمسّ العقيدة. ويومئذ يهون الأمر، فنجمع على ما نجمع عليه، وإذا اختلفنا لم يكن خلافنا إلاّ كما يختلف أهل المذاهب الفقهية دون خصام ولا اتّهام، ودون توجّس واسترابة وسوء ظنّ بما يجعلنا متقاطعين فى معاملاتنا، ومصاهراتنا، وثقافاتنا.

يومئذ يعود المسلمين كما كانوا أُمةً واحدةً، دينها الإسلام، وكتابها القرآن، ورسولها محمد عليه الصلاة والسلام، تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتتقبّل الكلام فيما وراء ذلک على أنّه آراء يدلى كلٌّ بما يراه منها، دون أن تسىء إلى وحدة المسلمين، أو تكون عاملاً من عوامل فرقتهم وضعفهم.

كان هذا ممكناً، وما زال ممكناً، ولاسيّما بعد أن اتّسع نطاق العقول، وانتشر لواء العلم خفّاقاً، وأحسّ المسلمون بضرر ما هم عليه من التفرّق والتطاحن، وبأنّ هذه الخلافات قد احتسبت خلافات متّصلة بأصل الدين وأساس العقيدة، واتّخذت لذلک علامةً عند أعداء الإسلام، على أنّ هذا الدين لايستطيع النهوض بأُمة تريد أن تنهض، وأن تتّخذ لها مكانةً بين الأُمم.

لقد كان من نتائج هذا: الاضطراب فى الأفكار والمعارف الدينية، وتفكير كلّ طائفة للأُخرى أو اعتدادها بآرائها على أنها هى الحقّ وما سواها هو الباطل، وأنّ من خرج على هذه الآراء فقد خرج على شىء مقدّس، ومرق أو تزندق أو تطرّف! كان من آثار ذلک مثل ما كان من آثار الركود الفقهى حين خرجت الأُمة الإسلامية عن فقهها إلى ما سواه.

ذلک أنّ كثيراً من الشباب يخرجون على هذا التراث الفكرى عامّةً، ويجنّبون أنفسهم مشقّاته وأهواله، ويبتعدون عن أخطاره ومزالقه، ومغبّة البحث فيه; حذراً أن يضلّوا فى مجاهله، أو يصيبهم رشاش من التكفير أو التفسيق، فنراهم

يتجاوزون هذه الثقافات الفكرية الإسلامية، غير مميّزين بين غثّها وسمينها، إلى غذاء علميٍّ آخر لأرواحهم وعقولهم فى المعارف الفكرية الأجنبية، يتلقّفونها من علماء الغرب ومفكّريه ومستشرقيه، والمأخوذين به، ويعتقدونها هى العلم الصحيح، والغذاء المفيد، والآراء الصالحة للحياة.

ولقد رأينا هذه النزعة الخطيرة تستولى على شبابنا، وكثير من مفكّرينا، وتتغلغل فى أعماق نفوسهم، وتسيطر على أفكارهم وعقولهم، وتعمل عملها دون أن يشعروا أو تشعر الأُمة بما لها من إيحاءات خفيّة، وضرر يسرى كالسمّ الزعاف فى أناة ومثابرة حتّى يهلك أو يقارب، ومن شأن هؤلاء أن يهون عليهم تاريخهم، وتصغر فى أعينهم ثقافتهم، بل أن يصبح دينهم غير عزيز عليهم، ولا أثير لديهم، وربّما مقتوه، وفرّوا منه، وتباهوا بأنّهم علوا عنه، وارتفعوا بأنفسهم عن مستواه!

هذه بعض أخطار التفرّق الذى مُنى به المسلمون، أضعفتهم، وأطمعت فيهم أعداءهم، بل سلّطت عليهم هؤلاء الأعداء يسومونهم الخسف والذلّ وسوء العذاب، وهوّنت من شأن ثقافاتهم ودينهم، وجعلت العزّة والسلطان لغيرهم، وإنّما العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

من الممكن أن تتلافى هذه الأخطار، وأن يجنّب المسلمون شرّها وضررها: إذا تعاونت القلوب، وتآزرت الجهود، ونُسيت العصبيات، ورجعنا إلى الحقّ ننشده مخلصين.

إنّ حوالى أربعمائة مليون من المسلمين منبثّين فى بلاد الله شرقاً وغرباً، لم يؤتوا من قلّة، ولم يؤتوا من فقر فى عقولهم، أو فى بلادهم، أو فى استعدادهم، أو فى ثرواتهم الطبيعية. ولقد شهد التاريخ كيف كانوا أقلّ من ذلك عدداً، وأقلّ من ذلك مالاً وثروةً وخصباً، ومع ذلك سادوا وشادوا، ولفتوا إلى علومهم وأفكارهم ومدنيّتهم أهل الزمان.

فالمسألة ـ إذن ـ إنّما ترجع إلى هذا التفرّق والتقاطع، إلى هذا الفقر الطارئ على النفوس والهمم والعزائم.

وقد تنبّه إلى ذلک كثير من أهل العلم والفكر من المسلمين فى عهود مختلفة، وكانت صيحاتهم تنبعث فى الحين بعد الحين، عاليةً طوراً وطوراً خافتة، ينادون أُمتهم أن تنبّهى إلى هذا المرض الخطير، وإلاّ قُضى عليک القضاء الأخير.

ولكن هذا كلّه ـ مع شديد الأسف ـ لم يتجاوز حدود الأمل الذى يساور النفوس، أو القول الذى تجرى به الألسنة والشفاه، ولم تتّخذ خطوات عملية مثمرة لتنفيذه، حتّى كاد الناس ييأسون من شفاء هذه الأُمة، ويتوجّسون أن يدركها بسبب هذا الداء الوبيل موت نهائى، بعد أن ألحّت عليها العلّة حتّى أضعفتها وبرتها.

ولكنّ الله ـ جلّت حكمته ـ أرحم من أن يترک الأُمة المحمدية لهذا المصير الفاجع، وهى خير أُمة أُخرجت للناس. نعم إنّها أساءت إلى نفسها، وخرجت عن دائرة دينها، وغيّرت وبدّلت وأعرضت، إلاّ أنّها لاتزال أُمة القرآن، وأُمة خير الأنبياء (عليهم السلام)، وأنّ القرآن الذى أنقذ المسلمين، وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم، وجمع بينهم، وألّف بين قلوبهم، وقد كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها، وجعلهم سادة العالم وقادته، لهو جدير بأن ينقذهم مرّةً أخرى، وبأن يرفعهم من وهدة خلافهم وتطاحنهم.

وقد أنبأنا الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام بأنّه ما تزال طائفة أو طوائف من أُمته على الحقّ، لايضرّهم من خرج عنهم إلى يوم القيامة، وأنّ الله يبعث فى الحين بعد الحين إلى هذه الأُمة من يجدّدها ويسدّدها، ويهديها بفضله إلى سواء السبيل.

لعلّنا نلمح نور هذا الفجر المنتظر يشعّ على العالم الإسلامى.

لعلّنا ننتظر هذا التجديد الموعود به فى هذا العصر الذى تنبّه فيه الغافلون، واستيقظ النائمون.

لعلّنا نلتمس أن تبزغ هذه الشمس فى مصر والعالم الإسلامى بعد أن طال احتجابها عن المسلمين.

نقول ذلك ونحن نقدّم جماعتنا هذه (**جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية**) إلى العالم الإسلامى الذى رزح تحت أثقال التفرّق أجيالاً بعد أجيال، وقروناً تطاول عليها الأمد، فنبشّر المسلمين بعهد جديد نرجو أن يكون بدءاً لانقشاع سُحُب الخلاف من جوّهم، ونرجو أن تكون الخطوات فيه إلى هذا الغرض الشريف سريعةً موفَّقة إن شاء الله.

وقد أُلِّفت هذه الجماعة فى مصر حاضرة الإسلام، وملتقى أفكار المسلمين ونهضاتهم، ومشرق شمس الأزهر الشريف، تلك الجامعة العلمية الإسلامية التى تهوى إليها أفئدة من الناس فى مشارق الأرض ومغاربها، على أن تكون لها فيما بعد فروع فى شتّى البلاد، ومختلف البقاع، تسير على نهجها، وتخدم فكرتها، وتتعاون على جمع كلمة المسلمين بكلّ ما تستطيع من أنواع المعاونة.

وإنّنا ـ حين نعلن فى العالم الإسلامى نبأ تأليف هذه الجماعة ذات الغرض الأسمى ـ لنرجو من كلّ مسلم أن يتقبّلها بقبول حسن، وأن يضمّ جهده إلى جهود أعضائها، وأن يبثّ فكرتها، ويعمل على تحقيق غايتها. نرجو ذلك من كلّ أُمة وطائفة، وجماعة وفرد، ونرجوه من كلّ من يؤمن بالقرآن، ويعتقد برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه.

على بركة الله إذن تتقدم هذه الجماعة إلى العالم الإسلامى، وتعلن بادئ الأمر أنّها ذات أغراض دينية اجتماعية فقط، كما جاء فى قانونها الأساسى، ذلك القانون الذى اتّفق عليه أعضاؤها المؤسّسون، وهو العهد بيننا وبين المسلمين، فى ظلّ الإسلام، وتحت راية القرآن، نستعين الله على الوفاء به، والنهوض بتبعاته.

(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ).

(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ).

جماعة التقريب ـ القاهرة

مشروع علمى جليل

بين شلتوت والقمى

من الحقائق المقرّرة التى تؤمن بها «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية» وتعمل على تجليتها للناس» ، وتدعو إليها فى كلّ مجال : أنّ جميع المذاهب الإسلامية تؤمن بالسنّة النبوية المطهّرة كمصدر مقدّس من مصادر الشريعة ، مثلها فى ذلک كمثل القرآن الكريم ، فليس لمسلم أن ينكر حجّية السنّة ، شيعياً كان أو سنّياً ، وليس فى هؤلاء وهؤلاء من يقول : هذا الحديث صحّ وروده عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومع ذلک لا أعمل به ، ولست ملزماً شرعاً بهذا العمل ، ولكن ربّما قال قائل من هؤلاء أو هؤلاء : هذه الرواية لم تصحّ عندى فأنا لا أعمل بها ، وإنّنا لنرى هذا بين علماء السنّة أنفسهم فى مختلف مذاهبهم ، كما نراه بين علماء الشيعة فى نطاق المذهب ، ومع المذاهب الأخرى ، فكم من أحاديث صحّت عند فقيه ، ولم تصحّ عند آخر ، وكم من أحكام فقهية خلافية انبنى الخلاف فيها على موقف كلٍّ من قبول حديث معيّن أو عدم قبوله .

والواقع أنّه لا غضاضة فى ذلک ما دام الإخلاص هو رائد الجميع ، وما داموا كلّهم مؤمنين بالسنّة كأصل من أصول التشريع ، وبأنّه لا يجوز لمسلم أن يرفض ما صحّ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) .

ويتلخّص هذا المبدأ المسلَّم به عند الفريقين فى أنّ الاختلاف ليس واقعاً فى كبرى القياس ، وإنّما يقع أحياناً فى صغراه ، فإذا قلنا فى قياس من الشكل الأوّل عند المناطقة : هذا الأمر قد ثبت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وكل ما ثبت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)يجب العمل به ، كان معنا مقدّمتان : الأولى منهما هى المعروفة عند المناطقة بالمقدّمة الصغرى ، والثانية

هى المقدّمة الكبرى ، فإذا سلمت المقدّمتان صحّت النتيجة ، وهى : «هذا الأمر يجب العمل به» .

فالمسلمون لايختلفون فى المقدّمة الكبرى التى تقول : كل ما ثبت عن رسول الله يجب العمل به ، بل كلّهم يؤمن بها إيماناً لا يعتريه الشكّ ، وكلّهم يعتبر هذا الإيمان ركناً أصلياً من أركان الإسلام ، من شذّ عنه خرج من ربقة الإيمان .

لكنّ الخلاف حين يوجد إنّما هو فى المقدّمة الصغرى التى تقول : «هذا الأمر ثبت وروده» فيقول بعضهم : نعم ثبت فأقبله ، ويقول بعضهم : لم يثبت فأنا لا أقبله .

ولذلک اشتهر بين علماء المناظرة قولهم فى بعض الأحيان : هذا الخلاف صغروى لا كبروى ، أو خلاف فى الصغرى دون الكبرى . هذه حقيقة.

وهناک حقيقة أخرى نؤمن بها ،ونعمل على تجليتها ، وندعو الناس إلى الإيمان بها .

تلک هى أنّ العدد الأكبر ممّا ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فى شؤون العقيدة والشريعة والأخلاق ، وسائر الجوانب التى جالت فى ميادينها السنّة المطهّرة ، قد اتّفق عليه كلا الفريقين ، فهو وارد من طريق صحيح يرتضيه كلٌّ منهما ، أو وارد من طريقين لهؤلاء وهؤلاء ، تطابقا عليه لفظاً أو معنى ، وأنّه لايوجد خلاف إلاّ فى العدد الأقلّ من أحاديث الأحكام أو الأخبار ، وليس هذا العدد الأقلّ من حسن الحظّ فى الأصول الضرورية التى لايكون المسلم مسلماً إلاّ بها ، وإنّما هو فيما لايضرّ الاختلاف فيه ، وفيما يسع المسلم باعتباره مسلماً أن يترخّص فيه دون أن ينازِع أو ينازَع .

على ضوء هاتين الحقيقتين المقرّرتين ، رأت دار التقريب بين المذاهب الإسلامية أن تقوم بمشروع علمى إسلامى جليل الشأن .

ذلک هو جمع الأحاديث التى اتّفق عليها الفريقان فى مختلف أبواب الإيمان والعمل والأخبار والأخلاق ، وغير ذلک من أبواب السنّة المطهّرة ، تجمع

الأحاديث المتّفق عليها فى كل باب ، ويبيّن مع كلّ حديث مصدره من كتب السنّة ومن كتب الشيعة ، ودرجته عند كلٍّ من الفريقين .

ويمكن إصدار ما يتمّ من ذلک على سبيل التدرّج جزءاً بعد جزء حتّى يكمل المشروع بإذن الله ، ويومئذ يجد فيه المسلمون مرجعاً متّفقاً عليه ، صالحاً للاحتجاج به ، والاحتكام إليه .

لقد بذلت فى دراسة هذا المشروع جهود كثيرة من رجال التقريب فى مصروغيرها استغرقت وقتاً طويلاً ، وعملت تجارب فى مختلف الأبواب والموضوعات ، أسفرت عن نتائج تؤذن باستقامة الفكرة ، وتبشّر بنجاحها .

ومن ثم اجتمع فى هذا الشهر بمدينة القاهرة قطبان من أقطاب التقريب ، هما السيدان الجليلان : الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، والعلاّمة الحجّة الأستاذ محمد تقى القمى السكرتير العام لجماعة التقريب ، واستعرضا الفكرة، وما قام حولها من بحوث وتجارب، وما أسفرت عنه من نتائج ، وما يمكن أن تسلک من الطرق فى سبيل تحقيقها ، فاتّفقا ـ والحمد لله ـ على أنّ المشروع جدير بالتحقيق ، وعلى أن تقوم دار التقريب بخطوات تنفيذه العملية على بركة الله تعالى ، وأن يقوم بذلک رجال من علماء التقريب فى مختلف البلاد الإسلامية ، بحيث تقسّم أبواب السنّة ، ويختصّ كل جماعة من العلماء بقسم ، ثم يراجع ما يتم من ذلک أولاً بأول فى دار التقريب بالقاهرة ، ويبدأ فى إخراجه مطبوعاً منّسقاً مقرّباً إن شاء الله .

إنّنا نبشّر أصدقاء التقريب ، وهم المسلمون الواعون فى كلّ بلد إسلامى ، وفى كلّ طائفة ومذهب ، بهذا المشروع العلمى النافع ، الذى نعتقد بحقّ أنّه الأوّل من نوعه فى تاريخ الإسلام ، وفى تاريخ علم الحديث ، ونسأل الله أن يعيننا على تحقيقه ، إنّه نعم الموفّق والمعين .

ملحق رقم (٢)

رسائل متبادلة ووثائق

رسالة شيخ الأزهر إلى سماحة آية الله السيد حسين البروجردى (قدس سره)

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد صاحب السماحة الأخ الجليل الإمام البروجردى / قم ـ ايرانسلام الله عليكم ورحمته

أمّا بعد، فإنّى أبدأ بالسؤال عن صحّة السيد الأخ الجليل الغالية، والدعاء بأن يكون سماحته دائماً مصدر بركات للمسلمين، ووحدة كلمتهم، أطال الله عمره، وأعزّ بالصالحات نصره.

وأنتهز الفرصة السانحة بسفر سماحة أخى العلاّمة الجليل الأستاذ القمى أيّده الله فى جهاده المشكور، لأكتب إلى سماحتكم، مقدّراً حهودكم، سائلاً الله جلّت قدرته أن يحقّق ما ترجونه من الخير للمسلمين، وأن يوفّق مساعيكم الراشدة، فى سبيل جمع كلمتهم، وتأليف قلوبهم، وأُبشّركم بأنّ خطواتنا فى سبيل التقريب، تلك الخطوات التى أعرف أنّكم تؤيّدونها كلّ التأييد، وتولونها أعظم العناية والاهتمام، تسير سيراً موفّقاً، بتيسير من الله تعالى، وبصالح دعواتكم، وأنّ النخبة المصطفاة من رجالنا فى الأزهر، وإخواننا الذين جاهدوا فى التقريب حقّ الجهاد، يعاونوننا عن إيمان صادق، ويقومون بما يجب عليهم لدينهم، وللرسالة الإنسانية الرفيعة التى اعتنقوها.

وإنّى لأرجو أن يعود السيد الأخ الأعزّ سماحة الأستاذ القمى إلينا بأسرع وقت لنسعد بأخباركم السارّة إن شاء الله، ولنتعرّف إلى آرائكم السديدة فى تحقيق أمانينا المشتركة، وقد أوضحت لسماحته كثيراً من الأُمور، ورجوت منه أن يبلغكم تفاصيلها.

والله المسؤول أن يجمع بيننا فى رضاه، وأن يديم ربط قلوبنا للعمل فى سبيله، إنّه سميع الدعاء، لطيف لما يشاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

٢٤ من ذى القعدة ١٣٧٩ هـشيخ الجامع الأزهر

١٩ من مايو ١٩٦٠م محمود شلتوت

اصل سند نامه بزبان عربی

رسائل متبادلة بين شيخين جليلين[١]

علم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر أنّ حضرة صاحب السماحة العلاّمة الأكبر الحاج آقا حسين البروجرديكبير علماء الشيعة بإيران قد مسّه طارئ من المرض أقعده عن مباشرة كثير من أعماله الطيّبة فى خدمة الإسلام والمسلمين، وقد صادف أنّ فضيلة الأستاذ الأكبر كان معتكفاً فى هذه الفترة لمرضه، فما إن عاد إلى مباشرة أعماله بعد شفائه حتّى أمر بإرسال كتاب ودّى أخوى إلى سماحة العلاّمة الجليل، هذا نصّه:

حضرة صاحب السماحة آية الله **الحاج أقا حسين البروجردى:**

سلام الله عليكم ورحمته.

أمّا بعد، فقد بلغنا ـ عن طريق المذياع ـ أنّ صحّتكم الغالية قد ألمّ بها طارئ من المرض، فأسفنا لذلک أشدّ الأسف; لما نعرفه فيكم من العلم والفضل والإخلاص للحقّ، وإنّا لنسأل الله جلّت قدرته أن يعجّل بشفائكم، ويلبسكم لباس العافية، حتّى تتمكّنوا من العود الحميد إلى نشاطكم المعهود فى خدمة الإسلام والمسلمين.

ولقد شاءت إرادة الله أن أكون أنا أيضاً فى هذه الفترة مريضاً معتكفاً فى بيتى، أحمل همّين ممضين: همّ نفسى وهمّ قومى، وأُطيل التفكير خالياً فى حال أمتنا العزيزة، فيأخذنى من القلق والحزن ما الله به عليم، فأرجو أن تسألوا الله لى العافية كما أسأله لكم، والله يتولاّنا جميعاً برحمته.

إنّ الأمة الإسلامية الآن أحوج ما تكون إلى رجال صادقى العزم، راجحى

---

١. نقلاً عن مجلّة رسالة الإسلام: السنة (٣) العدد (٣) رمضان سنة ١٣٧٠هـ ، صفحة: ٢٢٨ ـ ٢٣٠.

الوزن، يجاهدون فى الله حقّ جهاده، ليدرأوا عنها غوائل الفتن، ونوازل المحن، فقد تألّبت قوى الشرّ، وتجمّعت عناصر الفساد، وزلزل المؤمنون فى كلّ قطر من أقطارهم زلزالاً شديداً، وكأن قد أتى الزمان الذى أنبأ الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه: «أنّ القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر» وإنّما مثل أهل العلم من المؤمنين الصادقين كأطواد راسية، أو حصون منيعة، ألقاها الله فى الناس أن تميد بهم الأرض من فتنة أو جهالة، أو كنجوم ثاقبة فى ليل داج، ترشد السارين، وتهدى الحائرين.

فادع الله معى أن يحفظ هؤلاء، ويكثّر فى الأمة منهم، وينشر عليهم رحمته، وينزل عليهم سكينته، ويؤيّد بهم الحقّ والدين، ويهزم بهم المبطلين والملحدين والمفسدين، إنّه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

١٤ من شعبان سنة
١٣٧٠هـ

* * *

وقد تأثّر صاحب السماحة العلاّمة الأكبر بهذا الكتاب الذى يدلّ على ما تنطوى عليه نفس فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، وكبير علماء السنّة، من عواطف كريمة نحو إخوانه المؤمنين، وحرص على نهوض الأمة الإسلامية نهضةً تعيد إليها سابق مجدها وعزّها، فأجاب بهذا الكتاب:

حضرة صاحب الفضيلة الأكبر **الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر**دامت إفاضاته

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعد، فقد بلغنا كتابكم الكريم الحاوى للعواطف الإسلامية السامية، يحكى لنا أنّه لمّا بلغكم عن طريق المذياع أنّ صحّة هذا العبد قد ألمّ بها طارئ من المرض، أسفتم لذلک، ودعوتم الله تعالى أن يعيد له الصحّة.

فأشكركم على ذلک، وأسأل الله تعالى أن يبدّل التعارف والتعاطف بين المسلمين، ممّا كان بينهم من التناكر والتدابر والتقاطع، إنّه على ما يشاء قدير.

ويحكى كتابكم أيضاً، أنّه قد ألمّ بصحّتكم الغالية طارئ من المرض، كما ألمّ بى، فاعتكفتم فى البيت حاملين لهمّين ممضين: همّ نفسكم وهمّ قومكم، وأنّ إطالة التفكير فى حالة الأُمة توجب لكم من القلق والحزن ما الله به عليم.

هكذا ينبغى أن يكون رجال العلم ورجال الإسلام، مهما حاقت بالمسلمين زلازل الفتن، وأحاطت بهم نوازل المحن، فأسأل الله عزّ سلطانه أن يلبسكم لباس العافية، ويوفّقكم لخدمة الإسلام والمسلمين، ولما يوجبه الاهتمام بأمر الأمة فى مثل هذا الزمان، من أمثال جنابكم الذين وقفوا أنفسهم لخدمة هذه الأمة، ودرء عوادى المفسدين والملحدين عنها، إنّه قريب مجيب.

إنّ هنا أموراً كنت أحبّ إبداءها لكم، لكن حالى لاتساعدنى على ذلک.

والسلام عليكم وعلى من أحاط بكم من المؤمنين الصادقين ورحمة الله وبركاته.

١٧ من رمضان سنة

١٣٧٠ هـ

حول تفسير مجمع البيان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الهداة الراشدين .

أمّا بعد ، فإنّ كتاب مجمع البيان لعلوم القرآن الذى ألّفه الشيخ العلاّمة ثقة الإسلام أبو على الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى من علماء القرن السادس الهجرى ، هو كتاب جليل الشأن ، غزير العلم ، كثير الفوائد ، حسن الترتيب ، لا أحسبنى مبالغاً إذا قلت : إنّه فى مقدّمة كتب التفسير التى تعدّ مراجع لعلومه وبحوثه .

ولقد قرأت فى هذا الكتاب كثيراً ، ورجعت إليه فى مواطن عدّة ، فوجدته حلاّل معضلات ، كشّاف مبهمات ، ووحدت صاحبه (رحمه الله) عميق التفكّر ، عظيم التدبّر ، متمكّناً من علمه ، قوياً فى أسلوبه وتعبيره ، شديد الحرص على أن يجلى للناس كثيراً من المسائل التى يفيدهم علمها .

فإذا قامت اليوم جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ ولى شرف المساهمة فى تأسيسها وأعمالها ـ بإحياء هذا التفسير الجليل ، فإنّه لعمل من الباقيات الصالحات ، آمل أن يثيبنا الله عليه ، ويثيب كل معين على إتمامه ثواباً حسناً ، والباقيات الصالحات خير عند ربک ثواباً وخير أملاً .

۴ من ذى القعدة سنة ۱۳۷۱ هـ / ۲۶ من يوليو سنة ۱۹۵۲ م

بين شيخى السنّة والشيعة[١]

لمّا عاد فضيلة الأستاذ الجليل السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية من إيران إلى القاهرة، حمل إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر رسالةً شفويةً من حضرة صاحب السماحة الجليل الحاج أقا حسين البروجردى، فرأى فضيلته إرسال الكتاب الآتى إلى سماحته:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب السماحة آية الله **السيد الجليل الحاج أقا حسين البروجردى** حفظه الله:

سلام الله عليكم ورحمته.

أمّا بعد، فقد أبلغنى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد تقى الأمين العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية رسالتكم الشفوية التى رأيتم فضيلتكم إبلاغها إلىَّ:

تفضّلتم فتحدّثتم إليه عن إعجابكم بما أُؤدّيه من جهود فى خدمة الإسلام والمسلمين، وعن جهود جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وما لها من أثر فى جمع كلمة المسلمين، وما تستطيع أن تفعله وترشد إليه ممّا يصلح به الفساد الذى دسّه ذوو الأغراض.

والله يعلم أنّ هذه هى أعزّ آمالى التى أعمل لها جاهداً طول حياتى، وأسأل الله تعالى أن يحقّقها، وأن يؤيّد كلّ ساع فى سبيلها، وإنّى لأشكر لسماحتكم هذه الثقة فى شخصى، وهذا الاعتداد بجهدى، وأُنوّه بما أعرفه فيكم من مشاطرتى

١ . نقلاً عن مجلّة رسالة الإسلام: السنة (٤) العدد (٢) رجب سنة ١٣٧١هـ ، صفحة: ٢١٨ ـ ٢٢٠.

هذا الجهاد فى سبيل الله، وأنّكم لاتفتأون تعملون على إصلاح شأن الأمة، بما لكم من العلم والجاه والنفوذ فى إيران وغير إيران، وأنّ فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية تلقى منكم عنايةً بالغةً، ومؤازرةً قويةً فى شتّى المواقف والمناسبات، لأنّكم ـ كما هو المنتظر من مثلكم فى علمه وتقواه ورجاحة عقله ـ قد أدركتم ما لها من جدوى فى إعلاء شأن المسلمين، وتقوية شوكتهم، وإحلالهم المحلّ اللائق بهم من العزّة والكرامة (وَلِلَّه الْعِزَّةُ وَلِرَسُوله وَلِلْمُؤْمنينَ).

إنّ أهل العلم ـ يا سماحة السيد الجليل ـ هم حملة أمانة الإسلام، والقائمون بالقسط مع الله وملائكته بشهادة القرآن، وإنّ عليهم لهذا لواجباً عظيماً، يجب أن يتعاونوا على أدائه، وأن يتبادلوا الرأى والمشورة فى شأنه على بُعد البلاد، واختلاف الشعوب، ولقد أتى على المسلمين حين من الدهر كانوا فيه هدفاً لكثير من الدسائس الفكرية التى يراد بها زلزلتهم عن الحقّ، واجتذابهم إلى الباطل، وشغلهم عن الدعوة إلى الله، والجهاد فى سبيله، وتفريقهم بالخلاف والجدال تفريقاً يقضى عليهم جميعاً.

ولم تزل آثار هذه الدسائس تغشى العقول، وتشغل القلوب، وتحول بين كثير من الناس وما ينبغى أن يكونوا عليه من فهم صحيح للدين، وإدراك لأسراره، وتفان فى سبيل إعلاء كلمته، فأوّل واجب علينا معشر العلماء ـ لا فرق بين سنّيين منّا وشيعيّين ـ أن ننفى من أذهان الناس ما علق بها من ذلک، وأن ننشر صفحات الإسلام الناصعة، ومبادئه القويمة، وشريعته الحنيفية السمحة نشراً يبصّر الناس بما فيها من هدىً ورشاد، ويأخذهم بما لها من قوّة وجمال، ويجعلهم يدينون بها عن فهم وحبٍّ لا عن وراثة وتقليد، فإنّ المرء إذا فهم أحبَّ، وإذا أحبَّ آمن إيماناً تسهل معه التضحية، ولايقف فى سبيله شىء من أعراض هذه الدنيا الفانية.

وقد علمت أخيراً بنبأ وفاة العالم الجليل السيد محسن الأمين العاملى، فأسفت لهذا النبأ لما بلغنى عنه (رحمه الله) من علمه وإخلاصه، وجهاده فى

سبيل دينه وأُمته، وإنّى أبعث إلى سماحتكم بخالص عزائى لإخواننا الشيعة الإمامية فى شخصكم، وأسأل الله الكريم أن يتغمّد الفقيد برحمته ورضوانه، وأن يجزينا وإيّاكم عن مصابه جزاء الصابرين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبدالمجيد سليم

شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

أخى فى الله صاحب السماحة الأستاذ العلاّمة السيد محسن الحكيم/النجف ــ العراق

سلام الله عليكم ورحمته وعلى جميع إخواننا وإخوانكم علماء العراق الشقيق، وكلّ من ينهض مدافعاً عن الحقّ، ومحافظاً على الوحدة والأُلفة بين المسلمين.

أمّا بعد، فإنّ سماحتكم وجميع إخوانكم الأجلاّء تعلمون نبأ الحادث المحزن الذى حدث فى هذه الأيام، وذلك هو اعتراف جلالة شاه ايران بعصابة إسرائيل التى اعتدت على فلسطين، وشتّت أهلها، واغتصبت حقوقهم.

هذا الاعتراف أقلقنا جميعاً، كما أقلق كلّ مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها، إذ كيف يقدم ملک مسلم لشعب مسلم على تأييد أعداء المسلمين وموالاتهم؟! ولقد أبرقنا لجلالة الشاه مرّتين، وأبرقنا لسماحة السيد البروجردى «قم» منبّهين إلى خطورة الشاه الذى هو شيعى من إخواننا الإمامية ممّا قد ييسّر الذين يحبّون أن يصّيّدوا فى المياه العكرة وهمسة التشويش، ومحاولة قصم الروابط التى عملنا على تقويتها، هذا فضلاً عن منافاة ذلک الدين منافاةً صريحةً لاتحتمل التأويل.

ولا شکّ أنّكم أسفتم لذلک كما أسلفنا، وأنّكم أنتم وسائر إخواننا وإخوانكم علماء العراق الكرام ستبذلون كلّ ما فى وسعكم من السعى لاستنكار هذا القرار بقوّة، والعمل على أن يرجع الشاه عنه كما رجعت حكومة الدكتور مصدّق فى إيران عن مثله إيران نفسه، كما سيكون له تأثير حميد عندنا إذ تبيّن للناس جميعاً أنّنا وإيّاكم زملاء فى الجهاد، والعمل على رفع راية الإسلام، وتثبيت الوحدة بين أهله، وإنّا لما تبعثون به إلينا من بيان سعيكم الموفّق وعملكم الصالح لمنتظرون، وإنّه المسؤول أن يكلأكم برعايته، وأن ينفع المسلمين ببركاتكم، وصالح سعيكم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوكم

محمد شلتوت شيخ الجامع الأزهر

القاهرة ١٣٨٠ هـ

بسم الله وله الحمد

فضيلة العلاّمة الجليل الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر/القاهرةالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

تلقينا برقيتكم الكريمة، تستنكرون فيها اعتراف إيران بإسرائيل، فشكرنا لكم اهتمامكم بأُمور المسلمين، وحرصكم على تقوية الرابطة الإسلامية بينهم، وإنّنا منذ بلغنا نبأ هذا الاعتراف بادرنا إلى إبلاغ استنكارنا الشديد إلى المسؤولين فى إيران بواسطة بعض إخواننا العلماء فى طهران، وأوضحنا لهم خطورة الموقف واستياء الأمة الإسلامية، ونصحنا لهم بالاحتفاظ بواجبهم الإسلامى، ورعاية شعور المسلمين، وتلقّينا الجواب واضحاً: عدم صدور أىّ اعتراف من إيران بإسرائيل، وأنّه ليس فى نيّة الحكومة ذلك، لا فى الوقت الحاضر ولا فى المستقبل، ومظهراً للعطف على قضايا المسلمين فى كلّ مكان.

وإنّنا إذ نستنكر كلّ خطوة تتّخذ لتعزيز كيان إسرائيل من أىّ جهة كانت، نلفت أنظار المسلمين كافّةً إلى الظرف العصيب الذى يحيط بهم، وندعوهم جميعاً إلى رصّ صفوفهم، وتوحيد كلمتهم، ليقفوا جبهةً موحّدةً أمام التيارات العاتية من قوى الظلم والكفر والطغيان، والتى جعلت همّها الأول محاربة الإسلام وإبعاده عن واقع المسلمين، وما إقامة إسرائيل فى فلسطين إلاّ مثل من الأمثلة الكثيرة على محاولة ضرب الإسلام والوقوف فى طريقه.

ومن هنا كان لزاماً على المسلمين عامّة، والحكومات القائمة فى بلاد المسلمين خاصّةً، أن يرجعوا إلى حظيرة الإسلام، ويلتفّوا حول لوائه الظافر الذى هو عنوان نصرهم وعزّتهم، ويستمدّوا تشريعاتهم من ينبوعه الثرى، ومنهله الصافى، ليستعيدوا مجدهم وكرامتهم، ويحلّلوا ما حلّل الإسلام، ويحرّموا ما حرّمه.

وما هذه المآسى التى ضجّت بها حياة المسلمين إلاّ أثر من آثار تهاونهم فى

الإسلام، وإبعاده عن إدارة شؤون الأُمة، الأمر الذى ينذرهم بالخطر، ويهدّدهم بالخذلان.

وختاماً، نبتهل إلى العلى القدير أن يجمع كلمة المسلمين على التقوى والهدى، ويأخذ بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم، إنّه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

النجف الأشرف ـ العراق ١٣٨٠هـ

رسالة آية الله السيّد محمّد هادى الميلانى لشيخ الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور محمد محمد الفحّام

شيخ الأزهر

سماحة الشيخ حسن سعيد من كبار علماء طهران، شرّفنى بزيارة فى منزلى ٥ شارع على بن أبى طالب، ومعه سماحة العالم العلاّمة، والصديق الكريم، السيد طالب الرفاعى. وقد أهاجت هذه الزيارة فى نفسى ذكريات جميلة، ذكريات الأيام التى قضيتها فى طهران سنة ١٩٧٠، فعرفت فيها طائفةً كبيرةً من طوائف العلماء الشيعة الإمامية، وعرفت فيهم الوفاء والكرم الذى لم أعهده من قبل.

وما زيارتهم لى اليوم إلاّ مظهر وفائهم، جزاهم الله كلّ خير، وشكر لهم مسعاهم الجميل فى التعرف بين المذاهب الاسلامية التى فى الحقيقة والواقع شىء واحد فى أصول العقيدة الاسلامية التى جمعت بينهم على صعيد الأخوّة التى جسّدها القرآن حيث يقول: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**).

هذه الأخوّة من واجب علماء الأمة على اختلاف اتّجاهاتها المذهبية أن يحرصوا على كميّتها، ونبذ كلّ ما يسوء إليها، ويكدر صفوها من عوامل التفرقة، والتى شجبها الله تعالى فى كتابه العزيز: (**وَلاَتَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**).

ورحم الله الشيخ شلتوت الذى التفت إلى هذا المعنى الكريم، فخلّد فى فتواه الصريحة الشجاعة، حيث قال ما مضمونه: بجواز العمل بمذهب الشيعة الإمامية باعتباره مذهباً فقهياً إسلامياً، يقوم على الكتاب والسنّة والدليل الأسدّ.

والله أسأل أن يوفّق العاملين على هذا الفتح القويم فى التقريب بين الإخوة فى العقيدة الإسلامية الحقّة (**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**).

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

د. محمد الفحّام

شيخ الأزهر السابق

٢١ من شهر ذى القعدة ١٣٩٧هـ

دست خط شيخ فحام

فضيلة الأُستاذ الدكتور فريد واصل نصر مفتى الديار المصرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نرجو من سماحتكم أن تعطونا رأيكم الشريف فى اقتداء أصحاب المذاهب بمن يتقلّد مذهب أهل البيت (عليهم السلام) من الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، هل يصحّ ذلک أم لا؟

افتونا مأجورين ١٦/شوال المكرَّم/١٤٢١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلّ مسلم يؤمن بالله، ويشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، ولاينكر معلوماً من الدين بالضرورة، وهو عالم بأركان الإسلام والصلاة، وشروطها هى متوفّرة فيه، فتصحّ إمامته لغيره، وإمامة غيره له إذا توفّرت فيه تلك الشروط ولو اختلف مذهبهما الفقهى.

وشيعة أهل البيت من نحلهم، ونشيّع معهم لله ولرسوله وأهل بيته وصحابته جميعاً، ولا خلاف بيننا وبينهم فى أُصول الشريعة الإسلامية، ولا فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، وقد صلّينا خلفهم وصلّوا خلفنا فى طهران وفى قم فى الأيام التى شرّفنا الله بهم فى دولة إيران الإسلامية.

وندعوا الله أن يحقّق وحدة الأمة الإسلامية، ويرفع عنهم أىّ شقاق أو نزاع أو خلاف قد حلّ بهم فى بعض مسائل الفروع الفقهية المذهبية.

والله المؤيّد والهادى إلى سواء السبيل.

دكتور فريد واصل نصر مفتى الديار المصرية

١٦/شوال/١٤٢١هـ ـ ١٢/١/٢٠٠١م

اصل سند نامه بزبان فارسى فتواى دكتر فريد واصل

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية ١٨ جمادى الآخرة ٣١/١٣٧٥ يناير ١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة العلاّمة الأكبر مولانا الأجلّ **السيد عبدالحسين شرف الدين** أبقاه الله ذخراً للإسلام والمسلمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وصلنا خطابكم الكريم، وكم كنت بحاجة إلى هذا العطف، ونرجو الله ألاّ يحرمنى من عطفكم ودعواتكم وإرشاداتكم، والله ولى التوفيق.

ووصلنى مع خطابكم مقال «صلح الحديبية» ولا أستطيع وصف شعورى حين طالعته، فهو أمتع ما قرأت، وقد حوّلته إلى رجال التحرير بالمجلّة، وكلّهم يعجب بفضل سماحتكم، ويقدّر مكانتكم ومركزكم، ويرجون أن يحسّوا دائماً بمقالاتكم، فاستلموه بيد التقدير، إلاّ أنّهم أبدوا ملاحظةً ترجع قبل كلّ شىء إلى تقاليد ملحوظة فى رسالة الإسلام وهى أنّها لاتنشر ما سبق نشره، وإنّ المقال نُشر بنصّه من قبل فى إحدى المجلاّت المحترمة، لذلك رأوا الاحتفاظ به لينشر فى بحوث الدراسات التى تزمع الجماعة إصدارها.

وأنا حين أعرض على سماحتكم هذا نرجو أن تتفضّلوا على المجلّة ببحث آخر حول المسائل الفقهية، أو موضوع الاجتهاد وحدوده، أو غير ذلك ممّا يلائم الفكرة، وكلّ ما تكتبون يلائمها والحمد لله، وقد سبق أن نشرت رسالة الإسلام بحوثاً قيّمة لفضيلتكم كان آخرها «الجمع بين الصلاتين» وكان لها أثر طيّب وتقدير عظيم عند أهل العلم، ولاسيّما علماء الأزهر فى مصر.

وإنّى أكرّر شكرى على تشجيعكم لنا فيما نقوم به بتعبيراتكم القوية وبيانكم الآخّاذ.

وبانتظار ردّكم، وأثر من آثاركم، أرجوا أن تتقبّلوا تحياتى، مع إجلال وتحيّات أصحاب الفضيلة الموجودين بالدار. والسلام عليكم ورحمة الله

المخلص
السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية

اصل سند نامه عربى محمد تقى القمى

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية ١٩٤٧/٥/٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة العلاّمة الكبير حجة الإسلام **السيد عبدالحسين شرف الدين الموسوى**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فإنّ ما تتمتّعون به فى محيط رجال الدين من شهرة عالمية، ومكانة مرفوعة، وما نعرفه عنكم من المرونة وسعة الأُفق، والغيرة على الدين، والجهاد فى سبيله، والدأب على محاولة التقريب بين الطوائف الإسلامية، كلّ ذلک يدفعنا إلى تلمّس مناصرتكم لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية التى أرسلنا لكم قانونها بالأمس، والتى تهدف إلى رفع الخلافات الطائفية، وتمهّد لعقد مؤتمرات إسلامية عامّة، ونشر الدعوة الإسلامية فى البلاد غير الإسلامية.

ولاشکّ أنّكم عرفتم من قانونها أنّها جماعة عالمية، نعتمد فى تنفيذ برامجها على كلّ رجالات الدين، فمن تمكّنه ظروفه من حضور جلساتها بالقاهرة يعتبر عضواً بالإدارة، ومن لاتسمح له ظروفه بحضور جلساتها يعتبر عضواً بالمراسلة، وكلّهم سواء، لا فرق بين واحد وآخر، وكلّهم مطالب بتقديم ما يستطيع تقديمه من خدمات تساعد على تحقيق أهداف جماعة التقريب التى يسرّ أعضاؤها جميعاً أن تنضمّوا إليهم، وتتقبّلوا العمل معهم، وكلّنا أمل أن ننتفع بتجاربكم، ويشتدّ ساعدنا بكم.

وبصفتى العضو الممثّل للشيعة فى هذه الهيئة، يهمّنى أن تقبلوا هذه المهمّة، وتخطرونى بذلک لأنتفع بآرائكم الناضجة، وإرشاداتكم السديدة، حتّى نتمكّن نحن الشيعة من إظهار أهل السنّة على حقيقة مذهبنا، ودحض ما علق بأذهان الناس بسبب ما افتراه علينا بعض المغرضين.

وأكون شاكراً لو تكرّمتم بإهداء بعض مطبوعاتكم لمكتبة دار التقريب، وشكر الله لكم، وشفّع بكم الإسلام والمسلمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المخلص
السكرتير العام للجماعة

اصل سند نامه عربى محمد تقى القمى ص١

ادامه اصل سند نامه عربى محمد تقى القمى ص٢

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية ١٩۴٨/۴/١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضل والسماحة العلاّمة الأكبر **السيد عبدالحسين شرف الدين الموسوى**/ صور ـ لبنانالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يسرّنا أن نرسل إلى فضيلتكم صورة ما نشر فى الجرائد المصرية عن آخر رسالة لجماعة التقريب، وفيه رأى فضيلة العالم الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر، وعضو جماعة التقريب، وفيه يطلب نبذ كلمة «طوائف».

ولعلّ هذا يدلّكم على اتّجاه رجال التقريب، وصادق رغبتهم فى العمل لتحقيق هدفهم وهو القضاء على الفرقة والتعصّب فى كلّ صورة من صورها، واعتبار مسلمى الشيعة أتباع مذاهب يختلف عن غيره فى الفروع، لا طوائف غريبة على الإسلام.

ولعلّ من الخير أن تكتبوا إلى هذا العالم الفاضل تقديراً لحسن فهمه للإسلام.

وتفضّلوا بقبول أزكى التحيّات.

المخلص
السكرتير العام للجماعة

اصل سند نامه عربى محمد تقى القمى الى شرف الدين/صور لبنان

رسالة من العلاّمة شرف الدين (رحمه الله) إلى دار التقريب

أخى فى الله عزّ سلطانه

بوركت تقيّاً قويّاً فى ذات الله، عالماً عاملا، مرابطاً مجاهداً، داعياً إلى الحقّ بالحكمة، وبوركت نهضتك مبرورة مشكورة بعوائدها على الأُمّة، وبورك حلفاؤك عليها ـ جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ وعسى أن تكونوا خير أُمّة أُخرجت للناس، تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

أمامى كتابكم وقانونكم السديدان، أُنعم فيهما نظرى، وأعمل فيهما رويّتى. وما أن سبرت غورهما حتّى وجدت بهما قرّة عينى، وبرد كبدى، واستخفّنى الفرح، فغلبت علىَّ نشوة الطرب تقديراً لنهضتكم، فإنّها أرجى ما يرجوه المخلصون، وهياماً بأهدافها السامية، فإنّ بها رضا الله عزّ وجلّ ورسوله (صلى الله عليه وآله)، ومصلحة الأمّة فى دينها ودنياها.

وكم أهبنا بها فى هذه المهمّة، ونزعنا إليها برجائنا، وفى العين قذى ، وفى الحلق شجى، نراهم طرائق قدداً، وعباديد شتّى، يضلّل بعضهم بعضاً بلا دليل ، ويبرأ بعضهم من بعض، وهم متّفقون بالإجماع على أنّ الله تعالى وحده لا شريك له ربّهم، والإسلام دينهم، والقرآن الحكيم كتابهم، وسيّد النبيّين وخاتم المرسلين محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله) نبيّهم، وقوله وفعله وتقريره سنّتهم، والكعبة قبلتهم ومطافهم، والصلوات الخمس وصيام الشهر والزكاة الواجبة وحجّ البيت أركان دينهم، والحلال ما أحلّه الله ورسوله، والحرام ما حرّماه، والحقّ ما أحقّاه ، والباطل ما أبطلاه، وإنّ الساعة آتيةٌ لاريب فيها، وأنّ الله يبعث من فى القبور (لِيَجْزِىَ الَّذينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)[1].

أليس الشيعيّون والسنّيّون شرعاً فى هذا كلّه سواء؟ (كُلٌّ آمَنَ بِاللّه وَمَلآئكَته وَكُتُبِه وَرُسُلِه لاَنُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِّن رُّسُلِه وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ

---

١ . النجم: ٣١.

الْمَصِيرُ)[١].

والنزاع بينهما فى جميع المسائل الخلافيّة إنّما هو صغروى، ولا نزاع بينهما فى الكبرى أبداً، ألا تراهما إذا اختلفا فى وجوب شىء أو حرمته أو استحبابه أو كراهته أو إباحته، أو اختلفا فى صحّته وبطلانه أو فى جزئيّته وشرطيّته أو فى مانعيّته أو فى غير ذلک كما لو اختلفا فى عدالة شخص أو فى إيمانه أو فى موالاته ومعاداته، فإنّما يتحرّيان الأدلة الشرعية، فينزلان على حكمها، ولو علموا بأجمعهم ثبوت الشىء فى دين الإسلام أو علموا عدم ثبوت أو شكّوا جميعاً فى ذلک لم يختلف فيه منهم اثنان.

وقد أجمعت علماء الأُمّة على أنّ المسلم إذا تحرّى الأدلّة الشرعيّة فاستنبط منها حكماً عمليّاً وجب عليه العمل به، وله أجران إن أصاب وإلاّ فله أجر واحد، وإليک النصّ عليه من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال[٢]: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر».

وقد ذكرتم فى قانونكم أنّ الآراء والخلافات كانت فى عهد الأئمّة المجتهدين، ومن بعدهم من تلاميذهم، لايسيطر عليها إلاّ العلم والحجّة، فلم نعرف أنّ أحداً منهم رمى غيره بالمروق من الدين، ولا عرفنا أحداً زعم لنفسه أنّه هو وحده صاحب الرأى المقدّس فى الشريعة أو فكّر فى حمل الناس على ما يراه، بل كلّهم ورد عنه ما يدلّ على أنّه مجتهد وقد أتى بما وسعه أن يأتى به، إلى آخر ما استرسلتم به من هذا المعنى، تدعون مجتهدى الأُمّة على اختلافهم أن يطبعوا على هذا الغرار، لايسيطر عليه إلاّ العلم والحجّة من كتاب أو سنّة أو إجماع أو عقل مستعل أو قياس صحيح، فأحسنتم أحسنتم، ونحن فى هذا معكم على الحقّ المبين، إن شاء الله تعالى.

---

١ . البقرة: ٢٨٥.

٢ . فيما أخرجه البخارى ٤: ١٧٧ من صحيحه فى باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، وهو فى آخر كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة ٦: ٢٦٧٦ ح٦٩١٩.

عبدالحسين شرف الدين الموسوى ـ ١٣ رجب سنة ١٣٦٦

رسالة من السكرتير العام لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية رقم القيد ٢٢٨

٢٩ رجب ١٣٦٦ ـ ١٩٤٧/٦/١٨

حضرة العلاّمة الكبير حجّة الإسلام السيّد عبدالحسين شرف الدين الموسوى

نحمد الله الذى جمعنا على أنبل غاية، وحوّل قلوبنا جميعاً إلى خير هدف، ونصلّى ونسلّم على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته.

وبعد; فقد فرغنا من توزيع القانون الأساسى وبيان الجماعة للعالم الإسلامى، ونريد أن نخطو خطوات عمليّة، تحقّق بعض ما نهدف إليه من تقريب أرباب المذاهب الإسلامية، والقضاء على ما يثير فى الناس العداوة والبغضاء، وفضليتكم من أكثر أعضاء الجماعة معرفةً بما يقضى على الخلافات، ويقرّب القلوب، ويجمع شتات الفرق; لأنّ لكم تجارب سابقة حاولتم بها تحقيق هذه الفكرة.

والجماعة أحوج ما تكون إلى الانتفاع بتجاربكم، ونحن نرجو أن تكتبوا إلينا بما ترونه يساعد على التقريب، ويقضى على الفرقة، وأىّ المشاكل الطائفية ـ فى رأيكم ـ يجب أن تبدأ الجماعة بمعالجتها، وأىّ السبل نسلک ـ فى حدود ما رسمه القانون ـ لنصل إلى نتيجة مرضية، ذلک لأنّ الجماعة تفضّل أن ترجع إليكم فى الشؤون عامّة، وتستنير برأيكم فيما يمسّ بيئتكم ووطنكم خاصّة.

ونودّ أن نعرف إن كنتم تتكرّمون بتقديم أبحاث تطبع فى نشرات الجماعة ـ كما جاء فى المادّة الثانية ـ وأىّ الموادّ تفضّلون تناولها؟ وهل فى محيطكم من العلماء ورجال الفكر من تنصحون بالاتّصال به ويسدى يداً فى هذه السبيل؟

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المخلص محمد تقى القمّى السكرتير العام للجماعة

لقد وصل دار التقريب مؤلّفكم القيّم المراجعات وأصبح زينة مكتبتها، وقد كان لدىّ نسخة منه اصطحبته معى من إيران، وكان من أهمّ المراجع التى كنت أستفيد منها. فأشكر سماحتكم باسم دار التقريب أجزل الشكر على هذه الهديّة العظيمة، ويا حبّذا لو تكرّمتم بإهدائها بقيّة مؤلّفاتكم الجليلة، دمتم أهلا للفضل والمكرمات.

رسالة رئيس تحرير مجلّة رسالة الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الإسلام رقم القيد ٦٢٨/١١٢

التاريخ ٦ محرّم سنة ١٣٦٨ ـ ٧ اكتوبر سنة ١٩٤٨

حضرة صاحب الفضل والسماحة العلاّمة الكبير السيّد عبدالحسين شرف الدين الموسوى السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعد; فإنّ الأمل الذى طالما ترقّبه المخلصون لفكرة التقريب موشک أن يتحقّق فقد أخذنا نتهيّأ لإصدار مجلّة رسالة الإسلام التى ستحمل إن شاء الله قبس الدعوة المحمّديّة إلى جميع أقطار الأرض، عالى السناء، وهّاج الضياء، والتى ستكون منبراً لكلّ ذى علم نافع، وفكر ثاقب، ودعاء بالغ، يفيد الأُمّة، ويجمع الكلمة، ويهدى إلى الصراط السوى، ويجلو محاسن الإسلام، ويصلح الفاسد، ويرغم الحاسد.

وفضيلتكم ـ أطال الله بقاءكم ونفع بكم ـ خير من ينفتح لهذه البشرى قلبه، ويهتزّ قلمه، وتنثال عليه المعانى من كلّ فجّ، فيتهدّى إليها، ويهدى منها، فهل تأذنون لنا بعون منكم ننشره ونشكره فى صورة بحث دينى، أو مقال علمى، أو تحقيق تاريخى، أو نصيحة للمسلمين ترسلونها، أو مشكلة تعالجونها، أو خفيّة من المسائل تجلونها، أو ما إلى ذلک ممّا عهدناكم فيه مبرّزين، وإليه سبّاقين.

لعلّ وقت السيّد الجليل يسمح بورود ما يتفضّل به ردّاً على ذلک مع النصف الأوّل من شهر صفر إن شاء الله، وإنّا له لشاكرين.

رئيس تحرير مجلّة «رسالة الإسلام»

نامه از علامه شرف الدين

نامه از سكرتير العام للتقريب بين المذاهب

نامه از رئيس تحرير مجلة رسالة الاسلام

ملحق رقم (٣)

لقاءات وزيارات أخويّة

بين علماء الأزهر الشريف وعلماء ايران

وفادة وضيافة

وفى إطار التقريب، جاءنا فى سنة ١٣٨٥هـ، أى قبل أربعين عاماً تقريباً، وفد من دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، وقد التقينا به فى طهران، وكان على رأس الوفد الأُستاذ أبو المجد.

وقد ألقى الأستاذ كلمةً قيّمةً فى حفل انعقد فى منطقة «شميران» بطهران، فى بيت المرحوم سيد محمد باقر الحجازى.

هذا وقد اشترک فى هذا الحفل كلٌّ من: آية الله الشيخ خليل الكمره اى الذى ألقى بدوره كلمةً أشاد فيها بالتقريب وحركة التقريب، وآية الله السيد محمود الطالقانى، وآية الله السيد صفائى القزوينى، والأستاذ سيد غلام رضا السعيدى، وكاتب هذه السطور، مع جمع من المؤمنين الإيرانيّين... وجرى خلاله مناقشة سبل تحقيق أهداف التقريب المباركة، وكيفية توسعتها.

ويذكر أنّه كان لهذا الاحتفال أثر إيجابى واسع فى أوساط الحوزات العلمية فى قم، ودار التقريب فى القاهرة.

عكس

الدكتور أبو المجد رئيس موفد التقريب من مصر حين إلقائه كلمته فى الحفل الذى انعقد بطهران وضمّ جمعاً من العلماء والأفاضل

عكس

أبو المجد وهو يلقى كلمته فى الحفل الذى أُقيم فى بيت المرحوم سيد محمد باقر الحجازى بطهران.
ويظهر من اليمين: السيد هادى الخسروشاهى، والسيد الحجازى، وآية الله سيد محمود الطالقانى، والشيخ خليل الكمره اى، والسيد غلام رضا السعيدى

عكس

جانب آخر من حفل استقبال الوفد المصرى الذى أُقيم فى طهران العاصمة ويظهر آية الله الشيخ خليل الكمره اى وهو يلقى كلمته ترحيباً بالوفد
وفى الصورة من اليمين: سيدهادى الخسروشاهى، آية الله سيد محمود الطالقانى، السيد غلام رضا السعيدى، الدكتور أبوالمجد(مصر) والاستاذ بختيارى نژاد

شيخ الأزهر الشريف
يزور الجامعة الإسلامية فى قم المقدّسة

لأول مرّة فى التاريخ المعاصر يزور الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الجامعة الإسلامية فى قم المقدّسة.

إنّ هذه الزيارة الكريمة من صاحب الفضيلة الدكتور الشيخ محمد محمد الفحّام مع الوفد الدينى المرافق له، كان لها الأثر الفعّال فى تراصّ البناء لأُمة الإسلام، وفى تدعيم قواهم التى كادت تنهار; لما عانته من الشتات والتفرقة.

وإنّ لقاء زعماء من زعماء الدين ـ الشيعة والسنّة ـ وروّاد من روّاد العلم، وأعلام من أعلام الإسلام، لخطوة أُولى، ونواة خير، تبشّر بالثمر اليانع الذى ينتظره عامة المسلمين الذين يعوزهم فى سبيل نجاح مهمّتهم، وفوز قضيتهم، أن تتّحد كلمتهم على الحقّ، وأن يعملوا معاً فى خدمة الدين وصالح المسلمين.

إنّ المسلمين فى إيران، وعلى القمّة منهم المراجع الدينية الكبار، ورجال الحوزة العلمية ـ فى قم ثم فى المشهد الرضوى ـ وأعضاء الجامعة الإسلامية، ليستقبلون هذه الزيارة ـ فى هذه الآونة ـ بكلّ حفاوة وإجلال، وهم على ثقة بأنّ من وراء هذه الزيارة بشائر خير تبعث فيهم الأمل فى نصرة الحقّ، وبثّ روح الأُخوّة بين أبناء محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فى ظلال من الوحدة المنشودة.

إنّ الحقّ سبحانه ليمنّ بعميم لطفه على الضعف المستشرى بين الصفوف إذا كانت النوايا على خير...

وما أجمل أن يلتقى أهل الحلّ والعقد فى الإسلام، ليتعارفوا على بساط من

الأُخوّة، وعلى أساس من الإخلاص للدعوة فى سبيل ربهم!

وأن يتعاونوا ويتبادلوا الرأى على إيجاد أنجع الوسائل لحلّ المشكلة التى منى بها المسلمون، فيتمّ بذلک دحض الشرک، ورفع كلمة الحقّ والتوحيد!

كلمة الأُستاذ الكبير الشيخ محمد جواد مغنية

بسم الله الرحمن الرحيم

أهلاً بالإخوة المجاهدين، ومرحباً بحُماة ثغور الإسلام والمسلمين.

أهلاً بالشيخ الرئيس المعظّم سماحة الدكتور الفحّام، الذى أهّلته مكانته العلمية والأدبية لهذا المنصب الخطير: مشيخة الأزهر الشريف، ومرحباً برفاقه الأفاضل ... وحيّى الله إخواننا المصريّين الذين صنعوا التاريخ جيلاً بعد جيل.

وليهنک يا رسول الله هذا اللقاء التاريخى العظيم بين قطبين كبيرين من أقطاب أُمتک، وقائدين كريمين من قاداتها...

وبورک لک يا سيّد الكونين بهذا الرمز الضخم إلى تماسک المؤمنين برسالتک، وتعاونهم على مرضاة الله ومرضاتک...

ثم البشرى لكم أيّها المسلمون، فقد تحقّقت الأُمنية التى تطلّعتم إليها منذ القديم، وتحوّل الحلم إلى واقع.. الحمد لله.

إنّ هذا اللقاء التاريخى العظيم قد يتكرّر وقد لايتكرّر، ولكنّه على كلّ حال صدمة كبرى لأعداء الإسلام والإنسانية، وطعنة نجلاء فى قلوبهم، وقذىً لأعينهم، وقد كانوا من قبل يحسبونه ضرباً من المحال، وأشبه بالمعجزات.. وطالما وقفوا فى طريقه، وصدّوا عن سبيله، ولكن صدق الرائد أهله، وتمّت المعجزة بصدق النيّة المشتركة بين هذين الرائدين... الحمد لله.

إنّ أعداءنا ـ نحن المسلمون ـ يصفّقون طرباً لتنافر قلوبنا، وشتات أُلفتنا... إنّهم يعلمون علم اليقين أنّ فشلنا وهزيمتنا هى فى تمزيق وحدتنا، لا فى احتلال جزء من أرضنا، وبالأصحّ فى شعورنا بالعجز واليأس من جمع الصفوف،

وتوحيد الكلمة، ومن أجل هذا سلكوا كلّ سبيل، وبذلوا جهد ما يستطيعون لكى يصلوا إلى هذه الغاية، ولكن هذا اللقاء الميمون فوّت عليهم ما كانوا يأملون، وسيأخذهم ـ ولاشكّ ـ الجزع والقلق... عندما يقرأون أخباره فى الصحف، ويسمعونها من الأذاعات... ولكن أنباء هذا الاجتماع تعيد السكينة والطمأنينة إلى قلوب المؤمنين... الحمد لله.

وقد يبدو هذا اللقاء فى نظر البعض نتيجة عاطفية لحرب حزيران... ولكنّه فى واقعه إخلاص لدين الإسلام، وانسجام مع مبادئه التى تنادى بوجوب الوحدة بين أبنائه، وبالتعاون على ما فيه خير الجميع دنيا وآخرة.

نحن هنا معكم يا سماحة الرئيس، نمدّ يدنا إليكم، وإلى كلّ من يبتغى الخير للمسلمين وللناس أجمعين، ونعاهد الله أن نظلّ حُماة صادقين لدينه، وحرباً على أعدائه، وحرّاساً يقظين لكلّ قرار يهدف إلى الإسلام على أساس العدل، وردع المعتدى عن غيّه وضلاله.

نحن هنا مع جنود الله البواسل الذين يقفون وجهاً لوجه مع الصهاينة أعداء الله والإنسان... نحن هنا مع إخواننا المصريّين الذين عبّأوا طاقاتهم البشرية والمادّية ضدّ الاستعمار والصهيونية، وتلقّوا الضربة عن كلّ عربى ومسلم، وما فقدوا شجاعتهم وصدقهم فى مواصلة الجهاد، وظلّوا شرفاء يدافعون عن الحقّ والعدل حتّى الموت، غير حافلين بأشواك الطريق وعقباته، وحاولت أعظم قوة فى العالم أن تفرض عليهم العجز والاستسلام، فخاب ظنّها، وطاش سهمها... الحمد لله.

لقد أثبت المصريّون بصبرهم وتضحياتهم أنّ حرب حزيران مع الصهاينة كانت هزّة لا هزيمة، هزّة تبعث على انتقاد الذات، وتطهير الأوضاع، لمن شاء أن ينتقد ذاته، ويطهّر نفسه من دنس الأغراض والشهوات...

وأيضاً أثبت المصريّون بقبول الوقف لإطلاق النار إلى أمد، وبغير ذلک من الوسائل الحكيمة، أثبتوا للعالم كلّه أنّ الصراع بين العرب وإسرائيل ليس صراعاً على الأرض والحدود وكفى... بل هو صراع بين مخطّط استعمارى صهيونى

لإضعاف العرب والمسلمين، وبالتالى لتهديد العالم بكامله، وبين قوة إنسانية ثورية تقف لهذا المخطّط العدوانى بالمرصاد.

وقد شاءت الظروف أو الأقدار أن يقيم هذا المخطّط الصهيونى الاستعمارى قاعدةً حربيةً عدوانيةً فى بلاد العرب والمسلمين، وأن يزوّدها بشتّى أنواع الأسلحة الحديثة وأمضاها.

وأيضاً شاءت الظروف أن تكون مصر هى القوة الرادعة المدافعة، وقد أدّت واجبها على أكمل وجه، وفوّتت على أعداء الله ثمرة العدوان ومكاسبه.

إنّ المنتصر هو الذى يملى شروطه على المنهزم، فهل أملت إسرائيل شروطها على العرب؟ وهل تعيش إسرائيل فى أرض العرب آمنة مطمئنة؟

كلاّ وألف كلاّ... إنّها فى حالة حرب دائمة، تنام فى الملاجئ والمخابئ، وتجنّد من ابن ١٥ عاماً إلى ابن ٥٥، وتستجدى السلاح من كلّ مكان، وتنفق على الحرب فى كلّ يوم ٣ ملايين دولار! والفضل فى ذلك لله، ولثبات المصريّين، ولمن جاهد فى هذه السبيل بنفسه أو بماله.

وكان للإيرانيّين نصيب من هذا الجهاد، حيث ألّفوا اللجان لجمع الأموال، وافتتح المرجع الدينى فى قم حساباً خاصّاً فى بعض البنوك لهذه الغاية، وتوالت التبرّعات، وأرسل مبلغاً محترماً من المال لمنكوبى الحرب، وأذاع على العالم الإسلامى بياناً باللغة العربية حذّر فيه المسلمين من الانشقاق والتخاذل، وناشدهم التضحية والوقوف صفّاً واحداً ضدّ العدوّ المشترك، وبيّن لهم أنّ المصيبة واحدة، والآمال واحدة، ونشرت الصحف هذا البيان وأُذيع من بعض المحطّات.

وهكذا اختفت الفوارق المذهبية والقومية أمام العدوان الاستعمارى الصهيونى، وفى ظلّ الأُخوّة الدينية، والأُمة الإسلامية... وهى الأمل المنشود لكلّ المسلمين فى شرق الأرض وغربها.

ونكرّر: الحمد لله تعالى، وهو سبحانه المسؤول أن ينصر الحقّ وأهله، وأن يعمّ

السلام العالم كلّه على أساس الحقّ والعدل... إنّه خير مسؤول.

كلمة مختصرة للدكتور الشرباصى

وبعد أن أتمّ الأُستاذ مغنية إلقاء كلمته، وقد قوبلت بالاستحسان، علقّ الدكتور أحمد الشرباصى أُستاذ الدراسات العربية فى الجامع الأزهر قائلاً:

إنّ أطيب وأحسن كلمة استمعتها هى كلمة (الحمد لله)... وهذه الخطوات التى نشرِّف أنفسنا مع الإمام الأكبر لزيارتكم، لأجل أن نتعارف كعلماء، وأن نلتقى على الخير لننشر الإسلام باسم الإسلام.

محاورة وديّة

ثم توجّه سماحة المرجع الدينى فى قم إلى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور الفحّام قائلاً :

مرحباً بكم، نرجو أن يكون لهذا اللقاء نتيجة طيّبة، كما كنّا مشتاقين ومنتظرين لزيارتكم، ولأن يكون لذلك أثر حسن يعود صلاحه للمسلمين.

قال فضيلة الشيخ: نحن بشوق أشدّ، ويؤسفنا أن تكون الأوضاع قد حالت بيننا هذه المدّة من الزمان.

قال سماحة السيد: أودّ أن أذكر لكم ــ من باب التذكّر والاستفهام ــ أنّ مسألة الساعة اليوم هى اللادينية والإلحاد، وهى قضية مهمّة عالمية، قد اكتسحت جميع الأوساط فى العالم الإسلامى وغيره، حتّى أنّ كثيراً من الشباب بما هم عليه من فراغ دينى بما يقتضيه الواقع الذى يعيشونه فى مدارسهم ومعاهد تعليمهم، وفى المنتديات، وما يقرأونه من الصحف والمجلاّت، وما يسمعونه من دور الإذاعات، قد تجرّدوا عن المفاهيم الدينية، واحتوشهم الاستذكار للمبادئ والمثل العليا، وضياع الإيمان. والإسلام وإن كان قوياً فى واقعه، من حيث المبدأ، بيد أنّ المضاعفات الحالية تركت المسلمين وحَمَلَة الدعوة منهم ضعافاً من حيث التبشير، لما يفقدونه من وسائل فى هذا المجال... فهل لديكم خطّة أو منهج فى

هذه السبيل يمكن أن تذكّرونا لنعمل معاً مشتركين فى هذا الأمر؟

ومن جهة أُخرى فإنّ الشباب بما هم عليه لايتقبّلون الدعوة، سواء أكانوا فى البلدان الإسلامية أم فى الخارج، فإنّ المرشدين لايؤثّرون فيهم كما نراه فى بلاد إيران المسلمة، وكما نقل إلينا مبعوثونا فى الخارج، وهذه مسألة يرجى لها علاج بنظرى إن أمكن وضع منهج دراسى ينسجم والمبادئ الإسلامية، يعمل على إلزام تطبيقه فى المدارس، فهل لديكم نظر فى بحث الطريق المجدية ضدّ هذه التيارات الإلحادية، والمحاولة على أن نظهر الإسلام على حقيقته التى شوّهها المغرضون؟

جواب فضيلة الإمام الأكبر

أمّا مشكلة الشباب فصحيح ما أمرتم، ليس الأمر منحصراً فى شباب المسلمين، بل إنّما هو بلاء عام. فإنّ أمريكا بالذات تشتكى من فساد الشباب.

وأمّا مسألة الإلحاد، فإنّ الطريق الوحيد بنظرى هو أن يطبّق المسلمون أنفسهم مفاهيم دينهم قبل كلّ شىء، ليمكنهم ذلك من الدعوة إلى نشر فضائله.

واستشهد فضيلة شيخ الأزهر بالحادثة التالية:

لقد طلبت من بعض المستشرقين الفرنسيّين المتخصّصين فى العربية والدراسات الإسلامية أن يزور بعض المساجد عندما زار القاهرة، ولمّا أخذته إلى مسجد الرفاعى بالقلعة، ورأى عظمة المصلّين أخذته رعشة ورعدة حتّى خشيت أن يقع... لقد أخذته روحانية المسجد... ولمّا سألته عن السبب قال: دخلت كنائس كثيرة، فما خشعت كما خشعت الآن حينما وجدت روحانية العبادة عندكم. وقال: درست كلّ شىء عن الإسلام، ولكن كما يقولون: الضيف يرى من عيوب البيت ما لايراه صاحب الدار.

قلت: ماذا رأيت من العيوب؟

قال: الواقع أنّ نظام الإسلام من أحسن نظم الحياة.. دين اجتماعى، اقتصادى، سياسى... ولكن العيب فى المسلمين، فإنّهم يبدون صورة سريعة عن الإسلام،

ولايبدون للإسلام ماد!!

قلت: بعد معرفتك للإسلام، فما الذى يمنعك أن تكون مسلماً؟

قال: أنا مسيحى، ولكن ما صلّيت فى كنيسة فى عمرى... وتأكّد أنّ كلّ من فى (السوربون) لايعتقد بالنصرانية!

إنّ الغربيّين لنضج عقولهم عندما تعرض عليهم مثل مسألة تعدّد الزوجات يقتنعون، وقد أسلم كثير منهم على أيدينا، وهم يقولون: كنّا نعرف كلّ شىء عن الإسلام.

ثم تكلّم فضيلة الدكتور الشيخ أحمد الشرباصى قائلاً:

إنّ مجىء فضيلة الشيخ إلى هنا لهذا المعنى، وليتبادل النظر فى حلّ هذه المشاكل.

فى المركز الإسلامى

وبعد فترة توجّه الوفد إلى زيارة المركز الإسلامى الذى غصّت قاعته بالمستقبلين، من العلماء ورجال الدين، والنخبة من الأفاضل فى الحوزة العلمية.

وقد استعرض فضيلة الإمام الأكبر والوفد الكريم مرافق المركز وبعض أقسامه، خصوصاً المكتبة الضخمة التى اطّلع على بعض أجنحتها.

ثم توجّه نحو القاعة المكتظّة بالمحتفلين بمقدمه الكريم، ثم طلب فضيلة شيخ جامع الأزهر الشريف من **الشيخ خليل الحصرى** شيخ المقارئ فى مصر أن يعطّر الحفل بتلاوة من الذكر الحكيم.

وبعد ما تمّت التلاوة التى اقشعرّ منها جلود المؤمنين، واطمأنّوا بذكر الله (أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) تقدّم فضيلة الأُستاذ الشيخ الخاقانى أُستاذ الأدب العربى فى المركز الإسلامى، فارتجل خطاباً ترحابياً، أخذناه ملخّصاً من آلة التسجيل:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين وصحبه

الغرّ الميامين.

سيدى الإمام الأكبر الدكتور الفحّام..

سيدى آية الله المرجع الأعلى..

سادتى أعضاء الوفد المرافق للإمام..

إخوانى السادة العلماء... السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..

أُتيحت لى فرصة شرف المثول، بأن أتقدّم باسم الجامعة الإسلامية فى قم،

وبالنيابة عن أساتذة الحوزة وطلاّبها لأعبّر عن شعورهم بهذه المناسبة الكريمة، والفلتة الزمنية المباركة التى هيّأ الله تعالى أشراطها، فالتقت قوى الإيمان وعناصره تبشّر بالخير، وتدعو إلى سبيل ربّها بالحكمة والموعظة الحسنة.

أيّها الضيف الكريم، أيّها السادة العلماء

إنّ الحوزة العلمية، بأساتذتها وطلاّبها، ليرحّبون بهذه الزيارة الكريمة، وبلقاء هذين القطبين العظيمين، والعلمين الكريمين... اللقاء الذى كان يتمنّاه كلّ مسلم غيور على القضية الإسلامية، وكلّ مؤمن تهمّه النصرة للدين، اللقاء الذى كان تتمنّاه القلوب المؤمنة والنفوس المطمئنّة بالله! فى الوقت الذى يجب أن تتجمع القوى بين المسلمين، وأن يتّحدوا كما أراد لهم، ورامه لهم دينهم.

إذ التفاهم والاتّحاد هما البذرة الوحيدة التى إذا تعاهدها المربّون زكت ونمت، وأثمرت القوة والمنعة والشكيمة، وحينئذ تنشر رايات النصر. فالنصر لايتمّ إلاّ باتّحاد المسلمين، واتّحاد المسلمين لايتسنّى إلاّ باتّحاد زعماء دين المسلمين، الذابّين عن حرمات الدين... ليعملوا معاً على رفع راية الإسلام، والذود عن حياضه، والدفاع عن بيضته، بعدما اجتاح المجتمع الإسلامى ظلام من الغرب، وأحاط به لهيب من الشرق، وزرع فى طريقه أشواك من الشرّ.. فاليوم يوم التفاهم والوئام، بين القادة الكرام...

أيها الضيف الكريم، أيها السادة العلماء

إنّ اخوانكم المسلمين في إيران عامةً، وأفراد الجامعة الإسلامية في مدينة قم بخاصّة، ليؤكّدون لكم بأنّهم معكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم، على طول الخطّ في مسيرتكم ضدّ أعداء الدين، وضدّ الصهيونية وإسرائيل ومن أوجدها وأعانها، وضدّ الإلحاد والزندقة التى فشت بين المجتمعات، وضدّ التيارات الانحرافية..

إنّنا معكم على وفق ما تفرضه الأحكام الإسلامية والمفاهيم الدينية، فالمسلم أخو المسلم، (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وأخال أنّكم لمستم ذلك من قريب، وثبت لديكم ما عليه الشعب المسلم في إيران من حبّ التضامن، والتعاضد في سبيل الدعوة الحقّة، والنصرة لدين الله الخالد على مرّ الزمان.

أيها الإمام الأكبر..

إنّ المركز الإسلامي هذا الذى يحتفل بمقدمكم الكريم لهو من المؤسسات التابعة للجامعة الإسلامية في قم، ومعهد عال من معاهدها الكثيرة المتنوّعة على وفق ما يتطلّبه العصر الحديث، فشقّ طريقه في سبيل الدعوة، وقام بأعباء الرسالة حقّ قيام، لما خرج به إلى العالم من مناهج وثيقة، وبرامج شيّقة.

ولا أجدني مخالفاً لمقتضيات الأحوال عندما أضرب مثلاً عمّا قرّر فيه من مناهج وثيقة، وبرامج شيّقة: فإنّ بالإضافة إلى العلوم الدينية «الكلاسيكية» والمعارف الإسلامية يفرض فيه تدريس الانجليزية، والأدب العربي، واللغة الأُردية، والعلوم الطبيعة الفلكية، وجغرافية البلدان الإسلامية، وفن الخطابة، وتدريس الفقه على المذاهب الأربعة... إلى غير ذلك من أُمّها العلوم التى تعين على القيام بالواجب الدعائي وفق متطلّبات العصر الحديث.

وأيضاً، فإنّه يصدر منشورات ومجلاّت باللغات العديدة، كالفارسية والعربية والانجليزية والأُردية، والنشرات الانجليزية توزّع بالمجّان على أكثر الدول الأوربية والأمريكية!

والذى يلحظ من سلوك «المركز» المنهجي والقيادي، أنّه يرعى التقارب بين

المذاهب الإسلامية بصورة خاصّة، الخطوة المباركة التى يتمّ على وفقها النجاح، وعلى ضوئها يمكن تحقّق النصر!

والذى يسترعى الانتباه أنّ هذه السنوات الثمانية التى مرّت على تأسيس هذا المركز وهو يؤدّى رسالته إنّما يقوم نفقاته المادّية جماعة من المؤمنين، يبذلون عليه بسخاء من مالهم الخاصّ لا غير، أو من الوجوهات الشرعية من الحقوق والمبرّات وممّا فرض الله على المؤمنين أداءه، من دون ارتباط بجهة من الجهات.

أيها الأُستاذ الأكبر:

إنّ الجامعة الإسلامية فى قم ليبلغ عدد طلاّبها سبعة آلاف أو يزيدون من مختلف البلدان; كالهند والباكستان وأفريقيا والأفغان والعراق وسوريا ولبنانوالحجاز واليابان، ومن سائر بلاد إيران.. غير أنّ من المؤسف أنّ زيارتكم الكريمة صادفت العطلة الصيفية، وإلاّ لكان الجميع ماثلين أمامكم، مغتنمين فرصة زيارتكم.

فنحن، باسمهم جميعاً، غائبين وحاضرين، أساتذة ومتعلّمين، لنرحّب بكم، وبالوفد المرافق لكم، وتحياتنا من أعماق القلوب عليكم، ونسأل الله تعالى أن يكون لزيارتكم عطاء للإسلام مثمر، ونتاج للمسلمين وافر، فى العاجل القريب إن شاء الله.

ونرجو إرسال المنهج القائم تدريسه فى الجامع الأزهر الشريف لنستفيد منه فى تكميل مناهج هذه المؤسسة، والله ولى التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خطاب الأستاذ الدكتور الشرباصىثم أمر الإمام الأكبر الفحّام فضيلة الدكتور الشيخ أحمد الشرباصى بأن يجيب الخطاب الترحابى، فألقى كلمةً رائعةً:

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد والصلاة:

سيدى سماحة آية الله المرجع الأعلى...

أيّها الإخوة الأعزّاء...

بتكليف من صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الدكتور **محمد محمد الفحّام** شيخ الأزهر الشريف، يسعدنى ويشرّفنى أن أقف بينكم لأتكلّم كلمةً قصيرةً وجيزةً.

لا أحاول أبداً فى هذه الكلمة أن أُضيف شيئاً من العلم أو المعرفة، مع تمام العلم بأنّى أقف بين جمهرة من العلماء الأجلاّء الذين يبلّغون كلمة الله، ويدعون إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلون بالتى هى أحسن، وإنّما هو واجب الشكر على ما لقينا وشعرنا به خلال رحلتنا إلى هذه الأرض الإسلامية التى نودّ أن تزداد صلتنا بها، والزيارة لها كرّة وعودة حتّى نقضى حقّ الرحم فى الإسلام، فالعلم رحم بين أهله، والأُخوّة فى الله رحم أيضاً.

وأودّ أن أبدأ فى هذا الواجب أن أُعرّف حضراتكم بإخوانكم وأشقّائكم أعضاء الوفد القادم إليكم من بلد الأزهر الشريف، بلد آل بيت النبى الطاهر، عليهم ألف تحيّة وألف سلام، لأنّى اعتقد، كما أرجو أن تشاركونى فى هذا الاعتقاد، أنّ تعارفنا الشخصى من الخطوات المهمّة التى ينبغى أن نألفها، حتّى نزداد تعارفاً.

إنّ الوفد القادم من بلد الأزهر الشريف، أرض كنانة الله فى أرضه، يرأسه الشيخ الأكبر **الدكتور محمد محمد الفحّام**، ومعه وفد يتكوّن من أربعة أشخاص:

١ ـ **فضيلة الأستاذ الشيخ عطية صقر**، مدير الوعظ فى الأزهر الشريف.

٢ ـ **فضيلة الشيخ محمود الحصرى**، شيخ المقارئ فى جمهورية مصر العربية.

٣ ـ **السيد الأُستاذ محمد محمد محمد الفحّام** نجل فضيلة الإمام الأكبر وسكرتيره الخاصّ فى إدراة الأزهر.

٤ ـ وآخر هؤلاء المتشرّف بخطابكم **الدكتور أحمد الشرباصى** الأُستاذ بجامعة الأزهر.

أيها الإخوة الأعزّاء

أمّا الذى قصد من وراء هذه الرحلة:

إنّ أقلّ ما يقال فى هذه الرحلة أنّها حقّ لواجب الأُخوّة فى الله. فإذا كان الحقّ تبارک وتعالى قد قال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فأول واجبات هذه الأُخوّة أن يعرف الأخ أخاه، وأن يتزاور هؤلاء الإخوة فى الله.

وإذا كانت أحداث الحياة قد حالت بيننا وبين التزاور زمناً، فإنّ من شأن المسلم أن ينتهز الفرصة للمبادرة إلى الخير، ليفتح طريقه إلى قطف الثمرات الطيّبة من وراء طريق الخير.

فما كاد الباب يفتح فى طريق الأزهر الشريف حتّى سعى إلى هذه الأرض الطيّبة الإسلامية، لتتمّ العلاقة بين الجامعة الإسلامية فى مصر والجامعة الإسلامية فى إيران الإسلامية.

وأنا أتذكّر ما ينسب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إنّ العلماء وَرَثة الأنبياء» ورثوا هذا الدين بمبادئه وتعاليمه، ورثوا الدين بفقهه وعلمه، فهم الحرّاس عليه، ويجب أن يكونوا كذلک، وهم الدعاة إليه، وهم يدعون إليه أول ما يدعون بالقدوة الطيّبة الحسنة، وإمامهم فى ذلک رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) فإذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «إنّما مثل المؤمنين فى توادّهم وتعاضدهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى» فإنّ أحقّ الناس بهذا التسالک، والتزاور والتآخى، أولئک الذين ورثوا النبوات فى فقهها وعلمها وتآخيها.

إنّ أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم قد ضربوا لنا المثل فى التكاثر والتظافر، فما من نبى جاء من الله برسالة إلاّ وهو يضيف خطوة إلهية على الأرض، تتكاتف مع خطوة سبقت من نبى سابق، ثم جاء النبى الخاتم الجامع، جاء رحمةً للعالمين (وَمَا أَرْسَلْنَاکَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وإذا هو يؤيّد هذا التعاون، وإذا هو يؤيّد هذا التعاضد، وإذا هو يقول: «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كرجل

بنى داراً فأتمّها وحسّنها إلاّ موضع لبنة، فجعل الناس ينظرون ويقولون ما أحسن هذه الدار لولا موضع هذه اللبنة! فأنا هذه اللبنة، وأنا خاتم النبيّين».

ولست بحاجة إلى تفصيل القول فى هذا النصّ النبوى الكريم، فأنتم أعلم منّى وأخبر، وإنّما ألمّح فيه معنىً واحداً: إنّ خاتم النبيّين وسيد المرسلين أراد أن يؤكّد فينا معنى التعاضد والتضامن، والتكاتف والتعاون، فمثَّل نفسه بجزء صغير من بناء كبير تواضعاً منه، وهو الذى فضّله ربّه، وهو سيّد الأولين والآخرين، ورفع ذكره فى الأولين والآخرين.

من أحقّ الناس الذى يقتدى بهذا الهدى الكريم، وهو التكاتف والتعاضد والتلاقى على الدعوة بالله هم ورثة الأنبياء... أنتم يا منار الطريق، ويا روّاد الإنسانية الحائرة الآن!

هذا المعنى الأساسى هو الذى دعا بالإمام الأكبر فضيلة شيخ الجامع الأزهر إلى أن يزور إخوةً له وأبناءً فى إيران..

وما أجمل أن يلتقى علمان فى أعلام الاسلام، ومفكّرى المسلمين، وأن يتشاورا فيما بينهما! قال تعالى: (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ).

وإنّا لنرجو من وراء هذا اللقاء الذى نشهد أُولى ثمراته الآن أن يعقب خيرات كثيرة، وأن تتكرّر هذه اللقاءات، وتلك الزيارات.. هنا فى هذا المركز، وهناك بالأزهر الشريف، وفى غيرهما من مناطق العلم الدينى والدعوة الإسلامية، ليصبح المسلمون أمةً واحدةً كما أراد لها ربّها (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ).

أيها الإخوة.

نحن فى حرب دائم اليوم، إنّنا نغزى فى كلّ ناحية من نواحى الحياة...

نغزى بعقيدتنا بانتشار هذا الإلحاد المجرم!

نغزى بديارنا بهذا الاستعمار الصليبى والصهيونى..

نغزى فى قيمنا ومبادئنا بهذه المدنية والحضارة الطارئة علينا!

نغزى فى كياننا، فى تفرّق صفوفنا وتمزّق كياننا، ونحن أحوج ما نكون إلى أن نتجمّع أولاً كعلماء للمسلمين، ثم ثانياً كمسلمين، ثم ثالثاً كدُعاة للخير، فنربّى أنفسنا كعلماء لنكون قدوةً وأُسوةً، ثم نربّى أبناءنا كصفوف خلفية من ورائنا، ثم نبشّر بدعوتنا بين أبنائنا وفتياننا لننقذ الجموع الكثيرة من المسلمين، لأنّنا نعانى الآن بأنّ أبناءنا وذرّياتنا لاتنشأ على مبادئ الإسلام وقيمه بحكم المؤثّرات من مبادئ التربية الماديّة والحضارية الغربية، وعلى هذا نبلّغ هذا الإسلام إلى العالمين (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ).

إنّنى عندما أسمع من الأخ الكريم أنّ هنا سبعة آلاف من طلاّب المسلمين يتلقّون العلوم الإسلامية، وما يتّصل بها من علوم أخرى، تملؤنى الغبطة، وأُعبّر عن شعور الإمام الأكبر عندما أقول: إنّ هذا يشرح صدره بالخير والأمل والرجاء.

ونتذكّر أنّ لكم شقيقة هناك، وهى جامعة الأزهر الشريف أيضاً يصل إليه آلاف من أبناء المسلمين فى الأرض.

وإذا كان الأخ الكريم يطلب منهاج جامعة الأزهر، فإنّ هناك منهاجاً لجامعة الأزهر، ومنهاجاً للمعارف الدينية الإسلامية للأزهر، ومنهاجاً للبحوث الإسلامية فى الأزهر، ومنهاجاً للمعاهد الإسلامية فى الأزهر، ومنهاجاً لمجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر.

واعتقد أنّ من واجب الأزهر أن يبلغكم هذا المنهاج، ولست أدرى كيف بقى هذا المنهاج من دون تبليغ إلى مثل هذا المركز الذى سعد الإنسان عندما سمع هذه الأمثال الطيّبة عنه وعن علمائه، وأنبائها وطلاّبه!

وإنّا لنرجو أن توضع اليد المؤمنة فى اليد المؤمنة مع الأيدى المؤمنة فى الشرق والغرب، بلا غرض أو مرض، وإنّما لهدف واحد هو أن تعلو كلمة الله دائماً، وتنخفض كلمة الشرك (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء

وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

إخوتى الأحبّاء:

لم أكن على علم بأنّى سأتكلّم بينكم، ولكن أمر الإمام الأكبر عرضنى لذلك الموقف، وأرجو أن تكون هذه الزيارة فاتحة لزيارات، ليتحقّق من ورائها خيرات وبركات، لفائدة الإسلام وخير المسلمين.

شكر الله لكم، وثبّت أقدامكم على طريق الحقّ، وجمعنا وإيّاكم على كلمة الله عزّ وجلّ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الهدف من زيارة الإمام الأكبر لجامعة قم المقدّسة

إنّ زيارة الإمام الأكبر لجامعة قم المقدّسة، وزيارة المشهد الرضوى والجامعة الإسلامية فى خراسان، ولقاءه مع المرجع الدينى آية الله السيد محمد هادى الميلانى، وجمع غفير من علماء الشيعة هناك وثم علماء طهران العاصمة ومراكزها الدينية، كانت ترمى إلى هدف أبعد من المجاملات، وتبادل العواطف الإخوية على مستوىً فردى شخصى، إذ هى تعنى أُموراً كثيرة تعود كلّها بالمصلحة على المسلمين، وحفظ بيضة الإسلام.

فليست الزيارة بمعزل عن الأُمور الجوهرية المتّصلة بالقضية الإسلامية، إنّها لفتة نبيلة بدأ بها فضيلة الدكتور الشيخ محمد محمد الفحّام ومن بصحبته من العلماء، ليوطّدوا أواصر الأُخوّة على مستوىً إسلامى شامل، وليوثّقوا عرى الرابطة الإسلامية بين المسلمين. وكان التجاوب التامّ بين الضيوف الكرام وممثلى جامعة قم من العلماء، يبشّر بنتائج طيّبة مأمولة.

إنّ زيارة الإمام الأكبر هذه، تعنى زيارة جامعة إسلامية كبرى فى مصر لجامعة إسلامية كبرى فى ايران، لتوحيد الهدف فى سبيل الوحدة الإسلامية، وتلاقى العناصر العاملة من أجل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل. وإنّها لخطوة

مباركة فى سبيل الاتّحاد والاتّفاق والتضامن، وصلاح المسلمين والتوفيق بينهم.

وليست هذه المصلحة الدينية بمقتصرة على مذهب دون مذهب، بل بركتها وخيراتها تعمّ وتشمل جميع الطوائف الإسلامية على السواء، ويتّضح ذلك بعد ملاحظة أنّ الأُسس الأُولى لجميع تلك المذاهب والطوائف هى واحدة، ومن الواجب تقديم المصلحة الإسلامية العامّة على ما يفصل بين الطوائف الإسلامية من جزئيات وفروع يختصّ بها مذهب دون آخر، ممّا لايصحّ بحال أن تكون مدعاةً لفرقة، أو سبباً لانشقاق، بعدما أصبح من الواضح المعلوم أنّ أعظم ما منى به المسلمون هو شتات رأيهم، وتشتّت كلمتهم!

ونحن ـ فى هذه العجالة ـ إذ تقدّم لمحات خاطفة عن زيارة الإمام الأكبر الفحّاملأضخم جامعة إسلامية للطائفة الإمامية فى إيران، ولقائه بالمراجع الدينية والعلماء، وتفقّده لبعض المعالم الدينية.. نأمل أن يكون لذلك أثره الفعّال فى جمع الكلمة، والخدمة للإسلام الذى أصبح غريباً فى عصر تنكّر أهله للمفاهيم الخلقية، وابتعدوا عن القوانين الإلهية، وظهرت البدع الزائفة، ما يدفع بالعلماء وروّاد الفضيلة إلى التكاتف فيما بينهم، ليكونوا فى الطليعة من موكب الجهاد المقدّس.

عكس

الشيخ الدكتور محمد فحام شيخ الأزهر الشريف فى قم، وفى اليمين العلاّمة الشيخ محمد جواد مغنية، وفى اليسار آية الله الشيخ مجتبى العراقى

عكس

الشيخ الفحّام فى المكتبة العامة للمركز الاسلامى بقم والشيخ شمس الدين فى تعريف بعض المخطوطات

وفد من علماء طهران يزور القاهرة ومشيخة الأزهر الشريف

وفى عام ١٣٩٢هـ ، أى بعد سنتين تقريباً، قام وفد من علماء طهران لزيارة القاهرة ومشيخة الأزهر الشريف، وكان على رأس الوفد بعض علماء طهران منهم: آية الله الخسروشاهى، آية الله الشيخ محمد واعظ زادة، وحجة الاسلام والمسلمين الشيخ محمد على چرندابى. وقد التقوا أولاً بالشيخ العلاّمة **عبدالعزيز عيسى**مساعد رئيس جامع الأزهر آنذاك، وأعضاء بارزين فى دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ثم بالشيخ الدكتور **محمد محمد الفحّام**، شيخ الأزهر الشريف.

وكان للقاء الوفد مع الشيخ آثار إيجابية ومفيدة، وقد خاطب شيخ الأزهر مساعده الشيخ عبدالعزيز عيسى قائلاً ما نصّه: كلّ مرة أنا أزور علماء من إخواننا الشيعة أجد فرحاً وسروراً فى قلبى، وأحسّ أنّهم فى قلبى، حيث أرى نوراً فى وجوههم، يذكّرنى بالآية الكريمة (**سِيَماهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**) وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على علمهم وتقواهم، ونور الإيمان فى قلوبهم.

ثم أضاف: أنا زرت إيران والتقيت بالمراجع الدينية فى قم وخراسان وطهران، فوجدتهم علماء كبار، وفقهاء عظام، يهتمون بأُمور المسلمين، لا فى إيران فقط، بل فى كلّ العالم الاسلامى... وهذا ممّا يؤكّد لنا أن نقوم بإرساء قواعد التقريب بين المذاهب الاسلامية...

ثم ألقى آية الله السيد هادى الخسروشاهى كلمةً أيّد فيها الشيخ فيما قاله، وأكّد بأنّ علماء الشيعة فى إيران والعراق على استعداد تامّ ليقوموا بدورهم فى إرساء قواعد التقريب، والتعامل مع كلّ المذاهب الاسلامية... وكان هناك نقاش هادئ حول بعض المسائل الفرعية ـ الفقهية، مثل السجدة على التربة، والجمع بين الصلوات وغيرها... وكان لهذا النقاش العلمى تأثير فى تبيين وتوضيح الأدلّة الفقهية...[1].

---

١. راجع مقدّمة: «ديدارى از الأزهر، گفتگوى آية الله خسروشاهى با علما الأزهر» نشرة مدرسة الشيخ عبدالحسين بطهران.

عكس

الوفد الإيرانى فى القاهرة
من اليمين: آية الله الشيخ محمد واعظ زادة، الشيخ عبدالعزيز عيسى، الشيخ محمد على چرندابى،
الشيخ الدكتور محمد الفحّام (شيخ الأزهر) وآية الله السيد هادى الخسروشاهى.

ملحق رقم (۴)

تقرير عن الندوة الأُولى

للتقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة

تقرير عن: الندوة الأولى للتقريب بين المذاهب الاسلامية

القاهرة: ربيع الأول ١٤٢٢هـ /يونيو ٢٠٠١م

لقد استمرت «دار التقريب بين المذاهب الاسلامية» منذ نشأتها عام ١٩٣٧م وتأسيسها بالقاهرة فى أواخر الأربعينات[١] من القرن الماضى، فى أداء رسالتها، وأكّد رجالها إفناء ذواتهم فى العمل الصامت الدائب لرفع شأن المسلمين، وبثّ روح المودّة والتراحم بين طوائفهم، ولمّ شملهم، وإزالة ما قد يكون بينهم من نزاع، عملا بقوله تعالى: (إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)[٢] صدق الله العظيم.

وأنّه ليحقّ للمسلمين أن يفخروا بأنّهم كانوا أسبق من غيرهم تفكيراً وعملا فى تقريب مذاهبهم وجمع كلمتهم، ولاشكّ فى أنّ أمر الأمة الاسلامية الآن لايصلح مع الاحتفاظ بالعصبيات والخلافات، وإحياء ما مضى من ضغائن وعداوات، فى أعماق التاريخ.

وبديهى أنّ الخلاف الفقهى بين المدارس والمذاهب الاسلامية، ليس ممّا تشتغل أو تنظر فيه العامة، ولانعنى هنا بالعامة: العوام! وإنّما نعنى كلّ من لايهتم بمعرفة فقه المذاهب، وهم معظم القارئين الكاتبين، وفى زمننا هذا معظم المثقّفين المتعلّمين، والخلاف المذهبى لايمكن أن يصل إلى العوام والجهلاء والدهماء، إلاّ

---

١. كان من بين المؤسّسين: الإمام الأكبر عبدالمجيد سليم والإمام الأكبر محمود شلتوت ـ وقد تولّيا منصب مشيخة الأزهر ـ والشهيد الشيخ حسن البنّا، كما كان منهم: الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء من العراق، والشيخ عبدالحسين شرف الدين الموسوى من لبنان، وفضيلة الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين. وكان أول من دعا إلى هذه الفكرة وتأليف هذه الجماعة هو سماحة الشيخ محمد تقى القمى.

٢. الأنبياء: ٩٢.

عن طريق الدعوة والدعاة، ولايصل إليهم عادةً إلاّ بعد أن يفقد كل ما فيه من فكر وفقه، ويتحوّل أكثره إلى دعاوى عريضة ساذجة، واتّهامات صارخة منكرة.

والفكر الاسلامى شأن كلّ فكر مفتوح الأبواب، وقد مارسه الخيّرون فى نزاهة وحسن قصد واحتياط وتحرٍّ للصدق ما وسعهم، كما مارسه المفسدون واستغلّه ذو المصالح والأهواء.

وقد لابست مدارس الفكر الاسلامى من قديم فى كثير من بلاد المسلمين، عصبيات تجمّعت حولها طوائف من الناس، جعلت فى ظلّ الانتماء إلى هذه المدارس والمذاهب الاسلامية، تتناحر على أسباب الرزق والجاه، وعلى النفوذ السياسى والاجتماعى. فلم يعد الخلاف بين هذه العصبيات خلاف بين فكر وفكر، وفقه وفقه، وإنّما صراع على النفوذ والقوة بين مصالح سياسية واقتصادية واجتماعية، لايهمّها خير الاسلام، تختفى وراء عداوة جاهلة سافرة، تذكى نارها باستمرار بين الكلّ، المنتمين إلى هذا المذهب أو ذاك!

ولقد تداول الناس فى بلاد الاسلام، تلك الدعاوى والاتّهامات الكاذبة عن طوائفهم جيلا بعد جيل، قروناً وأحقاباً، حتّى اختلطت بعواطفهم وتفكيرهم، وصارت جزءاً من عقليتهم وسلوكهم، يستغلّه ذوى الأغراض، ويستخدمه أعداء الاسلام فى محاربة الاسلام.

وهذا الاعتياد القديم، على تبادل العداوات، بعد أن جرّ على المسلمين الويلات فى الماضى، يوشك فى الظروف الحرجة التى يمرّ بها العالم الاسلامى الآن أن يعصف بنا، فضلا عمّا نواجهه من الخطر الخارجى من حولنا، فسياسة الدول والأُمم فى العالم اليوم، قائمة على التكتّل والتحالف والانضواء فى مجموعات متعاونة، يسند بعضها بعضاً، فمن الخير لنا أن نتضامن ونتّفق ونتكتّل.

وتحاول «دار التقريب» جاهدة، محاربة هذا الاعتياد الماكر المخادع واقتلاعه وإزالته بتعويد عامة أهل المذاهب الاسلامية على اختلافها: كفّ أذى بعضهم عن بعض فى السرّ والعلن، وتبادل حسن المعاملة والتواصل والاشتراك والتعاون فى

السر والعلن، وإقناعهم بأنّهم جميعاً، ليس بينهم أىّ خلاف فى الأُصول والأساسيات: إلههم واحد، وكتابهم واحد، ونبيهم واحد، وقبلتهم واحدة، لايختلفون على أىّ ركن من أركان الإسلام، وإفهامهم أنّ هذا القدر المجمع عليه بينهم، هو «جوهر الإسلام» ورأس مال المسلم، أيا كان مذهبه.

رحم الله المغفور له الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق حين نبّه المسلمون فى فتواه التاريخية[١] فى شأن المذاهب الاسلامية بأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحقّ لمذاهب معيّنة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالى.

وكان لتلك الفتوى وما زال ـ والحمد لله ـ أثرها الطيب بين علماء المسلمين، فى مشارق الأرض ومغاربها.

وبهذا الفهم الصحيح للدين الحنيف والذى رأت معه «دار التقريب» أنّ من واجبها نشره وتعميمه بين الناس على اختلاف مذاهبهم بسلسلة من الندوات، فأجرت اتّصالا «بالمجلس الأعلى للشؤون الاسلامية» ثم بمؤسسة «الأهرام» لترتيب ندوة حول التقريب بين المذاهب الاسلامية، والتى رحّبت بالفكرة، وعهدت للاستاذ الكبير محمود مراد بإدارتها، وفى ذكرى المولد النبوى الشريف وبحضور كوكبة من كبار علماء المسلمين من أهل السنّة والشيعة، عقدت هذه الندوة بالقاهرة فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ألف وأربعمائة واثنين وعشرون للهجرة النبوية الشريفة ١٤٢٢/٣/١٢هـ الموافق الرابع من شهر يونيه، سنة ألفان وواحد للميلاد ٢٠٠١/٥/٤م وذلك بعد انتهاء أعمال المؤتمر الاسلامى العالمى الثالث عشر حول «التجديد فى الفكر الإسلامى» وفيما يلى بعض مقتطفات ممّا قيل فى الندوة:

● **الإمام الأكبر فضيلة الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوى (شيخ الازهر):** التقارب بين المذاهب الاسلامية من الأُمور الواقعة، لأنّ الخلاف ليس فى ركن

١ . انظر صورة الفتوى فى ملحق الوثائق.

من أركان الدين، ولا فى أصل من أصوله، وأنّما قد توجد خلافات بين أصحاب المذهب الواحد، ولكنّها خلافات فى أُمور فرعية اجتهادية.

● **آية الله سماحة الشيخ محمد على التسخيرى:** لانريد أن تذوب المذاهب، فهى إضافات عظيمة تظهر الفكر الاسلامى، ولانريد تغليب مذهب على مذهب، فلاتغليب ولاتذويب، وإنّما هناك تقارب لتحقيق تفاهم أكبر، وإنّ الدعوة للوحدة إنّما هى دعوة لوحدة الموقف العملى مع اختلاف الأفكار، وهذا أمر طبيعى...

وأبدى ملاحظةً حول تحوّل إنسان من مذهب لآخر، فالتقريب لايشجّع على التحوّل، لكنّ المشكلة فى تصوّره هى النظرة السيّئة لاتّباع هذا المذهب الى المذهب الآخر، على أنّه إنسان خارج على الدين!! وأنّ ثقافة التقريب يجب أن ترسل إلى الجماهير، أى إلى أتباع المذاهب، وهى الجماهير.

● **معالى الدكتور محمد حمدى زقزوق (وزير الاوقاف):** يرى ضرورة أن يكون هناك حوار إسلامى ـ إسلامى، وأنّ القضية ليست قضية خلاف بين المذاهب الفقهية، لكن هناك شيئاً ما يباعد بين أبناء الأمة، فالصراعات التاريخية التى حدثت فى الماضى ليس للاجيال الحالية أىّ دخل فيها، والقضية فى منتهى الخطورة، فالعالم يتجمّع ويتكتّل، والمسلمون لايزالون متفرّقون، ولايدركون خطورة الموقف فى العصر الحاضر: عصر العولمة، والخلاف فى وجهة النظر إثراء للفكر الاسلامى، وليس شقاق ونزاع، وهو مطلوب، ومطلوب بجانبه التسامح...

وشدّد على أنّ التقريب هو مسؤولية علماء الدين ومفكّرى المسلمين، وعليهم أن يقوموا بواجبهم من أجل تثقيف العقول وتنوير الأذهان، وتوضيح معالم الطريق، وإقرار التسامح، وأنّه لا خلاف على أىّ شىء من الأصول القطعية فى الاسلام بين السنّة والشيعة، فلماذا الاستمرار فى تعميق الخلافات؟؟

● **فضيلة الشيخ أحمد بن مسعود السيابى:** ٩٠٪ من أتباع هذه المذاهب الاسلامية هم عوام! تأخذهم العاطفة بالانتساب إلى مذهبهم، بحيث لايقبلون أىّ قول آخر، وبالتالى يحدث التنابز بالألقاب! فالتخلّى عن الألقاب المذهبية هو من

أولويات الوحدة الاسلامية.

● **سعادة سفير ايران «فى القاهرة» آية الله سيد هادى الخسروشاهى** قال: إنّ الخلاف فى الواقع ليس فى الأُصول، أمّا فى الفروع فهذا أمر اجتهادى، وهو إثراء للثروة الفكرية الاسلامية. وطالب بأن تكون هذه الندوة بدايةً لندوات أخرى عن التقريب بين المذاهب الاسلامية، وأشاد بالدور الخاص الذى كان لمجلة رسالة الإسلام فى دعم وتقوية العلاقات بين كلّ الدول الاسلامية فى ظلّ ما يمرّ به العالم الاسلامى من تحدّيات.

● **فضيلة مفتى جمهورية مصر العربية الدكتور نصر فريد واصل**: التقريب المقصود، هو التقريب بين الأتباع الذين ينتسبون إلى هذه المذاهب الاسلامية. وأشاد بدور العلماء، وأنّ أتباع هذه المذاهب هم الذين فرّقوا بين الشريعة والعقيدة وبين المذهب كمذهب مستقلّ، وطالب التقريب بين أتباع هذه المذاهب، وبخاصّة بين علمائها، وقال فضيلته: إنّ العلماء بأقوالهم، وليس بأفئدتهم!

● **فضيلة الشيخ محمود فرحات (لبنان)**: الخلاف المذهبى فى الإسلام بدأ سياسياً، واستغلّ سياسياً، واستثمر كذلک حتّى تضخّم.

● **آية الله الشيخ محمد واعظ زادة**: إنّ وحدة الأمة تعتبر من أهم فرائض الله علينا، فهى تضع الأمة فى المنزلة المناسبة لها بين الأمة. فالبحث فى دعامة عزّة الأُمة ضرورى، لأنّه ليس فى اختلاف الأُمة وتفرّقها سوى الخذلان والخسران.

● **الأُستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم (رئيس جامعة الأزهر)**: هذا اللقاء من أهمّ اللقاءات، لأنّه فى هذه المرحلة التى تمرّ بها أُمتنا فى أمسّ الحاجة إلى التقريب، بل إلى توحيد الصفّ ومصادر التشريع، لا خلاف عليها بين السنّة والشيعة، والتقريب يحتاج إلى حسن نوايا، وحسن ظنّ، وعدم جمود أو تعصّب، وهو موجود والحمد لله. وطالب المسلمون أن يكونوا على قلب رجل واحد.

● واختتم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الندوة بقوله: أنّنا كلّنا مسلمون متقاربون، لأنّ التقريب هو الأصل، ولايوجد بيننا أىّ تباعد إطلاقاً.

❊ ❊ ❊

وبعد، فتلك كانت ندوة التقريب بين المذاهب الاسلامية الأُولى، والتى سيعقبها ندوات لاحقة «إن شاء الله» فى بعض البلاد الإسلامية، أو فى الدول التى تضمّ جاليات إسلامية كبيرة، ولها وزنها وتأثيرها.

وأجمع الحضور على عدم وجود أىّ اختلافات فى الأُصول بين المذاهب الاسلامية الممثّلة فى الندوة، وأنّ الخلافات إنّما فى المسائل الفرعية أو بعض المسائل النظرية، وفى قضايا ليست من أُصول الدين، ولا من الأركان الثابتة فى إيمان المؤمنين، وأنّ المسؤولية تقع على عاتق العلماء ورجال الدين، بما يجب عليهم أن يقوموا به من تبصير الأمة الاسلامية فى مختلف الشعوب والطوائف، بعواقب هذا التفريق الخطير، والعمل على تبصير المسلمون بدينهم، وقطع أسباب الخلاف والتفرقة بينهم.

والشكر كلّ الشكر لمن ساهم على إنجاح هذه الندوة من السادة علماء المسلمين الأفاضل، الذين لبّوا دعوة «دار التقريب» واشتركوا فى الندوة.

(ربّنا آمنّا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين)

صدق الله العظيم

سكرتير عام دار التقريب بين المذاهب
الاسلامية
رجب عام ١٤٢٢هـ القاهرة

عكس

وفد من علماء مصر ولبنان وعمان
وهم من اليسار إلى اليمين: الشيخ فرحات، الشيخ فريد واصل نصر (مفتى مصر)، محمود مراد،
الشيخ محمد طنطاوى (شيخ الأزهر)،
الدكتور محمود زقزوق (وزير الأوقاف)، الشيخ السيابى (مسقط)

عكس

وفد علماء إيران فى ندوة القاهرة
وهم من اليمين: الشيخ محمد على التسخيرى، الشيخ محمد واعظ زادة، السيد هادى
الخسروشاهى، عبدالله محمد تقى القمى، على المؤمن

لقاءات مستمرّة فى القاهرة

وأجدنى مضطرّاً الى القول بأنّ اللقاءات المستمرة التى كانت تتمّ بينى ـ بصفتى رئيس الهيئة الدبلوماسية الإيرانية فى القاهرة ولمدة ثلاث سنوات متتالية ـ وبين شيوخ الأزهر الشريف، وعلى رأسهم الإمام الأكبر الدكتور سيد محمد طنطاويشيخ الأزهر الشريف، والمفتى الدكتور فريد واصل نصر، ثم المفتى الدكتور الشيخ أحمد الطيب، ثم المفتى الدكتور الشيخ على جمعة، والدكتور حمدى زقزوق وزير الأوقاف، والحضور فى ندواتهم الرمضانية ـ مؤتمر الفكر الاسلامى ـ فى ساحة مسجد سيدنا الحسين (عليه السلام)، والجلسات الخاصّة التى ندعى للاشتراك فيها، كجلسة رؤية هلال شهر رمضان المبارک، والتى يشترک فيها كبار العلماء ورجال مصروالسفراء الإسلاميين، أو جلسة إهداء الجوائز القرآنية و... ، كان لها آثار واسعة فى بسط الدعوة الى التقريب، رغم كلّ المحاولات العدائية من المتربّصين بالإسلام والمسلمين، ونشرهم الأكاذيب عن قول الشيعة ضدّ السنّة، وعن قول السنّة ضدّ الشيعة، منها كتاب: الجذور اليهودية للشيعة للشيخ عبدالمنعم البرى، وكتب أخرى عدائية فارغة، وغير مقبولة عند الشيعة، والصادرة من قبل الجماعة السلفية المصرية!

بيد أنّ اللقاءات الإخوية والعلمائية بينى وبين كبار العلماء، وخاصّةً الإمام الأكبر شيخ الأزهر، قد أبطل كلّ المحاولات والمؤامرات العدائية... بحيث أنّ مرةً ـ فى لقائى الآخر ـ قال لى: نحن نعترف بأنّ الشيخ السيد هادى الخسروشاهى هو ممثّل عن الشيعة فى مصر، ويا ليت كان مدّة وظيفته الإدارية ثلاثين سنة، عوضاً عن ثلاث سنوات!

ونحن نرحّب بدورنا بموقف شيخ الأزهر بالنسبة للشيعة، ونكبّره فى جهوده الجبارة فى إحياء فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية.

وهنا نأتى بوثيقة جاءت فى جريدة صوت الأزهر[1] الناطقة باسم الأزهرالشريف، عن لسان الشيخ الكبير، ووثيقة أخرى، عن مفتى مصر، جاءت فى جريدة الدستور المصرية، وهذه نصّهما:

فى تصريحات خاصّة لـ «صوت الأزهر»...

الإمام الأكبر: لا فرق بين السنّة والشيعة ومن يحاول التفريق بينهما مأجور

الشيخ محمود عاشور: الاستعمار يشكّل نفسه لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية

فى تصريحات خاصّة لـ صوت الأزهر قال فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر: إنّه لا فرق بين السنّة والشيعة، وأنّ كل من يشهد أن لا إله إلاّ الله فهو مسلم، وأنّ الخلاف إن وجد فهو خلاف فى الفروع وليس فى الثوابت والأصول، والخلاف موجود فى الفروع بين السنّة بعضهم البعض، والشيعة بعضهم البعض.

وقال: إن كلّ من يحاول إشاعة الخلاف بين السنّة والشيعة مأجور، وإنّه يجب علينا أن نواجه الهجمة الشرسة ضدّ الدين الاسلامى، مؤكداً أنّه إذا لم نعتصم من أجل ديننا فلا أقلّ من أن نعتصم من أجل دنيانا.

وأضاف الشيخ محمود عاشور، وكيل الأزهر: أنّ العالم الإسلامى يواجه استعماراً قوياً يشكّل نفسه لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية، ويحاول إشاعة الخلاف ما بين السنّة والشيعة حتّى لايلتفتوا إلى قضاياهم الأساسية... مشيراً إلى أنّ الاستعمار الثقافى أصبح أقوى وأخطر من السابق، وأنّه ينبغى علينا أن نواجهه بحسم وقوة.

* * *

١. الصادرة فى يوم الجمعة ١١ من المحرّم سنة ١٤٢٤هـ/١٤ آذار ـ مايس ٢٠٠٣م.

وكذلک نورد بعض الصور الأخيرة للقاءات الحاصلة فی الأزهر الشريف مع العلماء الكبار استمراراً لدعوة التقريب... ، وإيجاد سبل جديدة للوحدة الاسلامية، فی كل العالم.

صوت الأزهر

الدستور

أعلن مفتى مصر الشيخ نصر فريد واصل رسمياً أنّ مذهب الشيعة،
يعنى مذهب الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) يمكن كباقى المذاهب أن يُتَّبع ويقلَّد.
(صحيفة الدستور الاسبوعية المصرية، السنة الثالثة، العدد ١٥ ص٣)

عكس

فى إحدى اللقاءات: السيد هادى الخسروشاهى مع الشيخ الدكتور السيد محمد طنطاوى، شيخ الأزهر الشريف، فى مكتبه الخاص بالقاهرة

عكس

من اليسار: الدكتور شيخ نصر فريد واصل (مفتى مصر)، الشيخ محمود عبدالغنى عاشور (وكيل الأزهر الشريف)، السيد هادى الخسروشاهى

عكس

فى مشيخة الأزهر الشريف
من اليمين: الشيخ فوزى زقزاق (مدير قسم الحوار مع الأديان)، الدكتور الشيخ أحمد الطيب رئيس جامعة الأزهر،
الشيخ طنطاوى شيخ الأزهر، السيد هادى الخسروشاهى، والأخوان جودكى والشيخ عباس من أعضاء السفارة

ملحق رقم (٥)

تقرير عن مؤتمر
تكريم الإمامين البروجردى وشلتوت
باشتراک علماء الأزهر الشريف وعلماء إيران
سنة ١٤٢١ هـ فى طهران

عكس اقاى بروجردى

صورة السيد البروجردى

عكس اقاى شلتوت

صورة الشيخ شلتوت

المقدمة

تحظى الحوزة العلمية فى قم، وكذلك جامع الأزهر فى القاهرة، بموقعهما الجغرافى فى طرفى العالم الاسلامى بمكانتين خاصتين فى تبيين الفكر الإسلامى، وبلورته من جوانبه المختلفة فى الفقه والأُصول والكلام وغيرها، كما تتولّيان هدى الجماهير المسلمة نحو المجتمع الإسلامى الهادف.

وينعكس أىّ تحوّل وتقدّم يحصلان فى الأفكار السائدة على هاتين الحوزتين العلميتين الكبيرتين بشكل مباشر أو غير مباشر على مجمل العالم الإسلامى، وستكونان مصدراً للتحوّلات، كما شكّلت التحوّلات الفكرية العظيمة فى الحوزة العلمية بقم مصدراً أساسياً لظهور الثورة الإسلامية الرائعة فى إيران فى بداية القرن الخامس عشر الهجرى.

ولايخفى فى هذا الجانب دور القادة الفكريّين وكبار الأساتذة فى إيجاد النهضات والحركات والتحوّلات السياسية والاجتماعية الكثيرة، ممّا يشكّل ذلك دلالة واضحة على هذه الحقيقة.

ففى العصر الراهن، وفى أحلك المراحل التاريخية، وبعد الحربين العالميتين: الأُولى والثانية، حيث شهد العالم الإسلامى سقوط الدولة العثمانية، واحتلال الأراضى الإيرانية، وإيجاد الكيان الإسرائيلى غير المشروع، وقد أدّى ظهور المصلحَيْن الكبيرين فى الأُمة الإسلامية فى هاتين الحوزتين الكبيرتين: الشيعية والسنيّة، وطرحهما وجهات إصلاحية وتقدّمية من جانبهما، واهتمامهما الجادّ بالمبدأ القرآنى والوحدة الإسلامية، وتبيين أُسسهما العلمية على أساس الكتاب والسنّة، أدّى إلى دفع أنظار المسلمين نحوهما.

وترک کلّ من آیة الله **السید البروجردی** المرجع الشیعی الکبیر دون منازع **والعلاّمة الشیخ محمود شلتوت** تأثیرهما المصیری فی اهتمام المسلمین بهویتهم الاسلامیة المشترکة، من خلال إجراءاتهما الإصلاحیة والوحدویة فی العالم الاسلامی بشکل غیر مسبوق، وتأکیدهما علی ضرورة وضع الخلافات المذهبیة الناجمة عن الجهل والتعصّب، ودسائس الحکّام والمستعمرین جانباً.

وتعتبر الفتوی المعروفة **للشیخ شلتوت** فی صحّة تعبّد الشیعة، والأخذ بالفقه الشیعی باعتباره مذهب رسمی إسلامی، وتأسیس دار التقریب بین المذاهب بأمینه العام الشیخ **محمد تقی القمی** فی القاهرة، وعضویة کبار علماء الفریقین فیه، ودعم آیة الله البروجردی لذلک، تعتبر من نتائج هذا التحوّل الفکری الکبیر فی فکر القادة الدینیین المسلمین.

ولعبت دار التقریب بین المذاهب الاسلامیة فی حیاته المثمرة جدّاً دوراً کبیراً فی التعارف بین علماء الشیعة والسنّة، ونشر ٦٠ عدداً من مجلّة رسالة الإسلام ونشر کتاب التفسیر الکبیر مجمع البیان وکتاب المختصر النافع وکتاب حدیث الثقلین وغیرها من الکتب.

واعتبر المجمع العالمی للتقریب بین المذاهب الاسلامیة والذی جاء تأسیسه بأمر من سماحة آیة الله **السید علی الخامنئی** مدّ ظله العالی فی عام ١٩٨٨ بأمینه العام آیة الله واعظ زادة الخراسانی فی إیران بعد ۴۵ عاماً من تأسیس دار التقریب بین المذاهب فی مصر، اعتبر فلسفته الوجودیة استمرار للطریق الذی سلکه أُولئک العظام، ویعتبر نفسه استمراراً لوجود دار التقریب فی مصر.

وعقد هذا المجمع فی الذکری السنویة لرحیل آیة الله السید البروجردی مؤتمراً لتکریمه والشیخ محمود شلتوت بتاریخ شوّال المکرّم ١۴٢١هـ. ق فی طهران وقم، شارک فیهما العلماء والمفکّرین وکبار مراجع التقلید من إیران، والشیوخ وکبار الأساتذة من جامع الأزهر من مصر، بدعوة من منظّمی المؤتمر، وتمّ فیه تبیین الأُسس العلمیة لأفکارهما الإصلاحیة کخطوة جدیدة فی سبیل

الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب الاسلامية.

وقد كان من بين المشاركين وفد علمائی كبير من علماء الأزهر مؤلّف من ٢٠ شخصاً، من بينهم **الشيخ محمود عبدالغنى عاشور نائب شيخ الأزهر، والشيخ فريد واصل المفتى المصرى** آنذاک، وعمداء كلّيات الأزهر، وصحفيون وأساتذة معروفين، وقد أضفى هؤلاء الضيوف طابعاً مرموقاً على هذا الاجتماع. كما التقى الوفد المصرى هذا بكلٍّ من قائد الثورة الاسلامية ورئيس الجمهورية، كما حضر الوفد فى صلاة الجمعة، وألقى نائب شيخ الأزهر كلمةً مهمةً جداً بين المصلّين فى صلاة الجمعة. كما التقى الوفد المصرى فى مدينة قم عدداً من كبار مراجع التقليد والفضلاء والأساتذة، وأجروا معهم محادثات، كما زار أعضاء الوفد المراكز المهمة فى المدينة.

وحول أهمية هذا المؤتمر تكفى الإشارة إلى ما قالته إحدى الصحف المصرية المهمّة حول المؤتمر، إذ كتبت هذه الصحيفة: لم يعقد مثل هذا المؤتمر الرائع والمهمّ طوال التاريخ، وبعد الحوادث المؤسفة فى الصدر الإسلامى الأول، وقد اجتمع قادة العالمين: الشيعى والسنّى فى مكان واحد. وكان لهذا المؤتمر أصداء واسعة فى الصحف المصرية والإيرانية والمنطقة العربية[١].

١ . الإمام البروجردى وشلتوت رائدا التقريب، مقدمة الأُستاذ سيد جلال الدين الميرآقائى.

رسالة الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية إلى السيد هادى الخسروشاهى

حضرة حجة الإسلام والمسلمين جناب الحاج السيد هادى الخسروشاهى دام ظلّه سفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية فى دولة مصرالسلام عليكم، وأسأل الله تعالى أن يمنّ عليكم بالصحّة والسلام وبمزيد من التوفيق.

مع تقديرى وشكرى الجزيل للجهود التى بذلها جنابكم فى إطار إرسال الوفود الأزهرية الرفيعة المستوى إلى إيران لغرض المشاركة فى المؤتمر التكريمى لآية الله البروجردى والعلاّمة الشيخ محمود شلتوت، يشرّفنى أن أُطلعكم على ما يلى:

أنّ المؤتمر قد انعقد فى طهران لمدة يومين متتاليين، وكان اليوم الثالث منه من نصيب مدينة قم كأفضل وجه لانعقاده، وإجابةً لمتطلبات موعد انعقاده، وقد كان مثمراً، إذ صحب ذلک عدّة محادثات ولقاءات بين الفضلاء والمدرسين الكبار فى الحوزة العلمية بقم، كآية الله مكارم والشيخ السبحانى، وبين مفتى مصر وآخرين.

وقد أعرب آية الله مكارم من خلال رسالة عن تقديره لهذا العمل المهمّ.

وقد قال بعض معرباً عن ثنائه للمؤتمر وتقديره للعاملين أن قال: إنّ مؤتمراتكم جميعاً فى طرف ، وهذا المؤتمر وحده فى طرف ! وهو تعبير ينبو عن حسن تقديرهم تجاهه.

أضف إلى ذلک الصدى الذى أحدثه هذا المؤتمر فى الأوساط الثقافية فى العالم الإسلامى، وهو ما التمسته أثناء مشاركتى فى المهرجان الوطنى الذى أُقيم فى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، حيث سمعت من أكثر من جهة كلمات التقدير والثناء تُكال على مؤتمرنا التكريمى، وهى بادرة خير تجاه حركتنا التقريبية.

وقد بادرت وبمساعدة الدكتور عاشور إلى إرسال رسالة شكر وتقدير مع هدية مناسبة إلى شيخ الأزهر الدكتور سيد طنطاوى الذى بادر فوراً مشكوراً بإرسال رسالة جوابية مصحوبة بهدية معرباً عن أمله فى دوام العلاقات بين البلدين: إيران ومصر، وأن تبقى دائماً طيّبة.

والسيد رفاعة القائم بالأعمال المصرى أيضاً قد أعرب عن شكره تجاه الضيافة والترحيب الشديدين اللذين أبدتهما الهيئة التنسيقية للمؤتمر، كما وأبدى اعتزازه بالقائمين والعاملين عليه وسأبعث إليه رسالة شكر وتقدير على عواطفه النبيلة تجاهنا.

وسأرسل إليكم فى المناسبة بعض الكتب التى طُبعت بالعربية والفارسية آمل أن تحظى برضاكم.

وبالأمس اتّصل بى الدكتور تبرائيان هاتفياً وهو يخبرنى إجمالا بالأصداء الطيّبة التى أحدثها مؤتمرنا التكريمى، ومدى انعكاساته فى الصحف المصرية، ومن قبل قد أوعزت إلى السيد مير آقائى بأنّكم بانتظار إرسال جميع تلك الصحف التى نقلت وقائع المؤتمر وأخباره.

وفى الختام أُبلغكم بأنّ رسالة السيد مفتى سنبعثها إلى مكتب السيد القائد إن شاء الله.

بلّغ سلامى وشكرى الخاص إلى شيخ الأزهر وأعضاء الهيئة المحترمين، وإلى الدكتور كمال أبو المجد أيضاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية

١٨ ذى القعدة ١٤٢١ هـ

اصل سند نامه بزبان فارسى محمد واعظ زاده

رسالة الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية إلى شيخ الأزهر الشريف

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه

سماحة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الجامع الأزهر الشريف مدّ الله فى عمره وأيّده فى مهمته

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

لقد استقبلنا بكل سرور واحترام الوفد الكريم الذى شارك نيابة عنكم فى المؤتمر الدولى لتكريم الإمامين الكبيرين: الإمام البروجردى والعلامة الشيخ شلتوت رحمهما الله تعالى. هذا الوفد الكبير وتلك النخبة من الأزهريين برئاسة نائبكم العلامة محمود عبدالغنى عاشور وسماحة المفتى الدكتور فريد نصر واصلقد شرفونا وشرفوا الجمهورية الإسلامية كرسل للوحدة ودعاة للتقريب بين المذاهب الإسلامية، فأفادونا كثيراً كثيراً وأعادوا علينا الذكريات الطيبة من قبل خمسين عاماً وفتحوا أبواباً جديدة فى العلاقات الأخوية بين الحوزة العلمية عندنا وبين الأزهر الشريف وكل ذلك من فضلكم علينا ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وإنى لا أجد كلمة تعبّر عن عواطفى وشكرى لسماحتكم إلاّ الاعتراف بالعجز. نسأل الله لكم كمال الصحة وموفور السعادة وللازهر الشريف الازدهار والنجاح فى رسالته الخالدة وستبقى ذكريات هذا الملتقى مستمرة مثمرة تؤتى أكلها كل حين باذن ربها. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية

اصل سند نامه بزبان عربى محمد واعظ زاده

إلى الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية

الأخ الفاضل سماحة الشيخ محمد واعظ زادة الخراسانيالأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد:

فقد تلقيت ببالغ الشكر والامتنان رسالتكم الكريمة التى تحمل كل معانى التقدير للأزهر الشريف وللوفد الذى حضر المؤتمر الدولى برئاسة فضيلة الشيخ محمود عبدالغنى عاشور وكيل الأزهر الشريف وعضو مجمع البحوث الإسلامية وذلک لتكريم الإمامين الجليلين الإمام البروجردى والإمام الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الشريف رحمهما الله رحمة واسعة.

وقد حمل الوفد إلى مصر وأزهرها الشريف من سماحتكم ومن المؤتمر ومن دولة إيران الإسلامية الشقيقة رئيساً وحكومةً وشعباً ـ إلى مصر ـ بلدكم الثانى رئيساً وحكومةً وشعباً كل الاحترام والإعزاز والإكبار.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عمق الأخوة وصدق المودة والصلة القوية المتينة التى تربط بلدينا، وبين الأزهر الشريف والحوزات العلمية اللذان يحفظان التراث الاسلامى بمذاهبه المختلفة التى تدرس بهما، والتى يراها كل منصف وكل دارس فاهم ومفكر واع للفقه أنها صالحة لكل زمان ومكان.

نسأل الله العلى القدير أن يجمعنا على الخير دائماً لخدمة ديننا ولخدمة بلدينا ولخدمة الأمتين الإسلامية والعربية والمسلمين فى كل مكان من أرض الله.

وفقكم الله وسدد خطاكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر

٢٩ من شوال ١٤٢١هـ/٢٤ من يناير ٢٠٠١م

اصل سند نامه بزبان عربى دكتر محمد سيد طنطاوى

بيان القائد

آية الله السيد على الخامنئى

حمداً لله سبحانه وتعالى أن وفّقكم أنتم العاملين المحترمين على إقامة هذا الاجتماع، لتكريم شخصيتين كبيرتين كان لهما السهمُ الكبير فى تحقيق أمل التقريب بين المذاهب الإسلامية.

وهاتان الشخصيتان المرموقتان والممتازتان أحدهما: كبير فقهاء عصره والمرجع الأعلى لجميع شيعة العالم فى وقته، والشخصية الفريدة بين علماء الدين فى العصور الأخيرة حضرة آية الله العظمى السيد البروجردى، والآخر: الفقيه والمفتى الكبير لدى أهل السنّة، والرئيس الشجاع والمجدّد للأزهر الشريف العلاّمة الشيخ محمود شلتوت.

إنّ تكريم هاتين الشخصيتين الشهيرتين فى عالم الإسلام ليس فقط تكريماً لإنسانين كبيرين فحسب، بل الهدف منه هو ما قدّماه من خدمة عظيمة للأُمة الإسلامية.

واليوم العالم الإسلامى، الذى يشكّل أعظم المجموعات العالمية من حيث ما يحتويه من كنوز مادّية وإنسانية وفكرية وتاريخية، بحاجة أكثر من أىّ وقت مضى إلى الوحدة والتقريب.

وإذا كانت أهداف وآمال كلّ مسلم خيّر يحمل هموم أُمته تتمثّل فى تمركز المساعى والطاقات باتّجاه إنقاذ الأُمة الإسلامية، فلابدّ أن نعلم أنّ هذا الهدف لايمكن بلوغه إلاّ فى ظلّ تقارب القلوب والأفكار والمعتقدات.

وهذان الرجلان الكبيران قد أدركا قبل قرابة نصف قرن هذه الحقيقة الوضّاءة، وبذلا من أجلها الجهود الكبير.

ولو كان رجال العلم والسياسة قد واصلوا هذه المساعى بجدٍّ، فلعلّ عالمنا

الإسلامى لم يشهد النتائج المؤلمة لما بين المسلمين من خلاف، ولعلّ مأساة فلسطين وسائر أوضاع العالم الإسلامى المزرية ما كانت قد أحاطت بالعالم الإسلامى بهذا الشكل المأساوى والمرعب الذى عليه اليوم.

فى تلك الأيام كانت همّة مرجع الشيعة الأعلى وعزمه وشجاعته، وحريّة إمام الإفتاء فى مصر قد تبلورتا فى خطوة مهمة وضرورية لعصرهما، واليوم أيضاً يتحمّل كلٌّ من الروّاد والمفكّرين، وعلماء الدين والمثقّفين، ورجال الإفتاء والساسة مسؤوليات كبرى فى هذا الطريق.

والمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامى فى طهران يجب أن ينهض بمشروع عظيم وخالد، كالذى نهضت به دار التقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة، فأمواج تخريب علاقات المذاهب والشعوب المنبعثة من بؤر الفتنة فى داخل العالم الإسلامى وخارجه، تستهدف زيادة تشتّت الشعوب والمذاهب الإسلامية، ولذا فبذل الجهود المخلصة أمام أمواج الفتنة هذه واجب يتحمّله الجميع، خاصة الواعون والمتعقّلون بتمسكنا بالقرآن الكريم وسنّة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام القطعيّة، مثل حديث الثقلين، واتّباع أهل البيت (عليهم السلام) يُصبح الطريق أمامنا واضحاً لا لبس فيه.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنى وايّاكم، وكلّ العلماء والأمة الإسلامية، لانتهاج هذا الطريق.

فى الخاتمة أرى لزاماً أن أشكر العاملين على إقامة هذا الاجتماع لما بذلوه من جهود، وأسأل الله سبحانه أن يتغمّد برحمته ومغفرته المرحوم العلاّمة الشيخ محمد تقى القمى مؤسّس دار التقريب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السيد على الخامنئى
١٢ شوال ١٤٢١هـ

أكبر وفد من الأزهر إلى إيران[١]

انتهت فى طهران أعمال أهم مؤتمر شهدته العاصمة الإيرانية، والذى قد يكون هو البداية الصحيحة لتنقية الأجواء بين مصر وإيران.

ويأتى هذا المؤتمر ليلوح فى أُفق العلاقات بين البلدين أمل جديد، خاصةً لأنّه ينعقد تحت شعار الإسلام، ويتّخذ من موضوع (التقريب) بين المذاهب الإسلامية وتوحيد كلمة المسلمين وصفوفهم هدفاً له.

وإذا كانت أميركا قد اتّخذت من لعبة (كرة الطاولة) مدخلا لبدء الحوار مع الصين للمرة الأولى فى تاريخ البلدين، فإنّ الإسلام أدعى بطبيعة الحال ليكون الوسيلة الأمثل لجمع الطرفين: مصر وإيران على كلمة سواء، سيّما وأنّ فكرة (التقريب) هذه لها تاريخها الراسخ بين البلدين منذ الثلاثينات، بذل خلالها علماء الأزهر الشريف جهوداً فقهية عظيمة، حمل لواءها أعلام من شيوخ الأزهر، كان فى مقدّمتهم الشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ عبدالعزيز عيسى، وغيرهم من مصر، ومن أئمة الشيعة فى إيران آية الله البروجردى، وآية الله القمى.

كانت مصر هى المهد الذى ولدت فيه فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، لنبذ الخلافات، وتوحيد كلمة المسلمين وتأليف قلوبهم، وكانت مصر أيضاً هى التى احتضنت الفكرة، ورعاها أزهرها وعلماؤه، ومن ثم ظهرت هيئات، وصدرت مجلاّت، وانعقدت مؤتمرات، حقّقت للأمة الاسلامية أجلّ الخدمات والفوائد، وقلّصت خلافاتها، واستبدلت الصعب بالممكن، إذ كرست جهودها فى مساحة الاتّفاق بين المذاهب، وهى مساحة واسعة تبلغ ٩٥٪ تقريباً، ونأت عن النبس فى المسائل الخلافية التى تمثّل الـ ٥٪ الباقية، تاركةً ذلك لمزيد من

---

١ . مقال للدكتور كرم شلبى رئيس تحرير جريدة «صوت الأزهر» القاهرية.

الاجتهاد، وإيراد الأدلّة التى يطمئنّ كلّ طرف على صواب ما يعتقده.

وإذا كانت فكرة التقريب تلك قد نشأت للمرة الأُولى إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية، وكانت بمثابة ردّ فعل لها، وحاجة المسلمين الماسّة آنذاک إلى نبذ خلافاتهم، والدخول كقوة بارزة إلى عالم ما بعد الحرب، فإنّ الدعوة إلى هذا المؤتمر من قبل إيران (وهى التى تملک مجلساً أعلى للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامية) تأتى فى وقت تشتدّ فيه الحاجة إلى تأليف المسلمين وتقاربهم ووحدة صفوفهم، وهى الوحدة التى تحاربها قوى الغرب، وتبذل كلّ جهودها للحيلولة دونها... ومن ثم كان طبيعياً أن تتّجه الأنظار من إيران صوب الأزهر الشريف، وهو المؤسّسة الوحيدة فى العالم الإسلامى القادرة على جمع كلمة المسلمين، وحقّقت التقارب بين المذاهب الإسلامية عندما أجازت تدريس كافّة المذاهب الفقهية ضمن البرامج التعليمية فى المعاهد الأزهرية وجامعته الأزهر، وتقديمها فى حيدة تامّة، وموضوعية كاملة.

وعندما تلقّى شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى الدعوة الإيرانية ـ بواسطة السفير السيد هادى الخسروشاهى ـ عقد مؤتمر التقارب فى طهران، وجد فضيلته ـ ومعه علماء مجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر ـ أهمية المشاركة فى هذا المؤتمر، خاصةً وأنّ انعقاده يأتى فى مرحلة أحوج ما تكون فيها الأمة الإسلامية إلى توحيد كلماتها، والتصدّى للهجمة الضارية التى تشن ضدّ الإسلام والمسلمين. وبدأ الإعداد بدعوة عدد من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بإعداد البحوث والدراسات فى الموضوعات الجديرة بالمناقشة، وتشكّل الوفد برئاسة وكيل الأزهر الشيخ محمود عبدالغنى عاشور نائباً عن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وضمّ عدداً من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية ورئيس المجمع. وكان ذلک هو أكبر وفد من الأزهر، بل أكبر وفد مصرى يزور إيران على مدى العشرين سنة الماضية.

ايران.. شيء مختلف

... وجدت إيران شيئاً يختلف كلّ الاختلاف عن الصورة التى كانت لها فى ذهنى، بدا واضحاً منذ البداية أنّ كلّ شىء يوحى بالأهمية القصوى لهذا المؤتمر، فهناك كلمة موجّهة من قائد الثورة الإسلامية الى المؤتمرين، وهناک آية الله الهاشمى رفسنجانى الذى افتتح المؤتمر بما يشبه المحاضرة الدينية والسياسية التى تناولت أُموراً عدّة على قدر كبير من الأهمية، فقد تحدّث عن فكرة التقريب وأهميتها، وتحدّث عن أحوال الأُمة الإسلامية وواقعها، وعرج على ما يجرى فى فلسطين، موكّداً على أنّه لو كان الحال بين مصر وإيران مختلفاً، وكانت الأُمور بين البلدين على ما يرام، لكان الحال فى فلسطين أفضل ممّا يجرى الآن، لأنّ مصر ـ كما قال ـ هى قلب الأُمة الإسلامية، وحصناً من حصون الإسلام، وأنّ أزهرها الشريف هو رائد التقريب بين المسلمين وحامل لوائه.

وتحدّث عدد آخر من آيات الله، وجميعهم من الشخصيات الدينية التى تربّت فى الحوزة الدينية فى قم، والذين يحتلّون مواقع ومكانة خاصّة فى سدّة الحكم، منهم آية الله الحكيم رئيس المجلس الأعلى للتقريب بين المذاهب الاسلامية، ومنهم محمد واعظ زادة الخراسانى الأمين العام للمجمع، ومحمد على التسخيرى رئيس رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، والدكتور عبدالكريم الشيرازى رئيس جامعة المذاهب الإسلامية.. وآخرون.

وعلى الجانب المصرى، كانت كلمة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر، والتى أحدثت صدىً قوياً داخل المؤتمر وخارجه، عندما أشار الى أنّ الأزهر الشريف كان أوّل من دعا للجهاد فى فلسطين إذا ما فشلت محاولات السلام التى يتفاوض بشأنها الفلسطينيون مع الأطراف الأُخرى. ثم كانت أوراق العمل التى قدّمها الدكتور فريد نصر واصل مفتى مصر، والدكتور محمد رأفت عثمان عميد كلّية الشريعة، والدكتور عبدالمعطى بيومى عميد كلّية أصول الدين، والدكتور محمد عمارة عضو مجمع البحوث الإسلامية، والدكتور محمد إبراهيم الفيومى عضو المجلس، والشيخ على فتح الله رئيس قطاع المعاهد الأزهرية، ثم كان

البحث الذى قدّمه الكاتب فهمى هويدى، والذى أرّخ فيه لفكرة التقريب بين المذاهب ونشأتها ومؤسساتها، والظروف التى عملت فى إطارها، وكانت تلك هى أهم الأوراق التى حظيت باهتمام واضح فى جلسات المؤتمر ومناقشاته.

التقريب بين المذاهب الإسلامية... دعوة إصلاحية[١]

لبّى مؤخّراً وفد من كبار العلماء والمفكّرين الإسلاميين من مصر دعوة طيّبة من جمهورية إيران الإسلامية، للمشاركة فى الاحتفال بذكرى رائدى التقريب: فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت من مصر، وآية الله البروجردى من إيران، وأناب فضيلة الإمام الأكبر فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر لرئاسة وفد مصر.

ويعتبر هذا اللقاء الأول من نوعه بعد فترة تباعد وانقطاع امتدّت لأكثر من ثلاثة عقود، وهو خطوة طيّبة من أجل وصل ما انقطع، وتقريب وجهات النظر فى الأُمور الدينية بين البلدين الإسلاميين الشقيقين.

تلبيۀ الدعوۀ

فى بداية اللقاء كان من الطبيعى أن نسأل الشيخ محمود عاشور رئيس وفد مصر الذى زار الجمهورية الإيرانية، والتقى بقياداتها الدينية، عن الجهة صاحبة هذه المبادرة الطيّبة، والتى جاءت بعد فترة تباعد بين البلدين زادت على ربع قرن.

أجاب فضيلته: أنّ هذه الخطوة الحميدة كان ورائها المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامية فى إيران، حيث وجّه أمينه العام دعوةً إلى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى ومجموعة من العلماء الذين لبّوا الدعوة التى وجِّهت إلى مصر من الجمهورية الإيرانية وقياداتها الدينية، لتكريم رائدى

---

١. تقرير عن مؤتمر تكريم الإمامين العَلَمين: آية الله البروجردى والشيخ شلتوت الذى انعقد فى طهران، أعدّته مجلّة منبر الإسلام الشهرية القاهرية، عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد (١١) السنة التاسعة، ذو القعدة ١٤٢١هـ.

التقريب: فضيلة الإمام الأكبر الراحل الشيخ محمود شلتوت من مصر، وآية الله البروجردى من إيران. وكان من المفترض أن يرأس وفد مصر فضيلة الإمام الأكبر، وتمّ اختيار أعضائه من علماء مجمع البحوث الاسلامية، وتمّ إعداد البحوث القيّمة التى ستلقى فى هذه المناسبة الكريمة، إلاّ أنّ ظروفاً طرأت وحالت دون سفر فضيلة الإمام الأكبر، فأنابنى شرف رئاسة وفد مصر.

التقريب بين المذاهب

وعن أهمّ المحاور التى تناولتها جلسات المؤتمر، وأبرز البحوث التى طرحت فيه قال فضيلة الشيخ عاشور: إنّ الحديث كلّه انصبّ على مسألة التقريب بين المذاهب الدينية، وتحديداً بين مصر وإيران، وعلى وجه أخصّ بين الشيعة والسنّة. وهذه المسألة كانت محور الحديث الرئيسى فى المؤتمر لكلّ من تكلّموا بمن فيهم رئيس الجمهورية الإيرانية الذى كانت كلمته التى ألقاها فى حفل افتتاح أعمال المؤتمر تدور حور معنى التقريب بين المذاهب فى الإسلام.

إلى جانب أنّ بعض البحوث التى أُلقيت بالمؤتمر تناولت بشكل خاص كلاًّ من الإمام البروجردى وفضيلة الإمام الشيخ شلتوت ودور كلٍّ منهما فى موضوع التقريب باعتبار أنّهما من روّاد التقريب والتقارب بين المذاهب، وكيف أنّ قضية التقريب هى حجر الأساس فى علاقات طيّبة بين الأزهر فى مصر والحوزات الدينية فى إيران.

ويعتبر هذا اللقاء بين القيادات الدينية فى مصر والقيادات الدينية فى إيران خطوة جديدة بعد فترة تباعد وانقطاع امتدّت لأكثر من ثلاثة عقود، وهذا هو اللقاء الأول من نوعه الذى يدعو إلى وصل ما انقطع من أجل تقريب وجهات النظر فى الأُمور الدينية بين البلدين الإسلاميين الشقيقين.

وصل ما انقطع

أمّا عن البدايات الأولى للتقريب فقد بدأت مع منتصف القرن الماضى، حيث

كان يوجد ما يسمّى بدار التقريب، والتى كان يرأس أعضاءها «علوبة باشا» وكان أمينها العام الشيخ عبدالمجيد سليم، كما كان فضيلة الإمام الراحل الشيخ شلتوت أحد أعضاء هذا التجمّع، حيث بذل الجميع الجهد وجاهدوا من أجل التقريب بين المذهب السنّى فى مصر وبقية المذاهب، وقد أثمر هذا العمل الدؤوب نتائج طيّبة حتّى مطلع السبعينات من القرن الماضى.

لقد بادر الإخوة فى إيران بعمل جمعية صداقة إيرانية ـ مصرية من شخصيات مؤمنة بالتقريب والتقارب مع مصر برئاسة السفير السيد هادى خسروشاهى، كذلك يجرى فى مصر الآن العمل على تكوين جمعية صداقة مصرية ـ إيرانية تضمّ صفوةً من علمائنا، ومرشّح لرئاستها الأستاذ الدكتور كمال أبو المجد. ولاشكّ أنّ هذه الخطوة غير الرسمية من جانب كلٍّ من البلدين من شأنها الإسراع بخطوات التقارب واللقاء على الطريق الصحيح لمصلحة الشعبين الشقيقين والإسلام.

كما أنّ الأزهر ما زال يدرس فكرة إحياء دار التقريب مرّة أخرى، وذلك يتطلّب وضع أُسس وقواعد ومناهج حتّى نبدأ العمل.

وقد سبق أن كانت هناك مبادرات طيّبة من جانب المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ومعالى وزير الأوقاف، حيث وجّهت الدعوة لأكثر من شخصية دينية من إيران لحضور فعاليات المؤتمر السنوى الكبير الذى ينظّم من جانب المجلس والوزارة معاً. وعلى سبيل المثال فقد حضر من قبل إلى مصر آية الله واعظ زادة، وآية الله النعمانى، وشاركا فى أعمال المؤتمر، وما زالا يذكران الحفاوة البالغة والترحيب الكبير من قبل الجميع أثناء تواجدهما بمصر، كما لمسا مدى حبّ أهل مصرلآل بيت الرسول الكريم، والذى قيل: إنّه فاق حبّ أتباع المذهب الشيعى فى إيران لهم.

وفد يليق بمصر الأزهر

أمّا عن أعضاء الوفد المصرى فقد كان فى مقدّمتهم حسبما ذكره فضيلة

الشيخ محمود عاشور: فضيلة مفتى الديار المصرية الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل، وفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، وفضيلة الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر، وفضيلة وكيل الأزهر السابق ورئيس قطاع المعاهد الأزهرية، وفضيلة الأستاذ عمر البسطويسى مدير إدارة الإعلام والعلاقات العامة، وفضيلة الشيخ المشرف العام على مدينة البعوث الإسلامية. كما ضمّ الوفد الأستاذ الدكتور رأفت عثمان عميد كلّية الشريعة، والأستاذ الدكتور عبدالمعطى بيومى عميد كلّية أصول الدين، والأستاذ الدكتور عبدالله النجّار عن كلية الشريعة، والأستاذ الدكتور رجب البيومى عن كلّية اللغة العربية، والأستاذ الدكتور محمد الفيومى عضو مجمع البحوث الإسلامية، كذلك الدكتور محمد عمارة عضو مجمع البحوث الإسلامية.

لقد ضمّ الوفد عدداً من العلماء الأفاضل، وعلى مستوىً عال جداً يليق بمصر الأزهر، وكانوا خير معبّر عن السماحة الدينية ووسطية الإسلام.

نتائج إيجابية قريباً

وعن الآثار الإيجابية المستقبلية لهذه الخطوة أكّد فضيلة الشيخ عاشور: أنّنا طالما نتّفق فى الثوابت والأُصول، وأنّه لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، ونؤمن بالقرآن وبالسنّة، فنحن نتّفق فى الأصول، أمّا الفروع فيختلف فيها العلماء جميعاً، الأئمة الأربعة يختلفون فى الفروع، وطالما هناك قاعدة ننطلق منها فلابدّ من حدوث التقاء وتقارب بيننا. نحن نتّفق معهم فى خمسة وتسعين فى المائة من الفقه الإسلامى، الباقى وهو خمسة فى المائة من الممكن أن يكون هناك حوار حولها.

وعن استقبال الإخوة فى إيران للوفد المصرى من علماء الإسلام وهو يقوم بهذه الزيارة التاريخية الأولى لهذا البلد الشقيق منذ قيام ثورته عام ١٩٧٩م، يقول الشيخ عاشور: لقد ذهلنا منذ اللحظة الأُولى ـ بعد أن هبطت الطائرة ـ حيث وجدنا جميع رجالات الدين فى إيران من آيات الله فى استقبالنا، وحقيقة

لقد شعرت من هذه الحفاوة البالغة، وذلك الحبّ الجيّاش، بأنّ هؤلاء الناس يقدّرون مصر حقّ التقدير، وهذا ما عبّروا عنه بشتّى الطرق للوفد المصرى وأعضائه.

لقد حرصت جميع القيادات الدينية الكبيرة فى إيران على أن تعبّر عن سعادتها لوفد مصر من علماء الدين الأفاضل منذ اللحظة الأُولى لوصولنا، وأثناء تواجدنا بينهم، وإلى أن عدنا بسلامة الله إلى أرض الوطن، فضلا عن الحفاوة والترحاب اللذين وجدناهما من مسؤولى القيادة السياسية، وعلى رأسهم رئيس الجمهورية الإيرانية محمد خاتمى.

كذلک ما عبّر عنه الشارع الإيرانى ممثّلا فى قياداته الشعبية، من حبّ وترحاب بأعضاء الوفد.

الصراحة والصدق والحوار العقلانى

تمّت مناقشة كافة الأُمور بصراحة وصدق، وانتهينا إلى أنّنا أصبحنا نحن وهم أكثر حبّاً وتفهّماً لبعضنا بعضاً، ولقد حشّد المسؤولون فى إيران كافّة الأجهزة الإعلامية من صحافة وتليفزيون وإذاعة، وتمّ نشر وبثّ معظم جلسات ووقائع المؤتمر.

ولأنّ هناک بعضاً من رجال الدين الإيرانى فهموا خطأً أنّ أهل السنّة يكفّرون أصحاب مذهب الشيعة، فقد عملنا على إزالة هذا الفهم الخاطئ بالحوار العقلانى الهادئ، ونجحنا فى إقناعهم بالرؤية الصحيحة للسنّة لهم، الأمر الذى أثّر فيهم وجعلهم يودّعوننا فى نهاية اللقاء بالبكاء.

ولقد وجدنا أنّهم يدرّسون المذهب الحنفى فى الحوزات الدينية، كذلک هناک كلّية تسمّى كلّية المذاهب الاسلامية سوف تدرّس المذاهب الأربعة من العام القادم، وأنّ المتشدّدين أصحاب الرأى الجامد كانوا فى الماضى، ولم يعد لهم أثر يذكر الآن!

لقاء تاريخى ورؤية واحدة

لا شكّ أنّ هذا اللقاء التاريخى لعلماء الدين فى البلدين سوف يعمل مستقبلا على التقريب بين الدولتين بعد التقاء الأزهر والحوزات الدينية فى إيران، خاصةً وأنّهم يرون فى الأزهر الرائد فى الفكر الإسلامى والدين المعتدل.

كذلک لمسنا اتّفاق القيادتين: الدينية والسياسية فى الرؤية الواحدة نحو علاقات البلدين، وكيف أنّ مصر وإيران قوتان عظيمتان، ويملكان الإمكانات الكبيرة التى يجب أن تكون سنداً للأمة الإسلامية، فالعالم يتّجه إلى التكتّلات الكبرى، ولا قيمة تذكر للكيانات الفردية الصغيرة، وعلى الدولتين السعى للتكامل فيما بينهما على جميع الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية حتّى يعمّ الخير على شعبى البلدين، لأنّ إيران دولة ذات حضارة، ومصر دولة ذات حضارة، وإذا التقت الحضارتان فسوف تصنعان المعجزات.

وفى كلمته التى ألقاها نيابةً عن الإمام الأكبر شيخ الأزهر، قال فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر ورئيس الوفد: إذا كانت الدعوات تشرف بشرف أهدافها، وتسمو بسموّ غاياتها، فإنّ دعوة التقريب تأخذ أعلى مكانة فى تاريخ الإصلاح الإسلامى قديمه وحديثه، لأنّها دعوة إلهية; لأنّ الله عزّ وجلّ هو الذى وضع أساسها ورسم منهجها.. ورفع من شأن الداعين إليها، ووجّه الرجاء إلى اجتناء ثمرتها، كلّ ذلک فى آية واحدة من كتابه العزيز، إذ يقول سبحانه: (**إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتّقوا الله لعلّكم ترحمون**)[1].

فالجملة الأولى من الآية تقرّر حقيقةً من الحقائق الثابتة: (**إنّما المؤمنون إخوة**)أى: أنّ هذا شأنهم، وتلک حقيقة أمرهم، فليس للمسلمين بعد هذا أن يسيروا إلى هدف يخالف هذا الهدف، ولا أن يخرجوا عن مقتضيات هذه الأُخوة لأىّ سبب من الأسباب.

والجملة الثانية تأمر بإصلاح ذات البين، أى بأن يدرأ المسلمون عن أنفسهم

---

١ . الحجرات: ١٠.

كلّ ما يفسد علاقة الأُخوّة التى قرّرها الله بينهم، ومن أجل ذلک جاء تحذير رسول الله (صلى الله عليه وآله)إذ يقول: «إنّ فساد ذات البين هى الحالقة».

والجملة الثالثة من هذه الآية الجامعة تأمر بأن يكون الإصلاح بين المسلمين فى ظلٍّ من تقوى الله، فتحذر بذلک من اتّباع الهوى، والتواء القصد، وأن يزعم فريق منهم أنّه ما يريد إلاّ الإصلاح، بينما هو يريد التعقيد واللجاجة بالباطل، فإنّ الله عليم بذات الصدور، لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

والجملة الرابعة: هى جملة الختام، يوجّه الله فيها رجاءنا إلى ثمرة هذه الدعوة فيقول: (**لعلّكم ترحمون**) وما الرحمة فى هذا المقام إلاّ تيسير اليسرى لمن استقام على الطريقة المثلى...

تلک هى دعوة التقريب فى أساسها ومنهجها وثمرتها.

إنّ فكرة التقريب بين المذاهب الاسلامية لاتعنى توحيد المذاهب الإسلامية، ولا صرف أىّ مسلم عن مذهبه، ففكرة توحيد المذاهب أو إدماجها عمل ضدّ العقل، وضدّ طبيعة البشر، كما أنّ صرف المسلم عن مذهبه تحت شعار التقريب تضليل.

وفكرة التقريب كما شرحها روّادها، وكما يجب أن تكون، هى تذكير المسلمين بنقاط الوفاق بينهم، وهى كثيرة، كما أنّها فى أُصول الدين وثوابته.

أمّا نقاط الخلاف فهى فرعية، لاينبغى أن تسبب تباعداً أو شقاقاً، ولذلک فإنّ الاجتماع على فكرة التقريب يجب أن يكون أساسه البحث والإقناع والاقتناع، حتّى يمكن بسلاح العلم والحجّة محاربة الأفكار الخرافية الطفيلية التى لاتعيش إلاّ فى ظلّ الأسرار والأجواء المظلمة.

والتقريب ـ كما نفهمه ـ دعوة إلى التعرّف على وجوه الاتّفاق، والالتفاف حول مواضع الاتّحاد، والقربى، ومعالم الأُخوة التى تربط بين المسلمين، وأن يلتقى علماء المذاهب يتبادلون المعارف والدراسات ليعرف بعضهم بعضاً فى هدوء العالم المتثبّت المتبصّر، الذى لا همّ له إلاّ أن يرى ويعرف ويقول فينصف.

إنّ فكرة التقريب بين المذاهب فى ضوء الفكر المستنير المستقيم الراشد، والتى اجتمع شملكم عليها فكرة، حوارية علمية تعتمد الاجتهاد والحجّة، وتمقت التعصّب والتشرذم والانغلاق، وترحّب بالرأى ما دام يعتمد على المنطق والدليل، وهى فكرة تدعم الوحدة الإسلامية، وليس غريباً أن يكون عرض الخلافات المذهبية عاملا فى تدعيم وحدة المسلمين، لأنّ ذلك يتمشّى مع ما كان عليه أصحاب المذاهب المختلفة من التقدير المتبادل، وذمّ التعصّب للرأى، وأقوالهم فى ذلك معروفة.

وأحسب أنّ الأحاديث العظيمة التى وردت فى هذا الباب تدعو كلّ مجتهد لأن يبذل جهداً وهو مأجور عليه بإذن الله تعالى، فإنّ المجتهد إذا أصاب له أجران وإن أخطأ فله أجر. إنّ هذه القاعدة تدفع دفعاً إلى الحوار، ونبذ الفرقة، وتقبّل الآخر، وتغرى بالانتفاع والاجتهاد، وتدفع إليه دفعاً.

إنّ مبدأ الاجتهاد يعنى احتمال الخطأ، وما دام احتمال الخطأ وارداً فاحتمال صواب المخالف وارد أيضاً وبشكل متساو.

كلّ هذا كما تعلمون شرطه الاتّفاق على الثوابت التى لاتقبل الاجتهاد أو المخالفة، وهى الأُصول المعروفة لدى المسلمين جميعاً، وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك فعلاً ـ فلاينبغى أن تطغى العصبية المذهبية على المسلمين، بل الواجب أن يأخذوا بما أظهر البرهان صوابه، وأن تكون الرغبة الصادقة فى الوصول إلى الحقّ ملء جوانحهم.

وأرى أن تجرى دراسات مقارنة بين المذاهب المختلفة الأربعة السنّية والجعفرية والزيدية والظاهرية، بل وآراء بعض المجتهدين الذين لم يشتهر عنهم مذهب معيّن.

وفى ضوء ما سبق، وفى إطاره الواضح المستقيم، يصبح الخلاف الفقهى المذهبى وسيلةً من وسائل القوة العلمية والسماحة الفكرية، متمشّياً مع طبيعة الإسلام العالمى الدعوة التى تعمّ البشر جميعاً، ويتفرّغ المسلمون لما هو أولى بهم

من التعرّف على أسباب نصرة الدين وإصلاح حال المسلمين.

وإنّنى فى هذا اليوم أتذكّر علمين من أعلام التقريب، ملكا فكراً حراً وجرأةً فى الحقّ لاتبارى، أولهما: فضيلة الإمام الشيخ محمود شلتوت الذى ولد فى بلدة منية بنى منصور، مركز ايتاى البارود، محافظة البحيرة، جمهورية مصر العربية فى ١٨٩٣/٤/٢٢م، حفظ القرآن الكريم وعمره اثنا عشر عاماً، نشأ فى أُسرة دينية، فوالده تخرّج فى الأزهر وجدّه أيضاً ولايوجد منزل فى عائلته إلاّ وفيه عالم أو حافظ للقرآن الكريم.

تخرّج فى الأزهر سنة ١٩١٨م، وتنقّل فى التدريس إلى أن نُقل إلى القسم العالى بالقاهرة سنة ١٩٢٧م، وكان داعية إصلاح، نيّر الفكر، سعى إلى إصلاح الأزهر، وفُصل هو ومناصروه، فعمل بالمحاماة، وأُعيد إلى الأزهر وعيّن وكيلا لكلّية الشريعة، وكان عضواً فى هيئة كبار العلماء، وكان خطيباً موهوباً، له ستة وعشرون مؤلّفاً فى التفسير وشتّى فروع الثقافة الإسلامية، وله اجتهادات لم يسبق إليها، منها فتواه الشهيرة التى أصدرها فضيلته وهو شيخ الجامع الأزهر بجواز التعبّد على أىّ مذهب من المذاهب الإسلامية التى عُرفت أُصولها، ونقلت نقلا صحيحاً، فلقد كانت هذه الفتوى ثمرةً يانعةً من ثمار التقريب، صدرت من رجل عظيم ذى مركز خطير فى الاسلام، اعتنق الفكرة من أول يوم.

والثانى: هو السيد الحبر آقا حسين الطباطبائى البروجردى، ولد فى بروجردغربى إيران من أُسرة عُرفت بطول باعها وسعة معارفها فى الشريعة الاسلامية، ولا غرو أنّ الأُسرة الطباطبائية من صلب الإمام جعفر الصادق الرائد الأول للمذهب الجعفرى، الإمام السادس عند الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، وهم الأقرب فى مذهبهم إلى أهل السنّة، ويدرَّس مذهبهم ضمن المذاهب التى تدرَّس فى الأزهر الشريف.

بدأ دراساته فى مسقط رأسه، ثم انتقل إلى إصفهان وقم، ورحل إلى النجفالأشرف، وهناك استطاع أن يترقّى فى درجات العلم المطلوب والمرتبة

المعهودة لعلماء الشيعة، ممّن ينالون درجة الاجتهاد التى تؤهّل صاحبها لأن يكون مرجعاً للتقليد لأتباع المذهب، وبعدها عاد إلى مسقط رأسه بروجرد، وبقى هناک مشتغلا بالعلم والتدريس إلى أن هيّأت له الأقدار تولّى مرجعية التقليد فى إيران، ورحل إلى مدينة قم وتولّى بذلک زعامة المذهب الإمامى الاثنى عشرى.

وتذكر مجلّة رسالة الاسلام لسان جماعة التقريب: أنّ الجهود الكبيرة التى بذلها الإمام السيد حسين الطباطبائى البروجردى، والذى يعدّ من أكبر العاملين على جمع كلمة المسلمين، فهو لم يكن رجل طائفة فحسب، أو صاحب مذهب معيّن، أو القائد الروحى لشعب بذاته، وإنّما كان رجل الدنيا والدين للناس جميعاً والإسلام، توفّى فى ٣٠ مارس ١٩٦١م.

التوصيات

وفى ختام الملتقى انتهى المجتمعون إلى بيان عام حوى عدداً من التوصيات والنقاط، من بينها:

١ ـ التأكيد على ما أشار إليه الإمام على خامنئى من أن هدف تكريم العالمين الجليلين هو تقدير ما قدّماه من خدمة عظيمة للأمة الاسلامية التى هى اليوم فى حاجة أكثر من أىّ وقت مضى إلى الوحدة والتقريب، وأنه يجب بذل الجهود لدفع أمواج الفتن بالتمسّک بالقرآن الكريم وسنّة الرسول (صلى الله عليه وآله).

٢ ـ ضرورة إثراء الثقافة والفكر والفقه الإسلامى، وتعميق فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وتبادل الخبرات فى مختلف المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية بما يحقّق وحدة المسلمين.

٣ ـ أعرب المجتمعين عن تقديرهم لجهود العالمين الكبيرين: الإمام البروجرديوالامام شلتوت; لما بذلاه من جهود عظيمة لوحدة المسلمين، واعتبروها نموذجاً يحتذى به، وطالبوا بنشر أفكارهما ومؤلّفاتهما.

٤ ـ وجّه المجتمعون التحيّة للانتفاضة المباركة فى فلسطين، وطالبوا بدعمها، وأدانوا محاولات الانتقاص من حقوق الشعب الفلسطينى، وحقّه فى تحرير كامل ترابه، خاصّةً القدس الشريف.

٥ ـ أثنى المشاركون فى الملتقى على جهود المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامية، وباركوا إنشاء جامعة التقريب بين المذاهب الاسلامية فى طهران.

٦ ـ كما أثنى المشاركون على جهود مجمع البحوث الإسلامية فى مجالات التقريب ودعم الوحدة الاسلامية.

٧ ـ أوصى المشاركون بالمزيد من العمل المشترك لتأليف مشروعات علمية مقارنة تشمل حقول التفسير والفقه وغيرهما، وأكّدوا على ضرورة تبادل الأساتذة والطلاّب والكتب والمناهج بين الجامعات والمؤسسات.

٨ ـ دعا المشاركون لتكرار الملتقى فى الأزهر بالقاهرة عام ١٤٢٣هـ بمناسبة مرور أربعين عاماً على وفاة المرحوم الإمام محمود شلتوت.

٩ ـ قدّم المشاركون بالغ الشكر والتقدير للإمام الدكتور محمد سيد طنطاويشيخ الأزهر على اهتمامه البالغ بموضوع الوحدة والتقريب، ومتابعته مشكلات وقضايا المسلمين.

١٠ ـ قدّم وفد الأزهر الشكر والتقدير للإمام آية الله على خامنئى على رعايته المؤتمر، وكلمته فى الافتتاح.

خلاف السنّة والشيعة مجرّد خلاف فى الفرعيات[١]

أثناء زيارة وفد الأزهر إلى إيران صلّى الشيعة الظهر والعصر خلف إمامة الشيخ محمود عاشور، وفى صلاة المغرب تولّى الإمامة آية الله شيعى وصلّى خلفه الوفد المصرى رغم أنّ الشيعة يضعون حصاة طوب للسجود عليها، ويجمعون الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء، لكنّ الصلاة خلف الإمامة المتبادلة كانت بهدف التأكيد على إمكانية التقريب بين المذهبين كما يقول الشيخ محمود عاشور وكيل مشيخة الأزهر ورئيس الوفد المصرى، الذى أكّد أنّ نسبة الخلاف بين المذهبين لاتزيد عن ٥ فى المائة، وكلّها فى الفروع، وليس فى أُصول العقيدة، وحتّى الخلاف القائم بين المحافظين بقيادة خامنئى والمعتدلين بقيادة الرئيس خاتمى لايؤثّر على إمكانية التقريب، فجميع الإيرانيين ينتظرون التقريب بشغف.

وأضاف الشيخ عاشور: أنّ أُولى خطوات التقريب كانت زيارة الوفد المصرى، ثم حضور ٣٠ أُستاذاً من جامعة الإمام بايران لدراسة اللغة العربية بجامعة الأزهر.

أمّا نقاط الخلاف فسوف تجتمع هيئة علماء ومجامع البحوث لدراسة كيفية التقريب بشأنها، خاصةً وأنّ زيارة إيران وصل الاتّفاق فيها بين الوفدين إلى حدّ الوحدة، ولم نعد فى حاجة إلى عقد مؤتمرات مشتركة، خاصةً وأنّ الوفد المصرى اكتشف أنّ الاختلاف بين السنّة والشيعة لم يكن إلاّ مجرد خيال سيطر على الطرفين، فالمصحف واحد، والقرآن واحد، حتّى قرّاء إيران يقلّدون

---

١. حوار أجراه مع الشيخ محمود عاشور مندوب مجلّة التصوّف الإسلامى الشهرية، الصادرة فى القاهرة، العدد ٢٦٤ ذو الحجة عام ١٤٢١هـ. حاوره أحمد أيوب.

عبدالباسطومصطفى إسماعيل، ونساء مصر يرتدين الحجاب، ونساء إيران يرتدين الشادور.

■ لماذا سافرت إلى ايران على رأس وفد مصرى؟

● كانت دعوة من المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامية لحضور احتفال المجمع بذكرى الإمام البروجردى، وذكرى فضيلة الشيخ محمود شلتوت، باعتبارهما رائدين من رواد التقريب بين المذاهب الاسلامية.

كانت الدعوى للدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر ومعه اثنين، وعدّد ١٢ مفكّراً من مصر لكتابة أبحاث عن الشيخ محمود شلتوت. وعرضت الدعوى على مجمع البحوث الإسلامية، واختار شيخ الأزهر المفكّرين الاثنى عشر الذين كتبوا الأبحاث، ولأن بعض الظروف الخاصّة بالعمل منعت فضيلة الإمام من السفر، فقد طلب منّى الإنابة عنه فى رئاسة الوفد.

■ هل هذه أول سفرية من هذا النوع إلى إيران؟

● نعم.

■ خلال هذه الرحلة تمّت مناقشة فكرة التقريب بين المذهبين السنّى والشيعى، فكيف يتمّ التقريب من وجهة نظرك؟

● السنّة يقولون: لا إله إلاّ الله. محمد رسول الله، وهم يقولونها أيضاً، وبالتالى فالمسافة بين المذهبين قريبة وليست بعيدة، والنبى عليه الصلاة والسلام قال: «من قال: لا إله إلاّ الله دخل الجنّة» فيرد عليه أبو ذر بسؤال: وإن زنى يارسول الله؟ قال الرسول: «وإن زنى...» فالقضية قضية إيمان، وطالما لايوجد كفر فالتقريب جائز.

أضف إلى ذلک: إنّنا نتّفق مع الشيعة فى الثوابت والأُصول، فهم مثلنا يأخذون من القرآن والسنّة.

فى الفقه نتفق فى ٩٥٪ منه ونختلف فى ٥٪ ويمكن التقارب بينهما، فالإسلام أمرنا بالحوار مع من لايتّفق معنا فى العقيدة، فما بالنا بالمتّفقين معنا فى العقيدة!

■ ما هى أوجه الخلاف بين المذهبين؟

● نحن الآن نتحدّث فى أوجه الاتّفاق وليس الخلاف، لأنّ الخلاف فى الفرعيات، مثلما كان يختلف الائمة: أبو حنيفة وابن حنبل والشافعى، بل إنّ أبا حنيفة أنهى الخلاف قائلا: «رأيى صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب» فالخلاف موجود حتّى بين الائمة، لكنّه لم يصل إلى مرحلة أن يكفّر بعضهم بعضاً أو يجرمه.

وحين ذهبنا إلى إيران صلّينا معهم وصلّوا معنا، ولم نجد اختلافاً جوهرياً فى الصلاة.

■ كيف لايوجد خلاف ومعروف أنّ الشيعة لهم طقوس خاصّة فى الصلاة؟

● كل ما هنالک أنّهم يضعون «طربة» من جنس الأرض ـ تراب ـ ليسجدوا عليها.

■ من كان الإمام؟

● تبادلنا الإمامة فى الصلاة، ففى صلاة الظهر صلّى الشيعة وكان الإمام مصرياً، وفى صلاة المغرب صلّى بنا الشيعة، وقد يكون أحد سمات الصلاة هناک أنّهم يجمعون الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء، وهذا وارد وجائز شرعاً.

■ وهل لو تمّ التقريب بين المذهبين قد نصلّى فى مصر الظهر مع العصر؟

● هذا صعب; لأنّنا تعوّدنا على صلاة كلّ فرض بمفرده حسب ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن ليس هذا معناه أنّ الشيعة ليسوا مؤمنين، لأنّ الخلاف الأساسى ليس فى العقيدة، وبالتالى يمكن تداركه بسهولة.

■ طالما أنّک تتحدّث عن التقارب بين المذهبين، فلابدّ من وجود تقارب بين المجتمع المصرى ونظيره الإيرانى، هل لاحظت ما يشجّع على هذا التقارب بين المجتمعين خلال زيارتک؟

● لم أشعر بالغربة أبداً، فقد استقبلونا بحفاوة كبيرة، وكان ينتظرنا كلّ آيات الله فى المطار، حتّى أنّ آية الله تسخيرى كان مصاباً بالشلل ومع ذلک تحامل

على نفسه وحضر لاستقبالنا فى المطار.

كذلك الحوزات الدينية فى قم استقبلونا بحبّ شديد.

■ وماذا لاحظت على الشعب؟ وهل وجدت اختلافاً بين الشعب الإيرانى وحكومته حول ضرورة التقريب مع مصر؟

● الشعب الإيرانى يحبّ مصر، وهم والحكومة يتطلّعون بشغف إلى عودة العلاقات.

■ إذا كانت الملاحظة على نساء العالم هى السفور، فما رأى المرأة الإيرانية؟

● المرأة الإيرانية ملتزمة بارتداء «الشادور» وهو مثل الحجاب فى مصر.

■ هل يمكن أن نقول بأنّ الالتزام الدينى فى إيران أكثر من مصر؟

● لا أستطيع تأكيد هذا لمجرّد أُسبوع قضيته هناك، فلابدّ من النزول والتعامل مع كلّ الطوائف، إنّما الملاحظة الأساسية أنّ المساجد فى إيران تمتلئ وقت الصلاة، والجميع يراعون الله فى تصرّفاتهم.

■ طالبت خلال زيارتک بالعودة إلى دار التقريب بين المذهبين مرّةً أخرى، فماذا تفيد هذه الدار بعد ٣٥ سنة من إغلاقها؟

● دار التقريب مفيدة جداً، لإنّنا لسنا بعيدين عن الشيعة، فهم إخواننا فى الإسلام. دار التقريب كانت فاعلة، وكانت تصدر عنها مجلّة رسالة الإسلام وكانت موضوعاتها ثرية بأوجه التقريب.

■ أليس من الأفضل تنظيم مؤتمر يحضره جميع العلماء والأئمة من المذهبين للمناقشة والحوار؟

● تقابلنا وتناقشنا ووصلنا إلى تقارب شديد قد يرقى إلى مرتبة الوحدة، أمّا المؤتمرات فتنعقد وتنفضّ ولا شيء يحدث، فلقاء إيران أكثر فاعلية من المؤتمرات، وكان له مردود طيب.

■ ما هى الأُمور التى اتّفقتم عليها وتصل لمرحلة الوحدة؟

● اتّفقنا ألا نختلف فى أمر من الأمور، لأنّ فكرتنا عن الشيعة قبل ذلک كانت أنّهم يحملون مصاحف خاصة وطقوس خاصة، ولذلک حرصنا على أن

يحتفظ كلّ عضو فى الوفد المصرى بمصحف خاصٍّ به، لكنّنا فوجئنا بأنّ المصحف هو نفس المصحف، وكلّ المؤتمرات والندوات التى انعقدت خلال الزيارة تعبّداً بالقرآن، بل إنّ القرّاء الإيرانيين كانوا يحاولون تقليد مقرئ مصر، ففى الافتتاح كان القارئ يقلّد الشيخ عبدالباسط عبدالصمد، والثانى يقلّد الشيخ مصطفى إسماعيل. وخلال الزيارة تمّت إزالة اللبس الذى كان عالقاً فى أذهاننا.

■ ما جرى خلال الزيارة من حوارات امتدّت إلى موضوعات سياسية، جعل البعض يؤكّد أنّ هدف زيارة وفد الأزهر سياسى وليس دينياً!

● إطلاقاً... لم نذهب إلى إيران إلاّ للاحتفال بذكرى الإمام شلتوت وبروجردى، وكانت كلمتى الأُولى عن التقريب بين المذاهب وأساسه الإسلامى.

■ وما الذى حوّل الحديث إلى السياسة؟

● كان هذا فقط خلال لقائنا بالمرشد العام على خامنئى، ثم لقاء رئيس الجمهورية، لكنّ الحقيقة الأكيدة أنّهم ينظرون إلى الأزهر الشريف ليكون مرجعية دينية لهم.

■ وهل امتدّ الحديث فى السياسة إلى الحديث عن موقفهم من أمريكا أو إسرائيل، خاصةً وأنّهم تحدّثوا عن كامب ديفيد؟

● كانت كامب ديفيد هى الملاحظة الوحيدة للمرشد العام، وتمّ الردّ عليها، وكان ردّاً شخصياً، ولم أحصل على توجيهات بشأن أحد، بل حتّى بعد عودتنا لم يتّصل بى أحد، ولم يلمنى أو يشكرنى أحد، حتّى شيخ الأزهر عندما سألته عن توجيهاته قبل السفر قال لى... لا توجيهات.

■ بعد العودة من إيران، هل ترى أنّ التقريب بين المذهبين: السنّى والشيعى سوف يفيد سياسياً فى العلاقة بين مصر وايران؟

● سوف يفيد على الأقلّ وحدة إيران مع مصر، فالبلدان قوّة هائلة، وحينما تلتقى القوّتان سوف تحدث معجزات، ثم لماذا لايكون هذا التقريب خطوة إلى الأمام.

العلاقات بين مصر وايران[١]

عاد فضيلة الدكتور نصر فريد واصل مفتى الجمهورية، من زيارة مهمّة واستثنائية لإيران، بكثير من الأخبار السارّة، فهناك حرص على تجاوز المشاكل التى عاقت عودة العلاقات السياسية بين البلدين. ورصد المفتى من خلال لقاءاته مع كبار المسؤولين ـ سواء آية الله على خامنئى المرشد العام للثورة الإيرانية والرئيس محمد خاتمى ـ حرصهم جميعاً على عودة العلاقات مع مصر إلى طبيعتها، بالإضافة إلى اتّفاق بين الطرفين على بعث الجهود مرةً أخرى للتقريب بين المذاهب، خاصة السنّة والشيعة. «آخر ساعة» التقت مع فضيلة المفتى، وحاورته حول نتائج وأسباب زيارته لإيران.

■ ما الهدف من زيارتكم إلى إيران؟ وما الذى تمّ فى هذه الزيارة؟ وهل تحقّق هذا الهدف؟

● كانت زيارة إيران زيارة ناجحة ومهمة وضرورية لإذابة بعض الجليد الذى ما زال باقياً على السطح بين البلدين الشقيقين: مصر وإيران، لأنّ المسلم فى كلّ مكان بالعالم هو أخ المسلم وشقيقه، فالعقيدة الواحدة التى تجمعه مع شقيقه هى الإسلام، وهى العقيدة التى جاءت للناس جميعاً فى كلّ زمان ومكان مع اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم.

وقد كان الهدف من الزيارة الاشتراک فى احتفالية تقام لأول مرّة لعالمين جليلين كريمين، هما فضيلة الإمام الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، وأول من أنشأ مدرسة التقريب بين المذاهب الفقهية الاسلامية على مستوى العالم

---

١. حوار أجراه مع الدكتور الشيخ نصر فريد واصل مفتى الجمهورية مندوب مجلّة آخر ساعة الأسبوعية التى تصدر فى القاهرة، العدد (٣٤٥٧) بتاريخ ٢٤ يناير/كانون الثانى لسنة ٢٠٠١م، حاوره أُلفت الخشّاب.

العربى والاسلامى فى عصرنا الحديث: سماحة الشيخ آية الله البروجردى، أهم من تعاونوا وأسسوا هذه المدرسة فى إيران بعد الشيخ القمى الذى كان متواجداً فى مصر فى ذاك الوقت مع الشيخ شلتوت. وكان الهدف من المؤتمر التقريب بين المذاهب، وشهد المؤتمر الدينى مشاركة واسعة من جميع العلماء والمتخصّصين فى إيران وفى العالم الإسلامى.

■ هل كان هذا المؤتمر أول لقاء رسمى وعلى هذا المستوى يتعرّض لقضية التقريب بين المذاهب؟

● هذا صحيح، فهو الأول الذى يعقد لهذا الغرض، فبعد إنشاء مدرسة التقريب بين المذاهب فى مصر أُنشئ فى إيران المجلس العالمى للتقريب بين المذاهب، وأخذ يمارس دوره وانشطته من خلال لقاءات تتمّ على مستوى العالم الإسلامى بين العلماء، فى زيارات متبادلة لم تأخذ شكل المؤتمر الرسمى إلاّ فى المؤتمر الأخير.

والحقيقة أنّ هذا المؤتمر أخذ الشكل العالمى لأنّه ضمّ كلّ الشخصيات الاسلامية الهامة المتخصّصة فى مصر وإيران خاصة بعد مشاركة علماء مجمع البحوث الإسلامية، وهى أكبر هيئة علمية بناءً على اختيار فضيلة شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى، وهى كما نعرف تضمّ كبار العلماء، وتجمع جميع التخصّصات العلمية الدينية والعملية.

■ ما المقصود بالتقارب بين المذاهب؟ وكيف يتحقّق؟

● هو محاولة القضاء على وهم زرعه الاستعمار بين المسلمين، بعد أن أشاع بوسائل مختلفة أنّ هناک فروقاً بين الشيعة وأهل السنّة بهدف الفتنة بينهم، ولعب دوراً رئيسياً عندما احتلّ البلاد الإسلامية، وأراد من خلال الغزو الفكرى والثقافى أن يوحى إلى كلّ فريق من فرق المسلمين ـ وبخاصة الشيعة وأهل السنّة ـ أنّ هناک تباعداً كبيراً بينهما لتحريف الكلم بينهم حتّى أصبح الشيعى والسنّى يتصوّران أنّهما أعداء، وكأنّهما ليسا على دين واحد، وأدخل فى روع الجميع أنّ

الشيعة انحرفت عن الاسلام! ممّا جعل الشيعة فى نظر المسلمين من أهل السنّة خارجين عن الاسلام، وهو أمر ليس حقيقياً.

■ هل هو أمر غير حقيقى بالنسبة لكلّ فرق الشيعة؟

● لا، إنّه ليس حقيقياً لأغلب الفرق، بالطبع هناك فرق منحرفة، ولكن هذه الفرق تنكرها شيعة إيران ولاتعترف بها، ولا وجود لهم فى إيران، لكن الشيعة الموجودة فى إيران هى الشيعة الإمامية المعترف بها، التى تدرَّس فى جامعة الأزهر ونستعين بها فى كلّ بحوثنا. كما أكّد فضيلة الإمام الشيخ شلتوت على أنّها من المذاهب التى نتعبّد بها، ونحن هنا ـ فى دار الإفتاء ـ عندما نفتى نلجأ إلى كلّ المذاهب بما فيها المذهب الشيعى الإمامى والزيدى، ومذاهب الصحابة والتابعين جميعاً، وكلّهم على درجة سواء فى مجال الدليل الذى نرجّحه للحكم والإفتاء. وهناك كثير من التشريعات فى الأحوال الشخصية نستعين فيها بالمذاهب الشيعية، مثل الإمامية والزيدية السند القوى.

■ ما هو انطباعكم بعد هذه الزيارة؟

● لقد وجدنا فى هذه الزيارة أنّ الفقه الإسلامى والمذاهب الإسلامية تدرَّس لديهم على مستوىً عال وراق، فهم يدرسون هناك المذهب الشافعى والحنفى كمدارس متخصّصة، بل ويهتمون بالدراسات المقارنة، وقد تأكّد لنا أنّ كلّ ما كنّا نتصوّره ولانصل إلى حقيقته ما هو إلاّ وهم، وأنّ الحقيقة أنّ الشعب الإيرانى يحبّ المصريّين ومصر، ويعتبرونها السند القوى لهم، ونحن أيضاً نعتبرهم كذلك، لأنّ قوة المسلم مع أخيه المسلم هامة، وقوة إيران لايستهان بها، فهى دولة ذات حضارة قوية جداً من الناحية الإسلامية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

كما تأكّد لهم أنّنا هنا فى مصر نتشيّع لأهل البيت أكثر منهم، فنحن نضع فى قلوبنا أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله): الحسين (رضى الله عنه)، والسيدة زينب، والسيدة نفيسة، والإمام على زين العابدين. كما تأكّد لنا أنّهم يتشيّعون للإسلام عقيدةً وشريعة، والخلاف بيننا وبينهم إنّما فى بعض الفروع

الفقهية، وهو أمر لايؤثّر بأىّ حال من الأحوال على العلاقات، فهناک خلافات فى فروع فقهية بين المذهب الشافعى والمذهب الحنفى والمالكى والظاهرى، بل إنّ هناک خلافات فى فروع داخل المذهب الواحد، وهذا يعتبر مصدر ثراء للفقه الإسلامى، فهذه الخلافات ما هى إلاّ ميزة تؤدّى إلى ثراء الفقه الاسلامى لأنّنا عندما نريد أن نأخذ من الفقه الإسلامى فى أىّ قضية من القضايا التشريعية، سنجد الحلول موجودة فى كلّ هذه المذاهب وميسّرة، بدلا من أن نأخذ عن الغرب.

■ ما هو حجم الاختلاف بين المذهب الشيعى والسنّى؟

● ثبت لنا من تراثنا الإسلامى فى مجال الشريعة الاسلامية والفقه الاسلامى أنّنا نتّفق فى ٩٥٪ وأنّ الخلاف بيننا لايتعدّى ٥٪ وهو يدور حول مسائل فرعية، وليست أساسية. والحقيقة أنّه أصبح من الضرورى التواصل والتواؤم بين أبناء الأمة الإسلامية الآن، خاصةً فى ظلّ التحدّى والتكتّل العالمى ضد المسلمين، وفى ظلّ العنصرية الصهيونية العالمية التى تسعى للسيطرة على مقدّراتنا ومقدّساتنا فى فلسطين.

■ هل جاء التقارب الدينى بين مصر وإيران انعكاساً للمواقف السياسية المتقاربة وصورها بين الدولتين هذه الأيام؟

● اعتقد أنّ التقارب السياسى قائم وموجود، وما لمسناه من القيادات السياسية هو الرغبة الشديدة فى هذا التقارب، لكن كما نعلم أنّ التقارب الأصلى هو تقارب الشعوب الذى يقوم على التقارب الدينى والعقائدى، وهو الذى يسهّل الأمر للحكّام والقيادات السياسية من أجل التقارب فى شتّى المجالات الأخرى، لأنّه إذا لم يكن هناک ترابط بين الشعوب ينبع من العقائد والثقافة والتراث الاجتماعى، يكون من الصعوبة بمكان وجود اتّفاق سياسى، وأكبر دليل على ذلک حالة اسرائيل، لنا علاقات سياسية ودبلوماسية مع إسرائيل ولكنّها مجمّدة، ولا قيمة لها أمام الشعوب بسبب وجود عوائق كثيرة جداً بين الشعبين، فليست

العبرة بالتقارب أو اللقاء السياسى وإنّما بالعلاقات الشعبية والثقافية والدينية المتينة والأصيلة التى تذيب الفوارق بين الشعوب.

■ ما هى التوصيات التى خرج بها مؤتمر التقريب بين المذاهب؟

● كلّها تتعلّق بالهدف من المؤتمر، ونسعى لزيادة هذا التقارب لتحقيق الهدف المنشود لنا جميعاً فى استمرار التواصل بين الشعوب الإسلامية فى المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية الذى به تتحقّق وحدة الأمة الاسلامية، وتنشأ السوق الاسلامية المشتركة.

■ من الملاحظ أنّ هذه هى المرّة الأولى التى يذهب فيها إلى إيران وفد كبير من الأزهر ومجمع البحوث الاسلامية، فما تفسيركم لذلك؟

● إنّ الأرضية هناک أصبحت ممهَّدة لذلک، وفى نفس الوقت استدعت الظروف التى تمرّ بها الأمة الاسلامية أن يكون الوفد من مصر على هذا المستوى العلمى الكبير، وقد حقّق ذلک الهدف منه، وأنهى كثيراً من الأوهام التى كانت... بما قدّمه من الأبحاث والحوارات واللقاءات والمناقشات والمؤتمرات التى دارت فى مستويات مختلفة، حتّى ظهر للجميع حقيقة أنّ الدور المريب الذى قام به المستعمرون الذين أدخلوا فى عقله الخلاف والفرقة، ونستطيع أن نقول: إنّ هذه الصورة اتّضحت وتغيّرت ١٨٠ درجة عند الشعب الإيرانى بكلّ مستوياته الشعبية والسياسية، وعند علماء الدين، والعلماء هناک لديهم الثقل والقيادة للشعب، وتأكّد للجميع أنّ مصر ـ ولله الحمد ـ معها كلّ الخير، وأنّه ليس هناک تأثير عليها اطلاقاً من أىّ جهة أجنبية، وأنّ كلمتها فى يدها ومع قيادتها السياسية والدينية، وأنّه لا سلطان لأحد عليها سوى الله سبحانه وتعالى. والحقيقة أنّ هذا اللقاء حقّق ما لم تستطع أن تحقّقه عشرات السنين الماضية.

■ هل أُثير فى المؤتمر قضية توحيد أوائل الشهور العربية فى العالم الإسلامى؟

● نعم أُثيرت هذه القضية على هامش المؤتمر، وقد وجدنا أنّ كلّ شىء

يؤدّى إلى التقريب هم يتّفقون معنا عليه تماماً، وقد طلبوا بيانات أكثر وتقارير أكثر فيما يتعلّق بهذه القضية. ما أودّ التأكيد عليه... أنّه يجب أن تتّجه كلّ القوى المادية والمعنوية للعمل على تحقيق هذا الهدف، وإذابة أىّ أسباب تعوق هذا التقارب، والعمل بشتّى الطرق على إنجاز التقارب السياسى لإعادة العلاقات الكاملة بأسرع ما يمكن. وهذه وصية عامة لكلّ مسلم، سواء كان هنا أو هناك أو فى أىّ مكان فى العالم، لأنّ هذا التقارب هو الذى سيقضى على أىّ خلافات فرعية، ويجعلها تذوب.

آيات الله وشيوخ الأزهر ...[١]

لا يبالغ الإيرانيون كثيراً عندما يرون فى اللقاء الذى ضمّ علماء الأزهر الشريف وآيات الله الكبرى والعظمى من علماء الحوزة الدينية الشيعية ومراجعها العليا أهمّ حدث فى تاريخ الإسلام، منذ الفتنة الكبرى التى مزّقت العالم الاسلامى شيعاً ومذاهب قبل أربعة عشر قرناً، وباعدت بين السنّة والشيعة، وخلقت فجوةً كبيرةً فى علاقات المسلمين استثمرها أعداء الإسلام لتمزيق وحدة العالم الإسلامى.

وبقدر الترحيب الضخم الذى لقيه علماء الأزهر على امتداد ستة أيام جرت فيها اجتماعات الجانبين فى مدينتى طهران وقم، تكبر آمال الحوزة الدينية من أئمة الشيعة فى أن يكون هذا اللقاء بداية انحسار خلافات طويلة مزّقت العالم الإسلامى، لأنّ لقاء الأزهر بمكانته الضخمة فى العالم الإسلامى، ومرجعيته الأساسية على امتداد ألف عام، باعتباره حصن السنّة وحافظها، مع علماء إيران الذين يمثّلون المرجعية الدينية الأساسية لما يزيد على مليون شيعى فى إيران وافغانستان والصين وبعض دول الخليج، يغلق أبواب التفرّق المذهبى الذى عصف بالأُخوّة الإسلامية، وأعطى الفرصة لاتّجاهات خبيثة سعت إلى زيادة الفرقة بين السنّة والشيعة، رغم أنّ الخلاف بين الجانبين لم يكن يتعلّق بأُصول الدين.. ، ولكنّه التعصّب الذى حال دون أن يكون هذا الخلاف مصدر ثراء وغنىً لعقائد الإسلام، يعزّز سماحة الفكر وحرية الاجتهاد، ويعلّى مكانة العقل فى الفكر الإسلامى، بدلا من أن يكون أداة هدم لوحدة العالم الإسلامى.

---

١ . مقال للأستاذ مكرم محمد أحمد، رئيس تحرير مجلّة المصوّر الأسبوعية القاهرية، نشرته المجلة فى العدد (٣٩٨٠) شوال ١٤٢١هـ .

كان اللقاء موضع حفاوة إيران كلّها، ابتداءً من جماعة المحافظين الذين وجدوا فى اللقاء سنداً قوياً لكسر عزلة الشيعة فى العالم الإسلامى، ومدخلا مهمّاً لتوثيق العلاقات الثقافية بين القاهرة وطهران، إلى الإصلاحيين الذين رأوا فى هذا اللقاء دعماً لتيار الاعتدال الذى ينبذ التشدّد، ويدعو إلى حوار الحضارات والأديان، ويسعى إلى تصحيح علاقات إيران بالعالم الخارجى، إلى الشارع الإيرانى بمشاعره الجيّاشة تجاه مصر، الذى يرى فى لقاء طهران والقاهرة على أىٍّ من المستويات دلالةً على الاستقرار والاعتدال وحسن التوجّه، ويرفض كلّ المبرّرات التى تعوق تقدّم العلاقات بين مركزين مهمّين من مراكز الثقافة الإسلامية، يمكن لتعاونهما المشترك أن يسهم فى تصحيح صورة الإسلام.

ولم يكن مصادفةً أن يحرص آية الله على خامنئى مرشد الثورة على افتتاح المؤتمر بخطاب يؤكّد فيه على الدور المهمّ الذى يمكن أن تلعبه الحوزة الدينية فى طهران مع الأزهر الشريف فى توثيق روابط العالم الإسلامى، ودرء الأخطار التى تهدّد المسلمين، ودعم وحدة العالم الإسلامى التى كان يمكن ـ لو تحققت من قبل ـ أن تحول دون وقوع كارثة فلسطين، وأن يشهد أعمال المؤتمر عدد من آيات الله الكبرى والعظمى الذين يشكّلون المراجع العليا للتيار المحافظ، ابتداءً من آية الله العظمى مكارم شيرازى أكثر علماء التيار المحافظ تشدّداً إلى آية الله مهدوى رئيس رجال الدين المجاهدين «روحانيان مبارز» عصب الجناح المحافظ، إلى آية الله جنّتى أمين عام مجلس صيانة الدستور، إلى آية الله مشكينى رئيس مجلس الخبراء الذى يعيّن مرشد الثورة، إلى آية الله محمد واعظ زادة الخراسانى أمين عام المجلس العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامية.

وكما حرص التيار المحافظ على تبنّى هذا اللقاء ودعمه، حرص الرئيس خاتمى زعيم تيار الإصلاحيين على لقاء قطبى الوفد الأزهرى: **الشيخ محمود عبدالغنى عاشور** وكيل الأزهر والدكتور نصر فريد واصل مفتى الديار

المصرية، ليؤكّد لهما أنّ اللقاء من وجهة نظره يعزّز سماحة الإسلام واعتداله، ويعطى مصداقيةً كبيرةً لحوار الحضارات والأديان، لأنّه ينطلق من وفاق السنّة والشيعة، كما حرص هاشمى رفسنجانى رئيس الجمهورية الأسبق على المشاركة فى أعمال المؤتمر بخطاب مهمّ، ركّز فيه على دور الأزهر الشريف الذى بدأ قبل ٦٠ عاماً جهداً مخلصاً للتقريب بين المذاهب الاسلامية، رعاه عدد من شيوخ الأزهر الكبار، ابتداءً من **الشيخ عبدالمجيد سليم**، إلى **الشيخ المراغى**، إلى **الشيخ محمود شلتوت** الذى تواصلت علاقاته وحواراته مع آية الله **العظمى الإمام البروجردى** أكبر المراجع الشيعية فى عصره، حتّى أثمرت هذه الفتوى التاريخية التى أصدرها الشيخ شلتوت عام ٦١، لتؤكّد للمرة الأُولى جواز أن يتعبّد المسلم على مذهب الشيعة الإمامية، هذه الفتوى الشجاعة التى كسرت حاجز العزلة حول الشيعة، وكانت فاتحة عهد جديد بين السنّة والشيعة، وجعلت من الأزهر منارةً لسماحة الفكر فى عيون أئمة الشيعة.

باختصار تسابقت كلّ التيارات فى إيران إلى الترحيب بدور متجدّد للأزهر، يواصل فيه ما انقطع، ويتبنّى مرةً أخرى جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية، اتّصالا مع جهوده التاريخية التى بدأها قبل ٦٠ عاماً، لأنّ المسلمين ـ كما يقول آية الله خامنئى ـ أحوج ما يكونون الآن إلى توحيد جهودهم فى عصر يقوم على التكتّلات الدولية الكبرى تصون مصالحها، على حين تتبدّد مصالح المسلمين تحت وطأة خلافاتهم المذهبية والسياسية، وانقسامهم إلى شيع متفرّقة يحارب بعضها بعضاً.

وإذا كان المؤتمر قد أخذ فى جانب منه صورة الاحتفال بذكرى هذين العالمين الجليلين: الإمام البروجردى أكبر مراجع الشيعة فى عصره، والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر وقتها، الذى آمن بفكرة التقريب بين المذاهب بعد أن رأى أنّ الخلاف بين الشيعة والسنّة قد أصبح مدخلا لخصام المسلمين وتشتّتهم رغم أنّه خلاف فى الفروع لا فى الاصول، إلاّ أنّ المؤتمر قد

أضاء الدور الباهر والعظيم الذى لعبه الأزهر للوصول إلى هذا الهدف، فى وقت وصل فيه الخصام بين الشيعة والسنّة إلى ذروته، إلى حدٍّ أنّ كلاًّ منهما كان يعتزل الآخر، ويروّج لكتب مشحونة بالطعن والسخرية والتجريح على آراء الآخر، دسّها فرقاء كثيرون حريصون على تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، وأثمرت فهماً مغلوطاً لدى الجانبين زاد من صعوبة التقريب بينهما، لأنّ كلاًّ منهما كان يتصوّر أنّ التقريب سوف يكون على حساب عقائده.

ولا أظنّ أنّه كان فى وسع عالم آخر غير الشيخ شلتوت أن يصدر هذه الفتوى الشجاعة التى اعتبرت الجعفرية مذهب الإمامة الاثنى عشرية مذهباً شرعياً كسائر المذاهب الإسلامية التى يجوز التعبّد بها، تلك الفتوى التى فتحت الطريق واسعاً إلى المصالحة بين السنّة والشيعة.

صحيح أنّ الشيخين الجليلين **عبدالمجيد سليم ومصطفى المراغى** كانا قد مهّدا الطريق إلى هذه الفتوى بحماسهما لجهود التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة، وصحيح أيضاً أنّ عالماً إيرانياً فاضلا هو الشيخ محمد تقى الدين القمى كان قد نزل من طهران إلى مصر عام ١٩٣٧، وأقام فى القاهرة بعد أن نذر نفسه لمهمة التقريب بين الشيعة والسنّة، وسعى إلى الأزهر الشريف يحاول إقناع شيوخه بأهمية التقريب، إلاّ أنّ الشيخ شلتوت وحده هو الذى ملك شجاعة إصدار هذه الفتوى التاريخية ١٩٦١.. ، ربّما لأنّه تربّى على فكر الإمام المستنير محمد عبده، وكان واحداً من الشيوخ المجتهدين الذين يعلون قيمة العقل، ويملكون ثقةً فى أنفسهم وعلمهم تحرّرهم من أن يكونوا مجرّد أسرى لآراء السابقين، ويحسنون اختيار الرأى الصحيح الذى يوائم العصر والمجتمع، ويؤمنون بأنّ الخلاف فى الفروع لاينبغى أن يكون أداة فرقة وشتات ما دام الجميع يؤمنون بإله واحد وكتاب واحد، ويولّون وجوههم شطر قبلة واحدة، ويؤدّون الأركان الأساسية فى الإسلام.

كان الشيخ شلتوت شجاعاً فى رأيه عندما أعلن هذه الفتوى التاريخية، كما

كان شجاعاً فى رأيه عندما أعلن للمرّة الأولى، ووسط غبار المناقشات المحتدمة حول قضية الربا فى الإسلام، أنّ أرباح صناديق التوفير ليست حراماً، لأنّها ليست فائدة لدين حتى تكون ربا، كما أنّها ليست منفعة جاءت من قرض حتّى تكون حراماً، ولم يكن أحد قبل الشيخ شلتوت يملك شجاعة إصدار هذه الفتوى فى مواجهة تيار قوى من الفقهاء المحافظين الذين كانوا يدعون إلى تحريم صناديق التوفير.

وبفضل شجاعة الشيخ شلتوت أصبح الأزهر رمزاً لاكتمال العلم، ورمزاً للسماحة، ورمزاً للتقريب بين المذاهب.. ، وعرف الفقه الشيعى طريقه إلى الأزهر، وأصبح واحداً من المذاهب المعترف بها التى يتمّ تدريسها فى مجال الفقه المقارن، ولم يعد ممكناً لأىّ طالب علم أو بحث أن يكمل بحثه أو دراسته دون الرجوع إلى مذهب الشيعة حتى تكتمل للمقارنة أركانها الصحيحة، ويصبح قادراً على ترجيح رأى دون آخر.

ولست أعرف الأسباب التى دعت طهران إلى تجهيل دور الإمام القمى فى التقريب بين السنّة والشيعة، وإبراز دور الإمام البروجردى وهو دور على أهمّيته يقلّ كثيراً عن دور القمى الذى لعب الدور الأكبر فى إقناع شيوخ الأزهر، وكان له فضل إنشاء دار التقريب بين المذاهب فى القاهرة مع عدد من شيوخ الأزهر، وإصدار مجلّة شهرية كان يحرّرها عدد من علماء الشيعة والسنّة، واستمرّ فى مسعاه... وهو المسعى الذى أتى ثماره فى فتوى الشيخ شلتوت التاريخية عام ١٩٦١ بعد نهاية حكم فاروق بتسع سنوات.

وأيّاً كانت الأسباب والظروف، فالواضح أنّ جهود التقريب لم يكن ممكناً أن تكلّل بالنجاح لولا اتّفاق علماء الشيعة والسنّة يومها على أنّ التقريب بين المذهبين لايعنى اندماجهما، أو تذويب مذهب فى مذهب، ولكنّه يعنى توسيع مساحة الاتّفاق بين الشيعة والسنّة والتى تصل إلى ٩٥٪ من جملة قضايا الإسلام الأساسية والفرعية، وقبول مساحة الخلاف الباقية باعتبارها اجتهاداً لأئمة لكلّ

مذهب، يوائم الظروف المجتمعية لكلّ مذهب، ويحفظ له تميّزه، ومع ذلک فلقد فتحت فتوى الشيخ شلتوت الطريق لأيّ مسلم كى يتعبّد على أىّ مذهب صحيح فى أُصوله، الأمر الذى يعنى جواز الانتقال من مذهب إلى مذهب.

وفى مدينة «قم» المقدّسة، حيث يعيش المراجع العليا للشيعة فى حوزاتهم ومدارسهم العلمية المنتشرة حول مرقد فاطمة بنت الإمام جعفر الصادق[١] التى يقدّس الشيعة روحها، يقلّدهم عدد ضخم من التلاميذ يصل إلى حدود ۴۰ ألف مجتهد، يدرسون فى هذه المدينة الجميلة التى تشتهر بمكتباتها القديمة التى تحوى عدداً ضخماً من المخطوطات الإسلامية النادرة، وأسواقها المزدحمة بطلاّب الحوزة العلمية، كما تشتهر بمراقد وأضرحة عدد ضخم من آيات الله العظمى، الذين أنفقوا أعمارهم فى هذه المدينة، يرعون حوزاتهم العلمية ومكتباتهم العامة، يتبعهم آلاف المجتهدين فى إطار مؤسّسى يجعل من كلّ مرجعية عليا مؤسّسة بذاتها، تتلقّى ضرائب العشور من العامة، وتنفق منها على أوجه نشاطها الخيرى والعلمى.

... فى قم انعقدت الجلسة الختامية لهذا المؤتمر التاريخى الذى جمع للمرّة الأُولى بين علماء الأزهر وعلماء الحوزة الدينية الشيعية، حيث ساد الاجتماع روح من الوفاق والفهم المشترک ضيّقت دائرة الخلاف إلى حدوده الدنيا، خصوصاً أنّ الخلاف الأساسى بين الشيعة والسنّة حول قضية الإمامة قد أصبح خلافاً تاريخياً لا علاقة له بمجريات الحياة الراهنة، ولم يعد هناک ما يستوجب تجديده، فالإمام المنتظر لايزال غائباً، والولاية تكون لنائبه «الفقيه» الذى يتمّ اختياره من الحوزة الدينية وفق ضوابط وشروط تضمن أن يكون الأفضل والأكثر علماً وورعاً، على حين تأخذ السنّة فى رؤيتها لنظام الحكم بالبيعة التى تمثّل نوعاً من الانتخاب.

---

١. والسيدة فاطمة المعصومة، سمِّيت بذلک لشدة تقواها وورعها، هى بنت موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق (عليهم السلام).

انتهى لقاء «قم» إلى اتّفاق على ضرورة إحياء جهود التقريب بين المذاهب، والعمل على لمّ شمل الأمة الاسلامية، وتواصل اللقاءات بين الأزهر والحوزة الدينية الشيعية فى إطار جهد علمى خالص، يقوم عليه الشيعة والسنّة، يستهدف التقريب بين المذاهب المختلفة، بعيداً عن ضغوط السياسة ومنافعها الآنية، بحيث يكون الهدف السياسى الوحيد لهذه اللقاءات لمّ شمل الأُمة الإسلامية، وإزالة أسباب الخلافات بين المذاهب; تعزيزاً لوحدة العالم الإسلامى.

والحقّ أنّ وفد الأزهر إلى هذا المؤتمر كان على مستوى مهمّته الكبيرة، فطنة ولباقة وعلماً وحسن تصرّف، وفى لقاء الوفد بمرشد الثورة آية الله **على خامنئى**، تحدّث خامنئى عن اتّفاقية «**كامب دافيد**» باعتبارها عثرة أمام عودة العلاقات على مستوى السفراء، وكان ردّ رئيس الوفد **الشيخ محمود عاشور** حازماً ودقيقاً عندما قال لخامنئى: «لقد كانت كامب دافيد من عمل الرئيس أنور السادات وقد غاب عن عالمنا»، أو ماتت ـ الاتفاقية ـ كما قاله المفتى **الدكتور فريد نصر واصل**. وعندما طلب خامنئى أن تكون المبادرة من مصر ردّد الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الحديث الشريف: «لايحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فيعرض هذا ويعرض ذاک، وخيرهما من يبدأ بالسلام» وهزّ المرشد رأسه موافقاً وهو يتمتم: إن شاء الله.

والحقّ أيضاً أنّ هذا التقرير قد لايكتمل على وجه صحيح دون الإشادة بدور السفير المصرى النابه **محمد رفاعة الطهطاوى**، حفيد رفاعة الطهطاوى الذى يحوز احترام كلّ الاتّجاهات السياسية فى طهران على اختلافها، والذى فتح السفارة المصرية للإيرانيين، وجعلها مكان لقاء وتعارف، ولم يفارق وفد الأزهر الشريف لحظة واحدة، وكان خير عون لمهمته الكبيرة فى إيران.

البيان الختامى للمؤتمر التكريمى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

بدعوة كريمة من المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية زار طهرانوفد رفيع المستوى من الأزهر الشريف بجمهورية مصر العربية الشقيقة ممثّلا لمجمع البحوث الإسلامية. حيث أوفده الإمام الشيخ سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف. وقد ضمّ الوفد الكريم وكيل شيخ الجامع الأزهر الشريف ومفتى الديار المصرية، وعدداً من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية، وذلك بمناسبة انعقاد الملتقى التكريمى للعالمين الكبيرين، آية الله العظمى الإمام البروجردى والعلاّمة الإمام الشيخ محمود شلتوت رضوان الله عليهما، وقد استمرّ الملتقى ثلاثة أيام ابتداءً من تاريخ ١٣ شوال المكرم ولغاية ١٥ شوال المكرم عام ١٤٢١ فى طهران وقم.

وقد افتتح برسالة هامة من قائد الثورة الاسلامية الايرانية آية الله الخامنئى حفظه الله حيث أكّد فيها على: أنّ الهدف من هذا التكريم هو ما قدّمه الإمامان: البروجردى وشلتوت من خدمة عظيمة للأُمة الإسلامية التى هى اليوم بحاجة أكثر من أىّ وقت مضى للوحدة والتقريب. وأنّ رجال العلم والسياسة لو كانوا قد واصلوا تلك المساعى بجدٍّ لما شاهدنا الخلافات المؤلمة بين المسلمين، ولما حلّت مأساة فلسطين بهذا الشكل المرعب. ودعا سماحته إلى بذل الجهود أمام أمواج الفتن بالتمسّك بالقرآن الكريم وسنّة الرسول (صلى الله عليه وآله) القطعية. وقد اعتبر المؤتمرون هذه الكلمة وثيقة من وثائق المؤتمر.

هذا وقد ضمّ اللقاء إضافة إلى ممثّل السيد رئيس الجمهورية، جمعاً من كبار العلماء والشخصيات الثقافية وأساتذة الجامعات الإيرانية، كما أُلقيت مجموعة من الكلمات، وخلاصة للدراسات والأبحاث، وتخلّلتها ندوتان: الأول حول التقريب والوحدة، والثانية حول الانتفاضة المباركة فى فلسطين. وقد جرت مداولات فى جوٍّ من الموضوعية العلمية والأُخوّة الإسلامية كانت نتيجتها ما يمكن إجماله بما يلى:

بارک المجتمعون اللقاء الهام والتاريخى بين الأزهر الشريف والعلماء فى حوزة قم المشرّفة وطهران، ورأوا فيه ضرورة ملحّة لإثراء الثقافة والفكر والفقه الإسلامى، وتعميق فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وتبادل الخبرات فى مختلف المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية بما يحقّق وحدة المسلمين وعزّتهم وكرامتهم، وتبوّأ المقام الحضارى المطلوب.

كما أعربوا عن تقديرهم لجهود العالمين المرجعين الكبيرين: الإمام البروجردى والإمام شلتوت; لما بذلاه من جهود عظيمة لوحدة المسلمين، واعتبروهما نموذجاً ورمزاً يقتدى بهما، وطالبوا بنشر أفكارهما ومؤلّفاتهما بالإضافة الى الرعيل المتقدّم فى مجالات الفكر التقريبى من علماء المسلمين ومفكّريهم.

كما أنّهم وجّهوا التحيّة للانتفاضة المباركة فى فلسطين، وطالبوا بدعمها وتأييدها بكلّ وسائل الدعم، كما أدانوا محاولات انتقاص حقوق الشعب الفلسطينى فى تحرير كامل ترابه، وخاصّةً القدس الشريف، وطالبوا بمقاطعة منتجات الداعمين الرئيسيين للكيان الصهيونى الغاصب، وتثقيف الأُمة على روح المقاومة والإرادة القوية لمواجهة الاحتلال والانتهاک للمقدّسات الإسلامية فى فلسطين.

وقد أثنوا على جهود المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامية فى إيران ونشاطاته المختلفة فى المجالات العلمية والثقافية لتوطيد أواصر الأُخوة

بين المسلمين، وباركوا له إنشاء جامعة التقريب بين المذاهب الإسلامية فى طهران، وتمنّوا توسيعها، وكذلک إنشاء مثيلات لها فى المراكز العلمية الأُخرى ليتعرّف المسلمون على تراثهم العلمى المشترک. كما أثنوا على تجاوب مجمع البحوث الإسلامية لجهوده فى مجالات التقريب، ودعم الوحدة الإسلامية. كما رحّبوا بجهود المراجع الدينيين والعلماء الروّاد والمعاصرين فى مجال الوحدة الإسلامية. ودعوا إلى نشر أفكارهم، وإشاعة ثقافة التقريب وروح الأُخوّة والتفاهم بين المسلمين.

وفى المجال العلمى دعوا إلى المزيد من العمل المشترک لتأليف موسوعات علمية مقارنة، تشمل حقول التفسير والفقه وغيرها.

وتمنّوا على الأزهر الشريف أن يتكرّر هذا الملتقى فى القاهرة عام ١٤٢٣هـ بمرور أربعين عاماً على وفاة المرحوم الإمام شلتوت بمشاركة المجمع العالمى للتقريب والأزهر الشريف، لتكريمه مع الرعيل الأول لهذه الحركة التقريبية، أمثال الأئمة: عبدالمجيد سليم، وعبدالعزيز عيسى، ومحمد المدنى، والشيخ كاشف الغطاء، والسيد شرف الدين... وغيرهم. وأكّدوا على ضرورة تبادل الأساتذة والطلاّب، والكتب والمناهج، بين الجامعات والمؤسسات.

وأخيراً قدّموا بالغ الشكر والتقدير للإمام الشيخ سيد طنطاوى على اهتمامه البالغ بموضوع الوحدة والتقريب، ومتابعاته لمشاكل ومسائل المسلمين. وقد قدّم وفد الأزهر الشريف الشكر والتقدير للإمام آية الله السيد على الخامئنى على رعايته للمؤتمر، وكلمته العظيمة فى افتتاح الملتقى، كما قدّموا شكرهم للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب وأمنيه العام آية الله الشيخ محمد واعظ زادة الخراسانى، والمجلس الأعلى للمجمع، والمسؤولين فى الجمهورية الإسلامية الإيرانية على حسن الوفادة والاستقبال الأخوى، سائلين الله تعالى أن يمنّ على المسلمين بالعزّة والكرامة، واتّباع كتابه وسنّة نبيّه، والرحمة والرضوان لكلّ العلماء الماضين، سيّما الإمام الخمينى الذى كان الرائد العظيم للوحدة الإسلامية

من هذا العصر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لقاء مفتى الجمهورية د. نصر فريد واصل والشيخ محمد على عاشور مع آية الله السيد على الخامنئى فى طهران

السيد محمد الخاتمى مستقبلا مفتى الديار المصرية فى طهران

الملتقى الدولى لتكريم آية الله البروجردى والشيخ محمود شلتوت فى طهران للتقارب بين السنّة والشيعة

آيات الله وشيوخ الأزهر... لقاء تاريخى فى مدينة «قم»

جانب آخر من ملتقى التكريم لآية الله البروجردى والشيخ محمود شلتوت فى طهران

جانب من استقبال الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية الدكتور نصر فريد واصل أثناء زيارته لطهران

جانب آخر من استقبال مفتى الديار والوفد المرافق له فى طهران

جانب من زيارة وفد الأزهر الشريف برئاسة مفتى الديار د. نصر فريد واصل للمعالم الثقافية فى طهران

حفل فى بيت سفير مصر فى ايران

من اليمين الشهيد آية الله سيد محمّدباقر الحكيم، محمد رفاعة، الشيخ محمود عاشور، الدكتور فريد نصر واصل، الشيخ محمد سعيد النعمانى

الدكتور محمد سيد طنطاوى

المؤلّف فى سطور

من مواليد إيران بمدينة تبريز ـ اذربايجان ـ عام ١٩٣٨م، درس هناك وتتلمذ على يد والده وهو من العلماء الكبار آنذاک، ثم التحق بالحوزة العلمية فى مدينة قم، وتخرّج فى العلوم الإسلامية هناک على يد العلماء والأساتذة الكبار، منهم: الإمام روح الله الخمينى، العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائى... وغيرهم، ثم حضر فى دروس بعض المراجع الدينية فى النجف الأشرف لمدة شهور... وبعده قام بالتدريس فى الحوزة العلمية لسنوات عدة.

ثم أسّس «مركز البحوث الإسلامية» فى الحوزة العلمية ـ قم، وهو لايزال رئيساً لهذه المؤسسة الإسلامية العلمية، وللمركز إصدارات كثير متنوّعة بلغات مختلفة، منها: العربية، الانجليزية، الألمانية، الفارسية، وغيرها...

ويعتبر الأستاذ من العلماء البارزين المعروفين فى إيران، وله مؤلّفات عدّة فى شتّى المجالات العلمية الإسلامية، طُبع أكثر من ٥٠ مجلّداً منها فى إيران وبعض البلاد العربية... ومرّات عدة، ويتقن عدّد لغات: التركية، الفارسية، العربية، الانجليزية والايطالية. وله دور خاص فى مجال التقريب ونشر فكرته فى أوساط الحوزة العلمية منذ نصف قرن... وله دور خاص فى مجال التقريب، ونشر فكرته فى أوساط الحوزة العلمية منذ نصف قرن... (كما جاء فى القسم الأول من هذا الكتاب).

كما أنّه كان للأستاذ دور خاص فى الكفاح ضدّ النظام الحاكم، واعتقل وسُجن، ونُفى عدّة مرات... ولكنّه استمرّ فى كفاحه ونضاله ضدّ الاستبداد والاستعمار رغم كلّ الضغوط ...

وبعد انتصار الثورة الاسلامية انتخب ممثّلاً للإمام الخمينى فى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامى فى طهران، وعمل فيها لمدّة سنتين.

ثم انتخب سفيراً لإيران فى الفاتيكان، وعمل هناك خمس سنوات، وأسّس فى روما «مركز الثقافة الإسلامية فى أروبا» حيث صدر من المركز أكثر من ١٦٠ كتاباً بلغات مختلفة فى تبيين العقيدة الإسلامية والمسائل السياسية... تمّ توزيعها فى البلاد الأوربية...

وبعد العودة إلى طهران، انتخب مستشاراً للوزير الدكتور ولايتى، ثم مستشاراً للوزير الدكتور كمال خرازى، وأستاذاً فى كلّية وزارة الخارجية: كلّية العلاقات الدولية، وكلّية الحقوق جامعة طهران.

وهو كذلك عضو فى مركز الدراسات السياسية والعالمية التابع لوزارة شؤون الخارجية ومجمع التقريب العالمى بين المذاهب الإسلامية.

وقد اشترك فى كثير من المؤتمرات العالمية الإسلامية قبل الثورة وبعدها: فى السعودية، ومصر، ولبنان، وقطر، والجزائر، وسوريا، وباكستان، وتركيا، والمانيا، وانكلترا وإيطاليا... منها مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية فى القاهرة، نيابةً عن الوزير، ومؤتمرات إسلامية كثيرة.

وقد أسّس الأستاذ منذ سنوات جمعية الصداقة المصرية ـ الإيرانية بطهران، بالتعاون مع ٤٠ من كبار المفكّرين الإسلاميين والعلماء والكتّاب الإيرانيّين، وكان الأستاذ رئيساً لهذه الجمعية قبل سفره إلى مصر.

عمل فى القاهرة، بصفته رئيساً لبعثة الجمهورية الإسلامية الإيرانية فى جمهورية مصر العربية لمدة ثلاث سنوات، وبعد العودة، لايزال يشتغل فى المجال العلمى والثقافى، فى طهران وقم... ضمن النشاط السياسى...

الفهارس

١ ـ فهرس الأعلام
٢ ـ فهرس الأماكن
٣ ـ فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام

آغا خان ٣١٣، ٣١٤
ابن تيمية ٢١٣
ابن داود الحلّى ٢٥٤، ٢٥٦
ابن سينا ٢٢٤، ٢٢٥
ابن فهد الحلّى، جمال الدين أحمد ٢٥٥، ٢٥٧
ابن القيّم ٢١٣
أبو جعفر المنصور ١٤٠، ٣٢٧
أبو حنيفة ١٣٥، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣
أبو الصلاح ٢٥٧
أبو على الفارسى ٢٤٣
أبو على الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى ٣٤٦
أبو الفتوح الرازى ٢٤٧
أبو يوسف ٢٧٢
أبى بكر ٢٨
أحمد أمين ٣٠٢
أحمد بن حنبل ١٣٦، ٢٧٢
أحمد الطيب ٤٠٩
أحمد عمر هاشم ٤٠٥
إسحاق بن راهويه ٢٦٨، ٢٧٣
الأسدآبادى، جمال الدين الحسينى ٢١
إسماعيل، مصطفى ٤٤٩، ٤٥٢
إقبال، محمد ٢٠٣
الالحلّى، رضى الدين على بن يوسف ٢٥٦
الخمينى، سيد أحمد ٥٣
الإمام أحمد (رضى الله عنه) ؤ أحمد بن حنبل
الأمين العاملى، محسن ٣٤٩
الأوزاعى ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٣
أهل البيت (عليهم السلام) ٢٠، ٣٩
الباقورى، أحمد حسن ٢٦
باكون، فرانسيس ٢٢٣
بحر العلوم ٢٥٧
البروجردى، حسين (آية الله) ٢٥، ٢٨، ٣٧، ٢٩٢، ٣٠٨، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٥٠، ٤٢٢، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣٣، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٢، ٤٥٤، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٦
البرى، عبدالمنعم ٤٠٩
البسطويسى، عمر ٤٤٠
البنّا، حسن ٢٦، ٣٠٢
بيرو الجرّاح ٢٢٣
البيضاوى ٢٤٧
البيومى، رجب ٤٤٠
بيومى، عبدالمعطى ٤٣٦، ٤٤٠

تبرائیان ۴۲۵
التسخیری، محمد علی ۴۲، ۴۰۴، ۴۳۵
الثوری، سفیان ۲۶۸، ۲۷۳
الجرجانی ۲۴۳
جعفر الصادق (الإمام) ۲۴۹، ۲۶۹، ۲۸۱، ۴۴۵
جمعة، علی ۴۰۹
جنّتی ۴۶۰
چرندابی، محمد علی ۳۹۷
حافظ ابراهیم ۲۰۳
الحافظ الشیرازی ۲۰۳
الحجازی، محمد باقر ۳۷۵
الحسن (علیه السلام) ۲۶۸
الحسین (علیه السلام) ۲۶۸، ۴۰۹، ۴۵۶
الحصری، خلیل ۳۸۵
الحصری، محمود ۳۹۰
الحکیم، محسن ۳۵۰، ۳۵۱، ۳۵۲
الحکیم، محمد باقر ۴۳۵
الحلّی، جعفر بن الحسن بن یحیی بن سعید ۲۵۳، ۲۵۴
الحلّی، جمال الدین (علاّمة) ۲۵۶ ـ ۲۵۹
خاتمی، محمد ۴۴۱
الخامنئی، سید علی (آیت الله) ۴۰، ۴۲، ۴۳، ۴۲۲، ۴۳۱، ۴۴۷، ۴۴۸، ۴۵۲، ۴۵۳، ۴۶۰، ۴۶۱، ۴۶۵، ۴۶۶، ۴۶۸
خرازی، کمال ۴۸۲
الخسروشاهی، سید هادی ۹، ۵۳، ۶۰، ۳۲۱، ۳۹۷، ۴۰۵، ۴۰۹، ۴۲۴، ۴۳۴، ۴۳۹
الخمینی، سید روح الله (الإمام) ۳۹، ۴۲، ۴۳، ۵۳، ۴۸۱، ۴۸۲
الخیام النیسابوری، عمر ۲۲۳
داکن، توما ۲۲۳
الدوانی ۵۰
دیکارت ۲۲۳
الرازی، محمد بن زکریا ۲۲۳
الرسول (صلی الله علیه وآله) ← رسول الله (صلی الله علیه وآله)
الرسول الأعظم (صلی الله علیه وآله) ← رسول الله (صلی الله علیه وآله)
رسول الله (صلی الله علیه وآله) ۷، ۱۷، ۱۹، ۲۰، ۲۳، ۲۸، ۳۳، ۱۰۸، ۱۲۵، ۱۳۸، ۱۴۰، ۱۸۰، ۱۹۵، ۲۱۲، ۲۳۴، ۲۴۲، ۲۴۵، ۲۴۶، ۲۵۱ ـ ۲۵۳، ۲۶۰، ۳۰۱، ۳۰۲، ۳۰۷، ۳۱۰، ۳۱۱، ۳۱۴، ۳۲۵، ۳۲۷، ۳۳۵، ۳۳۶، ۳۹۰، ۴۴۶، ۴۴۹، ۴۵۰، ۴۵۶، ۴۶۷
الرفاعی، طالب ۳۵۴
زقزوق، محمد حمدی ۴۰۴، ۴۰۹
الزمخشری ۲۴۳، ۲۴۷
الزهری ۲۷۳
زینب ۴۵۶
زین العابدین علی بن الحسین ← علی بن الحسین (علیه السلام)

السادات، أنور ۴۶۵
السبيتی، عبدالله ۲۷۶
سرّاج الطوسی، أبو نصر ۲۲۳
سعید بن جبیر ۲۶۸
سعید بن المسیب ۲۷۳
سعید، حسن ۳۵۴
السعیدی، غلام رضا ۳۷۵
سفیان بن عیینة ۲۶۸
سلّار الدیلمی ۲۵۵
سلام، صائب ۲۸۳
سلیمان بن یسار ۲۷۲
سلیم، عبد المجید ۲۶، ۲۷، ۲۸، ۱۵۷، ۱۶۵ ـ ۱۶۸، ۲۷۹، ۲۹۶، ۳۰۲، ۳۱۳، ۳۴۳ ـ ۳۴۷، ۳۴۹، ۴۳۳، ۴۳۹، ۴۶۱، ۴۶۲، ۴۶۸
السیابی، أحمد بن مسعود ۴۰۵
سیبویه ۲۴۳
سید طنطاوی، محمد ۴۰۴، ۴۰۹، ۴۱۰، ۴۲۴، ۴۲۷، ۴۲۹، ۴۳۴، ۴۳۸، ۴۴۷، ۴۴۹، ۴۶۶، ۴۶۸
الشافعی ۱۳۶، ۲۶۱، ۲۶۹، ۲۷۲، ۲۷۳
الشرباصی، أحمد ۳۸۳، ۳۸۵، ۳۸۹، ۳۹۰
شرف الدین أبو القاسم ۲۵۶
شرف الدین، سید عبدالحسین ۲۶، ۳۵۸، ۳۶۵، ۳۶۰، ۳۶۳، ۳۶۶، ۳۶۸، ۴۶۸
الشریف، یوسف ۲۹۹
شلتوت، محمود ۲۶، ۲۷، ۲۹، ۳۰، ۳۴، ۳۵، ۳۷، ۶۷، ۶۸، ۱۲۱، ۱۵۹، ۱۶۵، ۱۶۸، ۲۷۹، ۲۹۷، ۳۰۲، ۳۱۳، ۳۱۷، ۳۳۵، ۳۳۷، ۳۵۰، ۳۵۱، ۳۵۴، ۴۲۲، ۴۲۷، ۴۲۹، ۴۳۱، ۴۳۳، ۴۳۷ ـ ۴۳۹، ۴۴۷، ۴۴۹، ۴۵۲، ۴۵۴، ۴۵۵، ۴۶۱، ۴۶۳، ۴۶۴، ۴۶۶ ۴۶۸
شمس الدین محفظ بن وشاح ۲۵۶
الشهشهانی، محمد بن عبد الصمد ۲۵۸
شیخ الطوسی ۲۸، ۲۴۷
صفائی القزوینی ۳۷۵
صقر، عطیة ۳۹۰
الطالقانی، محمود ۳۷۵
الطباطبائی البروجردی، حسین ← البروجردی، حسین
الطباطبائی، محمد حسین ۴۸۱
الطبرسی ۲۴۷، ۳۰۴
الطحاوی المدنی، ابراهیم ۱۶۲
الطوسی، أبو جعفر محمد بن الحسن ۲۵۷
الطوسی، أبو جعفر محمد بن علی ۲۵۷
الطوسی، خواجه نصیر الدین ۲۵۵
الطهطاوی، محمد رفاعة ۴۶۵
الظاهری، داود ۲۶۸، ۲۷۳
عاشور، محمود عبدالغنی ۴۱۰، ۴۲۳، ۴۲۴، ۴۲۷، ۴۳۴، ۴۳۵، ۴۳۷، ۴۳۸، ۴۴۰ ـ ۴۴۲، ۴۴۸، ۴۶۱، ۴۶۵

العاملی، نور الدین ۲۵۸
عبدالباسط ۴۴۹
عبدالباسط عبدالصمد ۴۵۲
عبد الرازق، مصطفی ۲۶، ۱۵۷، ۱۵۸، ۱۶۵ ـ ۱۶۷، ۲۹۶، ۳۱۳، ۳۱۴
عبد الرزاق ۳۰۲
عبد العزیز عیسی ۲۶، ۱۵۹، ۱۶۲، ۳۹۷، ۴۳۳، ۴۶۸
عبد الکریم بن أحمد بن طاوس ۲۵۶
عبد الکریم الشیرازی ۴۳۵
عبده، محمد ۴۶۲
عثمان، محمد رأفت ۴۳۵، ۴۴۰
عضد الدولة الدیلمی ۲۲۳
علبوه باشا، محمد علی ۲۶، ۴۳۹
علی أمیر المؤمنین (علیه السلام) ؤ علی بن أبی طالب (علیه السلام)
علی بن أبی طالب (علیه السلام) ۱۹، ۲۴۲، ۲۴۹، ۲۶۸، ۳۰۷، ۳۱۰، ۳۵۴
علی بن الحسین (علیه السلام) ۲۶۸، ۲۶۹، ۴۵۶
علی بن الطبری ۲۲۳
علی بن عباس الأهوازی ۲۲۳
علی بن موسی الرضا (علیه السلام) ۷۳
علی زین العابدین (علیه السلام) ؤ علی بن الحسین (علیه السلام)
عمارة، محمد ۴۳۶، ۴۴۰
عمر ۲۸
الغزالی، محمد ۲۶، ۲۲۳
الفارابی ۲۲۳
فاروق ۳۱۳، ۴۶۳
فاطمة بنت الإمام جعفر الصادق (علیه السلام) ۴۶۴
فاطمة الزهراء (علیها السلام) ۳۱۴
فتح الله، علی ۴۳۶
الفحّام، محمد محمد ۳۰، ۲۹۶، ۳۷۹، ۳۸۳، ۳۸۶، ۳۸۹، ۳۹۴، ۳۹۷
الفخر الرازی ۲۴۷
فرحات، محمود ۴۰۵
فهد بن عبد العزیز ۲۸۳
الفیروزآبادی ۲۴۳
الفیومی، محمد إبراهیم ۴۳۶، ۴۴۰
القمی، أحمد ۲۲
القمی، تقی الدین ؤ القمی، محمد تقی
القمی، عبدالله ؤ القمی، محمد تقی
القمی، عبدالله محمد تقی ؤ القمی، محمد تقی
القمی، محمد تقی ۷، ۸، ۲۱ ـ ۲۳، ۲۶، ۲۷، ۲۹، ۳۰، ۳۲، ۳۵ ـ ۳۷، ۴۰ ـ ۴۲، ۴۴، ۴۵، ۴۷، ۵۰، ۵۲، ۵۳، ۵۵، ۵۷، ۵۹، ۶۸، ۷۳، ۲۸۲، ۲۸۳، ۲۸۹، ۲۹۱، ۲۹۶، ۲۹۷، ۳۰۰، ۳۱۰، ۳۱۱، ۳۱۶ ـ ۳۱۸، ۳۳۵، ۳۳۷، ۳۴۱، ۳۴۷، ۳۵۸، ۳۶۰، ۳۶۳، ۳۶۷، ۴۰۶، ۴۳۳، ۴۵۴، ۴۶۲
کاشف الغطاء ۴۶۸

كمال أبو المجد ۴۳۹
الكمره اى، خليل ۳۷۵
اللبّان ۲۹۶
الليث بن سعد ۲۶۸، ۲۷۳
ماسينيون، لويس ۳۱۴
مالک ۱۳۴، ۱۳۵، ۲۶۹، ۲۷۰، ۲۷۲، ۳۲۷
متولّى الشعراوى، محمد ۳۲، ۲۷۹، ۳۱۶
محمد (صلى الله عليه وآله) ؤ رسول الله (صلى الله عليه وآله)
محمد حسين آل كاشف الغطاء ۲۶
محمد رضا شاه ۲۹، ۳۵۰
المدنى، محمد ۲۷۹، ۳۰۲، ۴۶۸
المدنى، محمد محمد ۳۰، ۱۵۹
مراد، محمود ۴۰۳
المراغى، محمد مصطفى ۲۵، ۲۶، ۳۱، ۱۵۷، ۱۶۵، ۱۹۹، ۲۷۹، ۲۹۶، ۳۱۲، ۴۶۱، ۴۶۲
مريم ۳۳، ۳۱۴
مشكينى، على (آيت الله) ۴۶۰
مصدّق، محمّد ۳۵۰
مكارم شيرازى ۴۶۰
المنصور ۱۳۴، ۲۷۰
الموسوى الجبعى، محمد بن على بن الحسين ۲۵۸
مهدوى كنى ۴۶۰
مير آقائى ۴۲۵
المير سيّد على بن السيد محمد على بن السيد أبى المعالى الطباطبائى ۲۵۸
الميلانى، محمد هادى ۲۹، ۳۹۳
النبى الأكرم ؤ رسول الله (صلى الله عليه وآله)
النجّار، عبدالله ۴۴۰
نجم الدين أبو القاسم ۲۵۴
النخعى ۲۷۲
النعمانى ۴۳۹
نفيسة ۴۵۶
النيسابورى ۲۴۷
واصل، فريد نصر ۳۵۶، ۴۰۵، ۴۰۹، ۴۲۳، ۴۲۷، ۴۳۵، ۴۴۰، ۴۵۳، ۴۶۱
واعظ زادة الخراسانى، محمد ۴۰۵، ۴۲۲، ۴۲۵، ۴۲۷، ۴۲۹، ۴۳۵، ۴۳۹، ۴۶۰، ۴۶۸
وجدى، محمد فريد ۳۰۲
ولايتى، على اكبر ۴۸۲
هاشمى رفسنجانى ۴۳۵، ۴۶۱
الهذلى الحلّى، يحيى بن سعيد ۲۵۶
هويدى، فهمى ۴۳۶
هيكل، حسنين ۳۳، ۳۱۴
اليوسفى الآبى، حسن بن أبى طالب ۲۵۶، ۲۵۷

فهرس الأماكن

الأزهر ٢٥، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٧، ٤٣، ٦٧، ٦٨، ١٢٠، ١٢٨، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٧ ـ ١٥٩، ١٦٥ ـ ١٦٨، ١٩٩، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٩، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٤١، ٣٤٣ ـ ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٩ ـ ٣٥١، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٧، ٤٠٤ ـ ٤٠٦، ٤٠٩، ٤١٠، ٤٢١، ٤٢٣ ـ ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٧ ـ ٤٤٩، ٤٥٤، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٣ ـ ٤٦٦، ٤٦٨

اذربايجان ٤٨١

أرض الجزيرة ٢٤٣

الأزهر الشريف ﺆ الأزهر

إسرائيل ٤٥٢، ٤٥٧

إصفهان ٤٤٦

أفريقيا ٣٨٨

الأفغان ٣٨٨

المانيا ٤٨٢

أمريكا ٤٥٢

الأندلس ٢٠٥

انكلترا ٤٨٢

أوربا ٢٢٣

الأهرام ٤٠٣

إيران ٢٥، ٢٩، ٣٩ ـ ٤٣، ٤٥، ٦٠، ٧٣، ١٧٦، ٢٢٣، ٢٨٢، ٢٩١، ٣٠٣، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢١، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٦٨، ٣٨٨، ٣٩٤، ٣٩٧، ٤٠٥، ٤٢١ ـ ٤٢٤، ٤٣٣ ـ ٤٣٥، ٤٣٧ ـ ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٨ ـ ٤٥٤، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٥، ٤٨١

إيطاليا ٤٣، ٥٣، ٤٨٢

باريس ٤١، ٤٢، ٥٣، ٥٥، ٥٧

الباكستان ١٦١، ٣٨٨، ٤٨٢

بخارى ٢٠٥، ٢٤٣

بروجرد ٤٤٥

بلجيكا ٨٨

بلخ ٢٠٥

البيت العتيق ١٠٨

تبريز ٤٨١

تركيا ٤٨٢

الجامع الأزهر ٣٩١، ٤٢٧، ٤٦١

الجزائر ٣٣، ٣١٥، ٤٨٢

الحجاز ٢٠٥، ٣٨٨

خراسان ٢٢٣، ٣٩٣، ٣٩٧

روما ٤١

الرى ٢٠٥
الرياض ٤٢٤
السعودية ٤٢٤، ٤٨٢
سمرقند ٢٠٥، ٢٤٣
سوريا ١٧٦، ٣٨٨، ٤٨٢
الشام ٢٠٥
شميران ٣٧٥
صور ٣٦٣
طبرستان ٢٠٥، ٢٢٣
طوس ٢٠٥
طهران ٢٢، ٤٠، ٤٢، ٤٤، ٥٠، ٥٢، ٢٢٣، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٣، ٣١٤، ٣٥١، ٣٥٤، ٣٧٥، ٣٩٣، ٣٩٧، ٤٢٣، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤٧، ٤٦٠، ٤٦٥ ـ ٤٦٧، ٤٨٢
العراق ١٧٦، ٢٠٥، ٢٥٥، ٣٠٣، ٣٥٢، ٣٨٨، ٣٩٧
غرناطة ٢٤٣
فرنسا ٣٣
فلسطين ٩١، ٤٤٧، ٤٦٧
القاهرة ٢٥، ٢٦، ٣٣، ٣٥، ٣٨، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٥٩، ٧٣، ١٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٠٠ ـ ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٧٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤٠٩، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٨، ٤٨٢
قرطبة ٢٤٣
قطر ٤٨٢
قم ٢٢، ٦٠، ٣٢١، ٣٤١، ٣٤٥، ٣٥٠، ٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٩٣، ٣٩٧، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٣٥، ٤٤٦، ٤٥١، ٤٦٤ ـ ٤٦٧، ٤٨١، ٤٨٢
الكعبة ٢٣
الكويت ٣٠
لاهاى ١٤٢، ٣٢٩
لبنان ٢٤، ٢٨٣ ـ ٢٨٥، ٣٦٣، ٣٨٨، ٤٠٥، ٤٨٢
مازندران ٢٢٣
ماوراء النهر ٢٢٣
المدينة ٢٦٩
مشهد المقدسة ٢٩، ٧٣
مصر ٢٤، ٣١، ٤٣، ٥٥، ٥٧، ١٦٧، ٢٠٥، ٢٧٩، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٧، ٣١٨، ٣٣٧، ٣٩٠، ٣٩٤، ٤٠٥، ٤٠٩، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٩، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٦، ٤٦٢، ٤٦٦، ٤٨٢
مكة ١٠٤
النجف الأشرف ٣٥٢، ٤٤٦، ٤٨١
واتيكان ٥٣
الهند ١٧٦، ٣٨٨
اليابان ٣٨٨
اليمن ١٧٦، ٣٠٣

فهرس الموضوعات

مقدّمة المركز ...٥

المقدّمة: حول التقريب و : المؤسّس

المقدّمة ...١٣

معنى التقريب ...١٥

آلية التقريب ...١٦

أهمّية التقريب ...١٨

تاريخ التقريب ...١٩

حياة الشيخ القمى وسيرته الذاتية ...٢٢

ولادته ونشأته ...٢٢

تتلمذه وتحصيله العلمى ...٢٢

نشاطه التقريبى ...٢٣

الشيخ القمى وتأسيس دار التقريب ...٢٦

حركة التقريب والفتوى التاريخية ...٢٧

شاه ايران والفتوى التاريخية ...٢٩

مشايخ الأزهر والنهضة التقريبية ...٢٩

من سجايا الشيخ القمى وأخلاقه ...٣١

١ ـ الانفتاح وسعة الأُفق ...٣١

٢ ـ الصلابة والحزم فى المواقف ...٣٢

٣ ـ بساطة العيش ...٣٤

٤ ـ التعفّف ...٣٥

٥ ـ الاتّزان الفكرى ...٣٦

٦ ـ الاستقلالية فى العمل ...٣٧

علاقتى بالعلامة القمى ...٤٠

هذا الكتاب ...٥٩

صور تاريخية ناطقة ...٥٩

قصّة التقريب أمة واحدة، ثقافة واحدة

القسم الأوّل: مقالاته الهادفة ...٨٣

الباب الأوّل: الدين والدنيا علاقة العلم بالإيمان ...٨٥

الفصل الأوّل: الدين فى معترك الحياة ...٨٧

الفصل الثانى: الدين فى معترك الفضاء ...٩٣

الحقيقة الثابتة ...٩٣

الذرّة والكون ...٩٤

النظام الأتمّ ...٩٦

رسالة السماء ...٩٧

الفصل الثالث: ليكن شعارنا المدرسة بجانب المسجد ...١٠٠

الفصل الرابع: حياة كلّها هجرة ...١٠٤

الباب الثانى: قصة التقريب، الولادة والنشأة ...١٠٩

الفصل الأوّل: قصّة التقريب ...١١١

الفصل الثانى: نقط على الحروف أو مزيد من الإيضاح (١) القسم الأوّل ...١٢٣

الفصل الثالث: نقط على الحروف أو مزيد من الإيضاح (٢) القسم الثانى ...١٣٠

الفصل الرابع: صوت التقريب ...١٣٨

الفصل الخامس: الزمن فى جانبنا ...١٤٩

الفصل السادس: دور الأزهر الشريف فى التقريب ...١٥٥

الفصل السابع: رجال صدقوا ...١٦٣

الباب الثالث: ثقافة التقريب آراء وتجارب ...١٧١

الفصل الأوّل: القافلة تسير ...١٧٣

الفصل الثانى: جولة بين الآراء ...١٧٨

الفصل الثالث: خلاف نرضَاهُ، وخلاف نأباهُ ...١٨٣

الفصل الرابع: فى سبيل الوحدة : هدية من تجاربنا ...١٨٩

الفصل الخامس: رحم الله امْرأً عَرَف قدرَ نفسه ...١٩٥

الفصل السادس: أُمة واحدة وثقافة واحدة ...١٩٩

الفصل السابع: وحدة المسلمين حول الثقافة الإسلامية ...٢٠٤

الفصل الثامن: فرصة سانحة ...٢٠٨

القسم الثانى: التراث والتقريب، أصالة وتجديد ...٢١٥

الفصل الأوّل: محنة التراث الخالد على أيدى أهل الجديد ...٢١٧

الفصل الثانى: ابن سينا : بين الفرس والعرب ...٢٢٢

القسم الثالث: مشاريع التقريب للعقل لا للعاطفة ...٢٢٧

للعقول وليس للعواطف ...٢٢٩

القسم الرابع: كتب فى ميزان التقريب، انتماء وأصالة ...٢٣٩

الفصل الأوّل: مقدّمة كتاب مجمع البيان لعلوم القرآن ...٢٤١

الفصل الثانى: مقدّمة كتاب المختصر النافع فى فقه الإمامية ...٢٤٩

كلمة عن المؤلّف ...٢٥٣

مصادر الأحكام عند الإمامية

...٢٥٩

الأوّل : الكتاب ...٢٥٩

الثانى : السنّة ...٢٦٠

الثالث : الإجماع ...٢٦١

الرابع : العقل أو الدلائل العقلية ...٢٦٢

الفصل الثالث: مقدّمة كتاب شرح اللمعة الدمشقية فى فقه الإمامية ...٢٦٥

القسم الخامس: رسائله الموجّهة، إخلاص ووفاء ...٢٧٧

الفصل الأوّل: رسالة موجّهة إلى الشيخ محمد متولّى الشعراوى وزير الأوقاف وشؤون الأزهر ...٢٧٩

الفصل الثانى: رسالة موجّهة إلى العالم الاسلامى...٢٨٣

القسم السادس: بعض مقابلاته ولقاءاته الصحفية، إيمان وصلابة ...٢٨٧

الفصل الأوّل: لقاؤه مع مجلّة روز اليوسف...٢٨٩

الإمام المراغى وفكر الشيعة ...٢٩٥

الفصل الثانى: لقاؤه مع صحيفة الأهرام ...٣٠٠

الفصل الثالث: لقاؤه مع صحيفة الأخبار ...٣٠٥

وكان ... ما كان...٣٠٧

القضايا ... المعاصرة ...٣٠٨

الباب ... المكسور!! ...٣٠٨

الشباب ... والقدوة ...٣٠٩

الفصل الرابع: لقاؤه مع صحيفة الأخبار...٣١٠

الفصل الخامس: لقاؤه مع صحيفة الإهرام ...٣١٦

ملاحق: فى طريق التقريب

ملحق رقم (١): وثائق تاريخية ...٣٢٣

البيان الأول لجماعة التقريب ...٣٢٥

مشروع علمى جليل بين شلتوت والقمى ...٣٣٥

ملحق رقم (٢): رسائل متبادلة ووثائق ...٣٣٩

رسائل متبادلة بين شيخين جليلين ...٣٤٣

حول تفسير مجمع البيان ...٣٤٦

بين شيخى السنّة والشيعة ...٣٤٧

ملحق رقم (٣): لقاءات وزيارات أخويّة بين علماء الأزهر الشريف وعلماء ايران ...٣٧٣

وفادة وضيافة ...٣٧٥

شيخ الأزهر الشريف ...٣٧٩

يزور الجامعة الإسلامية فى قم

المقدّسة ...٣٧٩
كلمة الأُستاذ الكبير الشيخ محمد جواد مغنية ...٣٨٠
كلمة مختصرة للدكتور الشرباصى ...٣٨٣
محاورة ودّية ...٣٨٣
جواب فضيلة الإمام الأكبر ...٣٨٤
فى المركز الإسلامى ...٣٨٥
خطاب الأستاذ الدكتور الشرباصى ...٣٨٩
الهدف من زيارة الإمام الأكبر لجامعة قم المقدّسة ...٣٩٣
وفد من علماء طهران يزور القاهرة ومشيخة الأزهر الشريف ...٣٩٧
ملحق رقم (٤): تقرير عن الندوة الأُولى للتقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة ...٣٩٩
تقرير عن: الندوة الأولى للتقريب بين المذاهب الاسلامية ...٤٠١
لقاءات مستمرّة فى القاهرة ...٤٠٩
ملحق رقم (٥): تقرير عن مؤتمر تكريم الإمامين البروجردى وشلتوت باشتراك علماء الأزهر الشريف وعلماء إيران سنة ١٤٢١ هـ فى طهران ...٤١٧
المقدمة ...٤٢١
رسالة الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية إلى السيد هادى الخسروشاهى ...٤٢٤
رسالة الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية إلى شيخ الأزهر الشريف ...٤٢٧
رسالة جوابية من شيخ الأزهر إلى الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية ...٤٢٩
بيان القائد آية الله السيد على الخامنئى ...٤٣١
أكبر وفد من الأزهر إلى إيران ...٤٣٣
ايران... شىء مختلف ...٤٣٥
التقريب بين المذاهب الإسلامية... دعوة إصلاحية ...٤٣٧
تلبية الدعوة ...٤٣٧
التقريب بين المذاهب ...٤٣٨
وصل ما انقطع ...٤٣٩
وفد يليق بمصر الأزهر ...٤٤٠
نتائج إيجابية قريباً ...٤٤٠
الصراحة والصدق والحوار العقلانى...٤٤١
لقاء تاريخى ورؤية واحدة ...٤٤٢
التوصيات ...٤٤٦
خلاف السنّة والشيعة مجرّد خلاف

قصة التقريب ٤٢١
فى الفرعيات ...٤٤٨
العلاقات بين مصر وايران ...٤٥٣
المؤلّف فى سطور ...٤٧٩

الفهارس

فهرس الأعلام ...٤٨٣
فهرس الأماكن ...٤٨٨
فهرس الموضوعات ...٤٩١